@ketab_n
Follow Me

29.1.2016

دوستويفسكي

الشّياطين

المجلّد الثاني

التنوير

ترجمة: د. سامي الدّروبي

دوستويفسكي

الشياطين

ترجمة: د. سامي الدروبي

المجلد الثاني

التنوير

دوستويفسكي

الشياطين

المجلد الثاني

الكتاب: الشياطين/ المجلد الثاني
المؤلف: دوستويفسكي
ترجمة: د. سامي الدروبي
عدد الصفحات: 416 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9938-886-53-5
رقم الناشر: 14/439-61

الطبعة الأولى: 2014

الناشر:

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340
بريد إلكتروني: beirut@dar-altanweer.com
مصر: القاهرة - وسط البلد - 8 شارع قصر النيل - الدور الأول - شقة 10
هاتف: 0020227738931 - 00201007332225
فاكس: 0020227738932
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

الفصل السابع
عند جماعتنا

1

إنّ الـدار التي يسـكنها فرجنسـكي في شـارع النملة تملكهـا زوجته. هي مبنى من خشب لا يشتمل إلّا على طابق واحد. فليس هناك مستأجرون. وقد دعا فرجنسكي نحو خمسة عشر شخصاً بحجة الحفلة. ولكن هذا الاجتماع لايشـبه في شـيء السهرات التي تقام في هذه المناسـبات بالأقاليم. لقد اتفق الزوجان مرة واحدة إلى الأبد، منذ بداية حياتهما الزوجية، على أن الاحتفال بأعيـاد الميلاد أمر سـخيف، "إذ لا شـيء يبعث على البهجة". وقد اسـتطاعا في بضع سـنين أن ينعزلا انعزالاً تاماً عن كل مجتمع. وأصبح الناس يعدّونه، رغـم أنـه رجل موهوب ورغم أنه ينعـم ببعض الثراء، أصبحـوا يعدّونه امرءاً شـاذاً يحـب العزلة، وقالـوا عنه، عـدا ذلك، إنه "يعبِّـر عن نفسـه بتكبر". أما السـيدة فرجنسـكي التي كانت تمارس مهنة التوليد، فإنها بسـبب هذه المهنة كانت توضع في أدنى درجات السلم الاجتماعي، رغم المنصب الذي يشغله زوجهـا فـي الإدارة. غير أنها كانـت لا تتصف بالمذلة التي تناسـب وضعها، وقد أصبحت سـيداتنا جميعهن منذ أن انعقدت تلك العلاقة الحمقاء النكراء بيـن السـيدة فرجنسـكي والكابتـن لبيادكيـن، وهـي علاقة حرصت السـيدة فرجنسـكي على أن تعلنها في كل مكان تقيداً بالمبدأ، أقول أصبحت سيداتنا جميعهن، حتى أكثرهن تسامحاً، يشحن عنها وجوههن ويدرن لها ظهورهن باحتقار واضح، غير أن السيدة فرجنسكي رضيت هذا كأنه هو بعينه ما كانت

تنشده وتسعى إليه. ومع ذلك كانت هذه السيدات القاسيات تستنجدن، في اللحظات الهامة، بآرينا بروخوروفنا (أي السيدة فرجنسكي)، ما وسعهن أن يفعلن هذا، ويؤثرنها على المولدات الثلاث الأخريات بالمدينة. وكانت نساء مالكي الأراضي في المنطقة تعتمدن على خدمات السيدة فرجنسكي في كثير من الأحيان أيضاً. فإلى هذا الحد كانت الثقة كبيرة بعلمها وحظّها في الحالات الصعبة. وقد أصبحت في النهاية لا تمارس المهنة إلّا من أجل الأثرياء، لأنها كانت تحب الربح حباً شديداً. وكانت تشعر شعوراً كاملاً بما لها من سلطان، فهي لا تتحرّج أي تحرج، وهي ترخي العنان لطبيعتها حراً طليقاً. فإذا كانت تقوم بواجبات مهنتها في أحسن البيوت، روَّعت النساء التي تولِّدهنّ، وربما روَّعتهن عن عمد، مظهرةً أشد الاحتقار للمواضعات الاجتماعية، أو مستهزئة "بأقدس" الأمور، وذلك حتى في اللحظة التي يمكن أن تكون فيها هذه "الأمور المقدسة" أنفع ما تكون. لقد روى أحد أطبائنا، وهو نفسه مولِّد، أن امرأة من النساء اللواتي تولِّدهن، جاءها المخاض يوماً، فكانت تعاني آلاماً شديدة، فذكرت اسم الله العلي القدير، فما كان من آرينا بروخوروفنا إلّا أن أطلقت مزحة متحلّلة على حين فجأة، فنزلت المزحة على المرأة المسكينة نزول الصاعقة، وأحدثت فيها من الروع والهول ما عجَّل خلاصها تعجيلاً كبيراً. على أن السيدة فرجنسكي، رغم أنها عدمية المذهب، تتقيد بأكثر العادات الاجتماعية بلَى حين يكون في ذلك نفع لها. من ذلك أنها لا تعفي نفسها أبداً من حضور حفلة تعميد الطفل الذي وُلّد على يديها، وهي ترتدي لهذه المناسبات ثوباً من حرير أخضر طويل الذيل، وتعقد شعرها في مؤخرة الرأس كعكةً معقدة ذات ضفائر وجدائل، بينما هي في العادة تستطيب إهمال هندامها. ومع أنها طوال مدة الاحتفال الديني تصطنع وضعاً وقحاً يستثير رجال الدين، فإنها متى انتهى الاحتفال الديني تحرص على أن تقدم الشمبانيا للمدعوين بنفسها (وهي لهذا الغرض إنما جاءت وتزينت)، وويلٌ لمن ينسى، حين يقبل الكأس، أن ينفح المولِّدة "بالهدية الصغيرة"...

إن المدعوين الذين كانوا في ذلك المساء عند فرجنسكي (وأكثرهم رجال) يتظاهرون بأنهم اجتمعوا عرضاً ومصادفة. لم يكن ثمة عشاء ولا موائد للعب. غير أن مائدتين مغطاتين بغطاء غير نظيف جداً كانتا قد ضُمّتا إحداهما إلى الأخرى في وسط الصالون المفروشة جدرانه بورق أزرق قديم، وعليهما سماوران يغلي ماؤهما إلى جانب صينية كبيرة محمَّلة خمساً وعشرين كأساً وسلةً ملأى بقطع من خبز أبيض كالذي يُقدَّم في المدارس الداخلية للبنات أو البنين. وكانت أخت ربة الدار هي التي تصبّ الشاي، وهي عانس في نحو الثلاثين من العمر ليس لها حاجبان، و شعرها مصفرُّ اللون، إنسانة صموت لا تتكلم، ولا تضمر لأحد حباً، تعتنق الأفكار الجديدة، ويخشاها فرجنسكي نفسه في سرِّه. لم يكن في الصالون من النساء إلّا ثلاث: السيدة فرجنسكي، أختها، و أخت السيد فرجنسكي التي وصلت من بطرسبرج منذ هنيهة ولم يتسع وقتها بعدُ حتى لتغيير ملابسها.

إن آرينا بروخوروفنا، المشعَّثة الشعر، التي ترتدي ثوباً من صوف ضارب اللون إلى الخضرة، سيدة مهيبة المظهر، غير دميمة، عمرها سبعة وعشرون عاماً. إنها تتأمل المدعوِّين بعينيها الجريئتين وكأن نظرتها تقول: "أترون؟ لست أخشى أحداً". أما الآنسة فرجنسكي، أخت السيدة فرجنسكي، وهي طالبة تؤمن بالمذهب العدمي، فإنها فتاة قصيرة سمينة حمراء الخدين ليست بالدميمة أيضاً. و لقد جلست إلى جانب آرينا بروخوروفنا، وجعلت تُجيل على الحضور نظرة قلقة نافذة الصبر، وفي يدها لفافة ورق. وكان فرجنسكي نفسه يعاني من ألم في ذلك المساء. ومع ذلك جلس على مقعد أمام المائدة. وكان جميع الحضور جالسين. فإذا نظر الناظر إلى الطريقة التي صُفَّت بها المقاعد أدرك أن الأمر أمر اجتماع (جلسة). و لكن كان واضحاً مع ذلك أن المجتمعين ينتظرون شيئاً ما، فهم من أجل مخادعة الانتظار إنما يسترسلون في محادثات صاخبة وإن تكن تافهة. حتى إذا دخل ستافروجين وفروخوفنسكي صمتوا جميعاً على حين فجأة.

ولكن يجب عليَّ أن أتوقّف هنا لأقدّم بعض الإيضاحات.

أظـن أن هـؤلاء الناس، وقد أُبلغوا من قبل، إنمـا اجتمعوا على أملٍ ممتع هو أن يعلموا ببعض الأمور الهامة. إنهم يمثلون زهرة الراديكالية الحمراء في مدينتنا القديمة، وقد كانت عناية فرجنسـكي باختيارهم لهذه "الجلسة" عناية كبيـرة. يجـب أن أقول أيضاً إن عدداً منهم (هو قلـة على كل حال) لم يكونوا قـد جاؤوا قبـل ذلك اليوم إلى عند فرجنسـكي. وكان واضحـاً أن أكثرهم لا يـدرك هدف الاجتمـاع إدراكاً واضحاً. غير أنهم جميعـاً ينظرون إلى بطرس ستيفانوفتش علـى أنـه رسـولٌ وفد من الخـارج مـزوَّداً بسـلطات كاملة. إن هـذه الفكـرة التي ترضـي غرورهم طبعاً كانت قد رسـخت في نفوسـهم منذ البداية. ومع ذلك كان بعضهم قد تلقى تعليمات محدَّدة من قبل. فإن بطرس ستيفانوفتش قد استطاع في الواقع أن يشـكِّل عندنا خلية من "خمسة"، على غـرار مـا فعل في موسـكو، وعلى غـرار ما فعل أيضـاً في جيـش إقليمنا كما عُلـم فيما بعد. ويظهر أنه أنشـأ خليـة رابعة في ولاية س... فهؤلاء الخمسـة "المختـارون" كانـوا يجلسـون في ذلك الاجتمـاع إلى المائدة المشـتركة، ويجيـدون اصطنـاع هيئة أناس عاديين فـلا يحزر المرء دورهـم. لقد عُرفت الآن أسـماؤهم فليسـت سـراً: إنهم ليبوتين، وفرجنسكي، وشـيجالوف (ذو الأذنين الطويلتين، وهو شـقيق السيدة فرجنسكي) وليامشين، ورجل يقال له تولكاتشـنكو، وهو إنسـان عجيب في نحو الأربعين من العمر يقال إنه يعرف الشـعب معرفـة رائعة، ولا سـيما قطاع الطريـق واللصـوص، ويواظب على التردد إلى الحانات (لا بهدف دراسة الشعب فقط) ويفتخر بملابسه الغليظة، وحذاءيـه المطليين بالقطـران، وهيئته الماكرة، وكلامه الشـعبي العامي. لقد سبق أن اصطحبه ليامشين في الماضي إلى سهرات ستيفان تروفيموفتش مرةً أو مرتيـن، فلـم يحدث فـي الحضور كبير أثـر. ولقد كان يعمل في السـكك الحديديـة، ويظهـر في مدينتنـا من حين إلى حين، حين يصبـح بغير عمل في العمادة. إن هؤلاء الأشـخاص الخمسة قد شـكلوا أول خلية، مقتنعين بأنهم ليسـوا إلّا خلية واحدة بين مئات الخلايا وألوف الخلايا المنتشـرة في روسيا كلهـا والمرتبطة جميعها بلجنة مركزية، قوية سـرية، مرتبطـة أوثق الارتباط،

أيضاً، بسائر الحركة الثورية في أوروبا. يجب عليَّ أن أعترف مع ذلك آسفاً بأن هناك خلافاً قد بدأ يظهر بينهم. لقد كانوا منذ الربيع يعوِّلون على وصول بطرس ستيفانوفتش الذي أبلغهم عن وصول تولكاتشنكو أولاً وشيجالوف بعد ذلك؛ ورغم أنهم توقعوا منه أشياء خارقة وانتظموا تلبيةً لأول نداء صدر عنه من دون أن يبدوا أي اعتراض، فإنهم ما إن تشكلت حلقتهم حتى شعروا جميعاً بأنهم قد أهينوا وأُسيء إليهم، وأغلب ظني أن مردَّ ذلك إلى شعورهم بأنهم تعجلوا في الموافقة. ولا شك أنهم إنما لبوا نداء فرخوفنسكي خشية أن لا يُتهموا بعد ذلك بأنهم جبنوا. ولكن في وسع بطرس ستيفانوفتش، في ما يبدو لهم، أن يعترف لهم ببطولتهم، فيفضي إليهم بسرٍ خطير ما. وذلك ما لم يفعله فرخوفنسكي. فإنه لم يخطر بباله أن يرضي رغبتهم المشروعة هذه في الاطلاع، فلم يفض إليهم بأي سر. وكان على وجه العموم يعاملهم بصرامة قصوى، بل يعاملهم معاملة لا تخلو من الاحتقار. فكان ذلك يثير حنقهم، حتى لقد كان شيجالوف يحض الآخرين على "المطالبة بإيضاحات". ولكن لا الآن طبعاً، لا عند فرجنسكي حيث يضم الحفل كثيراً من الغرباء.

وعلى ذكر "الغرباء" يجب أن أشير إلى فكرة تراودني، هي أن أعضاء الحلقة كانوا ميالين في ذلك المساء إلى الاعتقاد بأن مدعوي فرجنسكي لا بد أن يكون بينهم أفراد منضمون إلى حلقات أخرى مجهولةٍ عندهم لكنها تنتمي إلى نفس التنظيم وقد شكلها فرخوفنسكي أيضاً، بحيث إن جميع الحضور كان يشتبه بعضهم في بعض ويمثِّل بعضهم على بعض، وذلك أمر يضفي على الاجتماع طابعاً عجيباً، روائياً إن صح التعبير. على أن هناك أيضاً أشخاصاً لا يمكن الاشتباه فيهم. من ذلك أن ضابطاً برتبة ميجر، وهو قريب فرجنسكي، ولا شأن له بهذه الأمور البتة، ولا دُعي إلى الحفلة، كان جاء من تلقاء نفسه ليعبِّر للسيد فرجنسكي عن تمنياته بمناسبة عيد ميلاده. و كان يستحيل طبعاً أن يُرفض استقباله. ثم إن فرجنسكي لم يكن قلقاً من هذه الناحية، لأن الميجر "عاجز عن الوشاية"، ذلك أنه، رغم غبائه، كان طوال حياته يحب أن يتردّد على أشد البيئات الراديكالية تطرفاً، لا لأنه كان يشاركها

آراءها، بل لأنه كان يستمتع بالإصغاء إلى أحاديثها. ثم إنه هو نفسه قد تعرض للخطر. فحين كان شاباً، وقعت في يده حزمٌ من منشوراتٍ تحريضية، وأعدادٌ من جريدة "الناقوس"، فرأى أن من الجبن أن يرفض توزيعها، رغم أنه لم يجرؤ أن يفضها. إننا لا نزال نلقى في روسيا أناساً كثيرين من هذا النوع. و كان باقي المدعوين يمثِّلون إما نموذج الشخص الجريح الكرامة، الحانق الحاقد، وإما نموذج الشاب الذي تشتعل نفسه حماسة وسماحة. وكان هناك اثنان أو ثلاثة من أساتذة المدارس الثانوية، أحدهم أعرج في الخامسة والأربعين من العمر، وهو رجل شرِّير شديد الغرور، وكان هناك بضعة ضباط منهم واحد من سلاح المدفعية متخرج من المدرسة الحربية حديثاً، وهو فتى صموت كان لا يعرف بعدُ أحداً، و كان يمسك بيده قلماً، وما ينفك يدوِّن في دفتره من دون أن يشترك في الحديث. ولقد لاحظه الجميع، ولكنهم تظاهروا بأنهم لا يرون شيئاً، وكان بين الحضور أيضاً ذلك الطالب المتشرّد الذي ساعد ليامشين على دسِّ صورٍ خليعة في حِمْل بائعة الأناجيل المتجولة، وهو شاب مديد القامة ضخم الجسم، تتصف حركاته بقلة الاكتراث وشدة الحذر في آن واحد، وتتميز ابتسامته بالسخر دائماً، ويبدو عليه أنه واثق بنفسه كل الثقة، راضٍ عنها كل الرضى. و كان ابن عمدتنا حاضراً كذلك (وهو الفتى الفاسق الذي أتيح لي أن أتكلم عنه بمناسبة المغامرة التي وقعت لامرأة الليوتنانت الشابة)، ولا أدري لمَ كان حاضراً. إنه لم يفتح فمه بكلمة واحدة طوال السهرة. يجب أن أذكر أيضاً أن الحفل قد ضمَّ كذلك تلميذاً من تلاميذ المدارس الثانوية عمره ثمانية عشر عاماً، وهو ولد مشعث الهيئة شديد الحماسة مظلم الوجه كان يبدو عليه أنه يضيق ذرعاً بصغر سنه ويشعر من ذلك بجرح في كرامته. إن هذا الصبي هو منذ الآن زعيم جماعة من المتآمرين جنَّدهم من بين تلاميذ الصف الأعلى، كما عُلم ذلك في ما بعد على دهشة من الناس جميعاً. لم أقل حتى الآن شيئاً عن شاتوف: لقد كان جالساً على أحد أطراف المائدة، متقهقراً قليلاً عن الآخرين، مطرقاً إلى الأرض، صامتاً، مكفهر الوجه. وقد رفض الشاي

والخبز، ولم يترك قبعته لحظةً كأنما هو يريد أن يُظهر أنه إنما جاء لعمل، ولم يجئ مدعواً، وأنه سينصرف متى شاء. وغيرَ بعيد عنه كان يجلس كيريلوف. وكان صامتاً هو الآخر، ولكنه لم يكن خافض العينين. بالعكس: كان يجيل نظرته الثابتة الكابية بانتباه على كل من يأخذ زمام الكلام، ويصغي إلى جميع الناس من دون أية دهشة. وكان الذين لم يسبق أن رأوه ينظرون إليه خلسة شاردي اللب.

هل كانت السيدة فرجنسكي على علم بوجود "الخمسة"؟ لا أدري على وجه اليقين. ولكن من حق المرء أن يخمِّن أن زوجها قد أطلعها على كل شيء. أما الطالبة فكان واضحاً أنها لا تعرف السر. ثم إن لها مشاغلها الخاصة على كل حال: كانت لا تنوي أن تمكث عندنا إلّا يوماً أو يومين، لتطوف بعد ذلك على جميع المدن الجامعية "بغية أن تعرف عن كثب آلام الطلاب الأشقياء و أن تحضّهم على الاحتجاج". وهي تحمل عدة مئات من نسخ منشورٍ مطبوع على الحجر كانت قد كتبته هي نفسها في ما يخيَّل إليَّ. شيء غريب: إن التلميذ و الطالبة، رغم أنهما يلتقيان هنا أول مرة، قد شعر كل منهما نحو الآخر بكره فظيع. يحسن أن نشير إلى أن الميجر هو عمُّ الفتاة، وأنه يراها الآن عند آل فرجنسكي بعد فراقٍ دام عشر سنين. وحين دخل ستافروجين وفرخوفنسكي إلى الصالون كان خداها حمراوين كالجمر: ذلك أنها كانت قد تشاجرت منذ هنيهة مع عمها حول "قضية المرأة".

2

تهالك فرخوفنسكي على كرسي من الكراسي بإهمال ملحوظ، تقريباً من دون أن يحيي أحداً. كانت هيئته تعبر عن الاشمئزاز، وتكاد تعبر عن الاستعلاء. أما ستافروجين فقد سلَّم على الحفل بأدب. ولم يكن أحد غيرهما ينتظر، ومع ذلك اصطنع الجميع، بما يشبه التواطؤ والاتفاق، هيئة من لا يلاحظهما. وما إن جلس ستافروجين حتى سألته السيدة فرجنسكي بلهجة قاسية:

ـ ستافروجين، هل تريد شاياً؟
فأجاب ستافروجين قائلاً:
ـ أتمنى.
فأمرت السيدة فرجنسكي أختها بقولها:
ـ صُبِّي شاياً لستافروجين.
ثم اتجهت إلى فرخوفنسكي فسألته:
ـ وأنت هل تريد شاياً؟
فأجابها فرخوفنسكي:
ـ طبعاً. من يلقي على ضيوفه مثل هذه الأسئلة؟ واعطيني حلبياً أيضاً: فإن مذاق الشاي عندك كمذاق دواء، وأنتم تحتفلون اليوم بعيد ميلاد.
ـ ما هذا، أتراك من أنصار الاحتفال بالأعياد. لقد تناقشنا في هذا الأمر منذ برهة.
كذلك قالت الطالبة ضاحكة.
فدمدم التلميذ يقول في الطرف الآخر من المائدة:
ـ كلام قديم!
فانبرت الطالبة تردُّ عليه قائلةً وهي تضرب على كرسيها:
ـ كلام قديم؟ إن محاربة الأوهام الاجتماعية، حتى البريئة منها، لا يمكن أن تكون كلاماً قديماً بحال من الأحوال. بالعكس: هي جديدة دائماً بكل أسف.
ثم أضافت تقول مستدركة:
ـ هذا عدا أنه ليس هناك أوهام اجتماعية بريئة غير ضارة.
فصاح التلميذ يقول مضطرباً أشد الاضطراب:
ـ كل ما أردت أن أقوله هو أن الأوهام الاجتماعية أمور بالية تجب محاربتها طبعاً، ولكن في ما يتعلق بالأدعياء فإن جميع الناس يعرفون أنها سخافات تافهة، وأنه ليس يجدينا أن نضيِّع في الكلام عليها وقتاً ثميناً وما أكثر ما يبدده الناس كافة! فالأفضل أن ينفق المرء وقته في أمور نافعة..

هتفت الطالبة تقول:

- إنك تسهب في الكلام وتطنب، ولا يفهم المرء عنك شيئاً.

قال التلميذ:

- يخيَّل إليَّ أن من حق كل إنسان أن يتكلم، وإنني إذا أردت أن أعبِّر عن رأيي كما يعبر عن رأيه أي إنسان آخر...

فقاطعته ربة البيت قائلة على حين فجأة بشراسة:

- لا أحد يحرمك من حق الكلام. كل ما هنالك أنه يُطلب أن توجز، لأن أحداً لا يفهم عنك.

قال التلميذ مدمدماً وقد أوشك أن يهوي إلى قاع الكمد واليأس:

- اسمحي لي أن ألفت نظرك مع ذلك إلى أنك لا تعاملينني باحترامٍ كافٍ. وإذا لم أكمل عرض رأيي، فليس يرجع ذلك إلى أنني تعوزني الأفكار، وإنما يرجع إلى أنني أملك أفكاراً كثيرة، مسرفة في الكثرة.

ثم أمسك عن الكلام وقد ارتج عليه وارتبك أشد الارتباك.

قالت الطالبة:

- إذا كنت لا تحسن التعبير عما بنفسك فخير لك أن تصمت.

فوثب التلميذ عن كرسيه، وصاح يقول وقد أحمر خجلاً وخشي أن ينظر في ما حوله:

- أردت أن أقول أنك إنما حاولت أن تلمعي لأن السيد ستافروجين دخل. هذا ما أردت أن أقوله!

فهتفت الطالبة تقول:

- أفكارك وسخة، لا أخلاقية، تدل على ضحالة فكرك! أرجوك ألا توجِّه إليَّ الكلام بعد الآن.

قالت ربة الدار:

حين دخلت يا ستافروجين كان أحدهم ينادي بحقوق الأسرة: هو هذا الضابط الذي ترى (قالت ذلك وأشارت إلى قريبها الميجر). طبعاً، لست أنا من سأصدِّع رؤوسكم وأضجركم بهذه الترهات السخيفة التي سوِّي أمرها

منذ مدة طويلة. ولكن من أين نشأت هذه الحقوق العائلية وهذه الواجبات العائلية التي اتخذت صورة أوهام اجتماعية راهنة. هذا هو السؤال. ما رأيك؟

سألها ستافروجين:

ـ ماذا تعنين بقولك: "من أين نشأت؟".

فتدخلت الطالبة تقول وهي تلتهم ستافروجين بعينيها التهاماً إن صح التعبير:

ـ نحن نعلم مثلاً أن وهم وجود الله إنما نشأ عن الرعد والبرق. فمن المعروف أن الإنسان البدائي قد ارتاع من الرعد والبرق فعبد العدو الذي لا يُرى، شاعراً أمامه بضعفه. ولكن من أين نشأ وهم الأسرة؟ من أين نشأت الأسرة ذاتها؟

قالت السيدة فرجنسكي محاولةً وقف الطالبة عن الكلام:

ـ ليس هذا هو الأمر تماماً.

قال ستافروجين:

ـ أخشى أن يجيء الجواب على هذا السؤال خالياً من الحشمة.

فصاحت الطالبة متعجبةً و هي تثب عن كرسيها من جديد:

ـ كيف هذا؟

ـ ولكن ضحكات مخنوقة سُمعت آتيةً من جهة فئة الأساتذة، فسرعان ما استجاب لها بالضحك، على الطرف الآخر من المائدة، ليامشين والتلميذ والميجر ذو الصوت الجهير.

فقالت السيدة فرجنسكي لستافروجين معقبةً:

ـ عليك أن تؤلف تمثيليات هزلية.

وأعلنت الفتاة رأيها مستاءةً تقول:

ـ هذا لا يشرِّفك يا سيد... لا أدري ما اسمك...

فجمجم الميجر قائلاً:

ـ وأنت كفِّي عن التحرك والتململ. لكأنك قاعدة على إبرة...

ـ أرجوك أن تسكت و أن تعفيني من أمازيحك و تشبيهاتك الكريهة. إنني

أراك أول مرة، ولا أريد أن أعرف شيئاً عن قرابتنا.

ـ أنا عمك مع ذلك حملتك على ذراعي حين لم تكوني إلّا طفلةً صغيرة.

ـ لا يهمني أن تكون قد حملتني على ذراعيك. لم أطلب منك أن تحملني، وإذا كنت قد حملتني، أيها الضابط قليل الأدب، فلأنك كنت تجد في ذلك لذة لك. واسمح لي أن أنبِّهك إلى أنك لا يجوز لك أن تخاطبني بصيغة المفرد، اللهم إلّا من حيث أنني مواطنة؛ إنني أمنعك من ذلك مرةً واحدة إلى الأبد.

ـ قال الضابط لستافروجين وهو يضرب بقبضته المائدة:

ـ هن جميعاً كذلك! اسمح لي: إنني أحب اللبرالية وأحب جميع الأفكار الحديثة، وأصغي متلذذاً إلى الأفكار الذكية، ولكنني لا أستطيب هذا كله إلّا من الرجال. اعلمْ ذلك. أما من النساء، من هاته الشابات الثرثارات، فلا ثم لا... إن ذلك فوق طاقتي.

ثم قال للفتاة صارخاً وقد أصبحت لا تطيق الاستقرار في مكانها:

ـ لا تتحركي هذا التحرك كله! أنا أيضاً أطلب الكلام. لقد أُهنت!

دمدمت ربة الدار تقول مستاءة:

ـ إنك تمنع الآخرين من الكلام، وأنت نفسك لا تعرف أن تقول شيئاً.

فقال الميجر غاضباً حانقاً وهو يلتفت نحو ستافروجين:

ـ لا، سأقول كل ما في قلبي. إنني لم أشرف بمعرفتك يا سيد ستافروجين، ولكنني أتوجه بالكلام إليك لأنني آخر من دخل. لولا الرجال لهلكت هذه النسوة كالذباب. ذلك هو رأيي. وقضية المرأة كلها ما هي إلّا دليل جديد على نقص أصالتهن. أؤكد لك أن هذه القضية إنما اخترعها الرجال، حماقةً منهم، فجلبوا لأنفسهم الشقاء. الحمد لله على أنني لست متزوجاً! إنهن جميعاً متشابهات متماثلات، ولا يستطعن حتى أن يبتكرْنَ أعمال سيدات. فالرجال هم الذين يبتكرون لهن هذه الأعمال أيضاً. انظر إلى هذه! لقد حملتها على ذراعي. وحين كانت في العاشرة من العمر كنت أرقص معها المازوركا. وها هي ذي اليوم تصل، فأهرع طبعاً إلى تقبيلها، فإذا هي تعلن لي فوراً أن الله

غيـر موجود. كان في وسـعها أن تدع لي فسـحةً من الوقـت لأُقبِّلها. ولكنها لـم تفعل. كانت مسـتعجلة! صحيح أن النـاس الأذكياء أصبحـوا لا يؤمنون بوجـود الله، وذلك لأنهـم أذكياء. أما أنت، أيتها الحمقـاء الصغيرة، (كذلك قلتُ لها)، فماذا تعرفين عن الله؟ إن طالباً من الطلاب هو الذي بث فيك هذه العقيـدة. فلو علَّمك أن تشـعلي مصابيح أمام الأيقونات، لأشـعلت مصابيح أمام الأيقونات!

أجابـت الطالبـة باحتقار، كأنهـا تتواضع فترضى أن تناقش شـخصاً كهذا الشخص مدةً طويلة:

ـ أنت تكذب لا أكثر! وأنت رجل شرير! لقد عرفتُ كيف أبرهن لك منذ قليل على صحة أدلتي. قلت لك إنهم كانوا يعلموننا في دروس الدين ما يلي: "إذا كرَّمت أباك وأقرباءك، فسيوهب لك العمر المديد والثراء الطائل". هذا موجود في الوصايا العشـر. فإذا كان الله قد رأى أن من الضروري أن يكافئ علـى الحب، فمعنى ذلـك أن إلهك هذا غير أخلاقي. تلك هـي التعابير التي صغت بها برهاني. وأنا لم أسـق لك هذا البرهان منذ أول كلمة، وإنما سـقته بعـد أن زعمتَ أنك تؤكد حقوقك علـيَّ. فهل الذنب ذنبي إذا كنت أنت بليد العقل فلم تفهم شيئاً حتى الآن؟ إنك غاضب حانق، وهذه هي الحالة النفسية لجيلكم كله.

قال الميجر:

ـ حمقاء!

فقالت الفتاة:

ـ غبي!

قال الميجر:

ـ هكذا... اشتميني الآن!

قال ليبوتين بصوته الحاد الضئيل:

ـ اسـمح لـي يا كابيتون مكسـيموفتش: ألـم تعلن لي أنت نفسـك أنك لا تؤمن بالله؟

ـ ومـاذا يعني هذا؟ أنا، شـيء آخر!... ربما كنـت أؤمن، ولكنني لا أؤمن إيماناً كاملاً. ورغم أنني لا أؤمن إيماناً كاملاً فإنني لا أقول بأن علينا أن نطلق على الله رصاص البندقية! حين كنت ما أزال أخدم في سـلاح الفرسان، كان يتفـق لـي كثيـراً أن أفكِّر في الله. الشـعراء يسـلِّمون بأن الفرسـان لا يزيدون علـى أن يشـربوا ويلهـوا. و لقد كنت أشـرب فعـلاً. ولكن هـل تصدق؟ لقد كان يتفـق لي أن أثب عن سـريري كما أنا، فآخذ أرسـم إشـارة الصليب أمام الأيقونة، وأدعو الله أن يهب لي الإيمان. ذلك أنني حتى في ذلك الحين كان الهدوء لا يجد إلى نفسي سبيلاً، فأنا لا أنفك أتساءل: هل الله موجود أم غير موجـود؟ انظر إلـى أي حدٍ كان الأمـر يعذبني. وكنت في الصبـاح أعود إلى اللهـو والقصف طبعـاً، وكان إيماني يزول فيما يبـدو. وقد لاحظت على كل حال أن الإيمان يضعف في النهار بوجهٍ عام.

سأل فرخوفنسكي ربة الدار وهو يتثاءب:

ـ أليس عندكم ورق للعب؟

فهتفت الطالبة تقول وقد احمر وجهها استياءً من أقوال الميجر:

ـ إنني أؤيد سؤالك كل التأييد.

وقالت السيدة فرجنسكي بخشونة وهي تلقي على زوجها نظرة عتب:

ـ إننا نضيع وقتاً ثميناً في الاستماع إلى أحاديث سخيفة.

فقالت الطالبة وقد نفد صبرها:

ـ كنت أريد أن أشـارك في الجمعية التي تبحث آلام الطلبة واحتجاجهم. أما وأننا نضيع الوقت في أقوال لا أخلاقية...

فأسرع التلميذ يقول:

ـ لا شيء يوصف بأنه أخلاقي أو غير أخلاقي.

فقالت الطالبة:

ـ أعـرف هـذا كل المعرفة يـا حضرة التلميـذ، أعرفه قبـل أن يعلِّموك إياه بزمان طويل.

فأجاب الآخر غاضباً:

ـ وأنـا أؤكد أنك لسـت أكثـر من طفلة وصلت من بطرسـبرج لتلقي علينا دروساً، مع أننا نعرف هذه الأمور أحسن مما تعرفينها كثيراً. إن جميع الناس فـي روسـيا يعلمون منذ بيلنسـكي أن الوصيـة القائلة "كرِّم أبـاك وأمك" هي وصية لا أخلاقية. ولكنك لم تعرفي حتى كيف تردّدينها بنصِّها الصحيح.

سألت السيدة فرجنسكي زوجها حازمةً:

ـ أسوف ينتهي هذا؟

إنها بصفتها ربة الدار كانت تحمر خجلاً من تفاهة هذا الشجار، ولا سيما أنها كانت تلاحظ ابتسـامات و دهشة بعض الأشـخاص الذين يجيئون اليوم أول مرة.

قال فرجنسكي رافعاً صوته:

ـ يا سادة، إذا كان أحد منكم يريد أن يتكلم في موضوع أهم، أو كان لديه ما يقرأه لنا، فإنني أدعوه إلى البدء من دون إضاعة للوقت.

فتدخّـل الأسـتاذ الأعرج الذي ظـلّ إلى ذلك الحين صامتـاً ملتزماً وضع التحفظ، تدخّل فقال بصوت مترفق:

ـ اسـمحوا لي أن ألقي سـؤالاً: أنحن هنا في جلسـة، أم في اجتماع زيارة يضم عدداً من الناس لا أكثر؟ إنني ألقي هذا السـؤال من باب المحافظة على الشكل، وحتى لا أظل في شكٍ وحيرة من أمري.

فأحدث هذا السـؤال "الماكر" أثره: فنظر كل واحد إلى جيرانه كأنه ينتظر منهم جواباً، ثم إذا بجميع الأعين تتجه نحو فرخوفنسكي وستافروجين كأنما ذُكرت كلمة السر.

قال السيد فرجنسكي:

ـ أقترح إجراء تصويت لنعرف أنحن في جلسة أم لا؟

فتدخل ليبوتين فقال:

ـ أضم صوتي إلى هذا الاقتراح، رغم أنه غامضٌ قليلاً.

فانطلقت الأصوات من جميع الجهات تقول:

ـ وأنا أيضاً! وأنا أيضاً!

قال فرجنسكي مؤيداً:

ـ أعتقد فعلاً أن هذا سيدخل على حديثنا شيئاً من النظام.

قالت ربة الدار:

ـ فلنقترع. يا ليامشين اجلس إلى البيانو، أرجوك. في وسعك أن تقترع من هناك حين يجيء الأوان.

هتف ليامشين محتجاً:

ـ كيف؟ أيضاً؟ لقد اصطنعت دور العازف بما فيه الكافية.

ـ أرجو و ألحّ في الرجاء. اجلس و اعزف! أم تراك لا تريد أن تخدم "القضية"؟

ـ أؤكد لك أن أحداً لا يتجسس علينا يا آرينا بروخوروفنا. ذلك منك خيال محض. ثم إن النوافذ عاليةٌ جداً. وحتى لو سمعنا الناس فإنهم لن يفهموا شيئاً.

ـ جمجم أحدهم يقول:

ـ نحن أنفسنا لا نفهم، فكيف يفهم الآخرون؟

قالت آرينا بروخوروفنا تشرح لفرخوفنسكي:

ـ أقول لك إن الحذر لا يكون مفرطاً مهما يكن شديداً. أنا أتخذ هذا الاحتياط على أساس أن من الممكن أن يكون ثمة تجسسٌ علينا فإذا سمع الناس الموسيقى قالوا لأنفسهم أن عندنا حفلة.

قال ليامشين متبرماً:

ـ ليكن ما تريدين.

وجلس إلى البيانو وأخذ يعزف لحن فالس، ضارباً على أصابع البيانو ضربات قوية وكأنه أصم، جارياً في العزف على ما تشاء المصادفة تقريباً.

قالت السيدة فرجنسكي:

ـ الذين من رأيهم أن يكون الاجتماع "جلسة"، عليهم أن يرفعوا أيديهم.

فرفع بعضهم أيديهم، ولم يحرك بعضهم الآخر ساكناً، ورفع بعضٌ ثالث أيديه ثم خفضها ثم رفعها من جديد.

هتف أحد الضباط يقول:

ـ ما هذا؟ لم أفهم شيئاً!

وقال آخر:

ـ أنا أيضاً لم أفهم شيئاً!

وصرخ ثالثٌ قائلاً:

ـ أما أنا فقد فهمت. إذا كان الجواب "نعم"، تُرفع اليد.

ـ ولكن ما معنى "نعم"؟

ـ معناها أن رأيك أن يكون الاجتماع "جلسة".

ـ لا، أبداً، بالعكس!

قال التلميذ مخاطباً السيدة فرجنسكي:

ـ أنا اقترعت مؤيداً فكرة "الجلسة".

ـ فلماذا لم ترفع يدك إذاً؟

ـ لقد نظرت إليك، فرأيت أنك لم ترفعي يدك، فلم أرفع يدي أنا أيضاً.

ـ هذا غباء! أنا لم أرفع يدي لأنني كنت أتولى إجراء الاقتراع.

أيها السادة، سنجري الآن اقتراعاً على العكس: من كان رأيه أن يكون الاجتماع جلسة فليبق ساكناً ولا يرفعْ يده. ومن كان رأيه أن لا يكون الاجتماع جلسةً فليرفع يده اليمنى.

سأل التلميذ:

ـ من كان رأيه أن لا يكون الاجتماع جلسة؟

صرخت السيدة فرجنسكي تقول حانقةً:

ـ أتراك تفعل هذا متعمداً؟

ـ لا، من فضلك! من الذي يجب ألا يرفع يده؟ أهو الذي يريد أن يكون الاجتماع جلسةً أم هو الذي لا يريد ذلك؟ يجب توضيح هذا.

كذلك هتفت بضعة أصوات.

ـ من كان رأيه ألا يكون الاجتماع جلسة.

صرخ ضابط يسأل:

ـ طيب. فماذا يجب عليه أن يفعل؟ أيرفع يده أم لا يرفعها؟

قال الميجر:

ـ هئ هئ! إننا لمَّا نتعود على البرلمان بعد!

قال الأستاذ الأعرج:

يا سـيد ليامشـين، معذرة... إنك تحدث من الصخب ما يجعلنا عاجزين عن أن يسمع بعضنا بعضاً ويفهم بعضنا عن بعض.

هتف ليامشين يقول للسيدة فرجنسكي:

ـ أؤكد لك أنه ما من أحد ينصت على النوافذ يا آرينا بروخوروفنا. لا أريد أن أعزف. لقد جئت إليك زائراً لا ضارباً على البيانو!

قال فرجنسكي يسأل الحضور:

ـ أيها السادة أجيبوني ببساطة: أنحن في جلسة أم لا؟

فقالت الأصوات تجيبه من كل جانب:

ـ بلى! بلى!

ـ فإذا كان الأمر كذلك فلا داعي للاقتراع. أأنتم موافقون أيها السادة؟ هل يجب الاقتراع؟

ـ لا، لا داعي إلى الاقتراع، فهمنا!...

ـ هل لأحد رأي مخالف؟

ـ لا، الجميع متفقون!

هنا نادى صوت يقول:

ـ ولكن ما معنى أننا في جلسة؟

لم يجب أحد.

ـ يجب انتخاب رئيس.

ـ هو صاحب الدار طبعاً. هو مضيفنا!

فبدأ فرجنسكي يتكلم فقال:

ـ إذا كان الأمـر كذلك أيها السـادة فإنني أعـود إلى اقتراحي الذي عرضته منذ قليل: من كان عنده ما يقرأه لنا فليتكلم من دون إضاعة للوقت.

خيَّم صمت شامل. والتفتت الأنظار مرة أخرى نحو ستافروجين وفرخوفنسكي.

قالت السيدة فرجنسكي تسأل فرخوفنسكي:

ـ فرخوفنسكي، هل لديك ما تعلنه لنا؟

فأجاب بطرس ستيانوفتش فرخوفنسكي قائلاً وهو يتمطى ويتثاءب تثاؤباً ذا صوت:

ـ لا شيء البتة. و لكنني أريد كأساً من الكونياك.

ـ و أنت يا ستافروجين؟

ـ لا، شكراً، لا أشرب!

ـ أنا سألتك هل تريد أن تتكلم، ولم أسألك عن الكونياك!

ـ أتكلم؟ عمَّ؟ لا.

قالت تخاطب فرخوفنسكي:

ـ سيُؤتى بالكونياك.

نهضت الطالبة لتشرع في الكلام، ولم تكن قد انقطعت عن التحرك والاضطراب على كرسيها:

ـ لقد جئت لأتكلم عن آلام الطلاب التعساء وعن الوسائل التي يجب استعمالها لحملهم على القيام باحتجاج جماعي...

ولكنها لم تلبث أن توقّفت عن الكلام فجأة: فعلى الطرف الآخر من المائدة كان قد وقف منافسٌ سرعان ما جذب إليه جميع الأنظار. إنه شيجالوف المتجهّم المظلم الوجه، وقف ببطء، ووضع على المائدة، بحزن وأسى، دفتراً سميكاً مغطى بكتابة دقيقة. وظل واقفاً لا يتكلم. أخذ بعض الحضور يتأملون الدفتر متعجبين. ولكن ليبوتين وفرجنسكي والأستاذ الأعرج بدا عليهم الرضى الشديد.

قال شيجالوف بلهجة حزينة لكنها جازمة:

ـ أطلب الكلام.

فقال فرجنسكي:

ـ الكلام لك.

فعاد الخطيب يجلس، وانتظر لحظة، ثم شرع يتكلّم بفخامة فقال:

ـ أيها السادة!

ولكن أخت السيدة فرجنسكي قاطعته بخشونة إذ قالت تخاطب فرخوفنسكي:

ـ إليك الكونياك!

ووضعت أمام فرخوفنسكي، وهي تقلب شفتها احتقاراً، زجاجةً وقدحاً جاءته بهما من دون صينية ومن دون صحن.

فتوقف الخطيب عن الكلام بوقار. وصرخ فرخوفنسكي يقول له وهو يصب لنفسه الكونياك:

ـ لا عليك! أكملْ!...

ـ أيها السادة، إنني إذ أسأُلكم الانتباه، وإذ أسأُلكم أيضاً، كما سترون في ما بعد، أن تساهموا معي وأن تساعدوني في هذا العمل الذي له شأن كبير وله خطورة أساسية، يجب عليَّ أن أقدِّم لكم الإيضاحات التمهيدية.

قال بطرس ستيفانوفتش فجأة يسأل السيدة فرجنسكي:

ـ هل عندك مقص يا آرينا بروخوروفنا؟

فسألته هذه محملقةً:

مقص؟ ماذا تريد أن تعمل بالمقص؟

فقال و هو يتفرس بهدوء في أظافره الطويلة السوداء:

نسيت أن أقصَّ أظافري. كان عليَّ أن أقصَّها منذ ثلاثة أيام...

فاحمرت آرينا بروخوروفنا، ولكن الطالبة أعجبها عدم التحرج هذا الذي أظهره فرخوفنسكي، فقالت:

ـ أظن أنني رأيت المقص منذ لحظة على النافذة.

وقامت فجاءت بالمقص ومدَّته إلى فرخوفنسكي، فتناوله منها حتى من دون أن ينظر إليها، وأخذ يرقب بطرس ستيفانوفتش حاسداً كارهاً.

تابع شيجالوف كلامه فقال:

إنني وقد عكفت عكوفاً تاماً على دراسة تنظيم مجتمع المستقبل الذي يجب أن يحل محل مجتمعنا الحالي، وصلت إلى الاقتناع بأن جميع منشئي المذاهب الاجتماعية منذ أقدم العصور إلى أيامنا هذه، إنما كانوا أناساً حالمين ورواة حكايات خرافية، وحمقى، يناقضون أنفسهم ولا يفهمون شيئاً في مجال العلوم الطبيعية، ولا يعرفون شيئاً عن هذا الحيوان الذي يسمى الإنسان. إن أفلاطون وروسو وفوريِه ليسوا إلّا أعمدة من ألومنيوم. إنهم، في أكثر تقدير، يصلحون للعصافير لا للبشر، فلما كانت الأشكال الاجتماعية للمستقبل يجب تحديدها الآن تحديداً دقيقاً بعد أن قررنا جميعاً أن علينا أن ننتقل إلى الفعل بغير تردد، فإنني أعرض مذهبي في تنظيم العالم.

ثم نقر شيجالوف على دفتره وقال:

ـ ها هو ذا. لقد كنت أريد أن أعرض عليكم كتابي بأكبر إيجاز ممكن. لكنني أرى أن عليَّ أن أضيف إليه كثيراً من الإيضاحات الشفوية. لذلك سيحتاج عرضي إلى عشر سهرات على الأقل، تبعاً لعدد فصول الكتاب.

هنا سُمعت بضع ضحكات. و تابع شيجالوف كلامه يقول:

ـ يجب عليَّ، عدا ذلك، أن أنبهكم إلى أن مذهبي لم يكتمل اكتمالاً تاماً... (وهنا انطلقت ضحكات أخرى)... فلقد تهت في شعاب مقدماتي نفسها، وجاءت نتيجتي متناقضة تناقضاً مباشراً مع الفكرة الأساسية التي يقوم عليها المذهب. إنني وقد انطلقت من فكرة الحرية التي ليس لها حدود قد انتهيت إلى فكرة الاستبداد الذي ليس له حدود. ولكنني أضيف إلى ذلك أنه لا يمكن أن يكون هناك حل آخر للمشكلة الاجتماعية غير الحلْ الذي خلصت إليه.

ازدادت الضحكات. ولكن الشبان فقط هم الذين كانوا يضحكون، أعني الأغرار الذين ليس لهم سابق دراية إن صح التعبير. أما السيدة فرجنسكي وليبوتين والأستاذ الأعرج، فقد كانت وجوههم تعبِّر عن شيء من الأسف والغضب.

قال أحد الضباط يسأله محاذراً:

- إذا لم تستطع أنت نفسك أن تكمل مذهبك، وإذا كنت قد هويت من ذلك إلى اليأس، فماذا نستطيع أن نفعل نحن؟

فأجابه شيجالوف يقول بلهجةٍ قاطعة:

- إنك على حق أيها الضابط، ولا سيما باستعمالك كلمة اليأس هذه. نعم، لقد حوصرت باليأس. ومع ذلك يستحيل على المرء أن يقول شيئاً آخر غير الذي قلته في كتابي. ليس هناك أي مخرج غير هذا المخرج. لن يعثر أحد على غير هذا أبداً. لذلك أسارع فأدعو الحضور، من دون إضاعة للوقت، إلى سماع قراءة كتابي خلال عشر سهرات، وإلى أن يقولوا لي بعد ذلك رأيهم. فإذا رفضتم أن تصغوا إليَّ، فلا يبقى علينا بعد ذلك إلّا أن نفترق، فيعود الرجال إلى مكاتبهم، وتعود النساء إلى مطابخهن. لأنكم إذا نبذتم مذهبي فلن تجدوا حلاً آخر، لن تجدوا أي حل آخر. ستضيعون وقتكم، ثم تجدون أنفسكم مضطرين حتماً أن تعودوا إلى مذهبي.

أخذ الحضور يتحركون. وسألت بعض الأصوات: "أهو مجنون؟".

قال ليامشين ملخصاً:

- الموضوع إذًا هو على وجه الإجمال موضوع يأس شيجالوف: أيجب عليه أن ييأس أم لا؟

فقال التلميذ:

- إن يأس شيجالوف مسألة شخصية.

فانطلق ضابط يقول مرحاً:

- أقترح أن نجري اقتراعاً لنعرف هل ليأس شيجالوف قيمة عامة، وهل يستحق كتابه عناء الاستماع إليه!

فتدخل الأستاذ الأعرج فقال:

- ليس هذا هو الأمر...

إن للأستاذ الأعرج في العادة ابتسامةً خفيفة ساخرة، فلا يعرف المرء أهو مازح في كلامه أم هو جاد.

وتابع الأستاذ الأعرج يقول:

ـ لا يا سادة، ليس هذا هو الأمر. إن السيد شيجالوف قد أسرف في التفرغ لأداء مهمته، ثم هو عدا ذلك مسـرف في التواضع. إنني أعرف كتابه. إنه من أجل أن يحل المسـألة الاجتماعية حلاً نهائياً، يقترح تقسيم الإنسانية قسمين غير متساويين. فعُشْرٌ ينال الحرية المطلقة وينال سلطةً بغير حدود على تسعة الأعشـار الأخرى، و تسـعةُ أعشـار يجب عليهم أن يفقدوا شـخصيتهم وأن يصبحوا أشـبه بقطيع، فإذا ظلـوا خاضعين خضوعاً تاماً بغيـر حدود أمكنهم أن يصلوا شـيئاً فشيئاً بعد سلسلة من التحولات إلى حالة البراءة البدائية، إلى شـيء يشـبه جنة عدن الأولى، مع بقائهم مضطرين إلى العمل. والإجراءات التي ينادي بها المؤلف ليجرِّد تسـعة أعشـار الإنسانية من إرادتهم وليحوِّلهم إلى قطيع بواسـطة التربية، إنمـا هي إجراءات ممتازة إلى أبعـد الحدود. إنها قائمـة على حقائـق العلوم الطبيعية، وإنهـا لمنطقية تماماً. قد لا يسـلِّم المرء ببعض النتائج التي ينتهي إليها، ولكن من المستحيل على المرء أن ينكر ذكاء المؤلف وأن يجحد معارفه. وإنه لمن المؤسـف حقاً أن لا نسـتطيع، بسـبب الظـروف، أن نوافـق له على السـهرات العشـر التي يطلبها، وإلا لكنا سـمعنا كثيراً من الأمور الشائقة الهامة حتماً.

قالت السيدة فرجنسكي تسأل الأستاذ الأعرج بشيء من القلق:

ـ هـل يمكن أن تنظر نظرة جد إلى هـذا الرجل الذي لم يعرف ماذا يصنع بالإنسـانية فردَّ تسـعة أعشـارها إلى العبودية؟ إنني قد اشـتبهت في الأمر منذ مدةٍ طويلة.

فسألها الأعرج:

ـ أأخاك تعنين؟

ـ مرةً أخرى، روابط الدم! أأنت تسخر مني؟

قالت الطالبة مستاءةً:

ـ إنـه لجبن أن نعمل في سـبيل الأرسـتقراطيين وأن نخضـع لهم خضوع الآلهة!

قال شيجالوف يختم الكلام بلهجة السلطة:

ـ إن ما اقترحته ليس جبنًا، وإنما هو الجنة، الجنة الأرضية، ولا جنة سواها.

هتف ليامشين يقول:

ـ أما أنا فإنني إذا لم أعرف ماذا أصنع بتسعة أعشار الإنسانية، عمدت إلى نسفهم بدلاً من أن أنظم الجنة الأرضية، و لم أبق على قيد الحياة إلّا عدداً من الناس المتعلمين الذين سوف يعيشون في دعة وسلام وفقاً لمبادئ العلم.

قالت الفتاة محتجة:

ـ يجب أن يكون المرء مهرِّجاً حتى يقول هذا الكلام!

فهمست السيدة فرجنسكي تقول لها:

هو مهرِّجٌ فعلاً، ولكنه نافع.

وتدخل شيجالوف يقول متلفتاً نحو ليامشين بقوة:

ـ قد يكون هذا هو الحل الأمثل للمشكلة. إنك تجهل حتماً، يا سيدي المازح، إنك قد قلت الآن شيئاً عميقاً كل العمق، ولكن لما كانت فكرتك مستحيلة التحقيق تقريباً، فلا بد من الاكتفاء بالجنة الأرضية ما دام يجب أن نسميها بهذا الاسم.

فأفلت من لسان فرخوفنسكي قوله:

ما هذه السخافات!

لقد قال فرخوفنسكي هذا الكلام بما يشبه الغفلة، من دون أن يرفع رأسه، وكان لا يزال يقلِّم أظافره بكثير من عدم الاكتراث.

فسرعان ما تدخّل الأعرج، وكأنه كان لا ينتظر إلّا اللحظة المواتية ليهاجم بطرس ستيفانوفتش، تدخّل فقال:

ـ لماذا سخافات؟ صحيح أن حب شيجالوف للإنسانية فيه شيء من التعصب. ولكن تذكر أن فورييه، ولا سيما كابيه، وحتى برودون، كانوا أنصاراً لبعض الحلول الاستبدادية الشديدة، وكانوا يبدون من النظرة الأولى خياليين. بل لعل السيد شيجالوف أقرب منهم إلى التعقل والتروي. أؤكد لكم أنه يكاد يستحيل على المرء بعد قراءة كتابه ألّا يسلِّم ببعض أفكاره. إنه

ربما كان أقل ابتعاداً عن الواقعية من الآخرين؛ وتكاد جنته الأرضية أن تكون هي الجنة الحقيقية، الجنة التي يتوق إليها البشر بعد أن فقدوها، إذا صدق أن تلك الجنة قد وُجدت حقاً في يوم من الأيام.

جمجم فرخوفنسكي يقول مرةً أخرى:

- كنت أتنبأ فعلاً بأن أسمع كلاماً من هذا النوع.

قال الأعرج وقد ازداد غضبه استعاراً:

- اسمح لي! إن الكلام على تنظيم المجتمع المقبل والنقاش حوله يكادان أن يكونا الآن ضرورةً لجميع الناس الذين يفكرون. إن هرتسن لم يهتم طوال حياته إلّا بهذا. وأنا أعلم من مصدر ثقة أن بيلنسكي كان يقضي سهرات كاملة في المناقشة مع أصدقائه حول المسألة الاجتماعية محدِّداً أدق تفاصيل المجتمع المقبل.

قال الميجر:

- بل هناك أشخاص أصبحوا من ذلك مجانين!

وتشجع ليبوتين فتجرأ أن ينتقل إلى الهجوم فقال:

- حين يناقش المرء فإنه قد يصل إلى نتيجة ما، وهذا خير دائماً من أن يلتزم الصمت مصطنعاً وضع دكتاتور.

فقال فرخوفنسكي من دون اكتراث:

- أنا حين قلت: "هذه سخافات"، لم أقصد شيجالوف البتة.

ثم أضاف يقول وهو يرفع عينيه قليلاً:

- اسمعوا أيها السادة، في رأيي أنا أن جميع هذه الكتب، وفورييه، وكابيه، و"حق العمل"، وأفكار شيجالوف، في رأيي أن هذا كله يشبه ألوف الروايات التي تصدر كل يوم: تسلية فنية! وأنا أفهم أن تضجروا في هذه المدينة، فتأخذوا بتسويد ورق.

استأنف الأعرج كلامه فقال وهو يتحرك مضطرباً على كرسيه:

- من فضلك! ما نحن إلّا ريفيون فعلاً، ونحن إذًا نستحق الشفقة. ولكننا نعرف أنه لم يحدث بعد في هذا العالم شيء خطير كل الخطورة، فلا داعي

إذًا لأن نشكو الجهل وأن نرثو لحال أنفسنا. إن هناك منشورات من أصل أجنبي تدعونا أن نضم جهودنا لتحطيم كل شيء، إذ مهما نفعل في سبيل شفاء المجتمع، فلن نصل إلى شفائه يوماً، على حين أننا بقطع رقاب مائة مليون نبسِّط الموقف ونجعل اجتياز الهوة أضمن. هذه فكرة ممتازة حقاً، ولكنها لا تقل استحالة على التحقيق عن فكرة شيجالوف التي تعاملها بكل هذا الاحتقار.

أفلت لسان بطرس ستيفانوفتش فقال وهو يقرِّب الشمعة كأنه لا يشعر بالغلطة التي يرتكبها:

ـ هذا كله حسن جداً، ولكنني لم أجئ إلى هنا من أجل أن أناقش...

ـ إنه لما يدعو إلى الأسف، إلى الأسف الشديد، أنك لم تجئ إلى هنا من أجل أن تناقش. وإنها لخسارةٌ حقاً أن تكون الآن مستغرقاً هذا الاستغراق كله في العناية بزينتك!

ـ ما شأنك وزينتي؟

قال ليبوتين مجازفاً من جديد:

ـ إن تغيير العالم بقطع مائة مليون رقبة لا يقل صعوبة عن تغيير العالم بالدعاية. وقد تكون الطريقة الأولى أصعب، ولا سيما في روسيا.

وقال ضابط:

ـ إن جميع الآمال معقودة الآن على روسيا.

فأجاب الأعرج:

ـ نعم، يظهر أنهم يعقدون على روسيا آمالاً كبيرة. نحن نعلم أن إصبعاً سريةً قد أشارت إلى وطننا الحبيب وعدَّته أقدر جميع بلدان العالم على تحقيق هذا العمل العظيم. ولكن إليكم ما أريد أن ألفت إليه الانتباه: إذا حُلَّت المشكلة الاجتماعية تدريجياً بالدعاية، فإنني أظل أربح شيئاً ما: أربح أولاً إمكان التمتع بالثرثرة، وأربح ثانياً المكافأة التي تعطيني إياها الحكومة المقبلة اعترافاً بالخدمات التي أكون قد قدمتها للقضية الاجتماعية. أما إذا حُلَّت المشكلة حلاً فورياً، أي إذا قطعت مائة مليون رقبة، فما الذي يمكن

أن أربحه أنا؟ إن المرء حين يدعو إلى مثل هذه العقائد يعرِّض لسانه لخطر القطع.

قال فرخوفنسكي:

ـ سيقطع لسانك أنت حتماً.

ـ أرأيت إذًا؟ ولما كنت لا تستطيع، في أحسن الظروف، أن تفرغ من هذه المذبحة في أقل من خمسين سنة، أو في أقل من ثلاثين سنة، لأنك لن تذبح خرافاً، ولأن من الممكن أن لا تمكِّنك الضحايا من ذبحها، أفليس الأفضل إذًا أن يطوي المرء أمتعته وأن يهاجر إلى مكان بعيد في جزيرة هادئة فيقضي هناك بقية أيامه هادئاً؟ صدِّقني إذا قلت لك إن دعايتك هذه لن تزيد على أن تشجع الناس على المهاجرة.

قال الأعرج هذه الجملة الأخيرة وهو ينقر على الطاولة بإصبعه.

لقد انتصر. إنه أحد الرؤوس القوية في الإقليم. وكان ليبوتين يبتسم وقد بانت في وجهه معانٍ مفهومة. وكان فرجنسكي يبدو مصعوقاً. وكان الآخرون يتابعون المناقشة باهتمام شديد، ولا سيما السيدات والضباط. أدرك الجميع أن صاحب فكرة المائة مليون من الروس قد أُحرج وغُلب، فهم ينتظرون النهاية.

قال فرخوفنسكي مدمدماً بلهجة فيها مزيد من عدم الاكتراث، بل فيها كذلك شيء من الضجر:

ـ يجب أن أعترف بأنك قد قلت الآن فكرةً صحيحة، إن فكرة الهجرة فكرة ممتازة. ومع ذلك، رغم المحاذير الواضحة التي ذكرتها، فإن الجنود الذين يعتنقون عقيدتنا وينضمون إلى قضيتنا يزداد عددهم يوماً بعد يوم. وسوف نستغني عنك. إن الأمر أمر دينٍ جديد يجب أن يحل محل الدين القديم. إن الأمر أمر قضية خطيرة، لذلك يزداد عدد جنودنا. أما أنت فما عليك إلّا أن تهاجر. وأنا أنصحك بأن لا تهاجر إلى جزيرة هادئة من الجزر، بل إلى مدينة درسدن. أولاً لأن هذه المدينة لم تعرف الأوبئة يوماً، فأنت لا بد أن تخاف الموت حتماً من حيث أنك رجلٌ مثقف. وثانياً لأن مدينة درسدن ليست

بعيدة عن الحدود الروسية، فيسهل إرسال إيراداتك إليها من وطنك الحبيب. وثالثاً لأن هذه المدينة ملأى بما يسمى كنوز الفن، وأنت رجل فنان، لأنك كنت أستاذاً للأدب فيما أظن. ورابعاً وأخيراً لأن هذه المدينة صورة مصغَّرة عن سويسرا: فهذا يفيدك في استنزال الوحي الشعري، لأنك تنظم شعراً ولا شك. الخلاصة: كنز كبير في علبة صغيرة.

قامت حركات شتى. الضباط يضطربون على كراسيهم. لو انقضت دقيقة واحدة أخرى لأخذ الجميع يتكلمون في آن واحد معاً. ولكن الأعرج انقضَّ على الطُعْم. قال:

ـ لا، قد لا نترك "القضية" المشتركة!... سوف نرى..

فما أن سمع فرخوفنسكي منه هذا الكلام حتى قال يسأله فجأة:

ـ ماذا أتقبل أن تدخل في جماعتنا إذا أنا عرضت عليك ذلك؟

ووضع المقص على المائدة.

ارتعش الجميع. إن الشخص اللغز قد حسر القناع عن وجهه فجأة. حتى لقد جرؤ أن يذكر كلمة "جماعة".

أجاب الأعرج بشيء من الارتباك:

ـ إن كل من يعد نفسه رجلاً شريفاً لا يمكنه أن يتقاعس عن القيام بمهمته، ولكن...

قاطعه بطرس ستيفانوفتش قائلاً بلهجة صارمة:

ـ اسمح لي. دعنا الآن من "لكن". إنني أعلن لكم أيها السادة أنني أطالب بجواب واضح بيِّن. أنا أفهم تماماً أنني إذ جئت إلى هنا وإذ جمعتكم، قد أصبح لكم عليَّ حق تقديم إيضاحات (وهذا كشف آخر لم يكن متوقعاً)، ولكن يستحيل عليَّ أن أمدكم بإيضاحات وشروح ما جهلت حالتكم النفسية. إنني أترك جانباً الكلمات التي لا فائدة منها ولا طائل تحتها ـ ذلك أننا لا يمكن أن نتكلم ثلاثين سنة أخرى كما تمَّ حتى الآن طوال ثلاثين سنة ـ وأسألكم ماذا تُفضِّلون: أتفضِّلون الطريقة البطيئة، أي الروايات الاجتماعية وتنظيم مصائر الإنسانية على الورق لألف سنة قادمة، بينما الحكم

الاستبدادي يبتلع اللقمة السائغة التي تسقط في أفواهكم وتدعونها تفلت منكم، أم تفضِّلون حلاً سريعاً أياً كان هذا الحل، حلاً يفك أيديكم من وثاقها ويتيح للإنسانية أن تنظم نفسها بحرية كاملة، لا على الورق بل في الواقع؟ يصيح بعضهم قائلاً: "بل نريد قطع مائة مليون رقبة". إن هذا الكلام قد لا يكون إلّا مجازاً. ولكن هبوا أنه ليس مجازاً بل حقيقة. لماذا تخافون منه إذا كان الحكم الاستبدادي سيقضي، أثناء استغراقنا في الأحلام البطيئة التي ندونها على الورق، سيقضي لا على مائة مليون فحسب، بل على خمسمائة مليون؟ لاحظوا أيضاً أن المريض الذي ليس إلى شفائه من سبيل، لا يمكنكم أن تشفوه مهما تصفون له من وصفاتٍ طبية. ثم إنكم إذا تأخرتم تتيحون له أن تسري عدواه إلينا جميعاً، وأن يُجهز على القوى الفتية التي لا يزال في وسعنا أن نعتمد عليها، فيكون في هذا هلاكنا جميعاً. إنني أُسلِّم معكم بأن الاسترسال في أقوال لبرالية بليغة أمر ممتع جداً، على حين أن العمل فيه بعض المخاطر... ثم إنني لست خطيباً. فأنا إنما جئت هنا لأنقل إليكم بلاغاً، لذلك أطلب إلى حفلكم الكريم أن يقول بكل بساطة من دون تصويت ما الذي يسرُّه أكثر من سواه: أأن يتخبط في المستنقع بسرعة السلحفاة، أم أن يطوي الطريق طياً بسرعة السهم؟

هتف التلميذ يقول متحمساً:

- رأيي أن نطوي الطريق طياً بسرعة السهم.

وقال ليامشين:

- وأنا أيضاً.

وجمجم أحد الضباط:

- الاختيار واضح لا لبس فيه.

وكذلك قال ثانٍ فثالث.

والشيء الذي فاجأ الحضور خاصةً هو أن لدى فرخوفنسكي بلاغاً يجب أن ينقله، وأنه وعد بالكلام.

قال فرخوفنسكي وهو يجيل على الحفل بصره:

ـ أيها السادة، أرى أنكم جميعكم تقريباً من أنصار الحل الذي تنادي به المنشورات وتدعو إليه.

فصاحت أغلبية الأصوات تقول:

ـ نعم، جميعنا، جميعنا.

وتدخل الميجر فقال:

ـ أعترف لكم بأنني أميل إلى حلٍ أكثر إنسانية، ولكنني أنحاز إلى رأي المجموع.

وقال فرخوفنسكي يسأل الأعرج:

ـ يبدو أنك لا تعارض أنت أيضاً، هه؟

فأجاب الأعرج وقد احمرّ وجهه:

ـ ليس معنى هذا أنني... ولكن إذا انضممت إلى رأي المجموع فما ذلك إلّا لأنني لا أريد أن أحدث اضطراباً...

ـ هكذا أنتم جميعاً! إنكم مستعدون لأن تناقشوا وتجادلوا مدة ستة أشهر، ولكنكم تصوِّتون في النهاية كسائر الناس. أيها السادة، أأنتم جميعاً مستعدون حقاً؟ فكروا في الأمر!

(مستعدون لأي شيء؟ ـ سؤال غامض و لكنه جذاب إلى أقصى الحدود).

تعالت أصوات كثيرة تقول:

ـ طبعاً، جميعاً!

وكان الحضور من جهة أخرى ينظر بعضهم إلى بعض.

قال فرخوفنسكي:

ـ قد تستاؤون في المستقبل من أنكم تعجّلتم في الموافقة؟ هذا يحدث لكم في جميع الأحيان تقريباً.

اضطرب الحفل، بل اضطرب اضطراباً شديداً.

صاح الأعرج يقول بلهجة غاضبة:

ـ اسمح لي مع ذلك أن ألفت انتباهك إلى أن الأجوبة على أسئلة من هذا

النوع لا يمكن أن تكون إلّا شـرطية. لقد سـمعت جوابنـا، ولكنك قد ألقيت سؤالك بطريقة تبلغ من الغرابة...

ـ ما غرابتها؟

ـ ما هكذا تُلقى أسئلة كهذه الأسئلة.

ـ علمنـي إذًا كيف يجب إلقاؤها. على كل حال، كنتُ واثقاً أنك سـتكون أول نادم...

ـ لقـد انتزعت منـا موافقتنا على عمل فوري، ولكن مـا هي الحقوق التي لك علينا؟ أين سلطاتك الكاملة؟

ـ كان ينبغي أن تفكر في هذا قبل الآن! لماذا أسـرعت تجيب؟ أتوافق من أجل أن تتراجع على الفور!

ـ في رأيي أن الصراحة الطائشـة في سـؤالك تدل دلالة واضحة على أنك لا تملك سلطات كاملة ولا حقوقاً، وتدل على أنك لـم تشأ بطرح سؤالك إلّا إرضاء حب الاطلاع عندك.

هتف فرخوفنسكي يقول وكأنه قد تنبّه إلى الخطر:

ـ و لكن ما هي المسألة؟ ما هي المسألة؟

قال الأعرج:

أقول إن المرء حين يريد أن يضم أعضاء، إنما يفعل ذلك سـرًّا، ولا يفعله بحضور عشرين شخصاً لا يعرفهم.

كان الأعرج قد بلغ من الحنق حداً لا يسـتطيع معه أن يسـيطر على نفسه، وأن يكتم ما يدور في خاطره. فالتفت فرخوفنسـكي نحو الحفل وهو يتظاهر بقلقٍ شديد:

ـ أيها السادة، أرى من واجبي أن أعلن لكم إن هذا كله ليس إلّا سخافات، وأن حديثنـا قـد مضى بنا إلى أبعد مما نريد. وأنـا لـم أضمَّ بعدُ أعضاء، وليس لأحد حق في أن يقول إنني أهتم بهذا. نحن لا نزيد على أن نعلن آراءنا. أليس كذلك؟

ثـم أضاف يقول وهو يلتفت نحو الأعرج:

ـ لقد نبهتني إلى الخطر على كل حال. أنا لم أكن أتخيل أن الكلام هنا في أمور بريئة كل البراءة محظور إلّا على انفراد. أتراك تخشى وشاية؟ هل يمكن أن يكون بيننا جاسوس؟

هاج الحضور. وطفق الجميع يتكلّمون في آن واحد.

تابع فرخوفنسكي كلامه فقال:

ـ إذا كان الأمر كذلك أيها السادة، فالشخص الوحيد المعرَّض للخطر بينكم هو أنا. لذلك أطالبكم بأن تجيبوا عن سؤال سألقيه عليكم، إن كان ذلك يناسبكم طبعاً، فإنكم أحرار على كل حال:

ـ ما هو السؤال؟ ما هو السؤال؟

ـ هو سؤال سيبيِّن بوضوح هل علينا أن نكمل حديثنا. أم أن على كل واحد منا أن يتناول قبعته صامتاً ثم يمضي لشأنه.

ـ السؤال! السؤال!

ـ إذا علم أحدنا أن اغتيالاً سياسياً يُهيَّأ، فهل هو يشي بالمؤامرة متنبئاً بجميع النتائج، أم هو يبقى في بيته منتظراً الأحداث؟ إن الآراء قد تختلف. فالإجابة عن هذا السؤال ستبين لنا بوضوح هل يجب علينا أن نفترق أم يجب علينا أن نبقى معاً، لا في هذه السهرة وحدها بل بعدها أيضاً.

ثم قال فرخوفنسكي للأعرج:

ـ اسمح لي أن أخاطبك أنت أولَ من أخاطب.

ـ لماذا أنا بالذات؟

ـ لأنك أنت الذي بدأت. أرجوك، لا تتملّص. لن يفيد المكر في شيء. على كل حال، افعل ما تشاء، فأنت حر.

ـ معذرة، إن سؤالاً كهذا السؤال إهانة.

ـ أوضح مزيداً من الإيضاح، أرجوك.

قال الأعرج:

ـ أنا لم أكن شرطياً سرياً في يوم من الأيام.

ـ أوضح مزيداً من الإيضاح، من فضلك. لا تضيِّع وقتنا.

انشل الأعرج من فرط الغضب فلبث صامتاً، واكتفى بأن أخذ يرشق عدوَّه من تحت نظارتيه بنظرات مثقلة كرهاً و بغضاً.

ـ أنعم أم لا؟ أتشي أم لا تشي؟

كذلك صرخ فرخوفنسكي يسأله.

فصرخ الأعرج يقول بصوت أعلى أيضاً:

ـ لا أشي طبعاً.

وتعالت أصوات عدة تقول:

ـ ولا أحد يشي طبعاً.

وتابع فرخوفنسكي استجوابه، فقال يسأل الميجر:

ـ اسمح لي أن أسألك أنت يا حضرة الميجر: أتشي أم لا تشي؟

ـ لا، لا أشي.

ـ وإذا علمت أن رجلاً يستعد لأن يقتل أو يسرق رجلاً آخر، رجلاً عادياً، فأنت تنبِّه إلى الجريمة، أليس كذلك؟

ـ طبعاً، لأن الأمر هنا أمر شخصي وليس وشاية سياسية. أنا لم أكن من الشرطة السرية في يوم من الأيام.

وتعالت أصوات من جميع الجهات تهتف:

ـ ولا أحد كان من الشرطة السرية في يوم من الأيام. لا داعي إلى إلقاء مثل هذه الأسئلة. سيكون جواب الجميع واحداً. ليس ههنا جواسيس.

صاح الطالب يسأل:

ـ ولكن لماذا ينهض ذاك السيد؟

ـ هذا شاتوف. لماذا تنهض يا شاتوف؟

كذلك سألت السيدة فرجنسكي.

كان شاتوف قد نهض فعلاً على حين فجأة. إنه يحمل قبعته بيده، ويحدِّق إلى فرخوفنسكي. كان يبدو عليه أنه يريد أن يقول له شيئاً ما، ولكنه يتردّد وقد اصفرَّ لونه من شدة الغضب. ومع ذلك سيطر على نفسه وكظم غيظه واتجه نحو الباب صامتاً.

صرخ فرخوفنسكي يقول له بلهجة ملغزة:
ـ ما تفعله يلحق بك ضرراً يا شاتوف.
فأجابه شاتوف قائلاً:
ـ كما يلحق نفعاً بالجاسوس الوغد الذي هو أنت.
وخرج.
فتعالت الصرخات وصيحات التعجّب في كل جهة:
ـ تمت التجربة.
ـ وكانت نافعة.
ـ بعد فوات الأوان!
ـ من دعاه؟ كيف دخل إلى هنا؟ من هو؟ من شاتوف؟ أتراه يشي أم لا؟
قال أحدهم:
ـ لو كان خائناً لأظهر غير ما يبطن، ولكنه لم يعبأ بنا وخرج.
صاحت الطالبة:
وهذا ستافروجين ينهض. إنه هو أيضاً لم يجب عن السؤال!
كان ستافروجين قد نهض فعلاً، و كان كيريلوف قد اقتدى به على الطرف الآخر من المائدة.
قالت ربة الدار تخاطب ستافروجين بجفوة:
ـ اسمح لي يا سيد ستافروجين! نحن جميعاً قد أجبنا عن السؤال، وأنت تنصرف من دون أن تقول كلمة!
جمجم ستافروجين يقول:
ـ لا أرى ضرورةً للإجابة عن السؤال الذي يهمكم.
ـ ولكننا عرَّضنا أنفسنا للخطر، وأنت لم تعرِّض نفسك لشيء.
بهذا صاحت عدة أصوات.
أجاب ستافروجين ضاحكاً، ولكن عينيه كانتا تسطعان:
ـ فيم يعنيني أن تعرضوا أنفسكم للخطر؟
فهتفت أصوات كثيرة تقول متعجبة:

ـ كيف هذا؟

ونهض عدد من الحضور فجأة.

صرخ الأعرج يقول:

ـ اسمحوا لي أيها السادة، اسمحوا لي. إن فرخوفنسكي أيضاً لم يجب عن السؤال، وإنما اكتفى بإلقائه.

فأحدثت هذه الملاحظة أثراً خارقاً. نظر الجميع بعضهم إلى بعض. وانفجر ستافروجين ضاحكاً عند أنف الأعرج وخرج يتبعه كيريلوف. وهرع فرخوفنسكي وراءهما إلى حجرة المدخل.

ـ ماذا تفعل؟

كذلك تمتم يقول وهو يمسك يد ستافروجين ويشد عليها بكل ما أوتي من قوة. وتابع كلامه:

ـ اذهب إلى عند كيريلوف. وسألحق بكما. يجب أن أكلمك. لا بد أن أكلمك. لا غنى عن هذا.

أجابه ستافروجين بخشونة:

ـ لا لي أنا.

ـ بل لا غنى عنه لك أنت يا ستافروجين. سأشرح لك هذا في البيت.

كذلك قال كيريلوف متدخلاً في الأمر. وقال يطمئن فرخوفنسكي:

ـ سيصحبني إلى بيتي.

وخرجا.

الفصل الثامن
ابن القيصر. إيفان

كانت أول حركة قام بها بطرس ستيفانوفتش هي أنه عاد بأقصى سرعة إلى المدعوين ليهدئ النفوس، ولكن أغلب الظن أنه رأى أن ذلك لا يستحق العناء، لأنه ترك "الجلسة" بعد دقيقتين، وطار يلحق بستافروجين وكيريلوف. وفيما كان يركض تذكّر شارعاً صغيراً يمكن أن يوصله إلى عمارة فيليبوف بسرعة أكبر. فسلك ذلك الشارع غاطساً في الوحل حتى الركبتين، فإذا هو يصل إلى المنزل فعلاً في اللحظة التي كان فيها صاحباه يجتازان البوابة.

قال كيريلوف:

ـ كيف؟ أوصلت؟ حسن جداً. ادخل.

وقال ستافروجين سائلاً كيريلوف حين لمح في حجرة المدخل سماوراً يغلي فيه الماء:

ـ ألم تقل لنا إنك تعيش وحيداً؟

فأجاب كيريلوف يقول مدمدماً:

ـ سترى مع من أعيش.

وما إن دخلوا حتى أخرج فرخوفنسكي من جيبه الرسالة الغفل التي عهد بها إليه فون لمبكه، ووضعها على المائدة أمام ستافروجين. وجلس الثلاثة. فقرأ ستافروجين الرسالة صامتاً. ثم سأله:

ـ هيه، وبعد؟

فقال فرخوفنسكي:

ـ إن هذا الشـقي سـيفعل ما يكتبه. وما دام مرتبطاً بك فقل ما الذي يجب عليَّ أن أفعله. أؤكد لك أنه قد يذهب منذ الغد إلى فون لمبكه.

ـ فليذهب!

ـ كيف هذا؟ يمكننا أن نمنعه.

ـ أنـت مخطئ: إنه ليـس مرتبطاً بي. على كل حال، لا يهمني الأمر. إنه لا يستطيع شيئاً ضدي. وإنما هو يهددك أنت.

ـ وأنت أيضاً.

ـ لا أظن ذلك.

ـ ولكن الآخرين قد لا يوفرونك. كيف لا تفهم هذا؟ اسمع يا ستافروجين. إنك تتلاعب بالألفاظ. أيكون هذا من حرصك على المال؟

ـ هل الأمر أمر مال؟

ـ طبعـاً. يجـب دفع ألفيـن، أو ألف وخمسـمائة على الأقـل. أعطني هذا المبلغ غداً أو حتى اليوم، فأرحِّله في مساء الغد إلى بطرسبرج. ذلك ما يريده فـي حقيقة الأمـر. لاحظ أن من الممكن حتى ترحيل ماريـا تيموفئفنا معه إذا شئت.

لكأنـه كان طائـش اللب، فهو يتكلم مضطرباً من دون تفكير، وهو يرسـل أقـوالاً خطـرة مـن دون أن يتبصّـر بالعواقـب. وكان سـتافروجين يلاحظـه مدهوشاً.

قال ستافروجين:

ـ ليس هناك أي سبب يدعوني إلى ترحيل ماريا تيموفئفنا.

ـ وربما كنت لا تريد لها أن ترحل.

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وضحك ضحكةً ساخرة.

ـ ربما.

صرخ بطرس ستيفانوفتش يقول وقد نفد صبره واستعرّ حنقه:

ـ الخلاصة: أتعطي المال أم لا؟

فأجابه ستافروجين وهو يتأمله مظلم الوجه:

ـ لا، لن أعطيه!

ـ إيه ستافروجين! إما أنك تعلم شيئاً ما، وإما أنك فعلت شيئاً ما! إنك... تمزح!

قال فرخوفنسكي ذلك وتقبّض وجهه، وارتعش طرفا شفتيه، ثم إذا هو ينفجر ضاحكاً ضحكةً غريبة على حين فجأة.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين بهدوء:

ـ لقد قبضتَ من أبيك المال المتأتي عن بيع أرضك. دفعت لك أمي عن ستيفان تروفيموفتش مبلغ ستة آلاف أو ثمانية آلاف روبل. ففي وسعك إذًا أن تدفع ألفاً و خمسمائة روبل من هذا المبلغ. كفاني ما دفعته حتى الآن من مال في سبيل الآخرين. ما أكثر ما أعطيت ذات اليمين وذات الشمال! هذا مزعجٌ أخيراً..

قال ستافروجين ذلك ثم ابتسم من أقواله نفسها.

ـ !... إنك تمزح الآن!...

نهض ستافروجين. سرعان ما وثب فرخوفنسكي عن كرسيه، وأسند ظهره إلى الباب بحركة آلية كأنه يريد أن يمنع ستافروجين من الخروج. وفيما كان نيقولاي فسيفولودوفتش يرفع ذراعه لينّحيه ويخرج، إذا هو يعدل على حين فجأة، ويقول:

ـ لن أدع لك شاتوف.

فارتعش بطرس ستيفانوفتش. وحدَّق كل من الرجلين إلى عيني صاحبه.

وعاد ستافروجين يتكلم فقال:

ـ ذكرتُ لك منذ قليل لماذا أنت في حاجة إلى دم شاتوف. إنك تريد أن تستخدم دم شاتوف في ترسيخ الرابطة التي تشد جماعتك بعضها إلى بعض. لقد حملته على الانصراف، بحذق وبراعة. كنت تعلم أنه سوف يرفض أن يقول: "لن أشي"، وأنه يجد أن الكذب عليك جبن منه وعار. ولكن أنا، ما حاجتك إليَّ أنا الآن؟ إنك تلاحقني منذ لقائنا في الخارج. والشروح التي قدمتها لي في هذا الشأن حتى الآن ليست إلّا هذيانًا محمومًا. ومع ذلك

تحضنـي علـى أن أعطـي لبيادكيـن ألفاً وخمسـمائة روبل من أجـل أن يدفع فـدكا إلى قتله. إنني أعرف: أنت تظن أننـي أريد أن أدفع إلى قتل زوجتي في هذه المناسـبة نفسـها. وتتخيل أنك بهذه الجريمة تمسـك بي وتسيطر علي، أليس هذا صحيحاً؟ ولكن فيم تفيدك هذه السـلطة؟ فيم يمكنني أن أنفعك؟ أعود فأقول لك مرة أخرى: أنعم النظر إليَّ، واعرف أنني لسـت الرجل الذي تنشده، ودعني وشأني!

سأله فرخوفنسكي لاهثاً:

ـ هل جاء إليك فدكا؟

ـ نعم، جاء. والسعر الذي يطلبه هو أيضاً ألفًا و خمسمائة روبل. على كل حال، سوف يؤكد لك هذا بنفسه. ها هو ذا!

قال ستافروجين ماداً ذراعه.

فالتفت بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي فجأة: إن شخصاً جديداً يخرج مـن الظـل ويقف على العتبة: إنه فدكا وقد ارتدى معطفاً قصيراً، لكنه حاسـر الرأس كأنه في بيته. كان يبتسم، كاشفاً عن أسنانه البيضاء المنضودة. إن عينيه السـوداوين اللتين تلتمعان التماعاً ضارباً إلى صفرة تتفحّصان وجوه الشـبان الثلاثـة بحذر. لم يكن يدرك مـا يجري، ولـم يعزم أمره على الدخول. واضح أن كيريلـوف هـو الذي جـاء به. وعلـى كيريلوف إنمـا تلبثت نظرته السـائلة أخيراً.

قال ستافروجين:

ـ لا شـك أنك اسـتقدمته إلى هنا ليشهد الصفقة، وربما ليرى أن المال قد أصبح بين يديك منذ الآن، أليس كذلك؟

ومـن دون أن ينتظـر جوابـاً، أسـرع سـتافروجين يخرج متعجـلاً. فخرج فرخوفنسكي عن طوره، وهرع يدركه تحت البوابة.

صاح فرخوفنسكي يقول وهو يمسك ستافروجين من كوعه:

ـ قف! لا تخط خطوة واحدة أخرى.

حاول سـتافروجين أن يتخلّـص بحركة مفاجئة، ولكنه لم يسـتطع ذلك.

فثار غضبه فأمسك بيده اليسرى شعر فرخوفنسكي، وقلبه على الأرض بكل ما أوتي من قوة، واجتاز الباب. ولكنه ما إن قطع ثلاثين خطوة حتى كان فرخوفنسكي قد أدركه مرة أخرى.

ودمدم فرخوفنسكي يقول بصوت متقطع:

ـ لنتصالح! لنتصالح!

فرفع نيقولاي فسيفولودوفتش منكبيه، و ظل سائراً في طريقه من دون أن يلتفت.

ـ اسمع، سأجيئك بليزافتا نيقولايفنا منذ الغد، هل تريد؟ لا؟ لماذا لا تجيب؟ قل ما تشاء فأنفِّذ. اسمع، سأترك لك شاتوف، هل تريد؟

ـ هو إذاً صحيح أنك كنت قد قررت قتله؟

كذلك صرخ ستافروجين.

فعاد فرخوفنسكي يتكلم فقال متعجلاً:

ـ ولكن ما حاجتك إلى شاتوف؟

كان صوته يختنق في حلقه. وكان في جريه إلى جانب ستافروجين لا ينفك يشده في كل لحظة من كمه، وربما من دون أن يشعر بذلك.

ـ اسمع، سأتركه لك، فلنتصالح. حسابك مثقل... ولكن فلنتصالح!

وأخيراً نظر إليه ستافروجين فدُهش: ليس هذا الصوت صوتَه نفسه، وليست هذه النظرة نظرته نفسها التي كانت له منذ قليل عند كيريلوف. إن أمام نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين الآن شخصاً آخر. اللهجة مختلفة: إن فرخوفنسكي يتوسّل الآن و يضرع و يبتهل، زائغ الهيئة تماماً، كرجل يُسلب أعزُّ ما يملك أو سُلب أعزَّ ما يملك.

هتف ستافروجين يسأله:

ـ ما بك؟

ولكن فرخوفنسكي لم يجب، فهو لا يزال يركض بقربه ويحدِّق إليه بنظرة ضارعة متوسلة لا تنثني.

دمدم يقول مرة أخرى:

ـ فلنتصافح. اسمع! أنا أيضاً عندي تحت الجزمة سكين، مثل فدكا تماماً. ولكنني أريد أن نتصالح.

فصاح ستافروجين يقول غاضباً، و لكن على دهشة:

ـ ماذا تريد مني أخيراً؟ اذهب إلى الشيطان! ما هذا السر؟ أأنا لك تميمة؟

همس فرخوفنسكي يقول:

ـ اسمع! سوف نثير روسيا، سوف نحدث ثورة في روسيا....

كان كمن يهذي. وتابع كلامه:

ـ ألا تعتقد أننا نستطيع فعل هذا؟ سوف نحدث من الاضطرابات والزلازل ما يجعل كل شيء ينهار. إن كارمازينوف على حق: أصبح المرء لا يستطيع أن يتشبّث بأي شيء. كارمازينوف ذكي جداً. عشر حلقات أخرى كهذه في روسيا، ثم يصبح القبض عليَّ مستحيلاً.

فقال ستافروجين رغم إرادته:

ـ حلقات مؤلفة من أغبياء كهؤلاء؟

ـ أوه! كن أكثر غباءً يا ستافروجين! كن أنت نفسك أكثر غباءً! على كل حال، لا داعي لأن يتمنى لك المرء ذلك: فما أنت بالذكي جداً. ولكنك خائف، لا تملك الإيمان. أبعاد الأمر ترعبك. ضخامة المهمة تبث في نفسك الهلع. ولماذا تعدهم أغبياء؟ ليسوا أغبياء إلى هذا الحد: ما من أحد يملك اليوم تفكيراً خاصاً به. العقول الأصلية المستقلة نادرة جداً في هذا الزمان. فرجنسكي إنسان نقي جداً، أنقى عشر مرات من أناس مثلك ومثلي. ما قيمة هذا على كل حال؟ أما ليبوتين فهو وغد. لكنني أعرف نقطة الضعف فيه. ما من وغد إلّا فيه نقطة ضعف. ولكنني ممسك به. بضع حلقات أخرى كهذه الحلقة، ثم يصبح تحت تصرفي في كل مكان جوازات سفر، ومال. هذا وحده شيء كثير. ليس هذا بالقليل. ويصبح لي مخابئ مضمونة آوي إليها. فإذا وضعوا أيديهم على إحدى الحلقات، فاتتهم الحلقات الأخرى. ستحدث اضطرابات، وثورات... هل يمكن ألا تصدِّق أننا نستطيع نحن الاثنان كلَّ شيء؟

ـ خذ شيجالوف، ودعني وشأني!...

ـ شيجالوف رجل عبقري. هل تعرف أنه عبقري من مستوى فورييه، ولكنه أجرأ من فورييه، وأقوى من فورييه؟ سوف أهتم به. لقد اخترع "المساواة".

قال ستافروجين لنفسه وهو يتفرس في فرخوفنسكي من جديد: "إنه محموم. إنه يهذي". واستمرا يسيران جنباً إلى جنب.

وعاد فرخوفنسكي يتكلّم فقال:

ـ مشروعه عظيم. إنه يخلق التجسس. جميع أعضاء المجتمع في مشروعه يتجسس بعضهم على بعض، وعليهم أن ينقلوا كل ما يصل إلى علمهم. كل واحد ينتمي إلى الجميع، والجميع ينتمون إلى كل واحد. كل البشر عبيد ومتساوون في العبودية. وفي الحالات القصوى يُلجأ إلى الافتراء و إلى القتل. وليس الشيء الرئيسي هو أنهم جميعاً متساوون. قبل كل شيء، يجب خفض مستوى التعليم والعلوم والمواهب. إن المستوى العالي لا يصل إليه إلّا أصحاب المواهبُ. إذًا فلا مواهب. إن أصحاب المواهب يستولون دائماً على السلطة و يصبحون طغاةً مستبدين. ليس في وسعهم أن يفعلوا غير ذلك. ولقد أساؤوا دائماً أكثر مما أحسنوا. فيجب إلغاؤهم أو إنزال عقوبة الموت فيهم. شيشرون سيُقطع لسانه. كوبرنيك ستُفقأ عيناه. شكسبير سيُرجم بالحجارة. هذا هو مذهب شيجالوف. هذه هي الشيجالوفية! يجب على العبيد أن يكونوا متساوين. من دون استبداد لم توجد في يوم من الأيام لا حرية ولا مساواة. ويجب أن تعمَّ مساواة القطيع. هذه هي الشيجالوفية. هأهأهأ!... أيدهشك هذا؟ أنا من أنصار شيجالوف.

كان ستافروجين يُغذ الخطى ليصل إلى بيته بأقصى سرعة. قال يحدّث نفسه: "إذا كان هذا الرجل سكران، فأين أمكنه أن يسكر؟ أيكون الكونياك الذي شربه منذ قليل هو الذي أسكره؟".

ـ اسمع يا ستافروجين! إن توطئة الجبال فكرة ممتازة. ليست هذه الفكرة سخيفة مضحكة. أنا من رأي شيجالوف. لا حاجة إلى التعليم. كفى علماً! حتى من دون علم تكفينا الموارد التي نملكها الآن ألف سنة أخرى. ولكن

علينا أن نقيم الطاعة. الشيء الوحيد الذي يفتقر إليه العالم إنما هو الطاعة. إن الظمأ إلى التعليم قد أصبح منذ الآن ظمأً أرستقراطياً. وما إن تُمكِّن الأسرة أو الحب من القيام حتى تنشأ الرغبة في التملك على الفور. سوف نقتل هذه الرغبة: سوف ننمي الإدمان على السكر، سوف نغذي الافتراء و التحريض، والسعاية و النميمة. سوف نغرق البشر في فجور لا عهد بمثله من قبل، سوف نقتل كل عبقرية قبل أن تولد. سوف يكون جميع الناس متساوين: مساواةً مطلقة. "نحن نعرف مهنتنا و نحن أناس شرفاء، ذلك كل ما نحتاج إليه". هذه هي الإجابة التي أجاب بها العمال الإنجليز في الآونة الأخيرة. الضروري وحده ضروري. ذلك هو الشعار الذي يجب أن ترفعه الإنسانية بعد الآن. ولكن سوف يجب علينا أن نمنحها من حين إلى حين بعض الانتفاضات نوفِّرها لهم نحن القادة. إن العبيد يجب أن يكون لهم سادة. طاعة كاملة، امّحاء للشخصية مطلق. ولكن شيجالوف يسمح بالانتفاضات، مرةً كل ثلاثين سنة. وعندئذ يهجم الجميع على الجميع ويلتهم بعضهم بعضاً، ولكن إلى حد، للتغلب على الضجر فحسب. الضجر شعور أرستقراطي. إن مجتمع شيجالوف لن يعرف الرغبات. لنا نحن الرغبة والألم. أما العبيد فلهم الشيجالوفية.

ـ أتستثني نفسك؟

ـ وأستثنيك أيضاً. هل تعلم أنني فكرت في أن أترك العالم للبابا. فليخرج حافي القدمين، وليظهر للشعب قائلاً: "انظروا كيف صيَّروني". فإذا الجميع يتبعونه، حتى الجيش. البابا في القمة، ونحن حوله، وتحتنا الجماهير الخاضعة لنظام شيجالوف. وإنما ينبغي فقط أن يقوم اتفاق بين الأممية والبابا. وسيحدث هذا. سيوافق العجوز فوراً. ماذا بقي له أن يفعل غير هذا؟ تذكّر كلماتي. هأهاها!... أهذا غباء شديد؟... قل لي أهذا غباء؟ أهو غباء أم لا؟...

دمدم ستافروجين يقول غاضباً:

ـ كفى!

ـ كفى! اسمع. لقد عدلت عن البابا. ليذهب شيجالوف إلى الشيطان! وليذهب البابا إلى الشيطان! نحن في حاجة إلى شيء راهن، شيء يمكن أن يلهب النفوس. أما أفكار شيجالوف فهي مسرفة في الرهافة والتعقيد. هي مثل أعلى ينتمي إلى المستقبل. إن شيجالوف صائغ مجوهرات. وهو غبي ككل محب للبشر. لا بد لنا من الاندفاع في أعمال ضخمة، وشيجالوف يحتقر هذا النوع من الأعمال. اسمع: في الغرب سيكون البابا، وعندنا... ستكون أنت!

غمغم ستافروجين يقول وهو يسرع في خطاه مزيداً من الإسراع:

ـ دعني وشأني. أنت سكران!

فصاح بطرس ستيفانوفتش يقول كأنه في نشوة:

ـ ستافروجين. إنك جميل! وأثمن ما فيك هو أنك يتفق لك أحياناً أن تجهل ذلك. آه... لقد درستك دراسة عميقة! إنني كثيراً ما أنظر إليك خلسةً. بل إن فيك شيئاً من البراءة أيضاً. شيئاً من السذاجة، هل تعرف هذا؟ نعم، إن فيك هذا. لا بد أنك تتألم من هذه السذاجة، لا بد أنك تتألم منها صادقاً. إنني أحب الجمال. صحيح أنني عدمي، ولكنني أحب الجمال. هل العدميون لا يحبون الجمال؟ إن العدميين لا يحبون الأصنام المعبودة. أم أنا فأحب الأصنام المعبودة. أنت معبودي! إنك لا تسيء إلى أحد، ومع ذلك يكرهك جميع الناس. أنت تعامل الناس معاملة أندادٍ مساوين لك، ومع ذلك فإنهم يخافون منك. هذا حسنٌ جداً. لا أحد سيجيء يربت على كتفك. إنك أرستقراطي، والأرستقراطي الذي يجيء إلى الديمقراطية يسحر العقول ويأسر النفوس إلى أقصى حد. ليس يكلفك شيئاً أن تضحى حياتك أو حياة إنسان آخر. أنت من نحن في حاجة إليه. أنت من أنا في حاجة إليه. ولا أعرف شخصاً آخر مثلك. أنت الزعيم، أنت الشمس، أما أنا فلست إلّا دودة من دود الأرض...

قال فرخوفنسكي ذلك ثم تناول يد ستافروجين فجأة وقبَّلها. ارتعش نيقولاي فسيفولودوفتش. وبحركة عنيفة سحب يده. ووقف الاثنان كلاهما.

دمدم ستافروجين يقول لصاحبه:

ـ أنت مجنون

فأسرع بطرس ستيفانوفتش يستأنف كلامه فقال:

ربما كنت أهذي. نعم، ربما... لكنني أنا الذي اكتشفت بأي شيء يجب البدء. هذه فكرة ما كنت لتخطر ببال شيجالوف في يوم من الأيام. أمثال شيجالوف كثيرون جداً! لكن رجلاً واحداً في روسيا عرف ما هي الخطوة الأولى التي يجب القيام بها، وعرف كيف يجب القيام بها. هذا الرجل هو أنا. ما بالك تنظر إليَّ هكذا؟ أنا في حاجةٍ إليك. أنا لا غنى لي عنك. أنا بدونك صفر. لست بدونك إلّا ذبابة، إلّا فكرة في قمقم، إلّا كولومب بغير أمريكا!...

كان ستافروجين لا يزال ساكناً جامداً يتأمله بانتباه محاولاً أن يقرأ في عينيه المجنونتين.

وتابع فرخوفنسكي كلامه فقال بصوت لاهث متعجل، وهو يشد ستافروجين من كمِّ معطفه في كل لحظة:

ـ اسمع، سنبدأ بأن نثير اضطرابات. سبق أن قلت لك ذلك. سوف نتسلل إلى أعماق الشعب. هل تعرف أننا أقوياء قوة رهيبة منذ الآن؟ إن الذين يعملون من أجلنا ليسوا فقط أولئك الذين يقتلون ويشعلون الحرائق ويستعملون المسدس بالطريقة الكلاسيكية وأولئك المسعورين الذين يعضون. حتى أن هؤلاء قد يكونون أميل إلى الإعاقة والعرقلة. إنني أضع الجميع في الحساب: إن معلّم المدرسة الذي يستهزئ مع تلاميذه بإلههم ومهادهم واحد منا، والمحامي الذي يدافع عن موكله القاتل المثقف مشيراً إلى أنه أعلى ثقافة من الذين قتلهم، وإلى أنه اضطر أن يقتل للحصول على المال، هو واحد منا، وتلامذة المدرسة الذين يقتلون أحد الفلاحين نشداناً لإحساسات خارقة هم منا، والمحلَّفون الذين يبرِّئون جميع المجرمين بغير استثناء هم منا، ووكيل النيابة الذي يرتعش خوفاً متى خطر بباله أنه لم يظهر قدراً كافياً من اللبرالية هو منا. ثم أضف إلى هؤلاء، الموظفين و الكتاب. إن

كثيريـن منهم ينتمون إلينا دون أن يخطر ذلـك ببالهم! ثم إن طواعية التلاميذ والحمقـى طواعيـة مطلقة. أما المعلّمون فإنهم ممتلئون غيظاً. كل شـيء في كل مكان ليس إلّا غروراً و شهوة حيوانية لا عهد بمثلها من قبل.. هل تتصور مـدى المسـاعدة التي يمكـن أن تقدمها لنا الأفـكار الجاهـزة الرائجة؟ حين سافرت أنا، كانت فكرة لِتريه هي الشائعة في الناس، فكانوا يزعمون أيام ذاك أن الجريمة أصبحت لا تعدُّ اختلالاً بل ذليلٌ على سلامة الحس، بل واجب أخلاقـي، أو احتجاج كريم في أقل تقدير. "كيف يمكن لإنسـانٍ مثقف أن لا يقتـل إذا هـو احتاج إلى مـال؟". ولكن هذا ليس إلّا بدايـة. إننا منذ الآن نرى الإله الروسي قد أذعن للخمرة الرخيصة الثمن. فالشعب يشرب، والأمهات تشـرب، والأولاد يشـربون، والكنائس خالية مقفرة. وماذا نسمع في محاكم القرويين؟ "سـطل خمرة، وإلا فمائتا جلـدة!". دع لهذا الجيل أن يكبر فقط! خسـارةٌ أننا مسـتعجلون، فلو كان في وسـعنا أن ننتظر، لما أصبحوا جميعهم إلّا أشـد سـكراً. خسـارةٌ أيضـاً أنه لا توجـد بروليتاريـا. ولكنها سـتوجد... ستوجد!... نحن سائرون إلى هذا.

جمجم ستافروجين يقول مستأنفاً السير:

خسارةٌ أيضاً أننا غدونا أغبياء حقاً.

ـ اسـمع! لقد رأيت طفلاً في السادسـة من عمره يقود إلى البيت أمه التي كانت سـكرى تماماً و كانت تمطره بوابل من أقذع الشـتائم... هل تصدِّق أن هذا قد سـرَّني؟ حين سنستولي على السلطة، فقد نراهم يشفون من دائهم... وسـوف نطردهم إلـى الصحراء أربعين عاماً إذا وجـب الأمر. أما الآن فنحن فـي حاجة إلى جيـل أو جيلين اثنين من الفاسـقين الداعرين. نحن في حاجة إلـى فسـاد لا نظير لـه، إلى تحلل دنيء، يحيل الإنسـان حشـرةً قـذرةً حقيرةً قاسيةً أنانية. ذلك ما نحن في حاجة إليه. وعدا هذا سنعطيهم قليلاً من "الدم الجديد" حتى يألفوا ويتعودوا. ما بالك تضحك؟ إنني لا أناقض نفسي. إنني لا أناقض إلّا محبي البشـر وشـيجالوف. وأنا وغد ولسـت اشتراكياً. هأهأها !... خسـارةٌ فقط أننا لا نملك الوقت الكافـي. لقد وعدت كارمازينوف بأن

نبدأ في شـهر أيار(مايو)، وبأن يكون كل شـيء قد تمَّ في أول أكتوبر (تشرين الأول). لـن يطـول الأمر كما تـرى. هأهأهأ!... هل تعرف ما سـأقوله لك يا سـتافروجين؟ إن الشـعب الروسـي، رغم شـتائمه البذيئة و تجديفاته، كانت روح الاستهتار غريبةً دائماً عنه. هل تعلم أن الأقنان كان يحترم بعضهم بعضاً أكثر مما يحترم رجل مثل كارمازينوف نفسـه: كانوا يتلقون جلدات السـياط، ولكنهم استطاعوا أن يدافعوا عن آلهتهم، أما كارمازينوف فقد ترك إلهه.

قال ستافروجين:

ـ هـذه أول مرة أصغي فيها إلى كلامك يا فرخوفنسـكي، ويجب أن أقول لـك إني مذهول مشـدوه. مـا أنت بالاشـتراكي حتمـاً، وإنما أنـت رجلٌ... طامح، رجل سياسي.

ـ بل أنا وغد، وغد، كما قلت لك. هل تحب أن تعرف من أنا؟ سأقول لك: إلى هذا إنما أريد أن أصل. إنني لم أقبِّل يدك عبثاً بغير هدف. ولكن يجب أن يؤمن الشـعب بأننا نعرف ماذا نريد، على حين أن الآخرين "يشهرون الهراوة ويضربون ذويهم". آه... ليتنا نملك وقتاً! إن بلاءنا الوحيد هو افتقادنا الوقت الكافي. سوف ننادي بالتدمير... فلماذا... لماذا كانت هذه الفكرة فاتنة آسرة إلـى هذا الحـد؟ نعم، يجب على المـرء أن يرخي أعضاءه أحياناً!... سـوف نشـعل الحرائق!... سوف ننشـر أساطير. ومن أجل تحقيق هذا ستفيدنا أيسر حلقـة صغيرة. سـأجد لك بين هـذه الحلقات هواةً يطلقـون النار فرحين، بل يـرون أنهم نالوا شـرفاً عظيماً لأنهم كانـوا الأوائل. وعندئذ إنمـا تبدأ البلبلة والثورة. وسنشـهد انقلاباً لا عهد للعالم بمثله من قبل... سيهبط على روسيا ضباب كثيف... وستبكي الأرض آلهتها القديمة... ويومئذ نخرجه...

ـ نخرج من؟

ـ من؟

ـ ابن القيصر، إيفان.

ـ كيف؟

ـ ابن القيصر، إيفان! أنت، أنت!

فكَّر ستافروجين لحظة.

ثم سأل المجنون وهو ينظر إليه بدهشة عميقة:

ـ محتال! هذه إذًا خطتك؟

وعاد فرخوفنسكي يتكلّم فقال بصوت عذب، بصوت يشبه أن يكون صوت عاشق ولهان (وكان في الواقع يبدو سكراناً):

ـ سوف نقول إنه "مختبئ". هل تعلم ماذا تعني هذه الكلمة "مختبئ"؟ ولكنه سيظهر، سيظهر. سوف نخلق أسطورة أجمل من أسطورة سوبتزي. "إنه موجود، ولكن أحداً لم يره بعد". ما أروع الأسطورة التي يمكن خلقها في هذا الشأن! ولكن الشيء الرئيسي هو أن ذلك سيكون قوةً جديدة. وحاجتنا إنما هي إلى قوة جديدة. إلى قوة جديدة إنما نحن نتوق. ما الذي تجيء به الاشتراكية؟ لقد حطمت القوى القديمة، ولكنها لم تخلق قوى جديدة. أما نحن فسنملك قوة، ويا لها من قوة! على شرط أن نملك رافعة، ولو لحظةً قصيرة، رافعةً تتيح لنا أن نرفع الأرض. وسيثور الجميع حينذاك.

قال ستافروجين وهو يبتسم ابتسامة سخرية:

ـ هل يمكن أن تعتمد عليَّ جاداً؟

فقال فرخوفنسكي:

ـ لماذا تبتسم، ولماذا تبتسم ابتسامة فيها هذه السخرية كلها؟ لا تروِّعني! أنا الآن أشبه بطفل. تكفي ابتسامة كابتسامتك لقتلي خوفاً. اسمع! لن أُظهرك لأحد، لن أظهرك لأحدٍ البتة. إنه موجود، ولكن أحداً لم يره. إنه مختبئ. مع ذلك ربما كان من الممكن إظهارك، لواحدٍ من مائة ألف مثلاً. وستضج الأرض كلها حينذاك: "لقد رؤي، لقد رؤي!". ألم يروا إيفان فيليبوفتش، ألم يروا الإله يهوه مختطفاً من السماء في عربة من نار. ألم يروا "بأعينهم"؟ وأنت لست إيفان فيليبوفتش. أنت جميل، وأنت ذو كبرياء كإله، ولست تسعى إلى شيء لنفسك، سوف تحيط به هالة التضحية: "المختبئ"! أسطورة. ذلك هو الشيء الرئيسي! سوف تنتصر، تكفيك نظرة لتنتصر. إنه يجيء بحقيقة جديدة و "يختبئ". وسننطق، إلى هذا، بحكمين أو ثلاثة من أحكام سليمان.

لا حاجة إلى الجرائد. حلقاتنا ستتولى نشر الشائعة. ويكفي أن نلبّي طلباً من عشرة آلاف طلب حتى يتجه الجميع إلينا. في كل قرية سيعرض كل فلاح أن في مكان ما جذعاً يجب عليه أن يودعه التماسه. وستنتشر في الأرض كلها شائعة تقول : "لقد صدر قانون جديد، قانون عادل!". البحار ستهتاج، والمنزل الخشبي القديم سيتهاوى. وعندئذ نفكر في شيد بناءٍ من حجر، لأول مرة. و"نحن" الذين سنشيده. نحن وحدنا.

قال ستافروجين مدمدماً:

ـ جنونٌ هذا كله.

ـ لماذا؟ لماذا لا تريد؟ أتخاف؟ ولكن لئن كنت أتشبّث بك، فما ذلك إلّا لأنك لا تخاف من شيء. أيكون هذا ابتعاداً عن العقل. ما أنا الآن إلّا كولومب بدون أمريكا. هل يمكن أن يكون كولومب بدون أمريكا عاقلاً؟

لزم ستافروجين الصمت. وفي أثناء ذلك وصلا، ووقفا أمام ذرجات الباب.

همس فرخوفنسكي يقول في أذن نيقولاي فسيفولودوفتش:

ـ اسمع. سأدير كل شيء بغير مال. سأفرغ منذ الغد من ماريا تيموفئفنا... ولن يكلفك هذا شيئاً. وفي غدٍ سأجيئك بليزا. هل تريد ليزا غداً؟

حدّث ستافروجين نفسه فتساءل مبتسماً: "أتراه فقد عقله حقاً؟". وفتح الباب.

سأله فرخوفنسكي وهو يمسك ذراعه:

ـ ستافروجين ، هل أمريكا لنا؟

فأجابه ستافروجين بجفاء:

ـ فيم يفيدنا هذا؟

ـ لا تريد؟ كنت أتوقع هذا!...

كذلك صرخ بطرس ستيفانوفتش و قد ثارت ثائرته على حين فجأة. وتابع كلامه فقال:

ـ أنت تكذب، أيها السيد الشرير الفاجر الداعر. لست أصدقك. إن

لك شـهوة ذئـب!... افهمْ أخيراً أن حسـابك أشـد ثقلاً مـن أن أتنازل عنك. أنـت فريـد في العالم. لقـد اخترعتك منـذ لقائنا في الخـارج. اخترعتك وأنا ألاحظك. لولا أنني لاحظتك خلسةً لما خطر ببالي شيء.

صعد ستافروجين السلم من دون أن يجيب.

وصرخ فرخوفنسكي:

ـ ستافروجين! إننـي أمهلـك يومـين... بل أمهلـك ثلاثة أيـام. لكنني لا أستطيع أن أمهلك أكثر من ذلك. لا بد لي من جواب.

الفصل التاسع

"مصادر" في بيت ستيفان تروفيموفتش

في تلك الأثناء حدث أمر أدهشني كثيراً وأدخل في نفس ستيفان تروفيموفتش أشدَّ الاضطراب. ففي الساعة الثامنة من الصباح هرعت إليَّ ناستاسيا من عنده لتبلغني أن مولاها قد "صودر". فلم أفهم في البداية شيئاً. فقالت إن موظفين قد جاؤوا وقاموا "بمصادرة"، فأخذوا أوراقاً لفَّها جندي بخيط و"حملها على نقَّالة". بدت لي القصة عجيبة كل العجب. فأسرعت إلى بيت ستيفان تروفيموفتش.

وجدته في حالة غريبة جداً: كان منفعلاً، مضطرباً، وكان وجهه في الوقت نفسه يعبر عن معنى الانتصار. وعلى مائدة، إلى جانب كأس من الشاي لم يُشرب منها شيء، كان هناك سماور يغلي ماؤه. إن ستيفان تروفيموفتش يدور حول المائدة، أو يمشي في الغرفة طولاً وعرضاً، من دون أن يدرك ماذا يفعل. وهو يلبس، على عادته، ثوب التريكو الأحمر، ولكنه ما إن رآني حتى أسرع يرتدي صديرته وردنجوته، وذلك أمر ما كان يفعله أبداً في الماضي حين يفاجئه صديق وهو بثوب التريكو.

- "أخيراً يصل صديق"! (بالفرنسية).

قال ذلك وتنفس من أعماق صدره. ثم تابع كلامه:

- "عزيزي" (بالفرنسية)، أنت الشخص الوحيد الذي بعثت أنبئه بما حدث، ولا أحد يعرف شيئاً البتة. يجب أن نقول لناستاسيا أن تغلق الباب، ولا تدع أحدًا أن يدخل، إلّا "هم" طبعاً..."هل فهمت؟" (بالفرنسية).

كان ينظر إليَّ قلقاً كأنه ينتظر جواباً. وأسرعت أسأله عمَّا حدث، فاستطعت كيفما اتفق أن أستخرج من أقواله المفككة التي تقطعها وقفات واستطرادات لا داعي لها أن موظفاً من موظفي الإقليم قد جاءه "فجأة" في الساعة السابعة من الصباح.

ـ "معذرةً، لقد نسيت اسمه. ما هو من أبناء البلاد" (بالفرنسية) ولكنني أعتقد أن لمبكه هو الذي جاء به. "شخص غبي ألماني الهيئة اسمه روزنتال".

ـ أتراه هو بلومر؟

ـ بلومر. نعم، هذا هو الاسم الذي ذكره. "هل تعرفه؟ شخص أهبل يدل وجهه على رضاه عن نفسه، ومع ذلك قاس صلب حاد" (بالفرنسية). هيئته هيئة رجل من رجال البوليس، من رجال البوليس السري. "إنني أعرفهم" (بالفرنسية). كنت ما أزال نائماً. وطلب مني أن يلقي نظرة على كتبي ومخطوطاتي، هل تتخيل هذا؟ "نعم، أتذكر، لقد استعمل هذه الكلمة" (بالفرنسية). لم يعتقلني، ولكنه أخذ الكتب.. "كان يقف بعيدًا" (بالفرنسية)، ولما بدأ يشرح لي الغرض من زيارته، كان وجهه يدل أنه يتصور أنني... "الخلاصة كان وجهه وجه من يظن أنني سأهوي عليه فوراً وآخذ أضربه ضرباً عنيفاً. جميع أمثاله من أبناء الطبقة الدنيا هم كذلك" (بالفرنسية) حين يجدون نفسهم أمام رجل محترم. طبيعي أنني فهمت كل شيء على الفور. "إنني أتهيأ لهذا منذ عشرين سنة" (بالفرنسية). فتحت له جميع الأدراج وأعطيته المفاتيح: أعطيته المفاتيح بنفسي، سلَّمته كل شيء. "كنت رصيناً وهادئاً" (بالفرنسية). أخذ من الكتب طبعات هرتسن الأجنبية، والنسخة المجلدة من "الناقوس"، وأربع نسخ من قصيدة، "الخلاصة، أخذ كل ذلك" (بالفرنسية). وأخذ أوراقاً ورسائل وأخذ "بعض مسوداتي التاريخية والنقدية والسياسية" (بالفرنسية). ذلك كله حملوه. لقد قالت ناستاسيا أن جندياً حمل هذه الأشياء كلها على نقالة مغطاة بفوطة، نعم، "هكذا" (بالفرنسية)، بفوطة.

كان يهذي. من ذا يستطيع أن يفهم من كلامه شيئاً؟ وطفقت ألقي عليه الأسئلة من جديد: هل جاء بلومر وحيداً، أم كان معه أحد؟ من أمره

بالمجيء؟ بأي حق؟ كيف جرؤ؟ ما هو التفسير الذى ذكره؟
ـ "كان وحيداً، وحيداً، نعم" (بالفرنسية)... على كل حال كان هناك شخص آخر "في حجرة المدخل، أتذكر ذلك، ثم..." (بالفرنسية). نعم كان هناك شخص آخر على كل حال، في ما أظن. وفي المدخل كان يرابط حارس. يجب أن نسأل ناستاسيا. هي تعرف ذلك كله خيراً مما أعرفه أنا. "كنت أنا مهتاجاً اهتياجاً شديداً، كما تعلم" (بالفرنسية). "وكان يتكلم، ويتكلم... قال أشياء كثيرةً جداً..." (بالفرنسية). ولكنه لم يتكلم إلّا قليلاً، وإنما كنت أنا الذي أتكلم. رويت قصة حياتي كلها، من هذه الناحية طبعاً. "صحيح أنني كنت مهتاجاً اهتياجاً شديداً، ولكنني كنت رصيناً، أؤكد لك" (بالفرنسية). على أنني أخشى أن أكون قد بكيت. أما النقالة فقد أخذوها من عند صاحب الدكان التي تقع بجانبنا.
ـ رباه! كيف أمكن أن يقع هذا كله! و لكن ناشدتك الله يا ستيفان تروفيموفتش، تكلم بشيء من الدقة والوضوح! إن ما تقصه عليَّ حلم.
ـ "عزيزي" (بالفرنسية)... أنا نفسي أعتقد بأنني أحلم... "هل تعلم؟" (بالفرنسية). "لقد نطق باسم تلياتنيكوف" (بالفرنسية) وأظن أن تلياتنيكوف هذا هو الذي كان مختبئاً عند المدخل. نعم، أتذكر الآن: لقد اقترح عليَّ أن أستدعي وكيل النيابة ودمتري متريتش فيما أظن... "دمتري متريتش الذي لا يزال مديناً لي بخمسة عشر روبلاً ربحتها منه في اللعب بالورق... أقول هذا بالمناسبة عابراً... الخلاصة: إنني لم أفهم كثيراً". (بالفرنسية). ولكنني كنت أمكرَ منهم. ما شأني ودمتري متريتش! أظن أنني رجوته أن يُبقي الأمر سراً، نعم توسلت إليه، تضرعت إليه... أخشى أن أكون قد أسرفت في التذلل له. "ما رأيك؟"... الخلاصة أنه قبل... بل لا... إنني أتذكر أنه هو الذي قال إن الأفضل أن يبقى الأمر سراً مكتوماً، لأنه لم يجئ إلّا لإلقاء نظرة عابرة، على حد تعبيره... ولا شيء غير ذلك، نعم، لا شيء غير ذلك، فإذا لم يعثر على شيء بقي الأمر عند هذا الحد ولم يتجاوزه. لذلك افترقنا "صديقين". " إنني راضٍ كل الرضى".

هتفت أقول له مستاءً استياء الصديق من صديقه:

ـ ما هذا الذي تقوله؟ أيعرض عليك ضمانات هي من حقك في مثل هذه الحالة ثم ترفضها بنفسك؟

ـ كان الأحسن أن أتنازل عن الضمانات. علام أحدث فضيحة؟ لقد كان من الأفضل أن نفترق صديقين موقتاً... ذلك أن الأمر إذا شاع في المدينة، "فإن أعدائي... ثم علام وكيل النيابة، علام هذا الخنزير وكيل النيابة الذي أساء الأدب معي مرتين، والذي ضُرب ضرباً مبرحاً في إحدى السنين عند تلك الفاتنة الجميلة ناتاليا بافلوفنا، حين اختبأ في مخدعها. ثم... يا صديقي"، لا تواجهني باعتراضات تلو اعتراضات، ولا تؤسني وتثبط عزيمتي، أرجوك، فحين يكون المرء تعيساً فلا شيء أبغض إليه وأبعد عن قدرته على الاحتمال من أن يسمع أصدقاءه يقولون له إنه ارتكب غلطة. ولكن هلاَّ جلست وشربت كأساً من الشاي! أما أنا فأعترف بأنني متعَب كثيراً... يخيَّل إليَّ أني أحسن صنعاً إذا أنا اضطجعت ووضعت كمَّادة خلٍ على رأسي. ما رأيك؟

صحت أقول له:

ـ حتماً. بل أنت في حاجة أيضاً إلى جليد. إنك مضطرب اضطراباً شديداً. وجهك شاحب ويداك ترتعشان. اضطجع، ارتح قليلاً، ولا تقل شيئاً. سأبقى جالساً إلى جانبك انتظر أن تتحسن حالك.

ـ لم يشأ أن يضطجع. ولكنني ألححت. وجاءتنا ناستاسيا بخلٍ في طاسة. فبللت بالخل المنشفة ووضعت المنشفة على رأسه. ثم صعدت ناستاسينا على كرسي وأخذت تشعل قنديلاً أمام الأيقونة. لاحظتُ ذلك مدهوشاً. فإنني لم أرَ عند صاحبي قبل ذلك قنديلاً قط.

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول لي وهو يرمقني بنظرة ماكرة:

ـ أنا الذي أمرت ناستاسيا بذلك بعد انصرافهم رأساً. "إذا كان لدى المرء أشياء من هذا النوع، وجاؤوا يعتقلونه" فإن هذا يكون له أثره، لأنهم لا بد أن ينقلوا ما رأوا...

أشعلت ناستاسيا القنديل، وظلت واقفةً في العتبة، مسندة خدها إلى راحة يدها اليمنى، وأخذت تتأمل مولاها وقد ظهر على وجهها حزن شديد.

فدمدم ستيفان تروفيموفتش يقول لي:

ـ "أبعدها" بأية حجة من الحجج. إنني أكره هذه الشفقة الروسية. ثم إن هذا يضايقني ويزعجني.

ولكن ناستاسيا خرجت بعد لحظة من تلقاء نفسها. ولاحظتُ أنه لا ينقطع عن النظر إلى الباب والإصغاء إلى أيسر ضجة صادرة عن حجرة المدخل.

قال وهو يلقي عليَّ نظرة ذات دلالة:

ـ "يجب على المرء أن يكون مستعداً، كما تعلم". في أية لحظة قد يأتون، فيقتادونني، فإذا أنا أختفي في مثل لمح البصر.

ـ عجيب! ما هذا الذي تقوله؟ من ذا يختفي؟ من الذي يقتادك؟

ـ يا "عزيزي" لقد سألته ملحاً حين انتهى عما سيفعلونه بي.

صحت أقول مستاءً:

ـ ليتك سألته أيضاً إلى أين سينفونك!

ـ ذلك بعينه ما عنيته بسؤالي. ولكنه انصرف من دون أن يجيبني. في ما يتعلق بالملابس والثياب، ولا سيما الثياب الدافئة، سوف يكون الأمر على ما يحبون. فإذا أذنوا لي بحملها كان هذا من حسن حظي، ولكنهم يستطيعون أيضاً أن ينفوني مرتدياً معطف جندي. غير أنني (هنا خفض صوته وهو ينظر إلى الباب الذي خرجت منه ناستاسيا منذ هنيهة) قد دسست خمسة وثلاثين روبلاً في بطانة جيب صديريتي التي كانت مفتوقة. أنظر، هي هنا، جُسَّها بيدك. أظن أنهم لن ينتزعوا مني صديريتي. ومن أجل التمويه، تركت سبعة روبلات في محفظة نقودي، فكأنني أقول لهم: "هذا كل ما أملك"، ثم إني تركت قليلاً من النقود على المائدة، بحيث لا يحزرون أنني خبأت المال، بل يعتقدون أن هذا كل شيء فعلاً. الله يعلم أين سأقضي الليلة!

خفضت رأسي أمام هذا الجنون. واضح أن اعتقال الناس وتفتيشهم لا

يكون بهذه الطريقة التي يصفها. لقد خلط كل شيء ما في ذلك شك. صحيح أن هـذه القصة كان يجري مثلها قبل تطبيق القوانين الجديدة. وصحيح أيضاً أنـه اقتُرح عليـه إجراءٌ أقرب إلى الأصـول المتعبة، ولكنـه "كان أمكرَ منهم" فرفض... ولا شـك أن الحاكم في الماضي، منذ زمن غير بعيد، يسـتطيع في بعـض الحالات القصوى... ولكن أين "الحالة القصـوى" هنا؟ ذلك ما كان يدهشني.

قال ستيفان تروفيموفتش فجأة:

ـ لا شك أنهم تلقوا برقية من بطرسبرج.

ـ برقية؟ بشأنك؟ عن مؤلفات هرتسن وقصيدتك؟ إنك فقدت عقلك. لا يُعتقل الناس لأسباب كهذه.

لقد غضبتُ فعلاً. فصعَّر وجهه، وظهر عليه التأذي، لا من لهجتي بل من قولي إنه ليس ثمة ما يدعو إلى اعتقاله.

دمدم يقول بهيئة ملغزة:

ـ هل يعرف المرء في هذا الزمان لماذا يمكن أن يعتقل؟

فإذا بفكرة مجنونة تلمع في ذهني على حين فجأة، فأقول له:

ـ ستيفان تروفيموفتش، قل لي وأنا صديقك الذي لا يخونك: أأنت تنتمي إلى جمعية سرية ما؟

فما كان أشد دهشتي حين لاحظت أنه هو نفسه لا يعرف. ذلك أنه أجابني بقوله:

ـ هذا يتوقف على الجهة التي ننظر منها إلى الأمور...

ـ كيف؟

ـ حيـن ينذر المرء نفسـه لفكـرة التقدم من أعمـاق قلبـه، وحين...مَنْ ذا يسـتطيع أن يجزم؟ رب شـخص يتخيل أنه لا ينتمي إلى أيه جمعية، حتى إذا نظر إلى الأمر من كثب اكتشف نقيض هذا تماماً.

ـ مستحيل. إما أنه ينتمي وإما أنه لا ينتمي!

ـ يرجـع عهد هـذا الأمر إلى أيام بطرسـبرج، إلـى الوقت الـذي أردنا فيه

إنشـاء مجلة. ذلك مصدر كل شيء. لقد انصرفنا حينذاك فنسونا، ثم تذكرونا الآن. عزيزي، ألا تعرف كيف تجري الأمور؟

كذلك هتف متوجعاً، ثم تابع كلامه يقول:

ـ يعتقلونـك ويُركبونـك زحّافـة ويمضـون بك إلى سـيبيريا إلـى الأبد أو ينسونك في معقل من المعاقل.

قـال ذلك وانفجر يبكـي منتحباً. كانت دموعه تسـيل غزيـرةً على خديه، وظل ينشـج هـذا النشـيج المتشـنج خلال خمـس دقائـق، ضاغطـاً بمنديله الأحمر على عينيه.

اضطربـتُ من ذلك اضطراباً شـديداً. إن هذا الرجل الـذي كان لنا بمثابة نبي منذ عشـرين سـنة إلى الآن، وكان معلّمنا وكان إمامنا، وكان يعاملنا بتلك الأبهة وتلك الفخامة كلها، وكان يتسـلط علينا من علٍ، وكنا نقدسـه تقديسـاً مـن أعمـاق قلوبنا، ونعـدُّ وجوده بيننا شـرفاً لنا، إن هذا الرجـل ينتحب الآن انتحاب صبي مذنب ينتظر أن يُجلد بالسوط. شعرت نحوه بشفقة عميقة. إنه يؤمـن بأن الزحافة آتية لنقله كإيمانـه بوجودي قربه، بل إنه ينتظر وصولها في هذا الصباح نفسـه. إنه يؤمن بأنهم سـيجيئون لاعتقاله في هذه اللحظة ذاتها. وذلك كله بسبب مؤلفات هرتسن، وبسبب قصيدة لا أدري ما هي! ألا إن هذا الجهل بالواقعِ والانفصال عنه يبلغان من التمام والقوة ما يجعل حالة الرجل مؤثرة ومغيظةً في آن واحد.

وأخيـراً كـفّ عن البـكاء، وقام عن ديوانه، وعاد يمشـي فـي الغرفة طولاً وعرضاً، مع اسـتمراره في التحدث إليّ. ولكنه كان ينظر من النافذة من حين إلى حين، و يصيخ بسـمعه إلى أيسـر ضجة. وكان حديثنا متقطعاً لا تسلسـل فيه، وكانت جميع الأقوال التي يمكن أن أسوقها له لأطمئنه لا تحدث فيه أي تأثير. كان لا يصغي إلّا قليلاً، ولكنه كان في حاجة كبيرة إلى أن أهدئ روعه وأطمئن نفسـه، وإلى أن يسـمعني أتكلم في هذا المعنى بغير توقف. ورأيت أنه أصبح لا يسـتطيع الاسـتغناء عنـي، وأنه لن يدع لـي أن أنصرف بحال من الأحوال، فبقيت وقضينا معاً أكثر من ساعتين. وتذكر أثناء الحديث أن بلومر

أخذ منشورين وجدهما بين أوراقه.

هتفت أقول بغير روية ولا حذر:

ـ منشورات تحريضية؟ هل يُعقل أن تكون...

فأجاب بلهجة مغتاظة:

ـ دسوا لي منها نحو عشرة... فتخلّصت من ثمانية ولم يعثر بلومر إلّا على اثنين...

كان يتكلم تارةً بتعالٍ وسخط، وتارةً بشكوى ومذلة.

واحمر وجهه استياءً على حين فجأة، وقال:

ـ "أتضعني مع أولئك الناس!". هل تستطيع أن تفترض أن من الممكن أن أشترك مع هؤلاء الأوغاد الأنذال، مع هؤلاء الجواسيس، مع ابني بطرس ستيفانوفتش، مع هذه "النفوس الزاخرة جبناً وحقارة!". آه!... رباه!...

ـ ذلك ما أتساءل عنه وأشك فيه! أتراهم خلطوا بينك وبين شخص آخر... ولكن لا... هذا سخف!... مستحيل!

ـ "اسمع"... إنني أشعر أحياناً بأنني "سأحدث هنالك فضيحةً ما". آه.... لا تخرج. لا تدعني وحيداً: "لقد انتهت حياتي الفكرية والثقافية الآن. أشعر بهذا". هل تعلم أن من الممكن أن أهجم على أحد الناس وأن أعضه، كما فعل الملازم الثاني...

قال ذلك ورشقني بنظرة غريبة وجلة، ولكنها في الوقت نفسه نظرة يقرأ المرء فيها معنى الرغبة في التخويف. كان الحنق يستولي عليه. وكان يبدو غاضباً مزيداً من الغضب على شخص ما وعلى شيء ما، كلما انقضى الوقت ولم تصل "الزحافة". كان مسعوراً من شدة السخط فعلاً. وفجأة اصطدمت ناستاسيا، التي كانت في حجرة المدخل، اصطدمت بحمالة المعاطف فأسقطتها على الأرض. فتجمّد ستيفان تروفيموفتش في مكانه من شدة الهلع. ولكن حين اتضح له الأمر، أخذ يصرخ في وجه ناستاسيا، وقرع الأرض بقدمه، وطرد ناستاسيا إلى المطبخ. وبعد دقيقة، قال لي بهيئة يائسة:

ـ لقد هلكت يا عزيزي!

وجلس بقربي، وحدَّق إلى عينيَّ بنظرة تثير الشفقة. وأردف يقول:
ـ "يا عزيزي"، أنا لست خائفاً من سيبريا، أحلف لك...
حتى لقد ترقرق الدمع في عينيه. وأضاف قائلاً:
ـ وإنما أنا خائف من شيء آخر...
فأدركت من النظر في وجهه حينذاك أن هناك أمراً خطيراً خطورة خاصة يريد أن يقوله لي، ولكنه يتردد منذ برهة في الإفصاح عنه. وهمس يقول أخيراً بلهجة تحمل معنى السر:
ـ أنا إنما أخاف العار.
ـ أي عار؟ صدِّقني يا ستيفان تروفيموفتش: إن كل شيء سيتضح في هذا اليوم نفسه لمصلحتك.
ـ أأنت واثق بأنهم سيغفرون لي؟
ـ يغفرون لك ماذا؟ ما معنى هذا التعبير؟ أي جريمة ارتكبت؟ أؤكد لك أنك لم تجن أي ذنب.
ـ "ما يدريك يا عزيزي؟". لقد كانت حياتي كلها... "يا عزيزي"... لسوف ينبشون ماضيَّ كله... فإذا لم يعثروا على شيء، كان ذلك "اسوأ وأنكى" عندي.
ما كان أشد دهشتي حين سمعت منه هذه الجملة الأخيرة!....
ـ أسوأ و أنكى عندك؟
ـ نعم.
ـ لا أفهم!
ـ صديقي، صديقي، لا تهمني سيبيريا، لا اتهمني آرخانجلسك، لا يهمني فقدان حقوقي. إن المرء لا يموت إلّا مرةً واحدةً... أما ما أخشاه فهو شيء آخر...
هنا عاد إلى الهمس، والهيئة المروَّعة، ولهجة السر.
ـ فما الذي يخيفك؟ ما الذي يخيفك؟
فقال أخيراً زائغ العينين:

ـ السوط.

فعدت أهتف خائفاً على عقله:

ـ من ذا الذي يمكن أن يجلدك بالسوط؟ وأين؟ ولماذا؟

ـ أين؟ هناك، حيث يتم الجلد بالسياط.

ـ ولكن أين؟

ـ آه... عزيزي...

كذلك دمدم يقول لي بما يشبه الهمس في الأذن:

ـ آه ...عزيزي... تخسف الأرض فجأة تحت قدميك، فتغور إلى منتصف جسمك... جميع الناس يعرفون هذا.

صحت أقول وقد فهمت أخيراً ماذا يريد أن يقول:

ـ حكايات خرافية. هل يُعقل أنك لا تزال تصدّق هذه الحكايات الخرافية القديمة؟

وانفجرت ضاحكاً.

ـ حكايات خرافية؟ لا دخان بلا نار. الذين ذاقوا هذا لا يفتخرون به طبعاً. لقد تصورت بالخيال ألف مرة كيف تجري الأمور.

ـ ولكن أنت، علام يجلدونك؟ إنك لم تفعل شيئاً.

ـ تماماً سوف يرون أنني لم أفعل شيئاً فيجلدونني.

ـ وهل أنت مقتنع بأنهم لهذا الغرض إنما سيقتادونك إلى بطرسبرج؟

ـ يا صديقي، قلت لك إنني غير آسف على شيء. "لقد انتهت حياتي الفكرية والثقافية". منذ أن ودّعتني في سفورشنيكي لم يبق للحياة من قيمة عندي. ولكنه العار! العار! "ما عساها تقول حين تعلم؟".

قال ذلك واحمرّ احمراراً شديداً، ونظر إليّ يائساً. فخفضت عينيّ. ثم قلت له:

ـ لن تعلم شيئاً لأن شيئاً لن يحدث. إنك تدهشني كثيراً في هذا الصباح، حتى ليبدو لي أنني أكلمك لأول مرة في حياتي يا ستيفان تروفيموفتش.

ـ يا صديقي، ليس هو الخوف. هبهم غفروا لي، وأعادوني إلى هنا من دون

أن يصنعوا بي شيئاً. لقد هلكت مع ذلك. "ستظل تشتبه فيَّ طوال حياتي"... أنا الشاعر، أنا المفكر، أنا الرجل الذي قدّستني على مدى عشرين عاماً...

ـ لن تخطر لها هذه الفكرة على بال.

دمدم يقول باقتناع عميق:

ـ بلى. لطالما تكلمنا معاً في بطرسبرج أيامَ الصوم الكبير قبل رحيلنا، حين كنا كلانا خائفين... "سوف تشتبه فيَّ طوال حياتها". من ذا الذي يستطيع أن يحوِّلها عن هذا الخطأ؟ مستحيل! ومن ذا الذي سيصدقني أنا في هذه المدينة الصغيرة الحقيرة؟... "ثم النساء!".... سوف تكون هي سعيدة. صحيح أنها ستتألم، ستتألم كثيراً، ستتألم ألماً صادقاً، لأنها صديقة حقاً، ولكنها في قرارة نفسها، في سرها، ستُسرُ سروراً عظيماً... سأكون قد زودتها بسلاح ضدي مدى الحياة... آه... لقد تحطمت حياتي. عشرون عاماً انقضت في سعادة كاملة... والآن!...

قال ذلك و دفن وجهه في يديه.

فقلت مقترحاً:

ـ ستيفان تروفيموفتش، ألا يحسن أن تنبئ فرفارا بتروفنا فوراً بما حدث؟

فما سمع هذا الاقتراح حتى وثب عن ديوانه وقال:

ـ معاذ الله! مستحيل! أبداً! يستحيل أن أفعل هذا بعد الذي جرى في سفورشنيكي! أبداً!

وسطعت عيناه.

أحسب أننا لبثنا على هذه الحال ساعةً بل أكثر، ننتظر حادثاً يجب أن يقع في ما نتصور. وتمدد من جديد، وأغمض عينيه، وظل مستلقياً قرابة عشرين دقيقة من دون أن ينطق بكلمة، حتى ظننت أنه نام، أو أنه غفا في أقل تقدير. وها هو ذا ينتصب فجأة، فينزع عن رأسه المنشفة المبللة، ويثب عن الديوان، ويهرع إلى المرآة، فيعقد رباط عنقه مرتعش اليدين، وينادي ناستاسيا بصوت مرعد، ويأمرها بأن تهيئ له معطفه الجديد، وقبعته، وعصاه.

قال بصوت لاهث:

ـ نفد صبري. هذا فوق ما أطيق. إنني ذاهب إلى هناك بنفسي.

سألته وأنا أنهض أيضاً:

ـ إلى أين؟

ـ إلـى لمبكه. يا عزيـزي، لا بد لي أن أذهب إليه. هذا واجبي. إنني رجل، إنني مواطن، ولسـت قشـة حقيرة. إن لي حقوقاً... وإنني لأطالب بأن تُحترم حقوقي... لقد أهملت حقوقي مدة عشرين عاماً، أهملتها طوال حياتي إهمالاً إجرامياً... أما اليوم فإنني أطالب بها. يجب عليه أن يقول لي كل شيء. نعم، كل شيء. لقد تلقى برقية، ولكنني لا أسمح له بأن يعذبني. ليقتلني، ليقتلني، ليقتلني!

كان يصرخ بصوت حاد وهو يقرع بقدمه الأرض.

قلـت لـه بأكبر هدوء ممكن رغم ما تثيره حالته في نفسـي من قلق شـديد عليه:

ـ إنـني أؤيـدك. هذا أفضل حتماً من أن تبقى هنـا نهباً للعذاب. ولكنني لا أؤيد فرط اهتياجك. انظر إلى وجهك في المرآة. ما هذه الهيئة؟ كيف يمكنك أن تمثل هناك على هذه الحال. "يجب أن تكون رصيناً هادئاً مع لمبكه". إنك لا تتورع الآن عن الهجوم على الناس وعضِّهم.

ـ إنني أسلمهم نفسي. إنني أرمي نفسي في فم الأسد.

ـ سأرافقك.

ـ لـم أكن أتوقع غير هذا من صداقتـك. إنني أقبل تضحيتك هذه التي هي تضحيـة صديق حق. ولكنك لن تصحبني إلـى منزل لمبكه. لا يجب عليك، وليس من حقك أن تعرّض نفسك للخطر بصحبتي مدةً أطول. أوه! "صدقني: سـأكون هادئاً". إنني أشـعر في هذه اللحظة بأنني سأكون "في مستوى أقدس ما أقدِّس".

قلت أقاطعه:

ـ ربمـا دخلـت معـك. إن لجنتهـم السـخيفة قـد أبلغتـني أمس بواسـطة فيسوتزكي أنه يعتمد عليَّ، ودعتني إلى الاشتراك في حفلة الغد مفوضاً (هذه

هـي التسـمية في مـا أظن)... فسـأكون إذًا في عداد الشـبان السـتة المكلفين بمراقبـة الخدمة، وملاطفة السـيدات، واصطحاب المدعويـن إلى أماكنهم. وسـنضع على أكتافنا اليسـرى عقدة من شـرائط بيض وحمـر. لقد أردت أن أرفض، ولكنني أستطيع أن أدخل الآن المنزل بحجة أنني أريد التحدث إلى جوليا ميخائيلوفنا. سنذهب إذًا معاً.

كان يصغـي ويهزّ رأسـه، ولكن كان يبدو عليه أنه لا يفهم شـيئاً. ووصلنا إلى العتبة. فإذا هو يقول لي ماداً ذراعه نحو الأيقونة:

ـ عزيزي، عزيزي، إنني أؤمن بهذا... ولكن... فليكن، فليكن... هيًا بنا.

قال ذلك ورسم إشارة الصليب على صوره.

قلـت محدثاً نفسـي وأنـا أهبط درجـات المدخـل: "هذا أفضل. سـوف يحسن إليه الهواء الطري. سوف يهدأ، فإذا عاد إلى البيت نام".

ولكنني لم أحسـن الحسـاب. ففي الطريـق، وقع لسـتيفان تروفيموفتش حـادث زاده اضطرابـاً، ودفعه دفعاً نهائيـاً في طريق... إنني أعتـرف بأنني ما كنت لأتوقع في يوم من الأيام مثل تلك الحرارة وتلك الهمة اللتين أظهرهما صاحبنا في ذلك الصباح. مسكين صديقي الطيب.

الفصل العاشر

النصابون. صبيحة مشؤومة

1

إن الحادث الذي وقع لنا في الطريق حادث خارق تماماً. و لكن فلنذكر الأمور مرتَّبةً متسلسلة. قبل خروجنا أنا وستيفان تروفيموفتش بساعة، تظاهرت في الشوارع جمهرةٌ من عمال مصنع شبيجولين يُقدَّر عددها بسبعين تقريباً، وربما أكثر من ذلك، فأثار تظاهرها اهتمام الناس وفضولهم. كان العمال يسيرون صفاً مرتَّباً، ملتزمين الصمت. وقد رُوي في ما بعد أنهم إنما ندبهم عمال مصنع شبيجولين البالغ عددهم تسعمائة عامل ليطلبوا من الحاكم، أثناء غياب أصحاب المصنع، أن يتوسط لهم لدى مدير المصنع، ذلك أن هذا المدير قد غشَّ عمال المصنع بعد إغلاقه، وخدعهم في حساب حقوقهم، وهذا أمر أصبح لا ينكره اليومَ أحد. حتى إن بعض الناس يؤكدون أن هؤلاء السبعين لم يكونوا منتدبين من رفاقهم لينطقوا باسمهم (والحق أن عددهم أكبر من أن يكونوا وفداً منتدباً)، وإنما كانوا هم العمال الذين أصابهم ضرر أكبر فجاؤوا يطالبون بحقوقهم باسم أنفسهم لا باسم جميع العمال، فلا يمكن إذًا أن يكون الأمر أمر "ثورة" كما أُشيع في ما بعد. غير أن هناك أناساً آخرين يؤكدون أن المتظاهرين كانوا "ثواراً" حقيقين، وعصاةً عنيدين تأثروا بالمنشورات التحريضية التي وزِّعت في المصنع. الخلاصة أننا لا نعرف حتى الآن، على وجه اليقين، هل كان العمال في تظاهرهم ينفذون أوامر صدرت إليهم، أم هم خرجوا من تلقاء أنفسهم. أما أنا فأعتقد أنهم لم

يقرأوا منشورات. وهبهم قرأوها فما كان لهم حتماً أن يفهموا منها شيئاً، لأن الذيـن يحـررون هذه الأوراق يكتبـون كتابة غامضة، وإن تكن قاسـية عنيفة. ولكـن لما كان العمال يمـرون بظرف صعب فعلاً، ولما كانت الشـرطة التي لجـأوا إليها قـد رفضت التدخل والتوسـط، فقد كان طبيعيـاً أن يخطر ببالهم أن يذهبوا إلى "الجنرال نفسـه" مجتمعين، حاملين مطلبهم بارزاً للعيان، وأن يصطفـوا حول بابه، وأن يركعـوا أمامه متى ظهر لهـم، مبتهلين إليه بأصوات عاليـة. هـذه طريقة تقليديـة تاريخية، فلا حاجـة بنا، في رأيـي، لأن نلجأ إلى أي تعليـل آخـر. فالشـعب الروسـي، منـذ قديم الزمـان، يحـب أن يتجه إلى "الجنرال نفسه"، إلى الشخص القادر على كل شيء في نظره، لا لغرض إلّا لذة التحدث إليه والشكوى له، أيًّا كانت نتيجة هذا الحديث وهذه الشكوى.

وهبنـا سـلمنا بأن بطـرس سـتيفانوفتش وليبوتين وغيرهمـا ـ ربما فدكا ـ قد اسـتطاعوا أن يتصلـوا بالعمال (كما تبيح بعض االدلائـل افتراض ذلك)، وبأنهـم تحدثـوا إلـى اثنين أو ثلاثة منهم أو حتى خمسـة، لا لشـيء إلّا جسّ نبضهـم ومعرفة مدى اسـتعدادهم، فإنني مقتنع بأن الأحاديـث التي أجروها معهم لم تؤدّ إلى أي شـيء، لأن العمال إذا فهموا شـيئاً من هذه الدعاية فإنهم قد أشاحوا عنها على الفور حتماً، إذ لا بد أن تكون قد بدت لهم غبية ليس لها أيـة فائـدة عملية. أما فدكا فلعله قد أصاب عندهـم حظاً أكبر من حظ بطرس سـتيفانوفتش. فمما لاشـك فيه اليوم أن الحريق الذي شـب فـي المدينة بعد ثلاثـة أيام إنما أشـعله فدكا وعاملان من مصنع شـبيجولين. كما أن ثلاثةً من عمال هذا المصنع قد اعتقلوا بعد ذلك بشـهر بسـبب ارتكابهم جريمة سرقة وجريمة إشعال حريق. ومهما يكن دور فدكا، فيجب أن نعتقد بأنه لم يستطع أن يجتذب إلّا أولئك الخمسة، إذ لم يُسمع عن الآخرين شيء من هذا القبيل.

حيـن وصل العمال إلـى منزل الحاكم وهـم لا يزالون صامتيـن ملتزمين نظاماً تاماً، اصطفوا حول درجات الباب، ورفعوا قبعاتهم، و أخذوا ينتظرون فاغري الأفواه. انتظروا نصف سـاعة، لأن المصادفة شاءت أن يكون الحاكم غائبـاً عن منزلـه في ذلك الوقت. فلم تلبث الشـرطة أن ظهرت، أفراداً قلائل

في أول الأمر، وعدداً كبيراً بعد ذلك. وطبيعي أن الشـرطة طفقت تتعجرف، وأنـذرت المتظاهريـن بأن يتفرقـوا. ولكن المتظاهرين عنّـدوا فلم يتحركوا، كقطيـع من الخـراف أمام حاجـز، وأجابـوا موجزين مقتضبيـن بأنهم جاؤوا ليكلمـوا "الجنـرال نفسـه"، وكان واضحـاً أنهـم مصـرون علـى موقفهـم لا يريـدون أن يتزحزحـوا عنـه. عندئـذٍ حلَّـت التهديـدات والصرخـات محل التفكير. وتشاور ممثلو السـلطة مهمومين حائرين، تشاوروا بصوت خافت، فاستقر رأيهم على الإجراءات التي يجب اتخاذها. وآثر رئيس الشرطة انتظار فـون لمبكـه. ليس صحيحـاً أن إيليا إيلتش (رئيس شـرطتنا) قـد وصل على عربة تجري بسرعة كبيرة فما إن نزل من العربة حتى أسرع يشهر قبضتيه على المتظاهرين. فلا شـك أن إيليا ايلتش كان يحب في الأحوال العادية أن يعدو بمركبتـه الصفراء سـريعاً، وأنه بينما كانت تشـتد حماسـة أفراسـه فتثير حميًّا جميع تجار السـوق، كان هو يقف في المركبة منتصب القامة، متمسـكاً بزنار وضع لهـذا الغرض. مادًّا ذراعه اليمنى كتمثال، فيجتـاز المدينة كلها بأقصى سـرعة. ولكنه لم يسـتعمل اليوم قبضتيه والحق يقال. صحيح أنه لم يسـتطع عنـد نزوله من العربة أن يمتنع عن قذف بعض شـتائم مدوِّية، ولكنه لم يفعل ذلك في الواقع إلّا من باب المحافظة على سمعته. وليس صحيحاً كذلك أن جنوداً قد اسـتُقدموا حاملين بنادق عليها حـراب، وأن فصيلاً من القوزاق قد استُدعي مع بطارية من المدفعية، ببرقية. فمـا هذا كله إلّا أقاويل لم يصدقها حتـى أولئـك الذيـن أشـاعوها. وغيـر صحيـح أيضـاً أن رجـال المطافئ قد استدعوا لرش الجمهور بالماء. كل ما هنالك أن إيليا ايلتش قد غضب غضباً شديداً فصرخ يقول للعمال إنه سيلقيهم في الماء، ولعل هذا الكلام هو الذي ولَّد أسـطورة الرش تلك التي اسـتولت عليها صحف موسـكو وبطرسـبرج. والرواية الأصدق في رأيي هي أن جميع قوات الشرطة الموجودة قد طوَّقت الجمهـور في البداية، ثم أسـرعوا يوفـدون إلى فون لمبكه رسـولاً وثب إلى عربة رئيس الشرطة ومضى نحو سكفورشنيكي التي كان فون لمبكه قد ذهب إليها على مركبته منذ نصف ساعة...

إننـي لأعترف مع ذلك بأني ما زلت أتسـاءل كيف أمكنهـم أن يقلبوا هذا المسعى الذي قامت به جماعة بسيطة من أجل أن تقدم عريضة للحاكم، أقول كيـف أمكنهـم أن يقلبوا هذا المسـعى علـى الفور ـ و إن يكن عـدد الجماعة سبعين شخصاً ـ إلى ثورة زعموا أنها تهدد أسس الدولة نفسها؟ ولماذا أسرع فون لمبكه نفسـه إلى قَبول هذه الفكرة والتسـليم بها حين وصل بعد عشرين دقيقـة؟ إننـي أميل إلـى الاعتقـاد (وليس ذلـك إلّا رأياً شـخصياً أيضـاً) بأن إيليـا إيلتش، وهو صديـق حميم لمدير المصنع، قـد رأى أن من المفيد إبراز المظاهرة لفون لمبكه في هذه الصورة، حتى لا يخطر ببال فون لمبكه أن ينظر في مطالب العمال وأن يدرسها. ولكن يجب أن نذكر أن فون لمبكه نفسه هو الـذي كان قـد أيقظ هذه الخطة فـي ذهن رئيس الشـرطة. إن الحاكم ورئيس الشـرطة كانا في تلك الأيام الأخيرة قد عقدا عدة اجتماعات سـرية مشـبوهة وإن تكن غامضة مبهمة، اسـتنتج منها رئيس الشـرطة أن الحاكم يأخذ مسألة المنشـورات التحريضية مأخذ الجد كثيراً، ويقلق لها أشـد القلق، وأنه مقتنع بـأن العمـال ينتظرون صدور الأمر إليهـم ليقوموا بثورة شـاملة. كان الحاكم يبـدو متشـبثاً بهـذه الفكرة تشـبثاً يبلغ مـن القوة أنه لـو كذَّبتها الوقائع لشـعر بأسـف. ولقد حدَّث صاحبنا الخبيث إيليا إيلتش نفسـه فقـال: "وإن الحاكم يريد أن تعترف بطرسبرج بهمته ونشاطه. لمَ لا؟ إن هذا يناسبنا كثيراً!".

أمـا أنـا فأعتقد بأن المسـكين آندره أنطونوفتش كان عاجـزاً عن أن يتمنى قيام ثورة ليتاح له أن يبرز و يتميَّز. إنه موظف سـليم الخلق حي الضمير، ظل محتفظاً ببراءته إلى أن تزوج. وهل يكون الذب ذنبه إذا شـاءت الأقدار أن لا تكتفي له بالوظيفة البسيطة المفيدة التي كان يطمح إليها، وبامرأة صغيرة كان يتـوق إلى زواجها، بل وضعت فـي طريقه أميرةً عمرها أربعـون عاماً أرادت أن ترفعـه إلى مسـتواها؟ إني لأعـرف معرفةً تكاد تكون مؤكـدة أنه منذ ذلك الصباح المشـؤوم إنما ظهرت أولى الأعـراض القاطعة لذلك المرض الذي قـاد آنـدره أنطونوفتش إلى سويسـرا في ما قـال، وأودعه في تلك المؤسسـة الخاصة المعروفة التي أخذ يسـترد فيها عافيته وقواه. ولكن مع تسـليمنا بأن

تلك العلائم الواضحة إنما ظهرت في ذلك الصباح، فمن الممكن أن نسلِّم، في رأيي، بأن وقائع مماثلة وإن تكن غير قاطعة إلى هذا الحد، يمكن أن تكون قد حدثت منذ الليلة البارحة. إنني أعرف من مصدر موثوق به (افرضوا أن جوليا ميخائيلوفنا قد أفضت إليَّ بأسرارها، لا في عهد انتصاراتها، بل بعد ذلك، حين أصبحت نهباً لما يمكن أن يوصف بأنه نصف ندم، لأن النساء لا يندمن ندماً كاملاً في يوم من الأيام)، إنني أعرف إذًا من مصدر موثوق به أن آندره أنطونوفتش قد ذهب إلى امرأته في الليلة السابقة، في نحو الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، فأيقظها من نومها لتسمع "إنذاره". لقد طلب منها ذلك بلهجة تبلغ من الصرامة أنها اضطرت أن تنهض عن السرير مستاءة، مغطاة الرأس بالورق الذي يُلفُّ به الشعر لتجعيده، فجلست على مضجع، و أخذت تصغي إلى كلام زوجها رغم ما ينم عنه وجهها من احتقار ساخر. وعندئذ إنما أدركت لأول مرة ما آلت إليه حال زوجها. فشعرت بجزع. ولكنها بدلاً من أن تعترف بأخطائها وتلطِّف سلوكها، أخفت جزعها وعنّدت مزيداً من العناد. أفترض أنها، كسائر الزوجات، كانت تلتزم إزاء زوجها موقفاً جُرِّب كثيراً. وهذا الموقف الذي سبق أن أحنق آندره أنطونوفيتش في كثير من الأحيان إنما هو الصمت المزدرى يدوم ساعةً أو ساعتين أو ربما أربعاً وعشرين ساعةً وربما دام ثلاثة أيام. إنه صمت عنيد لا يمكن أن يقطعه شيء مما قد يقوله أو يفعله فون لمبكه. والحق أن هذه الطريقة هي فوق ما يطيقه إنسان حسَّاس. هل أرادت جوليا ميخائيلوفنا أن تعاقب زوجها على الأخطاء التي ارتكبها في الآونة الأخيرة وعلى الحسد الذي أثارته في نفسه المواهب الإدارية لدى زوجته؟ أكانت مستاءةً من الملاحظات التي أبداها لها بشأن سلوكها مع شباننا ومع مجتمعنا كله، دالةً على أنه لا يفهم شيئاً من أهدافها السياسية الناعمة العميقة؟ أكانت غاضبةً من أنه يغار عليها من بطرس ستيفانوفتش هذه الغيرة الغبية التي لا سبب لها ولا داعي إليها؟ المهم على كل حال أنها قررت أن لا تذعن ولا تخضع رغم أن الوقت هو الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، ورغم أن آندره أنطونوفتش كان يبدو مضطرباً اضطراباً

غريباً. كان خارجاً عن طوره، يذرع أرض الغرفة في جميع الاتجاهات، فقال لهـا، ولو بطريقة مشوشـة في الواقع، كل مـا كان يعتمل في قلبه، لأنه "أصبح لا يطيـق صبراً". أعلن لها أولاً أن جميع الناس يسـخرون منه، ويجرُّونه "من طـرف الأنف". "لا يهمني التعبيـر"، كذلك صرخ يقول بصوت حادٍ رداً على ابتسـامتها السـاخرة. "نعم، من طرف الأنف!... هذه هي الحقيقة... فاعلمي يـا سـيدتي أنني أرفض هذا... لقـد آن الأوان يا سـيدتي! اعلمي أن ليس هذا وقـت الضحك والغندرة!... لسـنا الآن في مخدع امرأة من نسـاء المجتمع. وإنما نحن نمثل إنسـانين مجرَّدين إن صح التعبير، التقيا في بالون ليتكاشـفا ويقـولا الحقيقـة. (واضـح أنـه كان مرتبكاً مشوشـاً فـلا يحسـن التعبير عن أفكاره، الصائبة على كل حال). إنك أنت يا سـيدتي، أنت التي أخرجتني من ظرفـي القديـم. وأنا لـم أقبل هٰذا المنصـب إلّا من أجلك، في سـبيل إرضاء مطامحك... أتبتسـمين سـاخرة؟ لا تشـعري بالانتصار... انتظري قليلاً!... اعلمـي يا سـيدتي، أنني كان في وسـعي أن أنهض بأعباء هـذا المنصب على خيـر وجه، لا بأعباء هذا المنصب وحده، بل بأعباء مناصب أخرى أخطر منه شـأناً عشـر مرات، لأنني أملك الكفـاءات اللازمة. ولكنني لا أسـتطيع ذلك معـك أنت يا سـيدتي. فبوجودك تنعـدم كفاءاتي. ذلك أن من المسـتحيل أن يسـتقيم العمـل مع وجود مركزين. وأنت قد خلقـت مركزين: واحداً عندي، وواحداً عندك، في مخدعك. مركزان للسـلطة يا سيدتي. ولكنني لن أحتمل هذا. لا. لن أحتمله. ففي الإدارة، كما في البيت، لا يمكن أن يكون إلّا مركز واحـد. يسـتحيل أن يكون هناك مركزان... ما هو موقفـك؟ إن علاقتنا تنحل إلـى مـا يلي: تبرهنين لي في كل سـاعة علـى أنني تافه، وعلـى أنني غبي، بل على أنني جبان. وأنا، في كل سـاعة أيضاً، أجدني مضطراً اضطراراً ذليلاً إلى أن أبرهـن لك على أنني لسـت تافهاً ولا غبياً، وعلى أنـني بنبلي أُذهل جميع الناس. أليس هذا مذلاً لنا كلينا؟".

هنـا أخذ الـزوج يضرب الأرض بقدميه ضرباً شـديداً، حتـى رأت جوليا ميخائيلوفنا أنها مضطرة أن تنهض مهيبة الهيئة صارمة الملامح. فسـرعان ما

هبط غضب الزوج. ولكنه سقط عندئذ في فرط الحساسية وأخذ يبكي منتحباً (نعم، منتحباً) لاطماً صدره، فاقداً صوابه فقداً تاماً بتأثير الصمت العنيد الذي تصرّ عليه جوليا ميخائيلوفنا. دام ذلك خمس دقائق. ثم إذا به يزل لسانه زللاً ما بعده زلل، فيقول إنه يغار على امرأته من بطرس ستيفانوفتش. وإذ أدرك على الفور أنه ارتكب حماقة ضخمة، فإنه لم يلبث أن غضب غضباً مسعوراً، وأخذ يصرخ قائلاً إنه لن "يسمح بإنكار وجود الله"، وإن "صالونها هذا بؤرة كفر وجحود"، وإن على الحاكم أن يكون مؤمناً بالخالق، وكذلك يجب أن تكون زوجة الحاكم أيضاً، وأنه قد ضجر واشمأز من جميع هؤلاء الشبان. وأضاف يقول: "إن من واجبك أنت يا سيدتي، نعم من واجبك أنت، حرصاً على كرامتك نفسها، أن تدعمي زوجك وأن تعلني للملأ جهاراً أنه ذكي، حتى و لو كان عاجزاً (فكيف ولست بعاجز!) ولكن الواقع هو أنك أنت السبب في أن الناس يحتقرونني هنا، فأنت التي تحرضينهم عليَّ!...". ثم صرخ قائلاً: إنه سيعدم قضية المرأة إعداماً، وإنه سيمنع من الغد تلك الحلقة السخيفة التي تزمع إقامتها لمعونة المربيات (شيطان يأخذهن!)، وإنه سيطرد من الإقليم، بواسطة قوزاقي، أولَ مربية يلقاها. "سأفعل هذا عمداً، عمداً". كذلك كان يصيح. هل تعلمين أن التافهين الذين يحيطون بك يحاولون إثارة العمال، وأنني على علم بأفعالهم هذه؟ هل تعلمين أنهم يوزعون في المدينة منشورات تحريضية، عن عمد، عن عمد؟ هل تعلمين أنني أعرف أسماء أربعة من هؤلاء الأشقياء، وأنني أفقد عقلي وأصير مجنوناً، مجنوناً، مجنوناً؟!!".

ولكن جوليا ميخائيلوفنا قطعت الصمت حينذاك، وأعلنت بلهجة قاسية أنها هي نفسها مطلعة منذ زمن طويل على هذه النيات الإجرامية، ولكن هذا كله لا قيمة له، وأن زوجها يسرف في أخذ الأمر مأخذ الجد، وأنها تعرف لا الأنذال الأربعة الذين يعرفهم فحسب، بل تعرف كذلك جميع الآخرين (هنا كانت تكذب)، لكنها لا يخطر ببالها أن تصبح مجنونة، حتى إنها تثق بعقلها وذكائها أكثر من أي وقت مضى، وتأمل أن تتم مهمتها على أحسن

وجه: تشجع الشبان، وتُسمعهم صوت العقل، وتُبرز لهم فجأة أن أغراضهم مكشوفة، ثم تقترح على نشاطهم أهدافًا أقرب إلى الرشاد وأسمى وأرفع. فما إن سمع أنطون أنطونوفتش هذا الكلام حتى جُنَّ جنونه! إذًا لقد ضحك عليه وعبث به بطرس ستيفانوفتش مرة أخرى بطريقة تبلغ هذا المبلغ كله من السوء، فهو قبل أن يجيء إليه كان قد كشف لجوليا ميخائيلوفنا عن كل شيء، وهو قد يكون المحرِّض الأساسي على المؤامرة. وها هو ذا أنطون أنطونوفتش يصيح متفجر الغضب: "اعلمي أيتها المرأة الطائشة الفاسدة أنني سأعتقل على الفور عشيقك الخطير، وأنني سأرميه في حفرة مكبلاً بالأغلال، أو أنني... أو أنني سوف ألقي بنفسي من النافذة على مرأى منك!". فكان جواب جوليا ميخائيلوفنا على هذا الكلام أن أطلقت ضحكةً طويلة منهمرة، وقد اخضرَّ لونها من شدة الغضب، ضحكة أشبه بالضحكة التي يسمعها المرء على المسرح الفرنسي حين تأخذ الممثلة الفرنسية التي تتقاضى مائة ألف روبل وتمثل أدوار الغانيات، حين تأخذ تضحك عند أنف زوجها الذي يبيح لنفسه أن يغار. فركض فون لمبكه نحو النافذة، ولكنه توقف فجأة، وعقد ذراعيه على صدره، وحدَّق إلى امرأته بنظرة مروِّعة وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة الموتى، وقال لها بصوت متقطع متوسل: "هل تعلمين، هل تعلمين يا جوليا أن من الجائز أن أرتكب عملاً رهيباً؟". ولكن كلماته استُقبلت بمزيد من الضحك، فما كان منه إلّا أن كزَّ أسنانه، وأنَّ أنةً عميقة، وهُرع لا نحو النافذة بل نحو زوجته مشهراً عليها قبضة يده؟ صحيح أنه لم يهو بيده، لا لم يهو بها قط، ولكن هذه الحركة التي بدرت منه قد أتمت هزيمته. فاصطكت ساقاه، وفرَّ هارباً إلى حجرته، فتهاوى على سريره مرتدياً ثيابه، كما هو، ودفن رأسه تحت الأغطية، ولبث على هذه الحال ساعتين كاملتين، من دون أن ينام، ومن دون أن يفكر في شيء، ولكنه مغموم القلب قد استولى على نفسه يأس كالح. وكانت تهزّه رعدات حمى من حين إلى حين، وتستيقظ في نفسه ذكريات ليس لها أية علاقة بوضعه الراهن: فهو تارةً يتذكر ساعةَ حائطٍ قديمة رآها ببطرسبرج

منذ خمسة عشر عاماً، وتنقصها إبرتها التي تشير إلى الدقائق، وتارة يتذكر الموظف المرح ميليبوا، أحد أصدقائه، ويتذكر العصفور الذي طارداه ذات يوم في حديقة ألكسندروفسكي حتى اصطاداه، فلما اصطاداه فطنا فجأة إلى أن أحدهما كان قد أصبح معاون قاض، فضحك ضحكاً شديداً. ونام أخيراً في نحو الساعة السابعة من الصباح. نام نومًا لذيذاً، ورأى أحلاماً ممتعة. حتى إذا استيقظ في نحو الساعة العاشرة وثب عن سريره، وتذكر فجأة ما قد جرى بالأمس، فلطم جبينه براحة يده. ولم يتناول فطوره، ولم يشأ أن يرى أحداً: لا بلومر، ولا رئيس الشرطة، ولا الموظف الذى جاء ليذكّره بأن عليه في هذا الصباح أن يرأس اجتماعاً يعقده مجلس الإقليم. لم يصغ الى شيء، ولم يرد أن يعرف شيئاً، وأخذ يركض كالمجنون في جميع الغرف التي كانت تشغلها جوليا ميخائيلوفنا، فأعلمته صوفيا أنتروبوفنا، وهي سيدة نبيلة عجوز تقيم عند زوجة الحاكم منذ مدة طويلة، أن جوليا ميخائيلوفنا، ذهبت إلى عند فرفارا بتروفنا في سكفورشنيكي منذ الساعة العاشر، بصحبة عدد كبير من الأشخاص، بغية أن ترى المكان الذي انعقدت النية على إقامة حفلة ثانية فيه بعد خمسة عشر يوماً، كما تم الاتفاق على ذلك مع فرفارا بتروفنا أمس الأول. فاضطرب آندره أنطونوفتش لهذا النبأ اضطراباً شديداً، فعاد إلى حجرته، وسرعان ما أمر بكدن الخيل. لقد أصبح لا يستطيع الاستقرار في مكان. إن نفسه ظامئة إلى جوليا ميخائيلوفنا: ويريد أن يتأملها مرةً أخيرةً على الأقل، وأن يبقى بقربها ولو خمس دقائق! فلعلها تجود عليه بنظرة، لعلها تلتفت إليه، لعلها تبتسم له كما كانت تفعل في الماضي، لعلها تصفح عنه! آه... آه... "ماذا فعلتم بالخيل؟". و بحركة غير إرادية فتح كتاباً ضخماً موضوعاً على المائدة، فإذا هو يقرأ هذه الجملة التي يقولها فولتير في كتابه "كانديد": "كل شيء هو أحسن ما يكون في هذه العالم الذي هو أحسن العوالم الممكنة". فأجرى يده بحركة تدل على الحسرة، وخرج راكضاً. وصاح يأمر الحوذي بقوله: "إلى سكفورشنيكي!".

وقد روى الحوذي في ما بعد أن مولاه لم ينقطع طوال الطريق عن حثّه

على الإسراع، ولكن ما أن شارفا على سكفورشينكي حتى أمره فجأة بأن يرجع أدراجه وأن يعود إلى المدينة قائلاً له: "بأقصى سرعة، أرجوك!". فلما صارا على مقربة من الأسوار "استوقفه من جديد، ونزل من العربة، وعبر الطريق، ودخل في حقل. ولكنه توقف، وأخذ يتأمل الأزهار. ولبث على تلك الحال زمناً. حتى لقد بدا لي ذلك غريباً جداً، بل إنني اضطربت منه اضطراباً شديداً". هذا ما شهد به الحوذي في ما بعد. إنني أتذكر كيف كان الجو في ذلك الصباح: كان يوماً من أيام شهر أيلول (سبتمبر) بارداً صاحياً لكن رياحه شديدة. وأمام آندره أنطونوفتش كان يمتد منظر حزين كئيب، وهو منظر الحقول التي حُصد زرعها منذ مدة طويلة، فليس فيها إلّا بضع زهيرات صفر شبه يابسة تُرعشها الريح. هل خطر بباله أن يشبِّه مصيره بمصير هذه الأزهار التي أذبلتها أولى موجات البرد؟ لا أظن ذلك. بل إنني لعلى يقين من أن خواطره كانت تطوف في بعيد، ولا تلتفت إلى الأزهار، رغم ما قاله الحوذي، ورغم ما راوه مفوَّض الشرطة الذي وصل أثناء ذلك و حكى في ما بعد أنه رأى في يد الحاكم باقة من زهيرات صفر. إن مفوَّض الشرطة هذا، فاسيلي إيفانوفتش فليبوستيروف، الذي وصل إلى مدينتنا منذ مدة قصيرة، كان قد لفت إلى نفسه الأنظار بهمته ونشاطه وحرارته وطاقته الجبارة وقوته الطافحة التي كان يبذلها في تنفيذ أوامر رؤسائه، وكذلك بما يلتزم من اعتدال في الطعام والشراب، وهو اعتدال كأنه وُهب له فطرةً. لقد وثب مفوَّض الشرطة من العربة، ومن دون أن تُربكه المشاغل الغريبة التي كان صاحب السعادة غارقاً فيها، أسرع يقول له بلهجة زائفة إن "المدينة في حالة غليان".

قال آندره أنطونوفتش وهو يلفت إليه وجهاً قاسياً، ولا يبدو عليه أن دُهش بتاتاً، ولا يلوح أنه يتذكر الحوذي والعربة اللذين قاداه إلى هذا المكان، حتى لكأنه في بيته، في حجرته:

ـ هيه؟ كيف؟

ـ أنا مفوض شرطة الحي الأول، فليبوسيريوف. لقد قامت ثورة يا صاحب السعادة!

قال آندره أنطونوفتش يسأله:

ـ أهم النصابون؟

ـ نعم يا صاحب السعادة. إن عمال مصنع شبيجولين يحدثون فوضى.

ـ عمال مصنع شبيجولين...

لا بد أن هذا الاسم قد ذكَّره بشيء ما، حتى لقد ارتعش، ووضع إصبعه على جبينه. وها هو ذا يتجه نحو عربته بخطى بطيئة وهو لا يزال صامتاً حالماً، ثم يصعد إلى العربة ويأمر الحوذي بأن يرجعه إلى المدينة. وتبعه فليبوستيروف راكباً عربته.

إنني أتخيل أن آندره أنطونوفتش قد فكَّر أثناء رحلة العودة هذه تفكيراً غامضاً مبهماً في أمور كثيرة هامة ومع ذلك أستبعد أن يكون عند وصوله إلى المكان قد اتخذ قراراً ما. لكنه ما إن أبصر جمهور "الثائرين" محتشداً حول درجات المدخل، وما إن رأى حبل رجال الشرطة محيطاً بهم، وما إن لمح رئيس الشرطة وألفاه عاجزاً عن القيام بأي عمل (ربما عن قصد)، وما إن وجد نفسه محط أنظار جميع تلك العيون القلقة حتى ازدحم الدم في قلبه، فنزل من العربة أصفر الوجه، وقال بصوت مخنوق لاهث:

ـ انزلوا قبعاتكم، احسروا رؤوسكم!

ثم صرخ يقول على غير توقع من أحد، بل على غير توقع منه نفسه:

ـ اركعوا على ركبكم!

ولعل كل ما حدث بعد ذلك إنما مردُّه إلى أن الأمر قد صدر عنه فجأة من دون توقع. هذا ما يحدث على الجبال الروسية: هل تستطيع الزلاجة التي تنزلق على منحدر من جليد أن تتوقف في منتصف الطريق؟ إن من سوء حظ آندره أنطونوفتش أنه قد ظل إلى ذلك الحين يظهر متساوي المزاج. فهو لم يصرخ في حياته يوماً، ولا ضرب الأرض بقدمه. وأمثال هذا الرجل يصبحون خطرين جداً إذا اتفق لهم يوماً، لسبب من الأسباب، أن أخذت زلاجتهم تنزلق على المنحدر.

أخذ كل شيء من حوله يدور.

وقال بصوت فيه مزيد من الصراخ والحدة والسخف المضحك:

ـ نصابون!

وتقبَّض حلقه. أصبح لا يعرف ماذا عساه يفعل. ولكنه كان يعلم ويحس بكل كيانه أنه سيفعل شيئاً ما.

صاحت أصوات في الجمهور تقول: "رباه!". ورسم عاملٌ شاب إشارة الصليب. وأخذ ثلاثة رجال أو أربعة يركعون. ولكن الآخرين تقدموا كتلةً واحدة وأخذوا يصرخون جميعاً في آن واحد قائلين: "يا صاحب السعادة... لقد اتفقوا معنا على أن يكون أجرنا أربعين كوبكاً... ولكن المدير... إنه لا يجوز له أن..." إلخ، إلخ... لقد كان يستحيل على المرء أن يفهم شيئاً.

وكان آندره أنطونوفتش لا يستطيع أن يدرك ما يحدث، وا أسفاه! كان لا يزال ممسكاً الأزهار بيده. وكان مؤمناً بأن الثورة قامت كإيمان ستيفان تروفيموفتش بأن زلاجةً ستقوده إلى سيبريا حتماً. وكان آندره أنطونوفتش يرى بين جمهور "الثائرين" الذين كانوا يحدِّقون إليه بأعين محملقة، يرى كالحالم في منامه أنه يبصر "محرّضهم، بطرس ستيفانوفتش، بطرس ستيفانوفتش الذي لم تنقطع صورته عن ملاحقة صاحبنا منذ أمس، بطرس ستيفانوفتش الذي يكرهه صاحبنا أشد الكره ويمقته أكبر المقت.

وزأر آندره أنطونوفتش منادياً:

ـ هاتوا السياط!

فهبط على الجمهور صمت كأنه صمت الموت.

تلكم هي الوقائع التي جرت في أول الأمر، في ما ترويه الأخبار وتقدره تخميناتي. أما ما حدث فالأخبار والتخمينات بشأنه أقل دقة ووضوحاً. ومع ذلك نملك بعض المعلومات.

ظهرت السياط بسرعة غريبة، وهذا يحمل المرء على أن يفترض أن رئيس الشرطة كان قد تنبأ بما سيحدث فأعدَّ السياط احتياطاً لكل طارئ. ولكن لم يُجلد إلّا عاملان اثنان، أو ثلاثة عمال في أكثر تقدير. وإنني ألحّ على تقرير هذه الحقيقة، لأنه زُعم زوراً وبهتاناً في ما بعد أن نصف المتظاهرين على

الأقل قد نالتهم عقوبة الجلد، إن لم تكن قد نالتهم جميعاً. وقدا اختُلقت أمور أخرى أيضاً، منها أن سيدة فقيرة لكنها نبيلة المحتد قد مرَّت بالمكان عرضاً في ذلك الحين، فاعتُقلت وجلدت بدون أي ذنب، ومع ذلك قرأت بنفسي قصة هذا الجلد الملفقة، في إحدى جرائد بطرسبرج. ومن ذلك أيضاً أن فتاةً اسمها آفدوتيا بتروفنا تارابيجين قد مرت بالمكان في طريقها إلى الملجأ الذي تعيش فيه، فاختلطت بالمشاهدين مدفوعةً إلى ذلك بحب الاطلاع طبعاً، ولكنها حين رأت ما يحدث لم تملك إلّا أن تهتف قائلة "هذا عار"، وأن تبصق اشمئزازاً. فما كان من الشرطة، في ما قيل، إلّا أن قبضت عليها وجلدتها. وقد استولت الجرائد على هذه القصة حتى لقد نُظِّمت في المدينة حملةُ تبرع للمرأة المسكينة، ساهمت أنا فيها بعشرين كوبكاً. إلّا أنه قد ثبت اليوم أن تارابيجين هذه لم تكن إلّا أسطورة. حتى لقد ذهبت إلى الملجأ بنفسي سائلاً فعلمت أن هذا الاسم مجهول هناك، وقد استاء موظفو الملجأ أكبر الاستياء حين نقلت إليهم الإشاعات التي كانت تجري في المدينة. ولئن ذكرت آفدوتيا بتروفنا المزعومة فلأن ما وقع لها (إذا صح أنه وقع) كاد يقع لستيفان تروفيموفتش بل لعل ذلك الحادث الذي وقع لصاحبي هو الذي ولَّد تلك القصة، مع إبدال اسمه باسم تارابيجين تلك التي لم يعرف أحد من هي.

لقد أفلت مني ستيفان تروفيموفتش، لا أدري كيف، منذ أن وصلنا إلى المكان. إنني وقد أوجست شراً، أردت أن أدور به دورةً لأوصله إلى منزل الحاكم، ولكن حب الاستطلاع استولى على نفسي فوقفت أسأل أحد المارة. فلما التفت بعد ذلك كان ستيفان تروفيموفتش قد اختفى. فأسرعت أركض بغريزتي إلى أخطر مكان فوراً، إذا أحسست أن زلاَّجته هي أيضاً قد أخذت تنزلق على المنحدر، فوجدته شارعاً في العمل فعلاً، فأمسكته من ذراعه فيما أذكر، لكنه ألقى عليَّ نظرة هادئة متكبّرة، وكان وجهه ينم عن فخامة لا حدود لها، وقال لي بصوت فيه شيء من التكسر:

ـ "يا عزيزي"، إذا كانوا هنا، في هذا المكان، على مرأى ومسمع من

جميع النـاس، يتصرّفون هذا التصـرّف بغير أي تحرّج، فما عسـى يُنتظر من "ذاك" مثلاً... إذا أتيح له أن يفعل ما يشاء له هواه؟...

قـال ذلك وهـو يرتعـش اسـتياء، ومدَّ إبهامـه بحركـة تحـدٍ وتهديد نحو فليبوسـتيروف الـذي كان علـى بعـد خطوتيـن منـا، وكان ينظـر إلينـا بعينين محملقتين.

فجنَّ جنون رجل الشرطة غضباً، وصرخ يقول:

ـ "ذاك"؟ من ذا تعني؟ وأنت، من أنت؟

وجـاء نحونا قابضـاً يديه. وردد يلقي سـؤاله بغضب يدل على شـيء من الحيـرة والارتبـاك (يجـب أن أذكـر أنه يعرف سـتيفان تروفيموفتش أحسـن معرفة):

ـ من أنت؟ من أنت؟

فلو انقضت لحظة أخرى لأمسك بتلابيب صاحبي. ولكن شاء حسن الحظ أن يلتفت فون لمبكه عند سماع هذه الصرخات، فتأمل ستيفان تروفيموفتش بانتباه، وبدا عليه التردد كأنه يحاول أن يسـتجمع أفكاره، ثم حرّك يده بإشارة تململ، فتوقف فليبوستيروف، فجررت ستيفان تروفيموفتش، وأخرجته من الجمهور. ولا شك أنه كان يتمنى هو نفسه أن ينسحب.

قلت ملحاً:

ـ بسرعة، بسرعة، إلى البيت، لقد نجونا، ولم يكن ذلك إلّا بفضل لمبكه.

ـ ارجـع إلـى بيتـك يا صاحبـي. ليس مـن حقـي أن أعرِّضـك لمثل هذه المخاطـر. إن المسـتقبل مفتوح أمامك. أنتَ في مسـتهل حياتك، أما أنا فقد "دقت ساعتي"...

وصعد درجات باب منزل الحاكم بخطى ثابتة. وكان البواب السويسـري يعرفنـي، فقلـت له إننا ذاهبـان إلى جوليـا ميخائيلوفنا. وأدخلنـا إلى صالون الاستقبال.

لم أشـأ أن أتـرك صديقي. ولكنني قـدَّرت أن المزيد مـن الكلام لا طائل تحتـه ولا فائـدة منه. كان وضعه وضع رجل ضحى بحياته في سـبيل سـلامة وطنه.

جلسـنا متقابلين. فكنت أنا أقرب إلى باب الدخول، وكان هو في الطرف الآخـر مـن الصالـون، وقد جلس خافـضَ الرأس مفكـراً، واضعـاً يديه على عصاه، ممسـكاً باليسـرى قبعته ذات الحافة العريضة. ولبثنا على هذه الحال زهاء عشر دقائق.

2

دخل لمبكه فجأة بخطى سـريعة، يتبعه رئيس الشـرطة. فألقى علينا نظرة ذاهلـة ثـم اتجه نحو حجـرة عمله مـن دون أن يلقي إلينا بالاً. ولكن سـتيفان تروفيموفتـش نهض وسـدَّ عليه طريقه، وكان لقامتـه المديدة وهيئته الخاصة أثرهما فتوقف لمبكه.

دمدم لمبكه يقول مدهوشاً، وكأنه يسأل رئيس الشرطة، ولكن من دون أن يكف عن تأمل ستيفان تروفيموفتش بانتباه:

ـ من هذا؟

فأجاب ستيفان تروفيموفتش وهو ينحني بوقار كبير:

ـ أنا ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي، الموظف المحال على التقاعد.

وظل صاحب السعادة يحدّق إليه، ولكن بنظرة كابية.

سـأله الحاكـم بتلـك اللهجة التي تدل علـى نفاد الصبر وعلـى الاحتقار، تلك اللهجة التي يسـتعملها كبار الموظفين في العادة، ومدَّ أذنه نحو سـتيفان تروفيموفتش الذي لا شك أنه واحد يطلب التماساً أو يرجو شفاعة.

قال ستيفان تروفيموفتش:

ـ لقـد فتَّش منزلي في هـذا اليوم موظفٌ قـال إنه يفعل ما يفعـل بأمرٍ من صاحب السعادة. فأنا أريد أن...

ـ ما اسمك؟ ما اسمك؟

كذلك سـأله فون لمبكه نافد الصبر وكأنه بدأ يفهم، فكرر صاحبي اسـمه بوقار أعظم أيضاً.

ـ آ...آ... هو إذًا أمر تلك الدعاية التي تقوم بها... أيها السـيد، لقد ظهرت

بمظهر يدل على أنك... هل أنت أستاذ جامعة؟ هل أنت أستاذ جامعة؟

ـ في الماضي تشرفت بإلقاء بضع محاضرات على الشباب في الجامعة، و...

ـ على الشباب؟ على الشباب؟

بدا على لمبكه الارتجاف والارتعاش، مع أنني أراهن على أنه لمَّا يدرك الأمر بعد، ولا كان يعرف من ذا يكلم.

وصاح يقول وقد استبد به غضب مفاجئ:

ـ لن أقبل هذا! لن أسمح بهذا! أنا لا أقبل الشباب. إنهم يوزعون منشورات تحريضية في كل مكان! هذا هجوم على المجتمع. هذه قرصنة. أنتم جميعاً نصَّابون!... ماذا تطلب مني؟

ـ إن زوجتك هي التي طلبت مني أن أقرأ بضع صفحات في الحفلة التي تقيمها غداً. أنا لا أطلب شيئاً. أنا أدافع عن حُقوقي...

ـ في الحفلة؟ الحفلة لن تكون أيها السيد! لن أسمح بإقامة حفلتكم هذه؟ محاضرات؟ محاضرات؟

كذلك زأر غاضباً.

فقال ستيفان تروفيموفتش:

ـ أود يا صاحب السعادة أن تعاملني بمزيد من الكياسة، من دون أن تضرب الأرض بقدمك، ومن دون أن تصرخ في وجهي كما يصرخ المرء في وجه صبي.

ـ هل تعرف من ذا تكلِّم؟

ألقى عليه فون لمبكه هذا السؤال واحمر احمراراً شديداً. فأجاب ستيفان تروفيموفتش:

ـ أعرف من ذا أكلّم يا صاحب السعادة.

ـ أنا أحمي المجتمع، وأنت تريد تهديمه. نعم، أنت ت...هدِّ...م المجتمع! ثم إنك... تذكرتُ الآن... ألم تكن معلّماً عند الجنرال ستافروجين؟

ـ نعم... كنت... معلّماً... عند الجنرال ستافروجين.

ـ وخلال عشرين عاماً ما برحت تنشر من حولك الأفكار التي... أنظر إلى ثمارها!... أظن أنني لمحتك منذ قليل في الساحة. حذار مع ذلك أيها السيد! إن ميولك معروفة. ثق أنني أراقبك. لا يمكن أن أسمح بمحاضرات، لا، مستحيل. لا تطلب مني أنا مثل هذا الطلب.

وهمَّ أن يتابع طريقه. فقال ستيفان تروفيموفتش:

ـ أكرر أنك مخطئ يا صاحب السعادة. إن زوجتك هي التي طلبت مني لا أن ألقي محاضرة بل أن أقرأ شيئاً في حفلة الغد. ولكنني الآن أرفض هذا الطلب. وإنما أنا جئت لأرجوك أن تتفضل فتشرح لي سبب تفتيش بيتي اليوم إذا كان ثمة سبب. لقد أُخذت مني كتب وأوراق شتى ورسائل أحرص عليها، وحُمل ذلك كله على نقالة...

هنا انتفض لمبكه واحمر احمراراً شديداً وسأله:

ـ من الذي فتش بيتك؟

لقد أدرك أخيراً ما يجري. واستدار بحركة مفاجئة نحو رئيس الشرطة. وفي تلك اللحظة نفسها ظهرت عند عتبة الباب قامة بلومر الطويلة المحدودبة الخرقاء.

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يومئ إلى بلومر:

ـ هذا هو الذي فتش بيتي:

فتقدم بلومر معترفاً بفعلته ولكنه غير نادم عليها. فقال له فون لمبكه غاضباً حانقاً:

ـ "إنك لا تفعل إلّا حماقات" (بالفرنسية).

ثم لم يلبث أن عاد إلى صوابه وتغير وضعه. فقال متمتماً محمر الوجه متحيّر الهيئة:

ـ معذرةً... ربما كان ذلك كله خراقةً لا أكثر... ربما كان غلطة... نعم، غلطة...

قال ستيفان تروفيموفتش:

ـ يا صاحب السعادة لقد أتيح لي في عهد شبابي أن أشهد واقعة ذات دلالة خاصة. في ذات مساء، في دهليز مسرح من المسارح، اقترب سيدٌ من أحد المشاهدين بغتةً، فصفعه على وجهه صفعة مدوية على مرأى من جميع الناس. ولكنه سرعان ما أدرك أن الرجل الذي ناله بهذا الأذى ليس هو من كان يريد أن يصفعه وإنما هو رجل يشبهه بعض الشبه، فما كان منه إلّا أن نطق بهذه الكلمات نفسها التي تقولها أنت يا صاحب السعادة، ولكنه قالها بلهجة غاضبة مستعجلة كرجل لا يريد أن يضيِّع وقته بغير طائل: "لقد أخطأت... معذرة... هذه غلطة... غلطة لا أكثر...". فلما أخذ الرجل المظلوم يحتج، لأنه ظل مستاءً رغم كل شيء، ألحَّ الظالم قائلاً بانزعاج: "ألا يكفي أنني اعترفت بأنها غلطة. فما بالك تصيح هذا الصياح!".

قال فون لمبكه وهو يبتسم ابتسامة بغير معنى:

ـ هذا... مضحك جداً... مضحك حتماً... و لكن ألا ترى مدى ما أنا فيه من شقاء؟

لقد رفع صوته حتى كاد يكون صراخاً أثناء النطق بهذه الكلمات، ويخيَّل إليَّ أنه همَّ أن يخفي وجهه بيديه.

فهذه الصيحة الأليمة، بل أكاد أقول هذه الانتحابة المفاجئة، كانت فوق ما يحتمل قلب الإنسان. لعل آندره أنطونوفتش لم يدرك إدراكاً واضحاً ما جرى منذ الأمس، إلّا في هذه اللحظة. وسرعان ما أعقبت هذا الإشراقَ المباغت نوبة يأس ذليل لا حدود له. من يدري؟ لعله كان سينفجر باكياً ناشجاً بعد لحظة أخرى. تأمله ستيفان تروفيموفتش مبهوتاً مصعوقاً، ثم حنى رأسه وقال بصوت مؤثر:

ـ يا صاحب السعادة، لا تلق بالاً إلى شكوى رجل عجوز نقّاق. ولكن قل لهم أن يردُّوا إليَّ كتبي وأوراقي...

واضطر ستيفان تروفيموفتش أن يقطع كلامه لأن جوليا ميخائيلوفنا داهمت الغرفة مع حاشيتها صاخبةً لاغطة. و لكن يجب عليَّ أن أصف المشهد الذي أعقب هذا، أن أصفه بجميع تفاصيله ما وسعني ذلك.

3

أقول أول ما أقول إن الحاشية كلها، وقد وصلت على ثلاث عربات، قد ظهرت في الصالة الواسعة دفعةً واحدة. إن لميخائيلوفنا مدخلاً خاصاً يقع على يسار الباب ويؤدي إلى حجراتها رأساً، ولكن الجميع قد مروا بالصالة، ربما لمعرفتهم بأن ستيفان تروفيموفتش لا بد أن يكون فيها، لأنهم قد أطلعهم ليامشين على ما وقع له، كما أطلعهم على قضية عمال مصنع شبيجولين. كانت جوليا ميخائيلوفنا غاضبة من ليامشين لأسباب لا أعرفها، فلم تدعه إلى مشاركتهم في رحلتهم إلى سكفورشنيكي. لذلك عرف قبل غيره ما حدث بالمدينة. وقد سرَّه كثيراً أن ينقل أنباء سيئة كهذه الأنباء، فاستأجر حصاناً عجوزاً وأسرع يجري في طريق سكفورشنيكي للقاء جوليا ميخائيلوفنا. وأغلب ظني أن جوليا ميخائيلوفنا رغم ثقتها قد شعرت ببعض الاضطراب والقلق، ولو إلى حين، حين علمت بهذه الأحداث الخارقة. ليس الجانب السياسي من هذه الأحداث هو الذي يقلقها على كل حال: فقد سبق أن أوحى إليها بطرس ستيفانوفتش مراراً أن المشاغبين من عمال مصنع شبيجولين لا بد أن يُجلدوا، وكان بطرس ستيفانوفتش يتمتع لديها بثقة مطلقة منذ بعض الوقت. ولا شك أنها قالت تحدّث نفسها: "لكنه سيدفع لي ثمن هذا غالياً على كل حال، وكانت تعني زوجها طبعاً. يجب أن أذكر عابراً أن المصادفة شاءت بما يشبه العمد أن لا يشارك بطرس ستيفانوفتش هذه المرة في الرحلة إلى سكفورشنيكي، وأنه لم يُر طوال ذلك الصباح. ويجب أن أذكر أيضاً في هذه المناسبة أن فرفارا بتروفنا قد رجعت إلى المدينة مع ضيوفها (في مركبة جوليا ميخائيلوفنا)، مصرة إصراراً مطلقاً على المشاركة في آخر اجتماع للجنة تنظيم الحفلة، وهو الاجتماع الذي يجب أن يُعقد في الغد. فلا بد إذًا أن تكون الأنباء. التي نقلها ليامشين عن ستيفان تروفيموفتش قد همتها كثيراً، بل لعلها أقلقتها أيضاً.

وقد صُفِّي الحساب مع أندره أنطونوفتش بغير إبطاء. إن الحاكم قد حزر ما

ينتظره منذ رأى زوجته الفاتنة. كانت مشرقة الوجه أخاذة المحيا، ترتسم على شفتيها ابتسامة لذيذة، وها هي ذي تقترب من ستيفان تروفيموفتش بحركة رشيقة، فتمدُّ إليه يدها الصغيرة المغمدة في قفاز وتخاطبه بأرق عبارات المديح: لكأنها لم تفكر طوال هذا الصباح إلّا في الطريقة التي ستستقبل بها ستيفان تروفيموفتش معبِّرة له عن فرحها برؤيته عندها أخيراً. لم تشر أي إشارة إلى تفتيش منزله في هذا الصباح، كأنها تجهل كل شيء. ولم تقل لزوجها كلمة واحدة، ولا ألقت عليه نظرة، فكأنه غير موجود. وفي مقابل ذلك أسرعت تصادر ستيفان تروفيموفتش وتقتاده إلى الصالون، متظاهرةً بأنها تجهل أنه كان بسبيل مكاشفة مع آندره أنطونوفتش، لتدل بذلك على أن هذه المكاشفة لا قيمة لها البتة. يخيَّل إليَّ أن جوليا ميخائيلوفنا، رغم ما أظهرته من أبهة وعظمة، قد ارتكبت في هذه المرة غلطة ضخمة، ولا شك أن كارمازينوف قد شارك في ذلك مشاركة خاصة على كل حال. إنه تلبيةٌ لإلحاح جوليا ميخائيلوفنا كان قد اشترك في رحلة ذلك الصباح، فبذلك زار فرفارا بتروفنا ولو زيارة غير مباشرة، فافتتنت بتروفنا بزيارته. وحين دخل الآن آخر الداخلين فرأى ستيفان تروفيموفتش منذ صار في عتبة الباب. أطلق صيحة تعبر عن الحبور، وركض إليه يعانقه، فبذلك قطع الكلام على جوليا ميخائيلوفنا.

ـ ما أكثرها من سنين!... أخيراً... "أيها الصديق الممتاز"!...

وقبَّله مادًّا إليه خدَّه، فرأى ستيفان تروفيموفتش نفسه مضطراً إلى تقبيل الخد الممدودة إليه، فاقداً صوابه بعض الشيء.

وقد قال لي ستيفان تروفيموفتش في ذلك المساء، حين تذكّر أحداث النهار: "يا عزيزي، لقد تساءلت في تلك اللحظة من منا نحن الاثنين أشد جبناً وحقارة من الآخر: أهو، الذي قبلني ليذلني بعد هنيهة، أم أنا، الذي أحتقره وأحتقر خدَّه، ومع ذلك قبَّلت تلك الخد في حين كان يمكنني أن أشيح عنها... آه!...".

قال له كارمازينوف:

ـ هيه! تكلم! قصَّ عليَّ كل شيء.

كأن المرء يستطع أن يروي ببضع كلمات قصة حياة خمسة وعشرين عاماً. ولكن هذا الطيش كان في نظره علامة لهجة تظهر "التفوق".

قال ستيفان تروفيموفتش بتعقل كبير، وبلهجة ليس فيها إذًا أي إظهار للتفوق:

ـ لاحظ أننا التقينا أخر مرة بموسكو، في الوليمة التي أقيمت تكريماً لخرانوفسكي منذ أكثر من أربعة وعشرين عاماً...

فقاطعه كارمازينوف يقول بلهجة الألفة وبصوت حاد، وهو يشد على كتفه متحمساً تحمساً فيه شيء من الإفراط:

ـ "ذلك الإنسان العزيز!"... انقلينا إلى مسكنك بأقصى سرعة يا جوليا ميخائيلوفنا، فسنمكث هناك، فيروي لنا كل شيء.

وقد قال لي ستيفان تروفيموفتش في مساء ذلك النهار وهو يرتجف اشمئزازاً وتقززاً: "مع ذلك لم يكن بيني وبين هذا النمام العجوز أية صداقة حميمة في يوم من الأيام. وكنت في شبابي أكرهه وكان يبادلني كرهاً بكره طبعاً!"...

سرعان ما امتلأ صالون جوليا ميخائيلوفنا. وكانت فرفارا بتروفنا مهتاجة اهتياجاً شديداً، رغم أنها كانت تحاول أن تظهر بمظهر من لا يبالي. لكنني رأيت نظراتها عدة مرات مثقلةً بكره وبغض تلقيهما على كارمازينوف، ورأيت هذه النظرات مثقلةً بغضب تصبه على ستيفان تروفيموفتش، غضب مستبَق، غضب تغذيه غيرة و يغذيه حب: فلو أن ستيفان تروفيموفتش غلط هذه المرة فرضي أن يغلبه كارمازينوف على مرأى من الجميع، إذن لكان يمكن في ما أعتقد أن تهجم عليه فتخنقه. نسيت أن أقول إن ليزا كانت هناك أيضاً. ما رأيتها في حياتي أشد مرحاً مما كانت حينذاك، ولا أقل اكتراثاً، ولا أزخر فرحاً. وكان مافريكي نيقولايفتش إلى جانبها طبعاً. وبين جمهرة السيدات الشابات، والشبان الأوغاد الذين كان المجون يُعدُّ في نظرهم مرحاً وكان الاستهتار البشع يُعد في نظرهم ذكاءً، رأيت وجوهاً أخرى أيضاً: رأيت

بولندياً ماراً بالمدينة كان يتحرك ويسعى حول الجميع، ورأيت طبيباً ألمانياً هو عجوز قوي البنية كان يضحك ضحكاً مجلجلاً لكل كلمة من الكلمات الظريفة التي يطلقها هو، ورأيت أميراً شاباً واصلاً من بطرسبرج هو نوع من آلة متحركة، بارد الهيئة مرسوم القسمات، تحيط بعنقه ياقة عالية علواً خارقاً. ولكن كان واضحاً أن جوليا ميخائيلوفنا فخورةٌ جداً بوجود هذا الضيف، وأنها شديدة الاهتمام بما قد نراه من رأي في صالونها.

بدأ ستيفان تروفيموفتش يتكلّم فقال وهو يجلس على الديوان جلسة رشيقة، وينطق بالكلمات نطقاً شبيهاً بنطق الكاتب الكبير:

ـ يا سيد كارمازينوف، إن حياة إنسان ينتسب إلى عصرنا ويملك اعتقادات معينة، لا بد أن تكون متشابهة بالضرورة، ولو امتدت على فترة خمس وعشرين سنة...

تخيل الطبيب أن ستيفان تروفيموفتش قد قال شيئاً مضحكاً جداً، فانفجر يقهقه قهقهةً منقطعة تشبه أن تكون صهيل خيل. فرشقه ستيفان تروفيموفتش بنظرة تصطنع معنى الدهشة. ولكن ذلك لم يحدث في الشيخ أي أثر. والتفت الأمير نحوه كتلةً واحدة أيضاً، وتفرس فيه يفحصه بنظارتي أنفه، ولكن من دون أي تعبير عن حب الاطلاع.

تابع ستيفان تروفيموفتش كلامه فقال مكرراً عن عمد، متفاخراً من دون تحرج من اختيار الألفاظ:

ـ ... لا بد أن تكون متشابهة بالضرورة. تلك كانت حياتي خلال ربع القرن هذا، و"لما كان عدد الرهبان أكبر من عدد العقول، (بالفرنسية)، ولما كنت ممن يشاركون في هذا الرأي كل المشاركة، فقد ترتب على ذلك أنه في خلال ربع القرن هذا من الزمان...

دمدمت جوليا ميخائيلوفنا تقول وهي تلتفت نحو فرفارا بتروفنا التي كانت جالسة. إلى جانبها:

ـ رائع... الرهبان...

فأجابت فرفارا بتروفنا على ذلك بنظرة تفيض زهواً وفخراً. ولكن

كارمازينوف لم يستطع أن يحتمل هذا النجاح الذي ظفرت به الجملة الفرنسية، فأسرع يقاطع ستيفان تروفيموفتش قائلاً بصوته الحاد الصارخ:

ـ أما أنا فهادئ من هذه الناحية. إنني أقيم في كارلسروهه منذ سبعة أعوام، وحين قرر المجلس البلدي في العام الماضي إنشاء قناة جديدة للماء شعرت في أعماق نفسي أن إنشاء القنوات في كارلسروهه أعزُّ في نفسي وأحب إلى قلبي وأهم في نظري من جميع أحداث وطني الجميل... ومن جميع ما يسمى هنا بالإصلاحات وما شاكل ذلك...

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يزفر زفرة ذات دلالة، ويحني رأسه:

ـ إنني أفهمك، وإن كان قلبي يحتج.

تهللت جوليا ميخائيلوفنا جذلاً: إن الحديث يجري الآن مجرى جدياً لبرالياً.

وسأل الطبيب العجوز مستفهماً:

ـ أهي أقنية مجارٍ؟

ـ بل أقنية لمياه الشرب يا دكتور، أقنية لمياه الشرب، حتى لقد ساعدتهم في كتابة المشروع.

فانطلق الطبيب يضحك ضحكاً قوياً، وقلَّده آخرون، مستهزئين به. ولكنه لم يفطن إلى ذلك، حتى لقد بدا عليه الحبور من إشاعته هذا الجو من المرح.

قالت جوليا ميخائيلوفنا مستعجلةً التدخل في الحديث:

ـ معذرةً يا كارمازينوف، إنني لا أستطيع أن أوافق على رأيك. ولست أستغرب أن تشعر براحة في مدينة كارلسروهه، ولكنك تحب أن تموِّه على الآخرين، ونحن في هذه المرة لا نصدِّقك. من ذا بين جميع الكتاب الروس، الكاتبُ الذي أبدع نماذج تمثل الفكر الحديث أصدق تمثيل، وتنبأ بمشكلات عصرنا أكثر من سائر الكتاب، ودلَّ على الملامح المميِّزة لرجل العمل المعاصر أوضح دلالة؟ هو أنت، أنت وحدك، ولا أحد سواك. فكيف تريد أن تقنعنا الآن بأنك لا تكترث بروسيا، وبأن اهتمامك الأكبر إنما ينصب على إنشاء أقنية مياه الشرب بمدينة كارلسروهه؟ هأ هأ هأ!

قال كارمازينوف بصوته المألوف:

ـ نعم، هذا حق. لقد صورت في شخصيته بوجوديين جميع عيوب أنصار السلافية، وصورت في شخصية نيكوديموف جميع عيوب أنصار الغرب...

دمدم ليامشين يقول:

ـ "جميعهم"! قالها بنفسه!

ـ ولكنني لا أفعل هذا إلّا عابراً، تزجيةً للوقت فحسب، وإرضاءً للمطالب المستمرة لدى أهل وطني...

عادت جوليا ميخائيلوفنا إلى الكلام فقالت متحمسة:

ـ لعلك تعلم يا ستيفان تروفيموفتش أننا سيفرحنا غداً أن نسمع صفحات جميلة ممتعة... هي أثر من أحدث وأروع الآثار التي كتبها سيميون إيغوروفتش. العنوان: "شكراً". إنه يعلن لنا في هذا العمل الذي ألفه أنه لن يكتب بعد اليوم أبداً، بأية حال من الأحوال، ولو جاءت جميع ملائكة السماء أو جميع شخصيات المجتمع العالي تضرع إليه أن ينثني عن عزمه وأن يتراجع عن قراره، الخلاصة أنه يدع القلم إلى الأبد. وهذا الأمر الرشيق الجميل الذي جعل عنوانه "شكراً"، إنما يتجه به إلى الجمهور شاكراً له ما أبدى من حماسة دائمة متصلة لأعماله طوال مدة حياته الأدبية التي نذرها لخدمة الفكر اللبرالي الروسي.

كانت جوليا ميخائيلوفنا في ذروة الافتتان والحبور.

فقال كارمازينوف وقد استسلم لحنان القلب ورقة العاطفة:

ـ نعم، سأودع الجمهور. سأقرأ "شكراً"، ثم أرحل... وهناك، في كارلسروهه... سأغمض العينين...

إنه، كعدد كبير من كبار كتابنا (وما أكثرهم، كبار كتابنا) لم يستطع أن يصمد للمديح وأن يقاوم تأثيره، بل ضعف له بسرعة، رغم ذكائه، وذلك أمر يُغفر له على كل حال في ما أعتقد. يقال إن واحداً من أدبائنا الذين يُقارَنون بشكسبير قد أعلن يقول ذات يوم على حين فجأة: "هكذا نحن معشر الرجال العظام، لا نملك أن نتصرف غير هذا التصرف"، إلخ. قال ذلك حتى من دون أن يحس به.

تابع كارمازينوف كلامه يقول:
ـ هناك، في كارلسروهه، سوف أغمض عينيَّ. إننا معشر الرجل العظام لا نملك متى أنهينا رسالتنا إلّا أن نغمض أعيننا بأقصى سرعة، من دون أن ننتظر مكافأة. ذلك ما سأفعله.
قال الألماني وقد انطلق يضحك ضحكاً شديداً:
ـ قل لي عنوانك، و سأجيء أزور قبرك في كارلسروهه.
وقال أحد الشبان الصغار الذين كانوا موجودين:
ـ في هذا الزمان، يُشحن الموتى في القطار.
فانفجر ليامشين، يضحك مفتوناً. وقطبت جوليا ميخائيلوفنا حاجبيها. وإنهم لكذلك إذا بستافروجين يدخل فيصرفهم عما هم فيه.
قال ستافروجين متجهاً في أول الأمر إلى ستيفان تروفيموفتش:
ـ هه! لقد روي لي أنهم اقتادوك إلى قسم الشرطة.
فقال ستيفان تروفيموفتش مازحاً:
ـ لا بل هي قضية "خصوصية".
فقالت جوليا ميخائيلوفنا:
ـ ولكنني أرجو أن لا يكون لها أي أثر على ما طلبته منك. إنني آمل رغم الانزعاج المؤسف الذي تعرضت له وأشرت إليه، والذي لا أعرف عنه شيئاً البتة حتى الآن، أن لا تخيِّب ظننا وأن لا تحرمنا من متعة الاستماع إليك في الصبيحة الأدبية.
ـ لا أدري... أنا... الآن...
ـ حقاً إنني تعيسة جداً يا فرفارا بتروفنا.. ففي اللحظة التي أتوق فيها إلى أن أعرف معرفة شخصية واحداً من ألمع المفكرين الروس ومن أكثرهم استقلالاً في الرأي، أرى ستيفان تروفيموفتش يريد الابتعاد عنا...
قال ستيفان تروفيموفتش:
ـ كان عليَّ حتماً أن أتظاهر بأنني لم أسمع هذا المديح الذي يُقال بصوت عالٍ، ولكنني لا أستطيع أن أصدِّق أن شخصي الضعيف يمكن أن يكون ضرورة لا غنى عنها للحفلة التي تزمعين إقامتها. إنني على كل حال...

هنا دخل بطرس ستيفانوفتش بخطاه السريعة وصاح يقول:

ـ ولكنكم ستفسدونه بالدلال. فما كدت أفلح في تعليمه أن يسير مستقيماً حتى تدفقت عليه في صباح يوم واحد ضربةٌ تلو ضربة: فمن تفتيش إلى اعتقال إلى شرطي يمسك بتلابيبه، ثم ماذا أرى الآن؟ أرى السيدات ينشرن حوله البخور في صالون الحاكم! إنه الآن مفتون بنفسه. أنا من ذلك على يقين. إنه لم يحلم بمثل هذا الانتصار في يوم من الأيام. إنني أتخيل ما سيقوله الآن عن الاشتراكيين من سوء!

قالت جوليا ميخائيلوفنا بقوة وعزم:

ـ مستحيل يا بطرس ستيفانوفتش! إن الاشتراكية فكرة أعظم من أن ينكرها ستيفان تروفيموفتش.

فقال ستيفان تروفيموفتش وهو ينهض بأبهة نبيلة:

ـ الفكرة عظيمة، ولكن الذين يعتنقونها ليسوا بالعمالقة دائماً "وحسبنا هذا يا عزيزي!" (بالفرنسية).

ولكن وقع في تلك اللحظة حادث لا يمكن أن يكون في حسبان أحد أن يقع. إن فون لمبكه موجود في الصالون، منذ بعض الوقت، ولكن الحضور تظاهروا بأنهم لم يلاحظوا وجوده رغم أنهم رأوا دخوله جميعاً، كما أن جوليا ميخائيلوفنا ظلت وفيةً لأسلوبها فاستمرت تتجاهل زوجها. كان فون لمبكه جالساً قرب الباب، قاسي الهيئة مكفهر الوجه، يصغي إلى ما يدور من أحاديث. فلما أشير إلى الأحداث التي وقعت في الصباح اضطرب على كرسيه قلقاً، ثم أدار نظرته نحو الأمير. كان واضحاً أن الياقة الضخمة الطويلة التي تلف عنق الأمير قد أثرت فيه تأثيراً شديداً. وأن دخول بطرس ستيفانوفتش المداهم، ودويَّ صوته، قد جعلاه يرتعش. فما إن أنهى ستيفان تروفيموفتش جملته عن الاشتراكيين حتى اقترب منه آندره أنطونوفتش فون لمبكه، دافعاً ليامشين الذي كان في طريقه والذي تقهقر على حين فجأة مصطنعاً الدهشة ماسحاً كتفه كأن فون لمبكه قد صدمها صدماً عنيفاً. قال فون لمبكه:

ـ كفى!

وأمسـك يد سـتيفان تروفيموفتش بحركـة قوية روَّعتـه، وضغطها ضغطاً شديداً. وتابع كلامه يقول:

ـ لقـد انحسـر القناع عـن وجـوه النصّابين في هـذا الزمـان. لا تقل كلمة واحدة أخرى. لقد اتّخذت الإجراءات...

هذه الكلمات التي قيلت بصوت عالٍ ولهجة قاطعة، قد دوَّت في الصالون كله وأحدثت شـعوراً شـاقاً أليماً. أحس الجميع أن شـيئاً مزعجاً سـيحدث. ورأيت جوليا ميخائيلوفنا يمتقع وجهها ويصفر لونها. غير أن هذا المشهد قد انتهـى بحادثٍ مضحك. فإن لمبكه، بعد أن أعلن أن الإجراءات قد اتُّخذت، اسـتدار علـى حين فجأة، واتجه بسـرعة نحو الباب، لكنـه ترنح عند الخطوة الثانية، إذ تعثرت قدمه بالسجادة، فكاد يسقط على الأرض طريحاً.

توقـف فـون لمبكه لحظـة، وتأمل السـجادة، وقال بصوت عـالٍ: "يجب تبديـل هـذا"، وخـرج. فركضـت جوليـا ميخائيلوفنـا وراءه. وسـرعان مـا أخـذ الجميـع يتكلمـون في آن واحد. وسـمعت بيـن لغطهم هـذه الكلمات "مجنـون"، "مختـل"، "نوبـة"... وكان بعضهم يلطم جبينـه بالإصبع. وفي ركن من الأركان رفع ليامشين إصبعين إلى رأسه. وخفض بعضهم أصواتهم فأشـاروا إلـى نزاعات عائلية. ومع ذلك لم ينصرف أحـد، بل لبثوا ينتظرون. إننـي أجهل الإجراءات التي اتخذتهـا جوليا ميخائيلوفنا، ولكنها رجعت بعد خمس دقائق باذلةً جميع جهودها من أجل أن تبدو هادئة وجواباً عن الأسئلة التـي ألقيـت عليهـا، قالت إن آنـدره أنطونوفتـش ثائر الأعصـاب قليلاً، وإن الأمر هيِّن يسير، وإنه يعاني من أمثال هذه النوبات الصغيرة منذ طفولته، وإن حفلة الغد ستسـرِّي عنه كثيراً. وإنقاذاً للمظاهر لا أكثر، وجَّهت إلى سـتيفان تروفيموفتـش بضع كلمات من مديـح أيضاً، ودعت أعضاء اللجنة إلى اتخاذ أماكنهم لعقد الاجتماع. وعندئذ فقط إنما قام أولئك الذين ليسـوا أعضاء في اللجنـة، من أجل أن ينصرفـوا. غير أن الأحداث الأليمة التي وقعت في ذلك النهار المشؤوم لم تكن قد انتهت بعد.

حيـن دخـل نيقـولاي فسـيفولودوفتش، لاحظـتُ النظـرة الفاحصة التي حدَّقـت بهـا إليـه ليـزا. حتى لقـد بلغت من طـول النظر إليـه والتأمـل فيه أن

ذلـك لفت الانتباه أخيراً. ورأيـت مافريكي نيقولايفتش يميل عليها ليكلمها بصـوت خافـت في أغلب الظن. ولكنـه عدل عن رأيه، وعـاد ينتصب فجأة، وشـمل الجمـع بنظـرة كأنه يريـد أن يعتـذر عما بدر منـه. وقد أثـار نيقولاي فسـيفولودوفتش شيئاً من حب الاطلاع هو أيضاً. كان وجهه أشد شحوباً من عهدنـا به، وكانـت نظرته تبدو ذاهلـةً ذهولاً خاصاً. ولاح عليه أنه لم يسـمع جواب سـتيفان تروفيموفتش عن السؤال الذي وجهه إليه حين دخل، بل إني لأظن أنه نسـي أن يحيي ربة الدار. أمـا ليزا فلقد أغفل حتى النظر إليها. وإني لواثـق علـى كل حـال بأنه لم يقصـد ذلك ولم يتعمـده: كل ما هنالـك أنه لم يلاحظهـا. وفجأةً، بعد صمت قصيـر أعقب اقتراح جوليا ميخائيلوفنا بافتتاح اجتمـاع اللجنـة فوراً، دوَّى صوت ليزا الرنان منادياً سـتافروجين، متعمداً أن يسمعه الجميع طبعاً.

ـ نيقـولاي فسـيفولودوفتش، إن رجلاً يسـمى الكابتـن لبيادكين، ويدّعي أنـه قريبك، إنه أخو زوجتك، يبعث إليَّ رسـائل غير لائقة يتشـكى فيها منك ويعرض عليَّ أن يفضي إليَّ بأسرار تخصك. فإذا صح أن هذا الرجل قريبك، فاحظر عليه أن يهينني وضع حداً لأفعاله.

كانـت هـذه الكلمات تشـتمل على تحدٍّ رهيـب. وقـد أدرك ذلك جميع الحضـور. إن التهمة واضحـة. ولكن من الجائز أن تكون ليـزا قد قذفتها من دون أن تدرك ما تفعل، كإنسان يلقي نفسه من أعلى سطح مغمضاً عينيه.

ولكـن جـواب نيقولاي فسـيفولودوفتش كان أدعى إلى الدهشـة وأبعث على الذهول أيضاً.

لم يبدُ عليه شيء من الاستغراب بتاتاً، وأصغى إلى كلام ليزا بانتباه شديد وهدوء كامل. ولم يعبِّر وجهه عن اضطراب ولا عن غضب. وببسـاطة هائلة ولهجة ثابتة بل متعجلة إنما أجاب عن السؤال المحتوم قائلاً:

ـ نعـم، من سـوء حظي أن بيني وبين هذا الرجـل قرابةً. لقد تزوجت أخته منـذ زهـاء خمس سنين، وثقي أني سـأبلغه مطالبك في أقـرب فرصة، وأني لأضمن لك أن يكف عن إزعاجك بعد اليوم.

لن أنسـى، ما حييـت، الهول الذي ارتسـم على وجه فرفـارا بتروفنا. لقد

انتصبت زائغة الهيئة، رافعةً ذراعها اليسرى فوق رأسها كأنما لتحميه. ونظر إليها نيقولاي فسيفولودوفتش، ثم تأمل ليزا، ثم طاف ببصره على سائر المشاهدين. وألمَّت بشفتيه ابتسامة، وغادر الصالون بغير تعجل. وفي اللحظة التي اتجه فيها نحو الباب نهضت ليزا عن ديوانها فجأة بحركة قوية، وهمَّت أن تركض وراءه. ولكنها سيطرت على نفسها فأمسكت عن الجري، وخرجت بهدوء، من دون نظرة تلقيها على أحد، ومن دون كلمة تقولها لأحد، يتبعها مافريكي نيقولايفتش طبعاً...

لن أقول شيئاً عن الشائعات التي جرت في المدينة في ذلك المساء نفسه، ولقد سجنت فرفارا بتروفنا نفسها في منزلها لا تبارحه. أما نيقولاي فسيفولودوفتش فيقال إنه ذهب رأساً إلى سكفورشنيكي، حتى من دون أن يرى أمه. وفي المساء أرسلني ستيفان تروفيموفتش إلى عند تلك الصديقة الغالية، (بالفرنسية) راجياً أن تأذن له بأن يجيئها زائراً. ولكنني لم أُستقبل في منزلها. كان ستيفان تروفيموفتش متأثراً تأثراً رهيباً، حتى لقد كانت الدموع تترقرق في عينيه. كان يكرر على مسمعي بغير انقطاع: "زواج كهذا الزواج! يا لها من كارثة للأسرة!". ولكن ذلك كان لا يمنعه من التفكير في كارمازينوف، وشتمه شتماً عنيفاً، وأن يجدَّ في إعداد قراءة الغد، مكرراً حركاته أمام مرآة (هذه طبيعة فنية)، مستحضراً في ذاكرته على سبيل تمليح كلامه جميع الكلمات الظريفة وجميع النكات القائمة على الجناس اللفظي التي سبق له أن هيأها ودوَّنها في دفتر خاص.

- يا صديقي، أنا أفعل ذلك كله في سبيل فكرتنا العظيمة "يا صديقي العزيز"، إنني أدع الانزواء الذي ألزمت به نفسي مدة خمسة وعشرين عاماً، وأرحل... إلى أين؟ لا أدري بعد... لكنني أرحل!...

الجزء الثالث

الفصل الأول
الحفلة

1

أقيمت الحفلة رغم جميع الأحداث التي جرت أمس. وفي اعتقادي أنها كانت ستُقام حتى ولو كان لمبكه قد قضى نحبه البارحة. فإلى هذا الحد كانت إقامة الحفلة هامةً في نظر جوليا ميخائيلوفنا. لقد ظلت إلى آخر لحظة ـ وا أسفاه! ـ مصرةً على عماوتها، لا تدرك الحالة النفسية التي كان عليها الناس. ومع ذلك ما من أحد كان يتصور أن ذلك النهار الفخم يمكن أن ينتهي بغير فضيحة خطيرة ما، أو بدون "خاتمة" على حد تعبير أولئك الذين كانوا يفركون أيديهم من الجذل سلفاً. صحيح أن كثيراً من الناس كانوا يحاولون أن يصطنعوا هيئة مكفهرة متشائمة، لكننا نستطيع أن نقول بوجه عام إن الروس يجدون في الفضائح والمشاكل لذةً قصوى. على أن الواقع هو أن هناك شيئاً أخر أخطر شأناً من هذا الظمأ إلى الفضائح: إنه حنق عام، إنه نوع من كره وحشي كاسر. يبدو أن جميع الناس كانوا مغتاظين، وكانوا يتوقون إلى تغيير ما، أياً كان هذا التغيير. كان يرين علينا استخفاف غريب، واستهتار مقصود. السيدات وحدهن كنَّ ثابتات الرأي، ولكن في أمر واحد: هو هذا الكره الساحق الماحق الذى يحملنه لجوليا ميخائيلوفنا، والذي كانت المسكينة لا يخطر لها على بال. لقد ظلت إلى آخر لحظة مقتنعة بأنها محاطة بمحبة الناس جميعاً، وأن الناس مخلصون لها "إخلاصاً متعصباً".

سبق أن ذكرت أن أنواعاً شتى من صغار الأشرار قد ظهرت في مدينتنا.

إن أمثال هؤلاء ينبجسون في عهود الاضطراب، في عهود الانتقال، في كل زمان ومكان. لست أعني الأشخاص الذين يسمون "متقدمين"، والذين ليس لهم من هم إلّا أن لا يكونوا متأخرين متخلّفين، والذين تكون لهم في أكثر الأحيان غاية محدَّدة بعض التحديد مهما تكن هذه الغاية سخيفة. لا، فإنما أنا أعني الأوغاد. إن الوغد موجود في كل مجتمع، ولكنه لا يظهر على السطح إلّا في فترات الانتقال. وهو لا يرمي إلى أية غاية، ولا يسعى إلى أي هدف، ولا يملك أية فكرة. كل ما هنالك أنه يعبر عن نفاد الصبر، ويدل على اختلاط الأمور في المجتمع. ومع ذلك نرى الوغد، من دون أن يدرك هو ذلك، يخضع في جميع الأحيان تقريباً لجماعة صغيرة من "المتقدمين" الذين لهم هدف محدد، فهم يدفعون هؤلاء الأوغاد في الاتجاه الذي يناسبهم، على شرط أن لا يكونوا إلّا بلهاء تماماً وذلك ما يحدث في بعض الأحيان على كل حال.

الآن وقد انقضى كل شيء، يؤكد الناس لدينا أن بطرس ستيفانوفتش كان يأتمر بأوامر "الأممية"، يوجّه جوليا ميخائيلوفنا التي كانت تستخدم الأوغاد تنفيذاً لتعليماته. ويتساءل العقلاء منا مذهولين كيف أمكن تضليلهم هذا التضليل.

لا أحد يعرف (ربما باستثناء بعض الأجانب)، ولا أنا أعلم ماذا كان ذلك التململ العام والانزعاج الشامل ولا ما هو "الانتقال" المقصود: انتقال إلى أي حال؟ ومع ذلك وقعنا جميعاً تحت سيطرة أولئك الأشقياء من الأشخاص الصغار الذين طفقوا ينتقدون بصراحة كل ما هنالك من أمور هي أقدس الأمور، هم الذين كانوا قبل ذلك لا يجسرون حتى أن يفتحوا أفواههم، وراح الآخرون الذين كانوا إلى ذلك الحين يحتلّون أرفع مقام يصغون إليهم صامتين، حتى ليشجعونهم بضحكاتهم في بعض الأحيان. إن أناساً مثل ليامشين، وتلياتنيكوف، وتنتنيكوف، وإن أغراراً مدَّعين مثل رادشتشيف، وإن يهوداً صغاراً من أصحاب الابتسامة الأليمة المتغطرسة في آن واحد، وإن ضاحكين ومسافرين عابرين، وشعراء لبراليين وافدين

مـن العاصمة، شـعراءَ يقوم عندهـم قميصٌ من قمصـان الفلاحين وحذاءان مدهونان بالقطران مقام اللبرالية والموهبة، وإن ضباطاً برتبة ميجر وكولونيل ممن لا يشـعرون نحو رتبهم العسـكرية إلّا بالاحتقـار والازدراء، والذين لا مانـع لديهـم في سـبيل زيادة قدرها روبل واحد أن يرموا سـيوفهم ليلتمسـوا وظيفة في مصلحة للسـكك الحديدية، وإن جنرالات ممن أصبحوا محامين أو موظفيـن بـلا عمل ولكنهم يحسـنون تدبيـر أمورهم وتصريف شـؤونهم ويعرفـون من أين تـؤكل الكتف، وإن شـباباً من أبناء التجـار اعتنقوا الأفكار الجديدة، وطلاباً لا نهاية لعددهم، ونسـاءً يعددْن أنفسهن بطلات مكافحات في سبيل قضية المرأة، هؤلاء جميعاً هم الذين أصبحت لهم الغلبة والسيطرة. وعلى من؟ على أعضاء نادينا، على موظفين محترمين، على جنرالات فقدوا في الحرب بعض أعضاء أجسـامهم، على سـيداتنا المتعاليـات المتكبرات. ومهما يكن من أمر فإننا لا نملك إلّا أن نعذر سيداتنا على أنهن فقدن صوابهن حين نرى أن فرفارا بتروفنا نفسها قد خضعت لسطوة هؤلاء الأشرار، إلى أن حلت الكارثة التي أصابت ابنها.

سـبق أن قلـت إن النـاس الآن يحمِّلون "الأمميـة" تبعة كل مـا وقع. وقد بلغت هذه الفكرة من قوة الرسـوخ فـي الأذهان أنهم يعللون بها الأمور حتى للوافديـن إلينـا من الخـارج (وما أكبرهم!) حتـى إن المستشـار كوبريكوف الذي يبلغ الثانية والسـتين من عمره، ويحمل وسام سان ستانسلاس، قد جاء في الآونة الأخيرة من تلقاء نفسـه يصرِّح للسـلطات بلهجـة نافذة جازمة أنه ظل مدة ثلاثة أشهر خاضعاً لتأثير "الأممية"، فلما سُئل بما ينبغي لسنِّه ورتبته مـن مداراة ومراعـاة أن يذكر بعـض الإيضاحات الدقيقة، اكتفـى بأن قال إنه "شعر بذلك شعوراً داخلياً"، ولكن هذا لـم يمنعه من الإصرار على تصريحه. لذلك تُرِكَ له أن ينصرف من دون أن يُلقى عليه مزيد من الأسئلة.

أكـرر مـرة أخرى: لقد وجـدت فئة صغيرة مـن العقلاء تنحَّـت جانباً منذ البداية، حتى لقد سـجنت نفسها في بيوتها وأغلقت عليها الأبواب بالأقفال. ولكـن ما من قفل يقـاوم قوانين الطبيعة. ففي الأسـر العاقلة المحاذرة توجد

دائماً فتيات لا يستطعن الاستغناء عن الرقص، فهو لهن ضرورة. لذلك رأينا أكثر الأشخاص تحفظاً يشترون في النهاية بطاقات لحضور حفلة الرقص التي نُظِّمت لمساعدة المعلّمات، لا سيما وأن الحفلة ستكون باهرة إلى أقصى حد. كان يقال إنها ستكون معجزة من المعجزات: تحدّث الناس عن أمراء سيحضرونها، وعن عشراتٍ من خيرة أبناء الأسر سيتولون الإشراف على تنظيمها عاقدين على أكتافهم اليسرى شريطاً يميزهم عن غيرهم، وتحدّثوا عن شخصية سياسية من بطرسبرج لا أدري من هي، وعن كارمازينوف الذي ارتضى في سبيل تضخيم البرنامج أن يقرأ قصيدته "شكراً" وهو في لباس معلّمة، وتحدثوا عن "رباعي أدبي" سيرتدي راقصوه أبهى الأزياء، فكل زي من هذه الأزياء يرمز إلى اتجاه أدبي، وتحدثوا عن سيدٍ سيلبس رداء خاصاً ويمثل "الفكر الروسي الصادق الأصيل"، وسيرقص هو أيضاً، وذلك كله شيء جديد لا عهد بمثله من قبل. فكيف يمكن أن يمتنع المرء عن الاشتراك في حفلة رقص كهذه الحفلة؟ هكذا انقاد الجميع للإغراء.

2

تتضمّن الحفلة، وفقاً للبرنامج، جزأين: صبيحةٌ أدبية من الظهر حتى الساعة الرابعة، وحفلة رقص تبدأ في الساعة التاسعة وتمتد على طول الليل. ولكن هذا البرنامج يشتمل بذاته على عناصر فوضى. من ذلك أولاً أن الجمهور تخيَّل أن سيكون ثمة غداءٌ بعد الصبيحة الأدبية فوراً أو أثناءها، خلال فترة استراحة تُخصّص لهذا الغرض، غداءٌ مع شمبانيا، بالمجان طبعاً، لأنه جزء من البرنامج. إن المبلغ الباهظ الذي يدفعه المشترك ثمناً للبطاقة (وهو ثلاثة روبلات) قد ساهم في ترويج هذه الإشاعة وتعزيزها: "هل كان يمكن أن أشترك لولا هذا؟ إن الحفلة تدوم أربعاً وعشرين ساعة، فلا بد من إطعام الحضور الذين سيأخذ منهم الجوع كل مأخذ". كذلك كان يفكر الناس في الأمر. يجب أن أقول إن جوليا ميخائيلوفنا نفسها هي التي خلقت بطيشها وتسرّعها هذه الأوهام المشؤومة، إنها قبل موعد الحفلة بشهر،

كانت وقد هزّتها الحماسة الشديدة لمشروعها، تزعم لكل قادم أنها ستقيم حفلةً ستُشرب فيها الأنخاب. حتى لقد أعلنت عن هذه الأنخاب التي كانت تحرص عليها حرصاً خاصاً، في جريدة من جرائد العاصمة. كانت تريد أن ترفع الأنخاب بنفسها، وكانت تهيئها منذ ذلك الحين. كان ينبغي لهذه الأنخاب في نظرها أن تجمع العقول حول "رايتنا الجديدة" (ما هي تلك الراية الجديدة؟ أراهن أن المسكينة كانت هي نفسها لا تعرفها!). فإذا نُشرت في جرائد العاصمة في صورة أنباء يبعث بها المراسلون الصحافيون، فلسوف تثير عاطفة السلطات العليا ولسوف تفتن ألباب هذه السلطات حتماً، ثم إذا هي تنتشر بعد ذلك في البلاد باعثةً على الدهشة والتنافس في كل مكان. ولكن رفع الأنخاب يقتضي شمبانيا. والشمبانيا لا تُشرب على جوعٍ طبعاً، فلا بد إذًا من وجبة غداء. ولكن حين تشكّلت بعد ذلك لجنة لدراسة المشروع من جميع جوانبه، فإن أعضاء اللجنة لم يلبثوا أن برهنوا لجوليا ميخائيلوفنا أن إقامة مأدبة ستكلف نفقات طائلة فلا يبقى للمعلّمات شيء ذو بال مهما يكن إيراد الحفلة. وهكذا أصبح الوضع كما يلي: فإما مأدبة فاخرة وأنخاب ثم لا يبقى للمعلّمات إلّا زهاء تسعين روبلاً، وإما إيراد كبير إذا اقتصرت الحفلة على ما هو ضروري ولم تكن إلّا ذريعة لمساعدة المعلّمات. وكانت اللجنة من جهة أخرى تنصح بالتعقّل والحكمة، وتقترح حلاً ثالثاً يصالح بين الأمرين ويتّصف بالاعتدال والتبصّر: اقترحت اللجنة أن تكون الحفلة لائقة من جميع النواحي، ولكن بغير شمبانيا، فإذا تمَّ ذلك كان في الإمكان أن تنال المعلّمات مبلغاً كبيراً، مبلغاً يزيد كثيراً على تسعين روبلاً. ولكن جوليا ميخائيلوفنا لم تشأ أن تسمع شيئاً عن هذا الحل الوسط. إنها تحتقر التسويات البورجوازية. وما دامت فكرتها الأولى مستحيلة التحقيق، فها هي ذي تعدل عنها لتدفع إلى الطرف الأقصى الآخر: سنحاول أن نظفر بأكبر ريع، فنستثير غيرة سائر الأقاليم. قالت في خطاب ملتهب ألقته على أعضاء اللجنة إن الأهداف الأساسية الكبرى التي نرمي إليها أهم كثيراً من ملذات الجسم العابرة، وإن حفلتنا إنما هي في الواقع تعبير عن فكرة عظيمة، فيجب أن نكتفي

إذًا بحفلـة رقص صغيرة على الطريقة الألمانية، لا تكلف نفقات كبيرة، حفلة رقص رمزية إن صح التعبير ما دام يسـتحيل الاسـتغناء عن حفلة الرقص هذه الكريهـة التـي لا تطاق!". والحق أنها كانت قد كرهـت هذه الحفلة. ولكنهم اسـتطاعوا أن يهدئـوا روعهـا. وعندئـذ إنما تخيلـوا "الرباعي الأدبـي"، كما تخيلوا تسـليات فنية أخرى من شـأنها أن تحل محل مباهج الجسم وملذات الطعام والشـراب. وعندئذ أيضاً إنما رضـي كارمازينوف الذي لم ينقطع عن التصنع والتدلل، ولم يكف عن اسـتدرار الرجاء والضراعة، أقول عندئذ إنما رضي كارمازينوف أن يقرأ قصيدته "شـكراً" وأن يسـتأصل بذلك حتى فكرة الطعام من نفس الجمهور الشـره المسرف في الشـراهة. هكذا تسترد الحفلة بهاءهـا، ولكنـه بهاء من نـوع خاص. ومن أجـل أن لا يغـرق القائمون عليها غرقـاً كاملاً في السـحاب، قرروا أن يقدمـوا في بداية حفلة الرقص شـاياً مع الليمـون وحلويات جافة، ثم أن يطوفـوا بعصير البرتقال والليمون بعد ذلك، بـل وأن يقدموا في النهاية مثلجات، ولكن لا شـيء غير ذلـك. أما الذين هم جائعـون وظامئـون فـي كل وقت وفي جميع الظروف، فسـيُهيأ لهـم "بوفيه" خـاص يتعهده بروخورتش (رئيس طهاة النـادي)، ويمكن أن يُقدم فيه تحت رقابة قاسـية تمارسـها اللجنة كلُّ ما يشـتهيه المشـتهون، ولكن أثمان الطعام والشـراب لن تكون من أصـل ثمن البطاقة، وإنما يدفعها المسـتهلكون على حدة، إذ يُعلن لهم ذلك بإعلان خاص يوضع على الباب. وحمايةً للقراءة من التشـويش أثناء الصبيحة الأدبية، يظل "البوفيـه" مغلقاً، رغم أن خمس غرف تفصلـه عن الصالة البيضاء التي سينشـد فيها كارمازينوف قصيدته "شـكراً".

والأمـر الغريـب هو أن اللجنة، ومن بين أعضائها أنـاس عمليون جداً، كانت تضفي على هذا الحادث، أعني قراءة القصيدة، قيمة كبيرة وشـأناً عظيماً. أما النفوس الشـعرية فكانت حماستها أشد. حسبي أن أستشهد على ذلك بمثال زوجة مارشـال النبالة التي قالت لكارمازينوف إنها بعد إنشـاده القصيدة فوراً ستأمر بأن يُرصَّع جدار صالتها بلوحة من مرمر يُكتب عليها بأحرف من ذهب أن الكاتـب الروسـي والأوروبي الكبير قد أنشـد قصيدته "شـكراً" للجمهور

المتمثِّل في شخصيات مدينتنا، وذلك في يوم كذا، وهو اليوم الذي ترك فيه قلمه وودَّع الكتابة. وستكون هذه اللوحة بما عليها من كتابة، مهيأة عند افتتاح حفلة الرقص، أي بعد الحادث التاريخي بخمس ساعات. وإني لأعلم من مصدر موثوق به أن كارمازينوف خاصةً هو الذي طالب مصراً بأن يظل "البوفيه" مغلقاً أثناء الصبيحة الأدبية، رغم ما ارتآه بعض أعضاء اللجنة من أن هذا ليس من مألوف عاداتنا.

هذا ما كان قد تقرر بينما كان الناس في المدينة يأملون أن يحضروا مأدبة، أي أن يأكلوا ويشربوا بالمجان. لقد ظلوا يعوِّلون على هذا إلى آخر لحظة. وكانت الآنسات تحلم بسكاكر وحلويات توزَّع وافرة بغير عد، وتحلم كذلك بأمور خارقة لا أدري ما هي! كان معلوماً أن الرَّيع ضخم، وأن المدينة كلها ستتهافت على حفلة الرقص، وأن كثيراً من الناس يفدون من المقاطعات المجاورة خصيصاً لشهود الحفلة، وأن الجمهور يتخاطف التذاكر تخاطفاً. وكان معلوماً كذلك أن عطايا ضخمة قد قُدِّمت: فالسيدة فرفارا بتروفنا مثلاً قد اشترت تذكرتها بثلاثمائة روبل ووهبت من مزارعها جميع الأزهار التي ستزين الصالة. وزوجة مارشال النبالة (وهي عضو في اللجنة) قد قدَّمت منزلها والإضاءة. كما أن النادي تبّرع بالموسيقى والخدم، وتنازل عدا ذلك عن طباخه طوال النهار. إنني أصرف النظر عن عطايا أخرى أقل ضخامة. وقد خطر بالبال تخفيض ثمن التذكرة وجعله روبلين لا ثلاثة. ذلك أن اللجنة قد خشيت في أول الأمر أن يكون من شأن الثمن الباهظ، وهو ثلاثة روبلات، أن يحول دون مجيء الآنسات، حتى لقد قام في الأذهان بيع بطاقات عائلية. فالآباء قد لا يدفعون ثمن بطاقة الدخول إلّا لواحدة من بناتهم، فلا مانع أن تدخل الأخريات بالمجان ولو كان عددهن عشراً. غير أن هذه المخاوف لم تلبث أن تبددت: فالآنسات جئن زرافات ووحدانا، وأصغر الموظفين اصطحبوا بناتهم جميعاً. طبيعي أنهم ما كانوا ليفكروا في المجيء لو لا أن لهم بنات. إن سكرتيراً صغيراً فقيراً قد جاء ببناته السبع، مع امرأته طبعاً، ومع ابنة أخته كذلك، فكانت كل واحدة منهن تحمل بيدها عند الدخول بطاقتها

التـي ثمنهـا ثلاثة روبلات. تسـتطيعون أن تتصوروا بسـهولة أن المدينة كلها كانـت في ثورة. وإذ كانت الحفلة تشـتمل على صبيحـة أدبية وحفلة رقص، فقـد كان على السـيدات أن يكون لكل منهن ثوبان: واحـدٌ للاجتماع الأدبي والثاني للرقص. لذلك فإن عدداً من رجال الطبقة المتوسـطة، كما عُلم ذلك في ما بعد، قد رهنوا لهذه المناسبة كل ما يملكون من بياض، حتى لقد رهنوا أغطيـة الأسـرَّة، إن لـم يكونوا قد رهنوا الفُرُش نفسـها، لدى يهـودٍ كانوا منذ سـنتين قد أخذوا يتوافدون إلى مدينتنا ويسـتقرون فيها ويزداد عددهم شـيئاً بعد شيء. وجميع الموظفين تقريباً قد اقترضوا سُلفاً على مرتباتهم. حتى أن بعض الملاَّكين قد باعوا بعض مواشـيهم. كل ذلك من أجل أن تلبس بناتهم لباسـاً حسـناً، وأن لا يظهرن دون غيرهن. أما التزين فلم يُرَ له مثيل قبل ذلك في مدينتنا. غير أن نوادر كثيرة عن الحياة الخاصة التي يعيشـها عدد من أسـر المدينة قد تناقلها الناس في كل مكان قبل الحفلة بخمسة عشر يوماً، وتطوَّع بعض المازحين فأسـرعوا ينقلونها إلى جوليـا ميخائيلوفنا. وقد تناقل الناس كذلـك صوراً كاريكاتورية رأيت بعضها في ألبـوم جوليا ميخائيلوفنا. وذلك كلـه قد وصـل إلى مسـامع أولئك الذيـن كانوا موضـوع هذه النـوادر وتلك الرسـوم. وأغلب ظنـي أن ذلك هو مصدر الكره الذي حملـه كثير من الناس لامـرأة الحاكم فـي الأيام الأخيـرة. إن جميـع الناس لا يتذكـرون الآن تلك الذكريـات حتـى يثور غضبهم. ولكـن كان واضحاً منذ ذلك الحين أن أيسـر هفوة تقع فيها اللجنة وأن أيسر خلل يحدث يمكن أن يفجِّر غضب الجمهور قوياً عنيفاً. لذلك كان كل واحد يتوقع بينه وبين نفسه حدوث فضيحة ما. وإذا كان الجميع يتوقعون الفضيحة فلا بد أن تقع الفضيحة حتماً.

فـي الظهر تماماً بدأت الأوركسـترا تعزف. ولما كنتُ واحداً من الشـبان المشـرفين الذيـن يبلغ عددهم اثني عشـر شـخصاً ويزدان كتفهـم بعقدة من شـريط، فقد رأيت بنفسـي كيف بدأ ذلك النهار المخزية ذكراه. لقد بدأ الأمر بتزاحم وتدافع عند المدخل. لماذا جرى كل شـيء مجرى سـيئاً منذ اللحظة الأولى، ولماذا لـم تكن الشـرطة نفسـها في مستوى الظـروف؟ إنني لا أتَّهم

الجمهور الحقيقي. إن آباء الأسر، مهما تكن رتبهم عالية، لم يستعملوا أكواعهم ولم يحاولوا أن يدخلوا قبل غيرهم. بل إنه ليقال، خلافاً لذلك، إنهم تنحوا جانباً، وضاقوا صدراً بهذا المشهد الذي لا عهد لنا بمثله، مشهد الحشد محاصراً درجات المدخل متزاحماً على الباب. وكانت العربات تصل أثناء ذلك إلى أن سدَّت الطريق آخر الأمر.

في الساعة التي أكتب فيها هذه السطور، أستطيع أن أؤكد، بالاستناد إلى وقائع ثابتة، أن ليامشين وليبوتين وربما غيرهما أيضاً، وهم جميعاً مشرفون مثلي، قد سمحوا بالدخول من غير بطاقة لأفراد من أوباش الناس. لقد رؤي انبجاس أشخاص مجهولين تماماً، جاؤوا من الريف أو وفدوا لا أدري من أين! فما إن دخل هؤلاء الجفاة المتوحشون إلى الصالة (وكأنهم ينفذون كلمة سر) حتى أخذوا يسألون عن "البوفيه". فلما علموا أن ليس ثمة "بوفيه" أخذوا يطلقون شتائم فظة، بوقاحة لا مثيل لها وبذاءة غير معروفة عندنا حتى ذلك الحين. وكان عدد منهم سكارى قد أخذ منهم الثمل كل مأخذ. وكان بعضهم يبدو مشدوهاً مبهوتاً من عظمة الصالة لأنه لم ير قبل اليوم شيئاً يبلغ هذا المبلغ من البهاء والأبهة، فهؤلاء جمدوا في مكانهم لحظةً، وجعلوا ينظرون من حولهم فاغرين أفواههم. إن هذا الصالة البيضاء الواسعة، رغم أنها قديمة جداً منذ الآن، لها في الواقع مظهر رائع باهر: صفَّان من النوافذ المنضودة، بعضها فوق بعض، سقف مغطى بنقش وحفر وتذهيب، وشرفات، وجدران تزينها مرايا ومفارش حمراء، وتماثيل من مرمر (إنها تماثيل مهما تكن)، أثاث مهيب (يرجع عهده إلى عصر نابوليون) مدهون ببياض وذهب ومكسو بمخمل قرمزي اللون. وفي آخر القاعة نُصب منبر للذين سيشاركون في الصبيحة الأدبية. وفي سائر القاعة صُفَّت كراسٍ كما تُصف في مسرح، وجُعلت بين صفوفها مسافات عريضة تسمح بمرور الجمهور. ولكن ما إن انقضت دقائق الدهشة الأولى حتى أخذ الناس يتبادلون ملاحظات من أغرب ما تكون الملاحظات، ومن أغبى ما تكون الملاحظات. "ربما كنا لا نريد إنشاد الشعر... لقد دفعنا ثمن تذاكر الدخول مبلغاً طائلاً... خدعوا

الجمهور... نحن هنا السادة لا آل لمبكه!...". الخلاصة: لكأنهم ما أُدخلوا إلّا ليحدثوا لغطاً وفوضى. أتذكر على وجه الخصوص حادثاً كان بطله ذلك الأمير الذي يلتف عنقه بياقة عالية مسرفة في العلو، والذي يشبه أن يكون وجهه آلة متحركة من تلقاء ذاتها، إنه ذلك الأمير الذي لقيته أمس عند جوليا ميخائيلوفنا. لقد قبل بعد إلحاح من جوليا ميخائيلوفنا أن يعلّق على كتفه اليسرى عقدة شريط، وأن يكون بذلك أحد المشرفين. فهذا الشخص الأبكم الذي تكاد حركاته أن تكون حركات آلة اتضح أنه يستطيع أن يفعل إذا كان لا يستطيع أن يتكلم. لقد ناداه كابتن محال على التقاعد، ناداه بفظاظة وغلظة، وهو رجل عملاق في وجهه بقايا من بثور الجدري، شجعته عصبة من الأوغاد فطالب بأن يُقاد إلى "البوفيه". فما كان من الأمير إلّا أن أومأ لرجل من رجال الشرطة، فأسرع الشرطي يتدخل فوراً ليخرج الكابتن من القاعة رغم احتجاجاته الصارخة وزعيقه المتصل. وفي أثناء ذلك أخذ الجمهور "الحقيقي" يصل ويجلس متسللاً بين الممرات الثلاثة التي جُلعت بين صفوف الكراسي. وصمت الصياحون شيئاً فشيئاً. ولكن الجمهور "الرفيع المقام" كان يبدو عليه عدم الرضى وكانت تبدو عليه الدهشة. وكان عدد من السيدات يبدو مرتاعاً لا أكثر ولا أقل.

واستقر كل فرد في مكانه أخيراً. وصمتت الموسيقى. كان الناس يتمخّطون وينظرون من حولهم. وكان للانتظار أبهة وفخامة. وهذا في العادة نذير سوء. لم يصل لمبكه وزوجته حتى الآن. لا ترى الأعين في ما حولها إلّا حريراً ومخملاً وماساً. العطور تملأ الجو. السادة يحملون جميع أوسمتهم، حتى إن المتقدّمين في السن وأصحاب الرتب العالية يرتدون بزاتهم الرسمية. وأخيراً دخلت زوجة مارشال النبالة تصحبها ليزا. لم تكن ليزا في يوم من الأيام باهرة الجمال ولا رائعة الزينة كما كانت في ذلك اليوم. إن شعرها يتهدل على كتفيها ضفائر، وإن عينيها تسطعان سطوعاً براقاً، وإن بسمة مشرقة تشعّ في وجهها. أحدث دخولها أثراً عظيماً. التفتت نحوها جميع الأبصار وأخذ الناس يتبادلون الملاحظات والآراء عنها بصوت

خافـت. وأكَّـد بعضهـم أنها كانت تبحث بنظراتها عن سـتافروجين. ولكن لا سـتافروجين ولا فرفارا بتروفنا كانا في الصالة. لم أدرك عندئذ المعنى الذي عبَّـر عنـه وجه ليزا، ولا فهمت لماذا كان محياها يفيض سـعادة وفرحاً وقوة. وخطـر ببالـي ما حدث بالأمـس، فطفقت أحدس وأفتـرض وأخمِّن. لا يزال آل لمبكـه غائبيـن لـم يصلوا بعـد. تلك خطيئـة. علمت في ما بعـد أن جوليا ميخائيلوفنـا قـد انتظرت بطرس سـتيفانوفتش إلى آخر لحظـة. لقد أصبحت لا تسـتطيع الاستغناء عنه، رغم أنها ترفض الاعتراف بذلك في قرارة نفسها. بالأمس، في آخر اجتماع عقدته اللجنة، كان بطرس ستيفانوفتش قد ردَّ عقدة الشريط التي توضع على كتف المشرف، فاستاءت جوليا ميخائيلوفنا استياءً شديداً وخاب أملها حتى أوشكت الدموع أن تترقرق في عينيها حزناً ولوعة. فلمـا لم تره في الغد، أدهشـها ذلـك كثيراً ثم أدخل الاضطـراب والبلبلة إلى نفسـها (إنني أسـتبق الأحداث): إنه لم يجئ لشـهود الصبيحة الأدبية، وجاء المساء من دون أن يسمع أحد عنه شيئاً.

أخذ الجمهور يُظهر بعض التململ. لا تزال المنصة خاليةً. ودوَّى تصفيق في الصفوف الأخيرة، كما يحدث في المسـرح. السيدات والرجال المسنون يبـدو عليهـم الامتعـاض، "إن آل لمبكـه لا يزعجـون أنفسـهم!". ووصلت إشاعات سخيفة حتى إلى الصفوف الأولى: لن تُقام الحفلة، فالحاكم قد بلغ به المرض أنه لن... إلخ إلخ! ولكن وصلت أسـرة لمبكه أخيراً ولله الحمد. كانـت الزوجـة متأبطـة ذراع زوجها. أعتـرف أنني كنت قد فقـدت الأمل في وصولهـا. إن الحقيقـة تنتصر على الإشـاعات الكاذبة. بـدا الهدوء وظهرت الطمأنينـة على الجمهـور. كانت هيئة آندره أنطونوفتـش تدل على أن صحته جيـدة. ذلك كان شـعور الجميع: في وسـعكم أن تتصـوّروا كيف كان الناس ينظرون إليه بانتباه شديد. يجب أن أقول من جهة أخرى ـ وذلك يميِّز الحالة النفسـية التـي كان عليهـا الجمهور ـ إن قلةً مـن الأفراد فـي المجتمع الراقي كانـت تصـدِّق أن لمبكه مريض: ففي تلـك البيئة كان لمبكـه يتصرّف تصرفاً سـليماً جداً، حتى لقد أيدوا الموقف الذي وقفـه بالأمس في الميدان. كانت

الشخصيات الرفيعة المقام تقول: "بهذا إنما كان ينبغي له أن يبدأ. إن هؤلاء الموظفين البطرسبرغيين الذين يصطنعون في البداية دور محبي البشر ينتهون إلى الاعتقاد، كسائر الناس، من دون أن يشعروا بذلك، أن هذه الطريقة هي أحسن الطرق التي يجب أن يستعملها محبّو البشر". هكذا كانوا يفكرون في نادينا. وكانوا يلومونه على أنه انقاد للغضب: "كان ينبغي له أن يحافظ على هدوئه. ولكن سبب اندفاعة الغضب واضح: إنه تعوزه الخبرة والتجربة". كذلك كان يقول الأخصائيون في الموضوع. وقد رأت جوليا ميخائيلوفنا أنها محط جميع الأنظار أيضاً. لا يمكنكم أن تطالبوني طبعاً بتفاصيل دقيقة جداً عن بعض الوقائع: نحن بصدد امرأة، وبصدد سرٍّ من أسرار حياتها الصميمة، إنني لا أعرف إلّا شيئاً واحداً: هو أن جوليا ميخائيلوفنا قد لحقت بآندره أنطونوفتش مساء أمس إلى حجرة عمله، ولبثت معه هنالك إلى ما بعد منتصف الليل. فما زالت به حتى غفرت له وعفت عنه، وواسته وعزته. واتفق الزوجان على جميع النقاط، ونُسي كل شيء. وحين تذكر فون لمبكه، في نهاية المصارحة، حين تذكّر مذعوراً انفجار غضبه في الليلة السابقة، لم يستطع أن يكبح جماح نفسه، فجثا راكعاً على ركبتيه. فما كان من جوليا ميخائيلوفنا إلّا أن مدت يدها الفاتنة ترفه عنه وأخذت تلثمه بشفتيها مخففةً اندفاعات الندامة لدى هذا الرجل الفارس المرهف الشعور المسرف في الانقياد لعواطف الرقة والحنان، أعني آندره أنطونوفتش.

لاحظ جميع من في الصالة ما يشع في وجه جوليا ميخائيلوفنا من معاني السعادة. كانت تتقدم في زهو وخيلاء، وهي ترتدي ثوباً رائعاً. لكأن أقصى أمانيها قد تحققت: إن هذه الحفلة التي كانت هدفاً وتتويجاً لسياستها قد أصبحت واقعاً في آخر الأمر. اتجه لمبكه وزوجته إلى مكانيهما في الصف الأول، مرسلين تحيات كثيرة عن يمين وشمال. ولم يلبثا أن أحاطت بهما جمهرة كبيرة. ومضت نحوهما زوجة مارشال النبالة... فإذا بغلطة مؤسفة تقع في تلك اللحظة: لقد أخذت الأركسترا، على حين فجأة، بدون أي سبب، تنفخ في البوق لحناً من تلك الألحان المألوفة في المآدب الرسمية

حين يشرب الناس نخب شخص من الأشخاص. إنني أعلم الآن أن ليامشين، بصفته مرشداً من مرشدي الحفلة، قد أراد أن يستقبل أسرة لمبكه هذا الاستقبال. ولقد كان في وسعه عند اللزوم أن ينتحل لهذه الفعلة أي عذر من الأعذار، فيقول إنه تصرّف هذا التصرّف عن حماقة، أو أنه قد دفعته إليه الحماسة. وا أسفاه! لقد كنت أجهل حينذاك أن ليامشين والآخرين أصبحوا لا يفكرون في الاعتذار ولا يريدون انتحال الحجج والتعلّات، وأنهم سيزيحون النقاب عن وجوههم في ذلك المساء تماماً. ولكن المظاهرة لم تقتصر على لحن عُزف بأبواق: فبينما كان الناس يتبادلون نظرات مدهوشة وابتسامات، ترجّعت في آخر الصالة وعلى المنصات صيحات استحسان موجهة إلى لمبكه وزوجته. إن الصيحات ضعيفة، لكنها استمرت زمناً!... احمرّت جوليا ميخائيلوفنا احمراراً شديداً، والتمعت عيناها. ووقف فون لمبكه إلى جانب كرسيه، والتفت إلى الجهة التي كانت تصدر عنها الأصوات، وأجال على الحضور نظرة فيها فخامة وقسوة... فسرعان ما أجلسوه. ولاحظتُ على وجهه، من جديد، تلك الابتسامة المقلقة نفسها التي ظهرت على شفتيه بالأمس، في صالون زوجته، حين همَّ أن يتقدم من ستيفان تروفيموفتش. لقد بدا لي أن هيئته لا تبشّر بخير، بل أسوأ من ذلك إنها مضحكة قليلاً، فهي تعبِّر عن عزيمة رجل قرر أن يضحي بنفسه إرضاءً للأهداف العليا التي ترمي إليها زوجته!... أسرعت جوليا ميخائيلوفنا تستدعيني بإشارة من رأسها، وقالت لي بدمدمة خافتة أن أجري إلى كارمازينوف فأضرع إليه أن يبدأ. ولكن ما إن أوليتها ظهري حتى حدثت دناءة جديدة أبشع من الأولى أيضاً. فعلى المنبر، على المنبر الخالي الذي اتجهت إليه حتى الآن جميع الأبصار وانصب عليه كل الانتظار، والذي كان لا يرى فيه المرء إلّا مائدة صغيرة أمامها كرسي وفوقها كأس ماء على صينية من فضة ـ أقول: على هذا المنبر الخالي ظهرت على حين فجأة قامة مديدة ضخمة هي قامة الكابتن لبيادكين مرتدياً رداء فراك مع ربطة عنق بيضاء. بلغتُ من شدة الذهول أنني لم أصدِّق عينيَّ في اللحظة الأولى. وكان الكابتن يبدو خجلاً وجلاً وقد وقف في آخر المنبر.

غيـر أن أحداً صرخ يقول في الجمهور: "كيف؟ أهذا أنت يا لبيادكين؟". فإذا بوجه لبيادكين، إذا بوجهه الغبي المحتقن المحمر من فرط الطعام والشراب (ولقد كان سـكراناً تماماً)، إذا به يتألق لدى سـماع هذه الكلمات فتنتشـر فيه ابتسـامة بلهاء، وإذا هو يرفع يده، ويحك جبينه، ويهزّ رأسـه الكث الأشعث، ثم يجمع قواه ويعزم أمره فيتقدم خطوتين إلى أمام، ويطلقها ضحكةً مقهقهة طويلة سـعيدة هزَّت جسـده الضخم كله، وغضَّنت عينيه. فأخذ عدد كبير من الجمهور يضحك لهذا المشـهد، بينما راح الجادون من المشاهدين يتبادلون نظـرات حانقـة. وذلك كله لم يـدم إلّا زهاء ثلاثين ثانية علـى كل حال، هرع بعدها ليبوتين إلى المنصة يتبعه خادمان أمسكا الكابتن بلطف من إبطيه، بينما همـس ليبوتين في أذنيه ببضـع كلمات. فقطب الكابتن حاجبيه، ودمدم يقول وهـو يحرك يده: "إذا كان الأمر كذلك..."، ثـم أدار للجمهور ظهره الضخم وانقاد للممسـكين به. ولكـن ما هي إلّا لحظة حتى عـاد ليبوتين إلى المنصة وفي يده ورقة من الورقات التي تكتب عليها الرسائل، فاصطنع ابتسامة عذبة من ابتسـاماته تلك التي يختلط فيها السـكَّر بالخل، وتقدم بخطى قصيرة إلى حافة المنبر، وقال:

ـ أيها السـادة، لقد أوقعنا السـهو والإهمال في غلطة مضحكة سـرعان ما وضعنا لها حداً من حسـن الحظ على كل حال. لكنني أخذت على عاتقي أن أنقـل إليكـم ـ آملاً أن تقبلوا ذلك ـ رجاءً زاخـراً بالاحترام يوجهه إليكم أحد شـعراء مدينتنا. إن هذا الشـاعر الذي هزّته وحرّكت أوتار قلبه فكرةٌ إنسـانية رفيعـة (رغم مظهره الخارجي) هي تلك الفكرة نفسـها التـي جمعتنا في هذا المـكان... إن هذا السـيد... أريـد أن أقول إن هذا الشـاعر... على رغبته في كتمان اسـمه يود كثيراً لو تُتلى قصيدته قبل حفلة الرقص، أقصد قبل الجلسة الأدبية. وهذه الأبيات الشعرية، رغم أن برنامج الحفلة لا يتضمن إلقاءها، قد بـدت لنا نحن (من "نحـن"؟ إنني أنقل هنا نص خطابـه المضطرب المفكك كلمـة كلمـة بل حرفاً حرفاً) إنها بما تتميز به من بـراءة العاطفة، بالإضافة إلى مـا تتصف بـه كذلك من الظرف وروح المرح، تسـتحق أن تقرأ، لا من حيث

أنهـا قصيدة جادةٌ طبعاً، ولكن لأنها تتعلق نوعـاً من التعلق بالفكرة. أو قولوا بالغايـة التـي ترمي إليها حفلتنا هذه... لا سـيما وأنها لا تعـدو أن تكون أبياتاً قليلة. خلاصة الأمر أنني أستأذن الحضور الكرام في أن...

أعول صوت من آخر الصالة يقول:

ـ اقرأ.

ـ أأقرأ؟

فصرخ عدة أشخاص يقولون:

ـ اقرأ! اقرأ!

قال ليبوتين وهو لا يزال يرسم على شفتيه تلك الابتسامة المتعاذبة:

ـ سوف أقرأ إذًا.

ومـع ذلـك كان يبـدو عليـه التـردد. حتـى لقـد قـدَّرت أنه منفعـل بعض الانفعـال. إن أمثال هذا الإنسـان، مهمـا يكونوا وقحين، يتفق لهـم أحياناً أن يتخاذلـوا. لـو كان طالباً لما تـردد حتماً، ولكن ليبوتين ينتمي رغم كل شـيء إلى الجيل القديم.

ـ أنبئكم سـلفاً، أقصد يشرفني أن أنبئكم سلفاً أن القصيدة ليست من تلك القصائد التي كان ينظمها الشـعراء في الماضي لمناسبات ذات أبهة وجلال. فمـا هي في حقيقة الأمر إلّا مزاحـة، ولكنها زاخرة بعاطفة خالصة، بالإضافة إلى ظرف لاذع وواقعية صادقة إن صح التعبير.

ـ اقرأ! هلا قرأت!

فضَّ ليبوتين الورقة. لم يتسع وقت أحد للتدخل طبعاً. ثم إن ليبوتين كان يحمل شارة مشرف من المشرفين على الحفلة. وها هو ذا ينشد بصوت رنان:

قصيدة مهداة من الشاعر إلى معلّمتنا الوطنية في هذه المناطق بمناسبة هذا الاحتفال:

تحية تحية أيتها المعلّمة

انتصري و ابتهجي

رجعية كنت أم كنت مثل جورج صاند

ابتهجي كائنة ما كنت!

صاحت بعض الأصوات تقول:

ـ ولكن هذا شعر لبيادكين. نعم، هذا شعر لبيادكين.

وانطلقت ضحكات، بل سمعت أيضاً تصفيقات، وإن تكن قليلة.

تعلّمين اللغة الفرنسية
لأطفال صغار بلداء
وتصطنعين السرور
لكل من يرغب في أن يدفع الأجور

ـ صحيح، صحيح. هذا من الواقعية. لا حيلة للمرء بغير مال.

لكننا بفضل هذا الاحتفال
أصبحنا نملك رأس مال
هذا مهرك نهديه إليك
وهذه هدية من أصدقاء
رجعية كنت أم كنت جورج صاند
تستطيعين أن تختاري زوجك
وأن تبصقي، أيتها المعلّمة
بعد أن تملكي المهر
على كل شيء!

لم أصدِّق أذنيَّ. إن في هذا من الوقاحة ما لا يمكن معه أن يُعذر لليبوتين ولو تعلل بالحماقة والغباء. لا سيما وأن ليبوتين لم يكن غبياً البتة. لقد كانت النية واضحة، في نظري على الأقل: إنهم يتعجّلون إحداث فوضى وبلبلة وفضيحة. إن بعض أبيات هذه القصيدة الغبية، ولا سيما الأخير منها، شيء لا يمكن قبوله، مهما يكن قائله أبله. وأظن أن ليبوتين قد أحس بأنه أسرف: فبعد أن فعل فعلته جمَّدته هذه الجرأة نفسها في مكانه، فلبث على المنصة كأنما هو يريد أن يضيف شيئاً آخر. لعله كان يتوقّع أن يُستقبل غير هذا الاستقبال، وأن يُحدث غير هذا الأثر. ولكن الذي حدث هو أن فئة الأوباش الصغيرة نفسها التي قاطعته بالتصفيق قد صمتت مذعورة على حين فجأة. وكان عدد

كبير منهم قد أخذ القصيدة مأخذ الجد، وعدّها شعراً واقعياً لبراليَّ الاتجاه. غير أن ما اشتملت عليه الأبيات من عامية مثيرة مزعجة قد ضايقتهم هم أيضاً آخر الأمر. أما السواد الأعظم من الجمهور فقد شعر بفضيحة كبيرة، لا بل أحس أنه أهين. لا أخشى أن أكون مخطئاً حين أزعم هذا. لقد اعترفت جوليا ميخائيلوفنا في ما بعد أنها أوشكت أن يُغمى عليها. وهناك سيد عجوز محترم وامرأته قد نهضا وغادرا الصالة على مرأى من الناس الذين كانت نظراتهم تعبر عن القلق. ومن يدري؟ لعل أشخاصاً آخرين كانوا سيقتدون بهما ويفعلون مثلهما لولا أن كارمازينوف الذي يرتدي رداء فراك ويضع ربطة عنق بيضاء ويمسك بيده دفتراً قد ظهر على المنصة في تلك اللحظة نفسها. لقد استقبلته جوليا ميخائيلوفنا بنظرة مفتونة مسحورة كما يُستقبل منقذ... لكنني أسرعت أمضي إلى ما وراء الكواليس. كنت أريد أن ألقى ليبوتين.

قلت له مستاءً وأنا أمسك ذراعه:

ـ أنت فعلت هذا عامداً.

فأجابني وهو ينكمش على نفسه ويصغِّر جسمه ويتظاهر بأنه آسف لما وقع أشد الأسف:

ـ لم يخطر ببالي هذا... حقاً لم يخطر ببالي هذا... أحلف لك. لقد جاؤوني بهذه الأشعار، فظننتها تبعث على التسلية والضحك.

ـ لا، لم تظن ذلك. يستحيل عليك أن تعد مثل هذه القذارة مزاحة جميلةً!

ـ بل هكذا تصورتها!

ـ أنت تكذب. وليس صحيحاً كذلك أنهم جاؤوك بهذه الأشعار من هنيهة قصيرة. لقد كتبتها مع لبيادكين، ربما في مساء أمس، لا لشيء إلّا إثارة فضيحة. لا شك أنك أنت قائل البيت الأخير منها. لماذا كان لبيادكين يرتدي رداءً رسمياً؟ أكان هو الذي سيقرأ القصيدة لولا أنه كان سكراناً؟

اصطنع ليبوتينْ هيئة باردة شريرة. وسألني بهدوء غريب:

ـ فيم يعنيك هذا؟

ـ فيم يعنيني؟ ما هذا السـؤال؟ أنت أيضاً تحمل على كتفك شارة مشرف من المشرفين على الحفلة... أين بطرس ستيفانوفتش؟

ـ لا أعلم. في مكانٍ ما هنا. لماذا تسأل عنه؟

ـ لأنني أفهمكم الآن. هذه مؤامرة على جوليا ميخائيلوفنا لإفساد الحفلة.

رشقني ليبوتين بنظرة ماكرة:

ـ ولكن ما شأنك أنت؟

وابتسم، ورفع كتفيه، وتركني.

صُعقت. تأكدت شـبهاتي وشـكوكي كلها. ما كان أغباني حين كنت آمل أن أكون مخطئاً في ظنوني! ماذا يجب أن أفعل؟ بدا لي في اللحظة الأولى أن أستشـير ستيفان تروفيموفتش. ولكن ستيفان تروفيموفتش الذي كان متسمراً أمام مرآة، كان يجرِّب ابتسامات ويراجع في كل لحظة من اللحظات ورقه كان قـد دوَّن عليهـا بعض الملاحظات. لقد كان عليـه أن يتكلم بعد كارمازينوف رأساً، ولم يكن في وسعه حتماً أن يبدي إليَّ أية نصيحة. هل يجب أن أسعى إلى جوليا ميخائلوفنا؟ ولكن الأوان لم يحن بعد: إنها لا تزال في حاجة إلى درس أقسى من هذا الدرس لتشفى من أوهامها ولتبرأ من اعتقادها بأن الذين يحيطـون بها متعصبون في إخلاصهم لها متفانون في سـبيل خدمتها. ما كان لها أن تصدقني، وما كان لها إلّا أن تعدّني إنسـاناً تراوده الهواجس وتستبد به الوسـاوس. ثم ماذا في وسـعها أن تفعل؟ ثم قلت لنفسـي: "وفيمَ يهمني هذا فعلاً؟ سـوف أنزع الشـارة عن كتفي، وأمضي إلى بيتي، حين سـيبدأ الأمر". لقد نطقت فعلاً بهذه الكلمات: "حين سيبدأ الأمر". إنني أتذكّر هذا جيداً.

ولكن يجب أن أمضي أسـتمع إلى كارمازينوف. فلما طفت ببصري على الكواليس مـرةً أخيـرة رأيت ناسـاً مجهولين يتجولـون فيها، حتـى إن بينهم نسـاء. فبعضهـم يدخـل، وبعضهم يخرج. إن هـذه الكواليس مسـاحةٌ ضيقة تفصلهـا عن الصالة سـتارة، ويصلها بالحجرات الأخـرى دهليز. فهناك إنما كان الذين سـيظهرون على المسـرح ينتظرون أن يجيء دورهم. فلما هممت أن أخرج خطف بصري على حين فجأة منظر الشخص الذي سيعقب ستيفان

تروفيموفتش. إنه أستاذ في ما أظن (حتى اليوم لا أعرف ماذا كان على وجه الدقة): يقال إنه ترك بمحض إرادته المؤسسة التي كان يعلِّم فيها، وذلك في أعقاب اضطرابات حدثت بين الطلاب، وهو اليوم في مدينتنا لا أدري لأية أسباب. هو أيضاً قد زُكِّي لجوليا ميخائيلوفنا فاستقبلته باحترام. إنني أعرف الآن أنه لم يجئ إليها إلّا مرةً واحدة، وأنه لم يفتح فمه بكلمة واحدة طوال السهرة، مكتفياً بأن يبتسم ابتسامة ساخرة من الأمازيح التي كان يتبادلها الحاضرون عند جوليا ميخائيلوفنا ومن اللهجة التي كانوا يتكلّمون بها. ولقد أحدثت هيئته المتغطرسة وحساسيته المتأذية أثراً مزعجاً جداً. يجب أن أذكر أن جوليا ميخائيلوفنا نفسها هي التي طلبت منه أن يشترك في الصبيحة الأدبية. كان حين رأيته يمشي طولاً وعرضاً، ويكلم نفسه، مثل ستيفان تروفيموفتش، ولكنه كان خافض العينين. لم يكن يدرس ابتساماته أمام المرآة، رغم أنه كان يبتسم كثيراً فتعبّر ابتساماته عن خبث وشر وقسوة. هو أيضاً كان لا يمكن أن يخاطَب طبعاً. إنه قصير القامة، أصلع الرأس، شائب اللحية، محتشم الملبس، يبدو في نحو الأربعين من عمره. لكن أغرب ما في الأمر هو أنه كان كلما استدار يرفع قبضة يده اليمنى ويلوِّح بها فوق رأسه ثم يسقطها فجأةً كأنه يسحق خصماً من الخصوم. كانت هذه الحركة تتكرر بانتظام. شعرت بضيق وغم وأسرعت أمضي إلى سماع كارمازينوف.

3

مرةً أخرى كان الجو في الصالة مشحوناً بالكهرباء. إنني أعلن لكم سلفاً أنني أجلّ عظمة العبقرية، ولكنني أتساءل لماذا نرى هؤلاء السادة، رجالنا العباقرة، يتصرفون تصرف صبيةٍ صغار حين يصلون إلى نهاية سنيهم المجيدة؟ مهما يكن كارمازينوف عظيماً مشهوراً، ومهما يكن دخوله إلى القاعة محفوفاً بهالة من الفخامة والأبهة كأنه ياوران ملك من الملوك، فهل كان في وسعه أن يحمل على الصبر جمهوراً كجمهورنا مدة ساعة كاملة؟ لقد لاحظت على وجه العموم أن الخطيب لا يمكنه في اجتماعات أدبية

مـن هـذا النوع أن يحتـل المنصة أكثر من عشـرين مـن دقيقـة دون أن يعاقبه الجمهـور، مهمـا يكن عبقريـاً. يجب أن أذكـر على كل حال أن هـذا الرجل العظيم قد استُقبل استقبالاً فيه أقصـى الاحترام، وأن الشـيوخ الوقورين قد أظهروا ترحيبهم وتأييدهم ولاح عليهم كثير من حب الاطلاع. أما السـيدات فقـد بانـت عليهن الحماسـة. ولقـد كان التصفيق قصيراً مع ذلـك، ولم يكن شـاملاً. غيـر أن الصفوف الأخيـرة ظلت هادئةً سـاكنة إلى اللحظـة التي بدأ فيها السـيد كارمازينوف الكلام. وحتى في تلك اللحظة لم يحدث شـيء ذو بـال. فكل ما حدث عندئذ لا يعدو أن يكون سـوء تفاهم. لقد سبق أن قلت إن صـوت السـيد كارمازينوف صارخ قليلاً، نسـوي بعض الشـيء، وأنه عدا ذلـك متعـاذب تعاذباً أرسـتقراطياً. لذلك فمـا كاد يتكلم حتـى رأينا أحدهم يبيـح لنفسـه أن يضحك: ربمـا كان الضاحك رجلاً أحمـق لا أكثر، رجلاً لم يـر في حياته شـيئاً، فكل شـيء يفرحه ويضحكه. ولا شـك في أنـه لم يخطر ببالـه إحداث فضيحة. وسـرعان ما قامـت في الصالة أصـوات قوية تأمر بأن يخرس، فسـكت وجمد في مكانه. ولكن ها هو ذا السيد كارمازينوف يصرِّح متصنِّعاً بأنه "كان في أول الأمر لا يريد أن يقرأ شـيئاً أمام جمهور، مهما تكن الأسـباب". (لقد كان فـي حاجة إلى أن يقـول هذا، حقاً!). "إن هناك أسـطراً تنبـع من القلب رأسـاً كأنها غناء. فـإذا قرأتها على جمهور كنتَ تسـيء إليها وتحـط من قدرهـا وتجرِّدها من قدسـيتها." (لمـاذا يقرأهـا والحالة هذه؟)" ولكنهم بلغوا من الإلحاح عليَّ أنني وافقت أخيراً. ولما كنت من جهة أخرى أهجـر القلـم إلى الأبد، ولما كنت قد آليت على نفسـي أن لا أكتب بعد اليوم شـيئاً، فقد قـررت هذه المقالة الأخيرة، ولما كنت قـد حلفتِ أن لا أقرأ على الجمهور بعد اليوم شـيئاً، فقد قررت أن أقرأ الآن ما كتبت توديعاً للجمهور، إلى آخر ما هنالك من كلام مشابه.

ولكـن ذلك كله ما كان ليعدَّ شـيئاً. من ذا الـذي يجهل مقدمات الكتاب؟ يجـب أن أذكـر مع هذا أن أمثال هـذا الكلام يمكن أن تحدث آثاراً سـيئة كل السـوء في مثل هذا الجمهور الذي تعوزه الثقافة، ولا سـيما إذا كانت الحالة

النفسية لدى المستمعين في آخر القاعة هي ما كانت عليه فعلاً. لقد كان من الأفضل للسيد كارمازينوف أن يقرأ قصةً قصيرة، أو أن يقرأ حكايةً صغيرة من نوع الحكايات التي كان يكتب مثلها في الماضي، وهي حكايات إن كان فيها تصنع وافتعال، فإن فيها فكاهةً في بعض الأحيان على كل حال. فلو فعل ذلك لأُنقذ كل شيء. ولكن لا. لقد كان يريد شيئاً آخر. لقد ألقى خطاباً لا نهاية له. رباه! ما أكثر ما احتوى مقاله من كلام! إنني لعلى يقين بأن جمهور العاصمة نفسه ما كان يمكن أن يتحمّل هذا الخطاب كله، فما بالك بجمهور مدينتنا! تصوروا ملزمتين من ملازم المطبعة مملوءتين ثرثرة متأنقة فارغة! زد على ذلك أن كارمازينوف كان يقرأ بلهجة المتفضِّل المتواضع، فكأنه يُنعم علينا ويغمرنا بإحسانه. فمن شأن هذا أن يسيء إلى كبرياء الناس طبعاً. أما الموضوع فمن ذا الذي كان يمكنه أن يفهمه؟ لقد كان مدار المقال على بعض الانطباعات وبعض الذكريات. ولكن بأية مناسبة؟ ما أكثر ما قطب المستمعون حواجبهم وحكّوا جباههم أثناء سماع الجزء الأول من القصة عسى أن يفهموا شيئاً ولكنهم لم يظفروا بطائل. لذلك لم يصغوا إلى الجزء الثاني إلّا من قبيل الكياسة والتهذيب. لقد كان في المقال كلام كثير عن الحب، عن الحب الذي ملأ قلب الكاتب العبقري يوم توله بغرام فتاة شابة. أعترف لكم أن هذا قد بدا محرجاً بعض الإحراج، بل مزعج بعض الإزعاج. فما أكبر التعارض في رأيي بين وجهه المتكرش المترهل وبين القصة التي يرويها لنا عن قبلته الأولى!... والشيء الذي كان مثيراً أكثر من كل ما عداه هو أن قصة القبلة هذه لم تحدث كما تحدث لجميع الناس. كان لا بد أن تحيط بها أزهار الوزَّال (أزهار الوزَّال أو أية نباتات مزهرة أخرى لا تستطيع أن تعرفها إلّا إذا رجعتَ إلى كتب النبات)، وكان لا بد أن يكون لون السماء فوقها ضارباً إلى لون البنفسج، وهو لون لم يستطع أن يميِّزه في السماء أحدُ من البشر يوماً، بل قل إن البشر رأوه ولكنهم لم ينتبهوا إليه ولم يحفلوا به "أما أنا فقد ميَّزته، ميَّزت هذا اللون، وإني لأصفه لكم أيها الأغبياء، كما يوصف شيء بسيط كل البساطة". وإن الشجرة التي كان الكاتب العبقري وحبيبته

جالسين تحتها لا بد أن تكون بلون البرتقال. والحبيبان موجودان في مكانٍ ما بألمانيا. وهاهما يبصران بومبيوس أو كاسيوس على حين فجأة، عشية معركة خاضاهـا، فإذا بالحبيبين يتجمـدان افتتاناً. وهذه حورية مـن حوريات البحر تطلـق صرخة وراء أحد الأدغال. وهذا جلوك يأخذ يعزف على الكمان، بين شجيرات القصب، لحناً عنوانه: "في جميع الآداب"، ولكن لما لم يكن أحد قد سـمع عن هـذا اللحن فلا بد مـن مراجعة معجمٍ موسـيقى لمعرفته. وفي أثناء ذلك ينتشر ضباب، ثم يتكاثف الضباب. بل يبلغ من التكاثف أنه يصبح أقـرب إلـى زغب منفوش منـه إلى ضباب مألـوف. وفجأة يغيب كل شـيء، ويأخـذ الرجـل العظيم باجتياز نهر الفولغا أثناء تكسـر الجليـد. إنه يصف لنا عبـور النهر في صفحتين ونصف صفحة. لقد سـقط في الماء. إنه يغرق. هل يهلـك؟ لا، لا، لـن يهلك أبداً. لقد حكـى لنا العبقري ذلك كلـه من أجل أن يقـول إنـه حين أوشـك أن يغور في قـاع المياه، لمح قطعة مـن الجليد فجأة، قطعة صغيرة جداً، لكنها صافية شـفافة "كدمعة متجلدة"، وعليها كانت تتألق ألمانيا أو قل تتألق سـماء ألمانيا. وهذا التألق المتلون بألوان قوس قزح يذكِّر الرجل العظيم بتلك الدمعة نفسـها التي "كما تتذكرين، انحدرت من عينيك، حين كنا جالسـين تحت شجرة الزمرد، فصرخت تقولين وقد زخرت نفسك فرحاً: "لا وجود للجريمة!"، فأجبتك من خلال عبراتي قائلاً: "نعم، ولكن لا وجود للصالحين العادلين أيضاً!"، ثم أجهشـنا باكيين منتحبين، وافترقنا إلى الأبد". وذهبت الفتاة لا أدري إلى أي شـاطئ من شـواطئ البحر، وذهب هو يعتصم بمغارةٍ في موسكو تحت برج سوخاريف. ولا يزال يهبط من مغارات إلى مغارات أعمق خلال ثلاث سنين حتى رأى في باطن الأرض مصباحاً قد وقف أمامه ناسك يصلِّي. ويقترب الكاتب من كوة ذات قضبان حديدية، فإذا هو يسمع زفرة. هل تظنون أن الناسك هو الذي تنهد؟ نعم إنه الناسك. ولكن الزفـرة لا تزيد على أن تذكّر الكاتـب بالتنهيدة الأولى التي خرجت من صدر حبيبتـه قبل سـبعة وثلاثين عاماً، "متى؟ هـل تتذكرين؟ فـي ألمانيا، حين كنا جالسـين تحت شـجرة عقيق، فقلت لي: علام الحب؟ انظر إلى نباتات زهر

الـوزَّال هذه التي تحيط بنا. لسـوف أكـف عن الحب متـى صوَّحت!". وهنا يتكاثف الضباب من جديد، وإذا هو فمان يظهر، وإذا حورية البحر تصفر لحناً من ألحان شـوبان. وفجأةً، فوق سـطوح المنازل بروما، ينبجس من الضباب آنكـوس ماركيـوس متزنراً بأغصان أشـجار الغار. فإذا رعدة نشـوة تهزّنا، ثم افترقنـا إلى الأبد" إلخ إلخ. لعلّني لم أنقل ثرثرة صاحبنا نقلاً دقيقاً كل الدقة، ولكنني نقلت معنى الكلام وطابعه العام. تُرى ما مصدر هذا الشغف الشديد المخجل، لدى عظماء رجالنا، بأمثال هذه الشـعوذات الدعية؟ إن الفلاسـفة الأوروبييـن، والعلماء، والمخترعين، والعاملين، والأبطال، إن جميع أولئك الذيـن يجهدون ويتألمون هم في نظر العبقري الروسـي أشـبه بخدم. إنه هو السـيد، أما هم فلا يمثُلون أمامه إلّا رافعين قبعاتهم بأيديهم ينتظرون أوامره. صحيح أنه ينظر إلى روسيا من علٍ أيضاً، وأنه لا شيء أحب إلى نفسه من أن يعلن أن روسيا قد أفلست إفلاساً تاماً إزاء العقول الأوروبية العظيمة. ولكن هـذا لا يصـدق عليه هو، لا يصدق على شـخصه: فهو من جهتـه يحلق عالياً فـوق جميع العقول الأوروبية العظيمة التي لا تزيد على أن تمده بمادة عبث. إنه يسـتولي على فكرة غيره، فيضم إليها النقيض الذي يتصوره، فيتم العبث، وتنتهـي اللعبـة. الجريمة موجودة، الجريمة غير موجـودة. الحقيقة لا وجود لها. ليـس هناك صالحون عادلون. الإلحاد. الداروينية. أجراس موسـكو... لكنه لا يؤمن بأجراس موسكو مع الأسف! روما، أكاليل الغار! ولكنه أصبح لا يؤمـن حتـى بأكاليل الغار!... أضف إلى ذلك وصولاً اضطرارياً إلى سـأم علـى طريقـة بايـرون، وتصعيرةَ وجه علـى طريقـة هايني، وجملـةً من كلام بتشـورين! وتسـير الآلة... و تسير!... "ولكن عليكم خاصةً أن تمدحوني! امدحونـي! ذلـك ما أريده! وحين أعلـن أنني أهجر القلم، فمـا ذلك مني إلّا تظاهر! انتظروا قليلاً! لسـوف أضجركم ثلاثمائة مرة أخرى... حتى تضيقوا ذرعاً بقراءة ما أكتب!".

كان طبيعياً أن لا تكون خاتمة ذلك حسنة. ومع ذلك فإذا كانت الأمور قد جرت مجرى سـيئاً، فإنما الذنب في هذا ذنـب كارمازينوف. لقد أخذ الناس

منذ مدة يتمخطون ويسـعلون ويتحركون متململيـن، كما يحدث دائماً حين يحتل الخطيب المنصة أكثر من عشرين دقيقة، كائناً من كان الخطيب. ولكن الكاتـب العبقري لم يلاحظ شـيئاً. لقد ظل يتكلم بصوتـه المتعاذب المترقق وظـل يتظارف ويتغنج مـن دون أن ينتبه إلى الجمهور الـذي أخذ يُدهش من هذه الحالة. وفجأة تعالى صوت قوي من آخر الصالة يصيح قائلاً:

ـ ما هذه السخافات!

كانـت صيحة غيـر مقصودة. أنا واثق بذلك. هي صيحة إنسـان استبد به التعـب والضجـر، ولـم يكن يخطـر بباله قط أن يحـدث لغطـاً وبلبلة. ولكن السـيد كارمازينوف توقف عن الـكلام، وألقى على الحضور نظرة سـخرية، واصطنع على حين فجأة لهجة ياوران منزعج قائلاً:

ـ يبدو أيها السادة أنني أضجركم بعض الإضجار، أليس كذلك؟

لقد كان خطأه أنه تكلم أول من تكلم. إنه بإلقائه هذا السـؤال قد منح أي وغـد حق الإجابة بطريقة من الطرق. فلو أنه سـيطر على نفسـه وأمسـك عن الكلام، لأمكن أن يسـتمر الناس في التمخط والسعال، ولربما قضت الأمور عنـد ذلك الحد لا تتعـداه!... لعل كارمازينوف كان يتوقع أن يجيء الجواب عن سـؤاله تصفيقاً. ولكن أحداً لـم يصفق. بالعكس: ظهر على الناس القلق، ولبثوا ساكنين لا يتحركون.

قال صوت مغتاظ يكاد يكون حانقاً:

ـ أنت لم ترَ آنكوس مارسيوس في حياتك. ما هذه إلّا جمل منمقة.

وقال آخر مؤيداً:

ـ تماماً. لا أحد اليوم يميل إلى الرؤى الخيالية. وإنما تحب الناس في هذا الزمان العلوم الطبيعية. هلا اطلعت على العلوم الطبيعية؟

قال كارمازينوف مذهولاً:

ـ أيها السادة، حقاً لم أكن أتوقع اعتراضات من هذا النوع.

إن هذا الرجل العظيم كان قد نسي في كارلسروهه وطنه.

صرخ شاب يقول بصوت كأنه صوت طائر من الجوارح:

ـ إنه لمن المخزي في هذا العصر أن يزعم لنا زاعم أن الأرض تحملها ثلاث سمكات. أنت لم تهبط إلى مغارة في يوم من الأيام، ولا رأيت ناسكاً. ومن ذا الذي يتكلم عن ناسك في هذا الزمان؟

قال كارمازينوف:

ـ إن الشيء الذي يدهشني أكثر من كل ما عداه هو أنكم تأخذون الأمر مأخذ الجد إلى هذا الحد. على كل حال، على كل حال، أنتم على حق. ما من أحد يحترم الحقيقة أكثر مني...

لقد كان مذهولاً مشدوهاً، رغم أنه ظل يبتسم ساخراً. وكان وجهه يقول: "أنا لست أبداً ما تظنون. أنا معكم. ولكن امدحوني، اغمروني بالمديح. إني أعبد المديح...".

وقال أخيراً وقد اغتاظ اغتياظاً عميقاً:

ـ أرى أيها السادة أن قصيدتي الصغيرة المسكينة لم تجئ في محلها، وأني أخطأت هدفي.

ـ رمى غراباً فأصاب بقرة.

كذلك صرخ يقول بأعلى صوته غبيٌّ ربما كان سكرانًا. ولا شك في أنه كان لا ينبغي الرد على هذه المقولة التي أثارت بضع ضحكات يعوزها الاحترام والحق يقال، ولكن كارمازينوف استجاب استجابة عنيفة. فصاح يقول بصوت كان ما ينفك يزداد صياحاً:

ـ بقرة؟ في ما يتعلق بالغربان والأبقار، أعتقد أن الأفضل أيها السادة أن أمتنع عن التعليق. إنني أحترم جمهوري أشد الاحترام، أياً كان هذا الجمهور، فلا يمكن أن أسمح لنفسي بتشبيهات ولو كانت بريئة، ولكنني أظن...

قال واحد من آخر القاعة:

ـ أراك تسرف مع ذلك!

ـ ولكنني ظننت أني إذ أهجر القلم وأودع القارئ كنتُ سأُسمع...

فارتفعت في الصفوف الأمامية أخيراً بضعة أصوات جريئة تقول:

ـ نعم، نعم، نريد أن نسمعك، نريد أن نصغي إليك!

وصرخت سيدات متحمسات تقول:
ـ اقرأ! اقرأ!
ودوّت أخيراً تصفيقات وإن تكن ضعيفة هزيلة. فابتسم كارمازينوف ابتسامة متقلصة ونهض.
وقالت زوجة مارشال النبالة نفسها:
ـ ثق ياكارمازينوف أن الجميع يعدون الإصغاء إليك شرفاً عظيماً...
ومن آخر الصالة قام معلّم مدرسة هو شاب رقيق الحاشية مهذب وفد إلينا واستقر بمدينتنا منذ مدة قصيرة، قام وهو يصيح قائلاً:
ـ يا سيد كارمازينوف، لو قد أسعدني الحظ فأحببت الحب الذي تصف، لما تكلمت عن حبي في مقالة تُقرأ على جمهور.
وعاد الشاب يجلس وقد صار كالجمر احمراراً.
فصرخ كارمازينوف يقول:
ـ أيها السادة، لقد انتهيت. إنني أترك الخاتمة و أنسحب. ولكن اسمحوا لي أن أقرأ لكم الأسطر الأخيرة.
قال كارمازينوف ذلك وبدأ يقرأ ناظراً في مخطوطته من دون أن يعود إلى الجلوس فقال:
"صديقي القارئ، وداعاً. وداعاً أيها القارئ. لا أريد حتى أن ألح كثيراً على ضرورة أن نفترق كما يفترق أصدقاء. علام أزعجك؟ إن في وسعك حتى أن تشتمني. فاشتمني ما شئت، إذا كان ذلك يحدث لك أية مسرة. ولكن الأفضل هو أن لا يفكر أحدنا في الآخر بعد اليوم. وهبكم جميعاً أيها القراء مضيتم بشهامتكم فجأة إلى حد استعطافي راكعين دامعين قائلين: اكتب أيضاً يا كارمازينوف، اكتب لنا، لوطنك، للأجيال القادمة، للمجد!"، فسوف أجيبكم شاكراً بأدب كبير طبعاً: "لا يا مواطنيَّ الأعزاء! لقد قضينا معاً حتى الآن وقتاً طويلاً كافياً. شكراً لكم. لقد آن أن نفترق. شكراً. شكراً. شكراً!"
وهنا حيَّا كارمازينوف الجمهور بكثير من الاحتفال وانسحب محمرَّ

الوجه احمراراً شديداً.
ـ ما من أحد يخطر بباله أن يركع أمامه. يا لها من فكرة!
ـ يا له من غرور!
ـ هذه فكاهة.
كذلك علَّق واحد أعلم من الآخرين. فأجابه ثان:
ـ اعفني من هذه الفكاهة.
ـ ويا لها من وقاحة أيها السادة!
لقد انتهى على الأقل!
ـ حقاً لقد أضجرنا كثيراً!
لكن هذه الصيحات الفظة التي كانت لا تصدر عن آخر الصالة فحسب، قد غلبتها تصفيقات الجزء الآخر من الجمهور الذي أخذ ينادي كارمازينوف. وتجمع عدد من السيدات، في طليعتهن جوليا ميخائيلوفنا وزوجة مارشال النبالة، حول المنصة. كانت جوليا ميخائيلوفنا تحمل إكليلاً رائعاً من الغار موضوعاً على وسادة من مخمل أبيض ومحاطاً بإكليل آخر من ورود طبيعية.
قال كارمازينوف وهو يبتسم ابتسامة فيها قليل من السخرية:
ـ إكليل من الغار! إن هذا اللطف يؤثر في نفسي طبعاً، وأنا أقبل شاكراً هذا الإكليل الذي سبق تحضيره ولكن لم يذبل بعد. غير أني أؤكد لكن يا سيداتي أني قد بلغت من الواقعية على حين فجأة أني صرت أرى أن أكاليل الغار تكون في هذا الزمان في مكانها الطبيعي حين توضع بين يدي طباخ ماهر أكثر مما تكون في مكانها الطبيعي حين تُقدَّم إليَّ.
ـ فعلاً، الطباخ أنفع.
كذلك قال الطالب الذي شارك في "جلسة" فرجنسكي. إن كثيراً من الأفراد كانوا قد غادروا أماكنهم واحتشدوا حول المنصة ليروا المشهد رؤيةً أكمل.
وأضاف آخر وهو يرفع صوته عالياً، بل عالياً جداً:
ـ أنا مستعد أن أدفع ثلاثة روبلات لطباخ الآن.

ـ أنا أيضاً!
ـ وأنا أيضاً!
ـ أليس ههنا إذًا بوفيه؟
ـ كانت تلك خدعةً لا أكثر، أيها السادة.

ومع ذلك فإن هؤلاء الرعاع جميعاً كانوا لا يزالون يشعرون بالوجل من شخصياتنا الكبرى، ومن مفوَّض الشرطة الذي كان واقفاً في الصالة. وعاد الناس إلى الجلوس بعد زهاء عشر دقائق. غير أن شيئاً من الفوضى كان لا يزال قائماً. وفي وسط هذا السديم الناشئ إنما وقع المسكين ستيفان تروفيموفتش.

4

مضيت ألقاه في الكواليس مرةً أخرى (وكنت خارجاً عن طوري)، فنبهته إلى أن كل شيء قد ضاع في نظري، وأن الأفضل أن يعدل عن الكلام، وأن يرجع رأساً إلى البيت بحجة مغص انتابه فجأةً. وقلت له إنني مستعد لأن أرجع معه، تاركاً شارة المشرف على الحفلة. وكان هو قد أخذ يتجه نحو المنصة، ولكنه توقف بغتةً، وألقى عليَّ نظرة احتقار وقال بلهجةٍ فخمة:

ـ كيف يمكنك أن تتصور أن في وسعي أن أرتكب صَغاراً كهذا الصَّغار أيها السيد؟

فتركته يمر. كنت واثقاً، كوثوقي بأن اثنين واثنين أربعة، أن خطابه سيؤدي إلى كارثة. وفيما كنت باقياً في مكاني وقد صُعقت تماماً، أبصرت مرةً الأخرى الأستاذ الذي سيتكلم بعد ستيفان تروفيموفتش، والذي كان لا ينى يرفع قبضته في الهواء ويخفضها مهدداً. إنه لا يزال يمشي طولاً وعرضاً، غارقاً في أفكاره، مجمجماً بكلمات غير مفهومة، مبتسماً ابتسامة حانقة. فناديته رغم إرادتي تقريباً (حتى إنني لا أعرف ما الذي دفعني إلى مناداته).

قلت له:

ـ إنك تعرف أن الخطيب إذا احتل المنصة أكثر من عشرين دقيقة، كفَّ

الجمهور عن الاستماع إليه. هذا ما تشهد به أمثلة كثيرة. فما من رجل شهير، أياً كان شأنه، يمكن أن يُحتمل أكثر من نصف ساعة...

فوقف الرجل مرتعشاً، جريح الكبرياء، وعبَّر وجهه عن غطرسة لا نهاية لها، ودمدم يقول لي باحتقار:

ـ لا تخش شيئاً.

واستأنف سيره. وفي تلك اللحظة بلغ إلى سمعي صوت ستيفان تروفيموفتش من الصالة.

قلت بيني و بين نفسي: "اذهبّ إلى الشيطان!". وهرعت إلى الصالة.

كان ستيفان تروفيموفتش قد جلس قبل أن يستتب الهدوء تماماً. استقبلته الصفوف الأولى بنظرات كارهة (لقد أصبح الناس في النادي في الآونة الأخيرة، لا يحملون له من المودة والاحترام ما كانوا يحملون له منهما قبل ذلك). وأسعدني على كل حال أن رأيتهم لا يصفرون له استنكاراً. لا أدري لماذا كنت منذ أمس أتخيل أنهم سيصفرون له متى ظهر. ولكن، في وسط الاضطراب الذي كان يسود الجو، لم يلاحَظ وجودُه فوراً. ماذا كان يمكن أن يتوقع هذا المسكين من الناس إذا كانوا لم يتحرجوا حتى مع كارمازينوف، ولم يتورعوا عن معاملته تلك المعاملة؟ كان ستيفان شاحب اللون. هذه أول مرة يظهر فيها أمام الجمهور منذ عشر سنين. أدركت إدراكاً واضحاً حين لاحظت انفعاله ورأيت بعض العلامات التي أعرفها فيه جيداً، إن ستيفان تروفيموفتش كان يعد ظهوره على المنبر لحظة حاسمة في حياته أو شيئاً من هذا القبيل. وذلك بعينه ما كنت أخشاه. لقد كان الرجل عزيزاً في نفسي. لهذا تستطيعون بسهولة أن تتصوروا ما أحسست به حين فتح فاه ونطق جملته الأولى...

بدأ يتكلم بصوت مخنوق وكأنه عقد العزم على أن يجازف بكل شيء فقال:

ـ أيها السادة! هذا الصباح أيضاً كانت أمامي ورقة من تلك الورقات التي تُوزَّع سراً في البلاد، فتساءلت للمرة المائة: "ما سرُّ هؤلاء؟".

صمتت القاعة فوراً. واتجهت الأنظار كلها إلى ستيفان تروفيموفتش في شيء من القلق، لا شك أنه استطاع منذ الكلمات الأولى أن يجتذب اهتمام سامعيه، حتى لقد ظهرت رؤوس من خلف الكواليس. وكان ليبوتين وليامشين يصغيان طبعاً.

نادتني جوليا ميخائيلوفنا إليها من جديد، وهمست تقول لي مرتاعة:

ـ أسكته، أسكته مهما كلّف الأمر!

فلم أزد على أن رفعت كتفي. أين لي أن أسكت إنساناً "عزم أمره أخيراً"؟ وا أسفاه! لقد فهمت الآن ستيفان تروفيموفتش!

دمدم بعض أفراد الجمهور يقولون:

ـ هذه منشورات تحريضية.

وظهر في الصالة اضطراب.

ـ أيها السادة! لقد حللت هذا اللغز: إن سر عملهم هو غباؤهم.

قال ذلك وسطعت عيناه. وتابع كلامه فقال:

ـ نعم أيها السادة! لو كانت هذه الغباوة مقصودة، متظاهراً بها، محسوبة، لكاد الأمر أن يكون عبقرياً. ولكن يجب أن ننصف كتّاب هذه الورقات: ليس غباؤهم مزيفاً، بل هو الغباء الخالص العاري البريء المسكين، "هو الغباء في جوهره الصافي صفاءَ عنصر كيماوي بسيط" (بالفرنسية). لو كانوا يعبِّرون ولو بقليل جداً عن الذكاء، لأدرك جميع الناس غباءهم التافه. ولكن جميع الناس يتوقفون الآن أمام هذه الأوراق مشدوهين، ولا يستطيعون أن يصدِّقوا أنها يمكن أن تكون غبية إلى هذا الحد من الغباء. إن كل واحد منا يقول لنفسه: "يستحيل التسليم بأن ليس فيها شيء أكثر من هذا". ونمضي نبحث عن سرهم ويتراءى لنا أننا نكتشف لغزهم، ونحاول أن نقرأ بين السطور. وبذلك يتحقّق الغرض ويحدث الأمر المنشود. آه... إن الغباء لم يحقّق في يوم من الأيام انتصاراً كهذا الانتصار، انتصاراً مسوَّغاً هذا التسويغ، رغم أنه يستحق هذا الانتصار في كثير من الأحيان... ذلك أن الغباء ـ أقول هذا بين قوسين ـ مفيد للإنسانية كالعبقرية سواء بسواء.

قال صوت خجول في الواقع، لكنه وضع في البارود ناراً:

ـ هذه من مزاحات سنوات الأربعينات!
وهتف ستيفان تروفيموفتش يقول متحدياً الجمهور:
ـ أيها السادة! مرحى مرحى! إنني أشرب نخب الغباء!
أسرعت إلى المنصة كما لو كنت أريد أن أصب له ماء. وقلت له:
ـ ستيفان تروفيموفتش، انصرف! إن جوليا ميخائيلوفنا تتوسّل إليك أن تنصرف...
فقال لي غاضباً:
ـ بل دعني وشأني أيها الشاب العاطل!
فوليت هارباً. وتابع هو كلامه فقال:
ـ أيها السادة! لماذا هذا الاضطراب؟ لماذا هذه الأصوات المستاءة التي أسمعها؟ إنني أجيء إليكم حاملاً غصن زيتون. إنني آتيكم بقول فصل، ذلك أنني أنا الذي أعرف هذا القول الفصل، وسوف نتصالح.
أعول بعضهم يقول:
ـ فليسقط! فليسقط!
وصاح آخرون:
ـ صمتاً! دعوه يتكلّم! ليقل ما يريد أن يقوله.
وكان أشدهم حماسة، في ما يبدو، إنما هو معلّم المدرسة الشاب الذي تجاسر فتكلّم مرةً، فإذا هو قد أصبح لا يستطيع التوقف عن الكلام.
ـ أيها السادة! إن القول الفصل لهو قول صفح وعفو ومغفرة. إنني لأعلن لكم جهاراً، أنا الشيخ الذي انتهت حياته، أن روح الحياة تهبّ اليوم مثلما كانت تهبّ في الماضي، وأن الجيل الجديد لا يزال زاخراً بالقوة. إن حماسة شباب اليوم لا تقل نقاءً وضياءً وسناءً عن حماسة شباب زماننا المنصرم. هناك شيء واحد تغيَّر: ذلك الشيء إنما هو الغاية، إنما هو الهدف. إن مثلاً أعلى جديداً قد حل محل المثل الأعلى القديم. والقضية كلها ترجع إلى هذا السؤال: هل شكسبير أعلى قيمةً من حذاءين، وهل رافائيل أرفع شأناً من صفيحة نفط؟
ـ هذه وشاية!

ـ هذه مسائل تعرِّض للخطر!

ـ يا للعميل المحرِّض!

صرخ ستيفان تروفيموفتش يقول بصوت حاد:

ـ أما أنا فأقول لكم أن شكسبير ورافائيل أجلُّ شأناً من تحرير الفلاحين، وأرفع قدراً من القومية، وأعظم قيمة من الاشتراكية، وأسمى منزلةً من الجيل الجديد، وأهم خطراً من الكيمياء، وأنهما فوق الإنسانية بكاملها تقريباً، لأنهما ثمرة الإنسانية، ثمرتها الحقيقية، لأنهما ربما كانا أجمل الثمار الإنسانية التي يمكن أن تهبها الإنسانية يوماً، لأنهما يحققان منذ الآن صورة من الجمال كاملة قد لا أحب بدونها أن أحيا... آه... رباه!... (قال ذلك وضمَّ يديه إحداهما إلى الأخرى)... منذ عشر سنين، في بطرسبرج، ناديت من أعلى المنبر بهذه الأفكار نفسها، معبراً عنها بهذه الألفاظ نفسها تماماً. وكما لا تفهمونني الآن، كذلك سخروا مني يومذاك، وصفَّروا لي. يا للبشر المساكين! ماذا يعوزكم حتى تفهموني؟ هل تعلمون... هل تعلمون أن الإنسانية تستطيع أن تستغني عن الإنجليز اذا لزم الأمر، وأن تستغني عن ألمانيا، وأنها تستطيع جداً جداً أن تستغني عن الروس، وعن الخبز، وعن العلم، ولكنها لا تستطيع أن تستغني عن الجمال؟ إن الجمال وحده لا غنى لها عنه، إذ بدون الجمال لا يبقى لنا على الأرض ما نعمله! هذا هو السر كله! ذلكم هو كل التاريخ! العلم نفسه لا يمكن أن يعيش لحظةً بعد زوال الجمال! هل تعلمون ذلك أنتم يا من تضحكون؟ نعم، إن العلم بدون الجمال يتدهور إلى تفاهة، فتصبحون عاجزين عندئذ حتى عن اختراع مسمار!

قال ذلك ثم أعول فجأة وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية:

ـ لن أتراجع عن رأيي!

ولكن بينما كان ستيفان تروفيموفتش يهذر هذا الهذر كانت الفوضى في الصالة تزداد، إن جزءاً من الجمهور قد هبَّ واقفاً، وإن عدداً من الناس قد أخذوا يقتربون من المنصة متدافعين. وهذا كله حدث بسرعة تبلغ من الشدة أن الوقت لم يتسع لاتخاذ الإجراءات الضرورية. وربما لم يشأ أحد أن تتخذ

هذه الإجراءات.

زأر الطالب قائلاً وقد وصل إلى قرب المنصة، وكان يضحك ضحكة خبيثة كاشفاً لستيفان تروفيموفتش عن جميع أسنانه:

ـ هذا يصلح لكم أيها الكسالى الذين تعيشون عالةً على غيركم كما تعيشون...

فلما رآه ستيفان تروفيموفتش وثب إلى حافة المنصة.

ـ ألست أنا الذي قلت إن حماسة الجيل الجديد لا تقل صفاء وضياءً وسناءً عما كانت عليه حماستنا نحن، وإنها لا تضيع إلّا لخطأ في فهم صور الجمال؟ ألا يكفيكم هذا؟ هل يستطيع إنسان، يا أيها المحدودون، أن يكون أكثر حياداً وإنصافاً، وأن يكون أعظم هدوءاً ورصانة؟... يا لكم من عاقين ناكرين للجميل!... لماذا، لماذا لا تريدون أن تتصالحوا؟...

ألقى ستيفان تروفيموفتش هذا السؤال وأجهش باكياً منتحباً، وأخذ يمسح بأصابعه دموعه التي طفقت تسيل على وجهه كله. كان جسمه يرتعش متشنجاً. وكان قد فقد صوابه تماماً.

وهبَّت على الصالة ريح ذعر. إن جميع الحضور تقريباً قد وقفوا وانتصبت جوليا ميخائيلوفنا فجأة، شادةً زوجها من ذراعه لينهض هو أيضاً... وبلغت الفوضى ذروتها.

هتف الطالب يقول فرحاً:

ـ ستيفان تروفيموفتش! إن فدكا، المحكوم عليه بالأشغال الشاقة قد هرب من السجن وهو الآن يطوف في المدينة وفي الضواحي. إنه يسرق ويقتل. ولقد ارتكب في الآونة الأخيرة جريمة قتل جديدة. فهلّا أذنت لي أن ألقي عليك هذا السؤال، لو أنك منذ خمسة عشر عاماً لم تبق جندياً لتسدد ديناً ترتب عليك في القمار، أو قل بتعبير آخر، لو أنك لم تخسر فدكا في اللعب بالورق، أفكان ذهب إلى السجن؟ أفكان يقتل كما يفعل الآن في كفاحه من أجل البقاء؟ ما رأيك في هذا يا عاشق الجمال؟

إنني أعزف عن وصف ما جرى حينذاك. لقد هبَّت في أول الأمر عاصفة

من التصفيق. صحيح أن الذين صفقوا لا يتجاوز عددهم خُمس عدد الحضور في القاعة، ولكنهم صفقوا بحماسة تشبه الهذيان. واتجه الآخرون نحو باب الخروج. ولكن لما كان المصفقون يتدافعون نحو المنصة، فقد عمَّ اضطراب شامل، فالسيدات يطلقن صرخاتٍ صغيرة، والفتيات يبكين ويطلبن إعادتهن إلى البيوت. ولمبكه واقف أمام كرسيه يجيل على ما حوله نظرات زائغة. وجوليا ميخائيلوفنا تبدو كأنها فقدت صوابها. أما ستيفان تروفيموفتش فقد بان عليه في البداية أن كلام الطالب قد سحقه سحقاً بالفعل. ولكنه لم يلبث أن مدَّ ذراعيه فوق الجمهور على حين بغتة وأعول يقول:

ـ إنني أنفض غبار حذاءي وألعن!...هذه هي النهاية! النهاية!...

واستدار إلى وراء، وفرَّ إلى الكواليس ملوحاً بذراعيه على هيئة التهديد.

أعول المسعورون يقولون:

ـ لقد أهان الجمهور! هاتوه! أرجعوه!

وأراد بعضهم أن يركض في أثره. لقد كان يستحيل استحالة مطلقة، في تلك اللحظة على الأقل، أن تعود الأفكار إلى هدوئها، وأن يرجع إلى النفوس صفاؤها وسكونها.

ولم يطل انتظار وقوع الكارثة الحاسمة. فها هي ذي تنفجر انفجار قنبلة: إن المحاضر الثالث، ذلك الرجل المهووس الذى كان لا يني يشهر قبضة يده في الكواليس قد انبجس الآن على المنصة فجأة.

كانت هيئته هيئة مجنون تماماً. وجهه يشرق بابتسامة نصر، ويزخر بزهو كبير، وهو يتأمل الصالة مفتوناً بالفوضى التي تسودها، لا يقلقه ولا يشوشه أن عليه أن يتكلم في وسط هذا اللغطِ وهذه الضوضاء، حتى لكأنه مسرور بذلك أعظم السرور. وكان ابتهاجه يبلغ من الوضوح أنه سرعان ما لفت إليه انتباه الناس كافةً على الفور.

هتفت بضعة أصوات تسأل:

ـ ما هذا أيضاً؟ من هذا؟ سكوت! ماذا يريد أن يقول؟

صاح المهووس يقول بأعلى صوته، واقفاً على حافة المنصة:

ـ أيها السادة...

إن صوته صارخ كصوت كارمازينوف، ولكن ليس فيه ما في صوت كارمازينوف من تعاقب أرستقراطي.

ـ أيها السادة! منذ عشرين سنة، قبل أن تدخل روسيا حرباً ضدَّ نصف أوروبا، كانت روسيا تجسّد المثل الأعلى لجميع مستشاري الدولة وغيرهم من المستشارين. وكان الأدب عبد الرقابة. وكانت الجامعات تعلّم الخطوة العسكرية، وكان الجيش قد أصبح فرقة باليه. أما الشعب فكان يدفع الضرائب ويصمت مجلوداً بسياط القنانة. وكانت الوطنية تعني قبض الرشوات، فأما الذين لا يقبضون رشوات فيعدون عصاة ثائرين لأنهم يشوشون انسجام النظام. وكانت غابات أشجار السندر تُقطع دائماً في سبيل الحفاظ على النظام. وكانت أوروبا ترتعش... ولكن روسيا خلال السنين الألف من حياتها البليدة لم تكن قد بلغت ذلك المبلغ من السقوط إلى الدرك الأسفل...

قال الخطيب هذا ورفع قبضة يده وشهرها غاضباً فوق رأسه ثم هوى بها كأنه يحطّم خصماً من الخصوم. فضجّت القاعة بأصوات معولة مجنونة في كل جهة من الجهات. وطفق نصف من في القاعة يصفقون تصفيقاً محموماً. وحتى الخجلون الوجلون انقادوا للحماسة العامة. إن روسيا تُشتم وتلطخ بالوحل على رؤوس الأشهاد. فكيف لا تثور الحماسة تأييداً واستحساناً؟

ـ هذا رجل! هل اسمه كلام! ما هذه بجمل منمقة في علم الجمال!...

وتابع المهووس خطابه قائلاً وقد سكر بما أصاب من نجاح:

ـ انقضت على ذلك العهد عشرون سنة. افتُتحت جامعات جديدة. الخطوة العسكرية أصبحت أسطورة. وأصبح يعوزنا ألوف الضباط لإكمال القيادات في جيشنا. السكك الحديدية التهمت العواصم، وغطت روسيا كخيوط العنكبوت، فما إن تمضي خمس عشرة سنة أخرى حتى يكون في وسع المرء أن ينتقل إلى أي مكان في أغلب الظن. الجسور لا تحترق إلّا من حين إلى حين، في أوقات متباعدة. أما المدن فتحترق واحدةً بعد أخرى بانتظام، حين يجيء موسم الحرائق. المحاكم تصدر أحكاماً كأحكام سليمان

الحكيـم، والمحلَّفون لا يتقاضون مالاً إلّا من أجل أن لا يموتوا جوعاً. ذلك هو الكفاح في سـبيل البقاء. الأقنان أحرار، يضرب بعضهم بعضاً لأن السادة أصبحوا لا يضربونهم. بحار من الخمرة بل أوقيانوسـات من الخمرة يشربها الشـعب مسـاعدةً للميزانية. وفي نوفغورود، أمام كاتدرائية القديسـة صوفيا، القديمة التي لا فائدة منها، نصبت كرة فخمة كبيرة من البرونز تخليداً لذكرى السـنين الألـف التي قضيناها مـن حياتنا فـي فوضى وغبـاء. وأوروبا تقطب حاجبيها، وتسـتأنف قلقها... خمسة عشـر عاماً من الإصلاحات! ومع ذلك لم تسـقط روسـيا يوماً، حتى فـي أحلك عهود فوضاها، إلـى مثل هذا الدرك الأسفل...

لـم يمكن سـماع كلماته الأخيرة: لقد غطَّتها هتافـات الجمهور وأغرقتها إغراقـاً. وظـل المجنون يُرى رافعـاً قبضة يده، هاوياً بها علـى ظفر وانتصار. تجاوزت الحماسة العامة كل الحدود. كان الناس يعولون، ويضربون أكفهم، حتـى لقد أخـذت إحدى السـيدات تصيح قائلـةً: "كفى! لن تقـول خيراً مما قلت!". كان الناس كالسكارى. وكان الخطيب يطوف ببصره على الجمهور ويتلـذذ بانتصـاره. رأيت لمبكه مضطرباً اضطراباً لا سـبيل إلى وصفه، وكان يصـدر إلى أحدهم أوامره. ورأيت جوليا ميخائيلوفنا شـاحبةً كل الشـحوب تقـول بضع كلمات سـريعة للأمير الذي هـرع إليها... ولكن سـتة رجال هم جميعـاً أشـخاص رسـميون قليلاً أو كثيراً، قـد ظهروا علـى المنصة في تلك اللحظة نفسـها، فأمسـكوا بالخطيب واقتادوه إلـى الكواليس. لا أدري كيف استطاع أن يفلت منهم. ولكنه قد أفلت في الواقع، وركض إلى حافة المنصة، وأمكنه أن يصرخ مرة أخرى شاهراً قبضة يده قائلاً بصوت عالٍ:

ـ ولكن روسيا لم تسقط يوماً هذا السقوط...

واقتادوه من جديد. وأراد نحو خمسـة عشـر رجلاً أن يخلِّصوه، فأحدقوا بالمنصة وحطموا الدرابزين الهزيل الذي يحيط بها فسرعان ما سقط...

وبعـد ذلـك رأيـت، مـن دون أن أصـدق عينـيَّ، رأيـت الطالبـة (أخت فرجنسـكي) تظهر على المنصة فجأة وقد انبجسـت لا أدري من أين. إنها لا

تزال مدوَّرة الجسم وردية اللون، ولا تزال ترتدي ذلك الثوب نفسه، ولا تزال تتأبط تلك اللفيفة من الأوراق نفسها. وكان يصحبها عدة أشخاص، رجال ونساء، عرفت منهم طالب المدرسة الثانوية، عدوَّها اللدود. لم أستطع أن أدرك إلّا عبارة واحدة قالتها:

"أيها السادة، لقد جئت لأطلعكم على آلام الطلاب التعساء، ولأدعوكم إلى الاحتجاج...".

ولَّيت هارباً. دسست في جيبي عقدة الشريط الذي كانت موضوعةً على كتفي، وخرجت إلى الشارع من باب خلفي كنت أعرفه. وقبل كل شيء ذهبت طبعاً إلى ستيفان تروفيموفتش.

الفصل الثاني

نهاية الحفلة

1

لم يقبل ستيفان تروفيموفتش أن يستقبلني. كان قد سجن نفسه، وأخذ يكتب. قرعت مرةً أخرى وناديته من خلال الباب فأجابني بقوله:

ـ لقد أنهيت كل شيء يا صديقي، فماذا يُراد مني أيضاً؟

ـ لم تنه أي شيء البتة، وإنما أنت أسهمت في الكارثة. كفاك مزاحاً، أرجوك! ستيفان تروفيموفتش، افتح! يجب اتخاذ إجراءات. قد يجيئون إلى هنا ويهينونك.

رأيت من واجبي أن أكون قاسياً بل صارماً معه. كنت أخشى أن يندفع في حماقة أشد وأخطر. ولكن ستيفان تروفيموفتش قاوم مقاومة غير معهودة فيه، مقاومةً أدهشتني كثيراً.

ـ لا تهنِّي، أنت خاصةً. إنني شاكر لك كلَّ ما صنعته لي حتى الآن، لكنني أكرر لك إني قد أنهيت صلتي بالناس، أخيارهم وأشرارهم على السواء. أنا أكتب الآن إلى داريا بافلوفنا التي أهملها إهمالًا لا يغتفر، في الآونة الأخيرة، فاحمل رسالتي إليها غداً إذا شئت. والآن ـ "شكراً".

ـ ستيفان تروفيموفتش، أؤكد لك أن الأمر أخطر شأناً مما تظن. أتتصور أنك سحقت أحداً؟ إنك لم تسحق أحداً. وإنما أنت تحطمت كما تتحطم زجاجة فارغة...

كنت فظاً في مخاطبته، وما زلت أتألم حين أتذكر هذا. وتابعت كلامي أقول:

ـ ليس ثمة سبب يدعوك أن تكتب إلى داريا بافلوفنا... وماذا عسى أن تصير بدوني؟ ماذا تفهم أنت من شؤون الحياة العملية؟ أغلب الظن أنك تهيئ ضربة أخرى، أليس كذلك؟ إذا صح هذا فإن شقاءً جديداً سينزل عليك...

نهض ستيفان تروفيموفتش واقترب من الباب. وقال:

ـ إنك قد بقيت بقربهم زمناً قصيراً، ولكنك أخذت عنهم لغتهم ولهجتهم. "عفا الله عنك يا صديقي، وحماك!" (بالفرنسية). لقد لاحظت فيك نوعاً من الشرف على الدوام، وربما كانت لك عودةٌ أخرى إلى أفكارٍ أفضل ـ "بعد فوات الأوان" ـ شأننا جميعاً معشر الروس. أما عن ملاحظتك التي تعرِّض فيها بنقص خبرتي في الشؤون العملية، فإنني أذكِّرك بكلمة من كلماتي: إن لدينا، في روسيا، أناساً كثيرين، يتهافتون تهافت الذباب وراء واحد منهم ويعيبون على الآخرين أنهم يفتقرون إلى الحس العملي، من دون أن يرجعوا إلى أنفسهم في يوم من الأيام... "يا عزيزي"، تذكَّر أنني منفعلٌ جداً، فلا تعذبني. "شكراً" مرةً أخرى لكل ما صنعته من أجلي، ولنفترق كما افترق كارمازينوف عن جمهوره، أو قل بتعبير آخر: لنكن كريمين سمحين، فتنساني كما سأنساك. إن كارمازينوف كان يمكر حين طلب من قرائه أن ينسوه. أما أنا فإنني أقل غروراً وأقل حباً للظهور. ثم إنني أعتمد خاصةً على كونك في عنفوان الشباب: كيف يمكنك أن تحتفظ مدةً طويلة بذكرى شيخ لا خير فيه؟ "عش مدةً أطول"، يا صديقي، على حد التعبير الذي قالته لي ناستاسيا مؤخراً بمناسبة عيد ميلادي ("إن للفقراء كلمات رائعة زاخرة بالفلسفة أحياناً") (بالفرنسية). إنني لا أتمنى لك سعادة كثيرة ـ فالسعادة تتعب ـ ولكنني لا أتمنى لك الشقاء أيضاً. وإنما أنا أكرر حكمة الفلسفة الشعبية: "عش مدة أطول"، وحاول أن لا تضجر كثيراً. وهذا التمني الذي لا سبيل إلى تحقيقه، أنا الذي أضيفه. والآن، وداعاً، وداعاً! ولا تبق أمام بابي. فلن أفتح الباب.

وعـاد يكتب. ولم أسـتطع أن أجني منه أكثر من ذلـك. ولقد تكلم بلهجة متسـاوية رغم "انفعاله"، تكلم بغير تعجل، بـل تكلم بفخامة، بغية أن يفرض عليَّ مهابته. لا شك أنه حاقد عليَّ بسبب المسارّات التي استرسل في الإفضاء بهـا إليَّ أمس عن "الزلاجة"، وعن "الأرض التي تميد تحت خطواته". ثم إن الدموع التي ذرفها أمام الجمهور منذ قليل قد وضعته في ظرفٍ مضحك رغم هيئة الانتصار التي كان قد اصطنعها، وهو يدرك هذه الحقيقة. فإذا تذكرنا أنه ما من أحد يحرص حرص سـتيفان تروفيموفتش على أن يحافظ في علاقاته بأصدقائه على قواعد الأصول وآداب اللياقة، كان في وسـعنا أن ندرك ما هو عليه الآن من حالة نفسـية خاصة. معاذ الله أن أتهمه! ومهما يكن من أمر فإن هذا التأذي السـريع وهذه اللهجة الساخرة اللذين احتفظ بهما رغم كل شيء قـد طمأناني: لقد بدا لي قليل الاختلاف جداً عما عهدته فيه عادةً، فلا يمكنه الآن إذًا أن يتخـذ قراراً فاجعاً غير عادي. ولكنني أخطأت الظن... لقد غابت عني أشياء كثيرة.

وها أنا ذا أستبق الحوادث فأورد لكم مستهل الرسالة التي بعثها إلى داريا بافلوفنا، فاستلمتها هذه في الغد فعلاً.

"بنيَّتـي، إن يدي ترتعش، ولكنني أنهيت كل شـيء. لم تشـهدي سـاعة معركتـي الأخيـرة مع النـاس. إنـك لـم تجيئـي لسـماع المحاضرة. وحسـناً فعلت. ولكنهم سـيقولون لك إن رجلاً شـجاعاً في بلادنا روسـيا التي تفتقر أشد الافتقار إلى رجال شجعان قد نهض مقتحماً تهديدات الموت التي كانت تتقاطر عليـه من كل جهة، فأعلن لأولئك الحمقى الصغار حقيقتهم، أي قال لهـم إنهـم ليسـوا إلّا حمقى صغـاراً. آه... ما هـم في حقيقة الأمـر إلّا صغار تافهون لا قيمة لهم، ما هم إلّا صغار أغبياء، نعم هذه الكلمة التي تصفهم بما فيهم" (بالفرنسـية). لقد قلت كلمتي وحدّدت مصيري. سأبارح هذه المدينة إلى الأبد، وأذهب لا أدري إلى أين. إن جميع الذين كنت أحبهم قد أشـاحوا عنـي. أما أنت، أيتها النفـس الطاهرة البريئة النقية، أنت أيتها الإنسـانة العذبة الرقيقة، الذي أوشـك مصيرهـا أن يتحد بمصيري تنفيـذاً لإرادة امرأة طاغية

ذات نـزوات، أنـت التـي لعلك كنـت تنظرين باحتقـار إلى العبـرات تذرفها عيناي بحقارة وجبانة عشية خطبتنا، أنت التي لن تملكي إلّا أن تعديني رجلاً مضحـكاً، فاقبلي هذه الصرخة الأخيرة يطلقها قلبي. إنني إذ أوجه إليك هذه الصرخـة إنما أحقق واجباً أخيراً. ذلك أنني لا أسـتطيع وأنا أتركك إلى الأبد أن أدعك تظنين أنني لسـت إلّا إنساناً عقوقاً، إنساناً غليظ القلب، إنساناً أنانياً كما يؤكد لك ذلك كلَّ يوم، في أغلب الظن، شـخص عقوق قاسٍ لا أستطيع أن أنساه وا أسفاه!...".

وهكذا دواليك على مدى أربع صفحات كبار.

حين قال لي سـتيفان تروفيموفتش إنه لن يفتح، قرعت الباب بقبضة يدي ثـلاث مـرات وصرخت أقول له إنه سـيبعث ناستاسـيا لاسـتدعائي في ذلك اليوم نفســه، ولكنني أنا الذي سـأرفض عندئذ أن أجيء. ثم تركته وأسـرعت أذهب إلى جوليا ميخائيلوفنا.

2

هنـاك حضـرت مشـهداً يثيـر الأعصاب فعـلاً: كانـوا بصدد غـش المرأة المسكينة بوقاحة لا حياء فيها، ولم أستطع أن أفعل شيئاً. ماذا كان في وسعي أن أقول لها في الواقع؟ كنت قد ثبت إلى رشدي وعدت إلى صوابي وأدركت أن ليس لديَّ على وجه الإجمال إلّا انطباعات ومشـاعر وشـبهات وشـكوك وتوجسـات لا أكثر. رأيتها غارقةً في دموعها توشك أن تصاب بنوبة عصبية. كانت تشـرب ماء، وتمسـح وجههـا بالكولونيـا. وكان بطرس سـتيفانوفتش واقفـاً أمامهـا يتكلّم بغيـر توقّف أو انقطـاع، بينما كان الأميـر هنالك أيضاً لا ينطق بكلمة واحدة. إنها تأخذ على بطرس سـتيفانوفتش، بصرخات ودموع، ما كانت تصفه بأنه "خيانة" منه. ما كان أشدَّ دهشتي حين رأيتها تنسب إخفاق الاجتماع وكل ما جرى إلى مجرد غياب بطرس ستيفانوفتش عن الحفلة.

ولقـد لاحظـت فيه تغيـراً كبيراً: كان يبدو مشـغول البال كثيـراً. إن وجهه رصين جاد. إن هيئته لا تعبر في العادة عن جد: فهو يضحك دائماً حتى حين

يغضب، وذلك ما يحدث له في أحيان كثيرة. إنه الآن أيضاً حانق، ولكنه يتكلّم بلهجة فظّة، متذمّرة، متململة، خالية من التحرج زاخرة بالإهانة. كان يؤكد أنه قد أصيب بصداع شديد وتقيؤ عند جاجانوف الذي ذهب إليه في الصباح. وا حسرتاه! لقد كانت المرأة المسكينة لا تتوق إلّا إلى أن تُخدع مرةً أخرى. كانوا لحظة دخولي يتناقشون في أمر حفلة الرقص: أتقام أم لا؟ فكانت جوليا ميخائيلوفنا تصرّ على أنها لن تظهر في هذه الحفلة بحال من الأحوال بعد "الإهانات التي نالتها في الصباح". قل بتعبير آخر: إنها كانت تريد أن تُجبر إجباراً على حضور الحفلة، وأن يجبرها على ذلك بطرس ستيفانوفتش نفسه، كانت تنظر إليه نظرتها إلى عرَّاف لا يخطئ. وأظن أنها كانت ستمرض لو انصرف. ولكن بطرس ستيفانوفتش لا يخطر بباله أن ينصرف: إنه يصر إصراراً قاطعاً على أن تقام حفلة الرقص، وعلى أن تحضرها جوليا ميخائيلوفنا حتماً...

- ما بالك تبكين؟ أأنت حريصة هذا الحرص كله على خلق مشكلة؟ ألا بد لك من صبِّ غضبك على أحد؟ طيب! صبِّي غضبك عليَّ أنا، ولكن أسرعي، لأن الوقت يمضي سريعاً، ولا بد من اتخاذ قرار. أخفقت صبيحتك الأدبية؟ طيب... إن حفلة الرقص ستصلح من الأمر ما فسد. انظري إلى الأمير. إنه يوافقني على رأيي. نعم، لو لم يكن الأمير هناك، لما عرف أحد كيف كان يمكن أن تنتهي القضية!

لقد كان من رأي الأمير في البداية أن لا تُقام الحفلة (أو قل كان من رأيه أن لا تحضرها جوليا ميخائيلوفنا، إذ لا بد من إقامة حفلة الرقص على كل حال)، ولكنه بعد أن ذُكر مرتين أو ثلاث مرات قال في النهاية بضع كلمات مبهمة يُفهم منها أنه موافق.

وقد دُهشت كثيراً كذلك من لهجة بطرس ستيفانوفتش التي كانت خالية من الأدب والتهذيب. آه... معاذ الله أن أصدِّق الإشاعات الدنيئة السافلة التي أذيعت، في ما بعد، عن العلاقات التي قالوا إنها كانت قائمةً بين جوليا ميخائيلوفتش وبطرس ستيفانوفتش. إن أمثال تلك العلاقات المزعومة لم

توجد ولا كان يمكن أن توجد بينهما. ولئن استطاع بطرس ستيفانوفتش أن يكون له على جوليا ميخائيلوفتش شيء من السيطرة، فالسبب الوحيد في ذلك هو أنه كان يشجّع أحلامها الطموحة، مقنعاً إياها بأنها تستطيع أن تؤثر في المجتمع وأن تؤثر في الوزير. لقد دخل في خططها منذ البداية، وكان يلقنها هذه الخطط هو نفسه، ويغمرها بأنواع المديح المبذول، فاستطاع أخيراً أن يلتف عليها ويكبّلها من أخمص القدمين إلى قمة الرأس بحيث أصبحت لا تستطيع الاستغناء عنه.

حين رأتني جوليا ميخائيلوفنا أطلقت صرخة، وسطعت عيناها، وقالت تخاطب بطرس ستيفانوفتش:

ـ ها هو ذا. اسأله. إنه هو أيضاً لم يتركني، كالأمير.

وأردفت تقول لي:

ـ قل لهم، أليس بديهياً أن المسألة كانت مؤامرة، مؤامرة دنيئة وقحة تهدف إلى إيذائي أنا وآندره أنطونوفتش؟ أوه! لقد كانوا متواطئين متفاهمين! كانت لهم خطة مرسومة. إنهم حزب، حزب حقيقي.

قال لها بطرس ستيفانوفتش:

ـ إنك تبالغين، على عادتك. لا بد من قصيدة في رأسك دائماً.

ثم أردف يقول لي:

ـ على كل حال، يسعدني أن أراك يا سيد...

وتظاهر بأنه نسي اسمي. وتابع كلامه:

ـ ... سوف يقول لنا رأيه.

أجبت متعجلاً:

رأيي مطابق لرأي جوليا ميخائيلوفتش في كل ما قالت. بديهي كل البداهة أن ثمة مؤامرة محبوكة. إنني أرد إليك هذه الشرائط يا جوليا ميخائيلوفنا. لا أدري هل تقام حفلة الرقص. ذلك أمر لا شأن لي به. لكنني لن أكون واحداً من المشرفين على الحفلة. انتهى دوري هذا. اغفري لي حدتي. ولكنني لا أستطيع أن أتصرف تصرفاً مخالفاً للعقل والحس السليم، منافياً لقناعاتي.

فصاحت تقول وهي تضم ذراعيها:

ـ هل سمعت؟ هل سمعت؟

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يلتفت نحوي:

ـ سمعت. وفي رأيي أنكم جميعكم قد بلعتم شيئاً شوّش عقولكم وبلبل أفكاركم. في رأيي أنه لم يقع أي شيء خارق. لم يقع شيء يزيد على ما سبق أن وقع هنا وما يمكن أن يقع في كل زمان. أين المؤامرة التي تتخيّلون؟ كان الأمر سخيفاً بشعاً مخزياً، ولكن أين ترون مؤامرة؟ أمؤامرة على جوليا ميخائيلوفنا، حاميتهم التي تدلّلهم كل الدلال، وتغفر لهم كل العيوب؟ جوليا ميخائيلوفنا، ماذا كنت أقول لك بلا انقطاع في الشهر الأخير؟ ألم أنبّهك وأحذّرك سلفاً؟ ما كانت حاجتك إلى هؤلاء الناس جميعاً؟ ما كانت حاجتك إلى الارتباط بهؤلاء الأوغاد؟ فيم كان ذلك كله؟ أكان لتحقيق وحدة المجتمع؟ هلاّ فكرت في ما تقولين! أهؤلاء قادرون على أن يتحدوا؟

ـ أأنت نبهتني وحذّرتني؟ بالعكس! كنت دائماً تشجعني، بل كنت دائماً تطالبني بالمزيد. حقاً إنك لتدهشني الآن غاية الإدهاش! أنت نفسك جئتني بأشخاص عجيبين جداً.

ـ لا، أبداً. كنت أشاجرك في هذا الأمر، وكنت لا أؤيدك ولا أحبِّذ تصرفك، لقد جئتك بأناس عجيبين... هذا صحيح... ولكن بعد أن كان منزلك قد امتلأ بأمثالهم... ثم إنني لم أجئك بهم إلّا في الآونة الأخيرة من أجل "الحفلة الأدبية": لقد كان يصعب الاستغناء عن هؤلاء الأوباش. أراهن أن دستةً أو دستتين منهم قد أُدخلوا بغير تذاكر.

قلت مؤيداً:

ـ أنا من هذا على يقين.

ـ أرأيت؟ إنك توافق. ثم تذكّر اللهجة التي كانت تسود المدينة كلها في الآونة الأخيرة. لم يكن ثمة إلّا وقاحة، واستهتار، واستخفاف... وفضائح متصلة لا نهاية لها. من ذا الذي كان يشجع ذلك؟ من ذا الذي كان يحميه بسلطته؟ من ذا الذي شوّش الأفكار كلها؟ من ذا الذي أحنق هؤلاء الصغار

من الناس جميعاً؟ ألم تكن جميع أسرارهم العائلية الصغيرة مودعةً في ألبومك؟ ألم تكوني تمسحين بيدك على رؤوس شعرائنا ورسامينا؟ ألم تمدي يدك إلى ليامشين ليقبِّلها؟ ألم يتجرأ أحد الطلاب أن يشتم بحضورك مستشاراً من مستشاري الدولة؟ ألم يوسخ بحذاءيه المدهونين بالقطران ثوب ابنة ذلك المستشار؟ فكيف تعجبين بعد هذا أن يقوم عليك الجمهور؟

ـ ولكنك أنت الذي كنت تدفعني. هذه خطيئتك. آه... رباه!

ـ لم يحدث هذا أبداً! لقد نبهتك وحذَّرتك. وكنا نختصم ونشتجر في هذا الأمر. نعم، كنا نختصم ونشتجر...

ـ أنت تكذب بغير حياء.

ـ سهل عليك طبعاً أن تقولي هذا الآن. لا بد لك من ضحية تصبين عليها نار غضبك. وقلت لك: صبي نار غضبك عليَّ أنا. لا بأس. و لكنني أؤثر أن أتجه إليك أنت يا سيد... (هنا أيضاً لم يفلح في أن يتذكر اسمي). لنعدَّ على أصابعنا: أنا أؤكد أنه، باستثناء ليبوتين، لم تكن هناك مؤامرة، لم تكن هناك أية مؤا.. مرة! سوف أبرهن على هذا. ولكن فلنحلل أولاً حالة ليبوتين. لقد ظهر على المنصة حاملاً أشعار ذلك الأحمق، لبيادكين. وأنت ترى أن هذه مؤامرة، أليس كذلك؟ ولكن ألا يجوز أن يكون ليبوتين قد وجد الأشعار فكهة فعلاً؟ إنني ألقي هذا السؤال جاداً. لقد ظهر على المنصة آملاً أن يُسلِّي الجمهور، وأن يضحك الناس كافة، وعلى رأسهم حاميته جوليا ميخائيلوفنا. ألا تصدق هذا؟ ولكن ألا ينسجم هذا مع كل ما كان يجرى هنا منذ شهر؟ هل تريد أن أقول لك كل شيء؟ يميناً إن هذه المزاحة كان يمكن في ظروف أخرى، أن تمر بسلام. صحيح أنها فظة غليظة، صحيح أنها قوية قليلاً، ولكنها مضحكة، هل تستطيع أن تنكر هذا؟

صاحت جوليا ميخائيلوفنا تسأله مستاءةً:

ـ كيف يمكنك أن ترى مهزلة ليبوتين مضحكة؟ هذه قلة كياسة... بل هذه دناءة مقصودة محسوبة! آه... إنك تقول هذا الكلام عامداً. واضح بعد هذا أنك أنت أيضاً ضالع في المؤامرة.

ـ كيف؟ إذًا كنت مختبئاً وراءهم أحرِّكهم كما تُحرَكُ الدمى! ولكن لو أنني اشتركت في المؤامرة ـ اعلمي هذا ـ لكان هنالك أشياء أخرى كثيرة غير ليبوتين! وأنت تتصورين إذًا أنني تواطأت مع أبي العزيز على أن يثير فضيحة. من ذا الذي طلب من أبي العزيز أن يقرأ؟ ومن الذي حاول أن يثنيك عن هذا أمس، نعم أمس؟

ـ آه... لقد كان بالأمس زاخراً بالفكر والظرف! كنت معتمدةً عليه أكبر الاعتماد، لا سيما وأن له آداباً رفيعة وسلوكاً أنيقاً! كنت أظن أنه هو وكارمازينوف سوف... ولكن انظر ماذا حدث!...

ـ نعم... انظري ماذا حدث! إن أبي قد أفسد كل شيء رغم كل ما يتحلّى به من "فكر وظرف" كما تقولين. ولو كنت أعلم سلفاً أنه سيتصرف هذا التصرف، وأنا ضالع في المؤامرة التي دُبِّرت لإفساد حفلتك، لما ألححت عليك راجياً منك أن لا يُترك التيس في مزرعة الخضار! أليس كذلك؟ ولكنني حاولت أن أثنيك عن دعوة أبي، لأنني كنت أوجس ما سوف يقع. ومن المستحيل على المرء أن يتوقع كل شيء طبعاً. هو نفسه كان قبل أن يظهر على المنصة بدقيقة واحدة يجهل ما سوف يقوله. هل هؤلاء الشيوخ العصبيون رجال؟ على أن في إمكاننا أن نصلح الأمور: فلكي تُرضي الجمهور، أرسلي إلى أبي منذ الغد طبيبين يفحصانه، أرسليهما إليه على جناح السرعة رسمياً. بل يمكن إرسالهما في هذا اليوم نفسه، فينقل إلى المستشفى رأساً، ويعالج هناك بكمادات وحمامات باردة. عندئذ سوف يضحك جميع الناس، وسوف يرون أنه ما كان لهم أن يشعروا بإهانة. حتى إنني أستطيع أن أخاطب جمهور الحفلة في الأمر هذا المساء، بصفتي ابن الرجل. أما كارمازينوف، فشأنه شأنٌ آخر. لقد تصرَّف كارمازينوف تصرّف حمار ذي بردعة، لا أكثر. لقد جعل خطابه يطول ساعةً كاملة. لا شك أنه تواطأ معي. لا شك أنه قال لنفسه: "هيَّا، فلنفعل خطيئة من شأنها أن تزعج جوليا ميخائيلوفنا!" هه؟...

ـ أوه! كارمازينوف! "يا للعار!" (بالفرنسية). لقد احمرّ وجهي خجلاً من جمهورنا.

ـ أما أنا فلو كنت في مكانك لما احمرّ وجهي خجلاً، أؤكد لك... وإنما كنت أضربه، صاحبك كارمازينوف! لقد كان الجمهور على حق. وأعود فأسألك مرةً أخرى: من المذنب في هذا؟ من المخطىء؟ أأنا الذي فرضت عليك كارمازينوف؟ أأنا شاركتك في تعظيمه إلى حد العبادة؟ شيطان يأخذه! وأما عن المهووس الثالث، المهووس السياسي فتلك حكايةٌ أخرى، الجميع مسؤولون عن أمره، أنا مسؤول وأنت مسؤولة.

ـ آه... لا تجيء على ذكره! لا تكلمني عنه! شيء فظيع، فظيع! في هذه الحالة أنا المذنبة، أنا المخطئة، أنا وحدي!

ـ طبعاً، ولكنك معذورة. أنَّى للمرء أن يحذر أناساً يبلغون هذا المبلغ من الصراحة؟ حتى في بطرسبرج لا تمكن محاذرتهم دائماً. ألم يُزكُّوه لك؟ ألم يوصوك به خيراً؟ بلى! ولقد فعلوا ذلك بكثير من الحماسة. والآن يجب عليك أن تفكري في الأمر وأن تتخذي قرارك: إنك مضطرة أن تحضري حفلة الرقص. الأمر خطير: إنك أنت التي أظهرته على المنصة، فمن واجبك إذًا أن تعلني على رؤوس الأشهاد أنك لست متعاونة معه، وأنه الآن بين يدي الشرطة، وأنك خُدعت في أمره. يجب عليك أن تصرِّحي، مستاءةً، بأنك كنت ضحية رجل مجنون. لأنه ليس في الواقع إلّا مجنوناً! على هذا النحو إنما يجب شرح الأمور. إنني أكره هؤلاء الناس الذين يعضّون. إنه ليتفق لي أن أقول أموراً أسوأ من تلك التي قالها، ولكنني لا أقولها من على منبر. والناس إنما تجري أحاديثهم الآن حول عضو من أعضاء مجلس الشيوخ.

ـ أي عضو من أعضاء مجلس الشيوخ؟ وماذا يقولون؟

ـ أنا نفسي لا أفهم مما يقولون شيئاً. ولكن ألم تسمعي أنت يا جوليا ميخائيلوفنا شيئاً عن وصول عضو من أعضاء مجلس الشيوخ؟

ـ عضو من أعضاء مجلس الشيوخ؟

ـ اسمعي. إن الناس جميعاً مقتنعون الآن بأن عضواً من أعضاء مجلس

الشيوخ سيصل قريباً، وإنكم ستعفون من منصبكم. سمعت هذا الكلام في كل جهة من الجهات.

قلت مؤيداً:

ـ وأنا سمعت هذا الكلام.

ـ ولكن من الذي يقول هذا؟

واصطبغ وجه جوليا ميخائيلوفنا بحمرة شديدة.

ـ من الذي أطلق هذه الشائعة؟ أنَّى لي أن أعرف! على كل حال، الناس يتحدثون في هذا الأمر يمنةً ويسرة. بالأمس خاصةً، كانوا يتكلّمون فيه كثيراً، وقد لاح في وجوههم الجد، وإن خالط هذا الجد تحفظ وتردد، طبيعي أن أذكاهم وأخبرهم ببواطن الأمور يلتزمون الصمت، ولكن ذلك لا يمنع بعض هؤلاء من الإصغاء بانتباه.

ـ يا للصغار! و... يا للحماقة!...

ـ هذا سبب آخر يدفعك إلى أن تظهري، وإلى أن تبرهني لهؤلاء الحمقى على أن...

ـ نعم، إنني أدرك بنفسي أن هذا من واجبي... ولكن ماذا لو كنت أعرِّض نفسي لإهانة جديدة؟ ماذا إذا لم يجيئوا إلى حفلة الرقص؟ إن أحداً لن يحضر حفلة الرقص... لا... لن يجيء أحد!...

ـ إنك مسرفة في التعجّل! أتتصورين أن الناس لن يحضروا حفلة الرقص؟ أتتخيلين هذا؟ فما عساهم فاعلين بالأثواب التي أعدوها لهذه المناسبة، وما عساهم فاعلين بما زُيِّنت به الفتيات؟ ألست امرأة؟ ألا إنك لا تعرفين العالم حق معرفته!

ـ إن زوجة مارشال النبالة لن تجيء حتماً. أنا واثقة بهذا!

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول وقد أصبح لا يستطيع السيطرة على تململه وحنقه:

ـ ولكن أي شيء رهيب حدث؟ لماذا تتصورين أنهم لن يجيئوا؟

ـ حدث شيء مخجل، شيء مخزٍ، شيء دنيء، ذلك ما حدث. شيء لا

أفهمه، ولكنني لا أستطيع أن أظهر للناس بعد أن حدث.

ـ لماذا؟ ما هي أخطاؤك وذنوبك في الحساب الأخير؟ لماذا تحمِّلين نفسك كل التبعة، وتلفين على عاتقك بكل الخطأ؟ أليس المخطئ هو الجمهور، وهؤلاء الشيوخ الكبار، وأرباب الأسر أولئك؟ لقد كان عليهم أن يحتجزوا الأوباش والأوغاد، وما هم في الواقع إلّا أوباش وأوغاد، ثم ينتهي الأمر. إن الشرطة لا يمكن أن تكفي لكل شيء. وإنما ينبغي للمجتمع أن يقوم بواجبه ويبذل جهده. إن كل إنسان في بلادنا يتطلب عند دخوله إلى حفلة أن ينتدب له شرطي خاص يسهر على سلامة شخصه العظيم. الناس في بلادنا لا تدرك أن عليها أن تحافظ على نفسها بنفسها في مثل هذه الظروف. ماذا يفعل أرباب أسرنا وكبار موظفينا، وسيداتنا، وآنساتنا؟ يصمتون ويحردون. ما من مبادرة يقومون بها، ولو لقمع سفالة السفلة!

ـ آ... نعم... ما أصدق هذا الذي تقول!... إنهم يصمتون ويحردون ولا يزيدون على أن ينظروا إلى ما يجري!

ـ إذا كان ما أقوله صادقاً فاعلنيه جهاراً، اعلنيه بكبرياء، اعلنيه بقسوة، لكي تُظهري أنك لم تُصعقي وتُغلبي، لكي تظهري ذلك لأولئك الشيوخ وأمهات الأسر. آ... لسوف تعرفين كيف تفلعين هذا! إنك تملكين الموهبة اللازمة حين تكونين صافية الذهن. اجمعيهم، واعلني لهم الحقيقة بصوتٍ عالٍ... ثم نبعث برسالة صحافية إلى جريدة "الصوت" أو "البورصة". انتظري. سوف أشرع في العمل. وسوف أدبر كل شيء بنفسي. لا بد طبعاً من الانتباه واليقظة. يجب أن يراقب البوفيه. ويجب الإلحاح على مجيء الأمير، ومجيء السيد... إنك لا تستطع يا سيدي أن تتركنا في اللحظة التي يجب علينا فيها أن نبذل جهداً جديداً. وسوف تظهرين متأبطة ذراع آندره أنطونوفتش. كيف حاله الآن؟

فصاحت جوليا ميخائيلوفنا فجأة تقول باندفاعة غير متوقعة حتى لكأن دموعاً أخذت تترقرق في عينيها:

ـ أوه! ما كان أظلمك دائماً في حق هذا الإنسان الملائكي! لقد كانت

آراؤك فيه خاطئة كل الخطأ، مهينةً كل الإهانة!

ورفعت منديلها إلى عينيها. فجمد بطرس ستيفانوفتش في الوهلة الأولى مذهولاً.

ـ رحماك... أنا... أنا... ما هذا الذي تقولين؟ لقد كنت دائماً...

ـ لا، أبداً، أبداً، لم تنصفه في يوم من الأيام!

ـ يستحيل على المرء أن يفهم النساء.

كذلك جمجم يقول بطرس ستيفانوفتش وهو يبتسم ابتسامة مقهورة.

قالت جوليا ميخائيلوفنا:

ـ إنه بين الناس أصدقهم قولاً، وأرهفهم شعوراً، وأقربهم إلى أن يكون ملاكاً من الملائكة! هو خير الناس طراً!

ـ أرجوك... في ما يتعلّق بطيبة قلبه وشهامة نفسه، أنا أنصفه دائماً...

ـ لا، أبداً. ولكن دعنا من هذا. لقد كان كلامي الآن خراقة في غير محلها. منذ قليل، رمتني زوجة مارشال النبالة تلك، رمتني هي أيضاً، ببضعة سهام عن أحداث الأمس، ماكرةً مكر يسوعي.

ـ هوه! إن في رأسها الآن هموماً أخرى غير أحداث الأمس. إن أحداث اليوم تكفيها. لماذا تقلقين هذا القلق كله من أنها قد لا تحضر حفلة الرقص؟ إنها لن تحضر حتماً بعد الفضيحة التي وجدت نفسها مقحمة فيها. قد لا يكون لها بها شأن. ولكن سمعتها ستتأثر، ويديها ستظلان متسختين.

سألته جوليا ميخائيلوفنا مدهوشةً أشد الدهشة:

ـ ما هو الأمر؟ إنني لا أفهم: لماذا "ستظل يداها متسختين"؟...

قال بطرس ستيفانوفتش:

ـ لاحظي أنني لا أؤكد شيئاً، إلّا أن شائعة تجري في المدينة قائلة إنها كانت هي الوسيطة.

ـ وسيطة؟ بين من ومن؟

ـ كيف؟ ألا تعلمين بعد؟

كذلك صاح يقول بطرس ستيفانوفتش مدهوشاً دهشة كاذبة، وأردف يقول:

بين ستافروجين وليزافتا نيقولايفنا.

ـ ماذا؟ كيف؟

كذلك صحنا نسأل جميعاً في آن واحد.

قال بطرس ستيفانوفتش:

ـ هل يُعقل أن تكونوا جاهلين بالأمر؟ عجيب! إنها "تراجيديا ـ كوميديا": إن ليزافتا نيقولايفنا قد انتقلت رأساً من مركبة زوجة مارشال النبالة إلى مركبة ستافروجين، وهربت معه إلى سكفورشنيكي في وضح النهار، منذ ساعة واحدة، بل منذ أقل من ساعة.

جمدنا من الذهول. وأردنا أن نحصل على تفاصيل طبعاً. فما كان أشد دهشتنا حين رأيناه عاجزاً عن أن يمدنا بأية تفاصيل، رغم أنه قد شهد الحادث "مصادفةً". يظهر أن الأمور جرت كما يلي: بعد الجلسة الأدبية، حين كانت مارشالة النبالة تصطحب في مركبتها ليزا ومافريكي نيقولايفتش إلى منزل أم ليزا (التي كانت لا تزال تعاني آلاماً في ساقيها)، لمحوا مركبة كانت مرابطة على مسافة خمسة وعشرين متراً من باب المنزل. فما كان من ليزا إلّا أن وثبت إلى الأرض، وركضت رأساً إلى تلك العربة، فركبتها، ولكن من دون أن تنسى أن تصرخ قائلةً لمافريكي نيقولايفتش: "ارحمني!". وأسرعت العربة تطوي الأرض متجهةً إلى سكفورشنيكي، فلما سألناه "هل كانا على اتفاق؟ ومن ذا كان بالعربة؟"، أجاب بطرس ستيفانوفتش بأنه لا يعلم. قال: لا بد أنه كان ثمة اتفاق بين الشاب والفتاة، ولكنه لم يستطع أن يتعرّف الشخص الذي كان بالعربة، فلعله الخادم العجوز ألكسي إيغوروفتش. سألناه: "ولكن أنت، كيف اتفق أن كنت هناك؟"، و"كيف عرفت أنها ذهبت إلى سكفورشنيكي؟"، فأجاب بأنه كان ماراً بالمكان عرضاً، فلما لمح ليزا أسرع نحو العربة (ورغم ذلك، ورغم فضوله، لم يستطع أن يتعرف الشخص الذي كان بالعربة)، وأضاف أن مافريكي نيقولايفتش لم يحاول حتى أن يلاحق ليزا، بل إنه على عكس ذلك أسكت زوجة مارشال النبالة التي أخذت تصيح بصوتٍ عالٍ قائلة: "إنها ذاهبة إلى ستافروجين، إنها ذاهبة إلى ستافروجين!".

فجأةً رأيتني أفقد صبري وأصرخ قائلاً لبطرس ستيفانوفتش وقد أخذ مني الغضب كل مأخذ:

ـ أنـت الـذي دبرت كل شـيء أيها الشـقي! فـي تدبير هـذه المؤامرة إنما قضيت الصباح! أنت الذي ساعدت ستافروجين! أنت الذي كنت في العربة! أنت الذي فتحت الباب لليـزا!... أنت... أنت!... يا جوليا ميخائيلوفنا، هذا عدو لك فاحذريه! سيهلكك أنت أيضاً!

قلت هذا ووليت هارباً كمجنون.

مـا أزال إلـى هـذا اليوم لا أفهـم كيف أمكننـي أن أصبَّ على رأسـه هذه الكلمات. ولكن رأيي كان على صواب: فكما علمنا في ما بعد كان كل شيء قد تمَّ على ذلك النحو الذي ذكرته له، على ذلك النحو نفسـه تقريباً. والعذر الذي انتحله لينبئنا بالخبر كان زائفاً زيفاً واضحاً كل الوضوح. إنه بدلاً من أن ينبئنا بالخبر فور دخوله من حيث أنه خبرٌ هامٌ جداً مثيراً جداً، تظاهر بأنه يظن أننـا على علم بـه قبل وصوله هو، وذلـك في الواقع مسـتحيل، لأن الحادث وقـع منذ هنيهـةٍ قصيرة. ولو كنا نعرف الخبر قبلـه لبادرناه نحن بالكلام عنه. ولـم يكن فـي إمكانه كذلك أن يعـرف ماذا تقول المدينة عن زوجة مارشـال النبالة وماذا تشيِّع عنها لأن المدة التي انقضت على وقوع الحادث أقصر من أن تتيح رواج الإشاعات. وكنت قد لاحظت عدا ذلك ابتسامة الاحتقار التي ارتسـمت على شـفتيه مرتين أثناء روايـة القصة: فلعله كان يعدنا أناسـاً بلهاء يسـهل الضحك عليهم والتغرير بهم، ولكن ما شـأني وبطرس ستيفانوفتش! لقد أخذت أفكر في الأمر الأساسي. فهربت من عند جوليا ميخائيلوفنا خارجاً عـن طـوري. إن هذه الكارثة قد طعنت قلبي فـي الصميم، فبلغت من الحزن والكـرب أننـي لعلني بكيـت. كنت لا أعرف مـاذا يجب أن أفعل. أسـرعت راكضاً إلى عند ستيفان تروفيموفتش، ولكن الشيخ اللعين رفض أن يفتح لي أيضاً. وهمسـت ناستاسـيا تقول لي خائفة: "إنه يرتاح". فلم أصدِّق من ذلك شـيئاً. وذهبت إلى دار ليزا فاسـتطعت أن أسـأل الخدم فأكدوا لي نبأ هروبها ولكنهم كانوا لا يعرفون شـيئاً عدا ذلك. كان المنزل قد انقلب عاليه سـافله.

براسكوفيا إيفانوفنا تُصاب بإغماء. ومافريكي نيقولايفتش لا يتركها. بدا لي مستحيلاً أن أستدعيه. وحين سألت عن بطرس ستيفانوفتش وعن دوره في القضية قيل لي أنه في الآونة الأخيرة أصبح لا يجيء إلى البيت أحدٌ غيره، وأنه ربما جاء في اليوم الواحد مرتين. كان الخدم حزانى، وكانوا يتكلمون عن ليزا بلهجة الاحترام. إنهم يحبونها. لم يراودني أي شك في أنها ضاعت، في أنها ضاعت ضياعاً لا خروج لها منه. ولكن الجانب السيكولوجي من هذه القضية كان لا يزال مجهولاً عندي، وكنت ما أزال عاجزاً عن فهمه كل العجز، لا سيما حين كنت أتذكر مشهد الأمس بين ليزا وستافروجين. وكنت أكره أن أسعى في المدينة سائلاً بعض الأصدقاء والمعارف الذين لا شك في أنهم كانوا على علم بالحادث وكانوا يعلقون عليه أسوأ التعليق في أغلب الظن. لا سيما وأن مثل هذه المساعي تشتمل في رأيي على مذلة ألحقها بليزا. ولكن لا أدري لماذا ذهبت إلى داريا بافلوفنا (على أنني لم أُستقبل هناك. فإن منزل آل ستافروجين قد أوصد في وجه كل قادم منذ أمس). لا أدري أنا نفسي ما الذي كان يمكنني أن أقوله لها لو أتيح لي أن ألقاها. ومن هنا ذهبت إلى عند أخيها. بدا لي شاتوف مربدَّ الوجه اربداداً شديداً. أصغى إلى كلامي ذاهلاً مفكراً كأنه يبذل جهداً خاصاً من أجل أن يتابع ما أقوله له. ولم يكد يجيبني بشيء، بل جعل يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً بخطى أثقل من خطاه المعهودة. ولم ألبث أن تركته. ولكن بينما كنت أهبط السلم، صاح ينصحني بأن أذهب إلى ليبوتين، قائلاً: "هناك ستعرف كل شيء". ولكنني لم أذهب إلى ليبوتين. فبعد أن قطعت شوطاً كبيراً من الطريق قررت فجأة أن أعود إلى شاتوف. لم أدخل عليه. ولكنني شققت بابه وسألته هل يريد أن يذهب إلى ماريا تيموفئفنا. فأجابني شاتوف بشتيمة. فرجعت أهبط السلم. أحب أن أذكر هنا، خشية النسيان، أن شاتوف في ذلك المساء نفسه قد مضى إلى الطرف الآخر من المدينة، إلى عند ماريا تيموفئفنا التي لم يكن قد رآها منذ مدةً طويلة. فوجدها في ذلك اليوم موفورة الصحة مشرقة المزاج. أما أخوها لبيادكين فكان قد اضطجع على الديوان في الحجرة الأولى ونام وهو

في حالة سكر شديد. كانت الساعة هي التاسعة تماماً كما ذكر لي شاتوف ذلك في الغداة حين لقيني عرضاً في الشارع. وفي الساعة العاشرة قررت أن أحضر حفلة الرقص، لا "مشرفاً" (فإن عقدة الشريط كانت قد بقيت عند جوليا ميخائيلوفنا)، بل مشاهد يدفعه حب الاطلاع وتدفعه الرغبة في أن يسمع ما تقوله المدينة عن جميع هذه الأحداث من دون أن يلقي على أحد سؤالاً، ثم إنني كنت أريد أن أرى جوليا ميخائيلوفنا ولو من بعيد: لقد لمت نفسي كثيراً على أنني تركتها بمثل تلك السرعة.

3

تلك الليلة، مع جميع أحداثها المستحيلة و"خاتمتها" الرهيبة، لا تزال تبدو لي اليوم كابوساً فظيعاً، ولا تزال تؤلف في ما يتعلق بي أنا على الأقل، أشقَّ جزء من أجزاء هذه القصة، لقد وصلت الحفلة متأخراً، ولكنني استطعت أن أشهد نهايتها، فإنها لم تدم طويلاً. كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة قليلاً حين دخلت باب منزل زوجة مارشال النبالة، لقد أعدوا الصالة البيضاء الكبيرة التي قامت فيها الصبيحة الأدبية لتكون صالة رقص، إذ كانوا يعتقدون أن المدينة ستشارك في الحفلة. ولكن الواقع تجاوز أسوأ التنبؤات. وكنت أنا منذ الصباح متشائماً في ما يتصل بالإقبال على هذه الحفلة. غاب المجتمع الراقي كله، وغاب كذلك جميع الموظفين الذين لهم قدر من الشأن، وتلك وحدها علامة سوء ونذير شر. أما عن السيدات والآنسات فإن حسابات بطرس ستيفانوفتش (وهي حسابات خادعة مضللة طبعاً) فقد اتضح بطلانها وكذبها: إن عدد السيدات والآنسات اللواتي حضرن الحفلة عدد ضئيل جداً. لا تكاد توجد سيدة واحدة في مقابل أربعة رجال. ويا لهن من سيدات! إنهن نساء ضباط صغار، وزوجات كتاب في الدواوين، وثلاث ممرضات مع بناتهن، وأسرة السكرتير التي سبق لي أن جئت على ذكرها، واثنتان أو ثلاث من المالكات الفقيرات بمقاطعتنا، وبائعات... أفهذا ما كانت تتوقعه وترجوه جوليا ميخائيلوفنا؟ أما السادة فإنهم، رغم غياب

الطبقة الأرستقراطية، كانوا كتة كثيفة. ولكنهم يحدثون في النفس تأثيراً سيئاً، ويثيرون الشبهة. كان بينهم طبعاً ضباط متواضعون محترمون مع زوجاتهم، وكان بينهم أرباب أسر طيِّعون، مثل ذلك السكرتير الذي له سبع بنات، إن هؤلاء الناس البسطاء إنما جاؤوا بنوع من "الاضطرار"، على حد تعبير واحد منهم، ولكن كان بينهم أشخاص من طينة أخرى: فتيان مستهترون، وأشخاص من نوع الذين قدَّرنا أنا وبطرس ستيفانوفتش أنهم أُدخلوا الجلسة الأدبية بدون تذاكر. حتى لقد كان عددهم الآن أكبر كثيراً من عددهم في الصباح. إنهم الآن واقفون في قاعة البوفيه. وقد لاحظت أنهم ما إن دخلوا حتى مضوا إليها رأساً، كأنهم على موعدٍ فيها. وكان البوفيه قد أُعدَّ في نهاية سلسلة من الغرف، في قاعة فسيحة أقام فيها بروخورتش وسط مجموعة من أشهى المأكولات والمقبِّلات التي يعدها مطبخ النادي مع أعداد كبيرة من قناني الخمرة. ولاحظت هنالك أفراداً لا يدري إلّا الله من أين خرجوا، وقد أخذهم السكر منذ تلك الحين، وكانت هيئاتهم المزرية لا تليق بحفلة رقصٍ حتماً. كنت أعرف أن جوليا ميخائيلوفنا قد ارتأت أن تقيم حفلة ديموقراطية إلى أبعد حد، وأن تسمح بدخول الحفلة حتى "للبورجوازيين الصغار إذا كان بينهم من يملك ثمن تذاكر دخول". وهي حين قالت هذا الكلام أمام لجنتها لم تكن تجازف بشيء، لأنها تعلم علم اليقين أن لا أحد من بورجوازيينا الصغار، وكلهم فقراء، يخطر بباله أن يشتري بطاقة دخول. مهما يكن من أمر، ورغم الميول الديموقراطية لدى اللجنة، فإن حضور هؤلاء الأشخاص المشؤومين الذين يرتدون ملابس مرقعة مثقبة لم يبد لي أمراً مقبولاً. ولكن من ذا الذي تركهم يدخلون وماذا كان غرضه من ذلك؟ إن ليبوتين وليامشين كانا قد حُرما من شارتي المشرفين (ولكنهما حضرا الحفلة على كل حال، لأنهما كانا سيشاركان في الرقصة الرباعية). ولكن ما كان أشد دهشتي حين رأيت أن ليامشين قد حلَّ محله في مهمة الإشراف ذلك الطالب الذي أحدثت مشاحنته مع ستيفان تروفيموفتش فضيحة كبرى في "الصبيحة الأدبية". وأما ليامشين فقد ناب عنه في وظائفه بطرس ستيفانوفتش نفسه.

فماذا كان يمكن أن يُنتظر إذًا؟ لقد أصخت بسمعي إلى المحادثات فأدهشني في بعضها غباؤها وخبثها. ففي جماعة من الجماعات مثلاً كانوا يؤكدون أن هرب ليزا إنما دبرته جوليا ميخائيلوفنا نفسها، وأن جوليا ميخائيلوفنا قد قبضت من ستافروجين ثمن ذلك مبلغاً من المال. حتى لقد حددوا المبلغ، وأن إقامة الحفلة لم يكن لها من غرض إلّا تنفيذ هذه الخطة، فلهذا السبب تخلف نصف المدينة عن المجيء بعد أن علم بالأمر. وقد بلغ لمبكه من الدهشة لهذه القصة كلها أنه فقد عقله ولكنه ينقاد لامرأته ولا يخرج على إرادتها. وكان الناس يضحكون ضحكاً فظاً سمجاً شريراً ولم يفتهم أن ينتقدوا حفلة الرقص انتقاداً عنيفاً، وأن ينعتوا جوليا ميخائيلوفنا بأبشع الأوصاف من دون أي تحرج. ولكن كان يصعب على المرء أن يستخرج أي شيء محدد معيَّن من هذه الثرثرة المشوشة الحانقة المحمومة. وكان الملجأ كذلك ملاذاً للأشخاص الذين يريدون أن يتسلّوا ويتندروا ويضحكوا لا أكثر. فهناك يرى المرء نساءً من أولئك السيدات اللواتي يطفحن نشاطاً ومرحاً، واللواتي أصبح لا يدهشهن شيء ولا يرهبهن شيء. إنهن في صحبة أزواجهن، الضباط في الغالب الأعم، وكان أزواجهن هؤلاء قد جلسوا إلى موائد صغيرة يشربون الشاي ويتمازحون ضاحكين. وما هي إلّا فترة وجيزة حتى أصبح نصف الجمهور في تلك الحجرة، شعرت بخوف حين تصورت ما قد يحدث حين يتزاحم هذا الجمهور كله دفعةً واحدة في صالة الرقص حيث كانت قد تكونت بمساعدة الأمير ثلاث رقصات رباعية بسيطة.

كانت الفتيات ترقصن أمام آبائهن وأمهاتهن، وكان الآباء والأمهات يبتهجون بذلك ويسرُّون له. ولكن عدداً كبيراً من هؤلاء الآباء والأمهات كانوا يقولون بعضهم لبعض أن بناتهن قد تسلَّين بما فيه الكفاية، فيحسن الانصراف في الوقت المناسب قبل أن "يبدأ الأمر". ذلك أن الجميع كانوا مقتنعين بأن "أمراً سيبدأ" لا محالة. يصعب عليَّ أن أصف الحالة النفسية التي كانت عليها جوليا ميخائيلوفنا. ورغم أنني وجدتني بقربها عدة مرات، فإنني لم أكلمها، كما أنها لم ترد التحية التي حييتها بها عند دخولي، لا

لشيء إلّا كونها لم تلاحظني. كان وجهها منقلباً، وكان في نظرتها غطرسةٌ واحتقار، ولكن كان في هذه النظرة قلق أيضاً. واضح أنها كانت تحاول أن تتغلّب على نفسها. لماذا؟ ولمن؟ لقد كان ينبغي لها أن تنصرف، وأن تقتاد زوجها خاصةً، ومع ذلك بقيت. يكفي أن ينظر المرء إلى وجهها حتى يدرك أن عينيها قد "زالت عنهما الغشاوة"، وأنها لم يبق لديها أي وهم. أصبحت لا تنتبه حتى إلى بطرس ستيفانوفتش (وكان بطرس ستيفانوفتش يتحاشاها على كل حال، لقد لمحتُه في البوفيه، فرأيته شديد المرح). لقد بقيت جوليا ميخائيلوفنا مع ذلك ولم تترك زوجها. في ذلك الصباح نفسه، لو أن أحداً ألمع إلماعاً إلى صحة آندره أنطونوفتش لرفضت هذا الإلماع مستاءةً أصدق الاستياء حتماً. ولكن عينيها قد زالت عنهما الغشاوة الآن في هذا الأمر أيضاً ولا شك. أما أنا فقد بدا لي منذ النظرة الأولى أن هيئة آندره أنطونوفتش أسوأ مما كانت في الصباح. لكنه الآن لا يعي ما يعمل، بل لا يدرك أين هو من المكان. كان من حين إلى حين يلقي على ما حوله نظرات قاسية. وقد تلبثت إحدى هذه النظرات عليَّ مرتين. وفجأةً أخذ يتكلّم بصوت قوي، ولكنه لم يستطع أن يكمل جملته، فامتلأ من ذلك بالرعب قلبُ موظفٍ عجوز خجول كان حينذاك بقربه مصادفةً. ثم إن هذا الجزء نفسه من الجمهور الذي كان واقفاً في الصالة البيضاء بتواضع، كان يبتعد عن جوليا ميخائيلوفنا مكفهر الهيئة حانقاً، ملقياً على زوجها نظرات غريبة، نظرات يتناقض إصرارها وتتناقض دلالتها تناقضاً قوياً مع ما كانت تعبِّر عنه هيئاتهم من وجل.

لقد أسرَّت إليَّ جوليا ميخائيلوفنا، في ما بعد، قائلةً:

ـ ذلك بعينه هو ما فاجأني. وعندئذ إنما أخذت أدرك حقاً الحالة النفسية التي كان عليها آندره أنطونوفتش.

نعم، مرةً أخرى ارتكبت غلطة. إنه لمن الجائز أنها منذ قليل، حين خرجتُ من عندها هارباً، وكانت قد قررت بالاتفاق مع بطرس ستيفانوفتش أن الحفلة ستقام، وأنها ستحضرها، أقول إنه لمن الجائز أن تكون قد ذهبت إلى حجرة آندره أنطونوفتش الذي كانت الصبيحة الأدبية قد قلبت نفسه رأساً

علـى غقـب، فما زالت به تغريـه وتغريه حتى حصلت منه علـى موافقته على مصاحبتها إلى حفلة الرقص. ولكن لا شـك أنها تلوم نفسـها على ذلك أشـد اللـوم الآن! ومع ذلك لم تشـأ أن تنصـرف. أكان العجب هو الـذي يعذِّبها؟ لا أدري! إنهـا رغم زهوها قـد حاولت عدة مرات أن تعقـد حديثاً بينها وبين بعض السـيدات، موجِّهةً إليهن ابتساماتٍ متواضعة، ولكن السيدات سرعان مـا كن يتخوفن ثـم يتخلصن من الحديث بكلمة نعـم أو بكلمة لا، موجزات مقتضبات، ويبتعدن عنها متعجلات تعجلاً واضحاً.

وكان لا يمثِّل الطبقة الأرسـتقراطية في الحفلـة إلّا ذلك الجنرالُ المحال على التقاعد الذي سـبق أن أتيح لي الكلام عنه والذي "فتح باب التذمر على مصراعيه للناس كافةً" بعد المبارزة التي قامت بين ستافروجين وجاجانوف. كان الجنـرال يتجول في القاعات مهيب المنظر، مُلاحظاً كل شـيء، حريصاً أشـد الحـرص علـى أن يُظهر بوضعه أنـه لم يجئ إلّا من بـاب حب الاطلاع على عادات أهل الإقليم. وانتهى به الطواف إلى التشبث بجوليا ميخائيلوفنا، فلـم يتركها بعد ذلك، محاولاً أن يسـرِّي عنها ويواسـيها ويهـدئ روعها. إن الرجـل الممتـاز، المهيب المنظـر، كان قد بلغ من التقدم في السـن أن المرء يقبل منه العطف والشفقة. ومع ذلك كان واضحاً على جوليا ميخائيلوفنا أنها يُحنقها أن ترى نفسـها مضطرةً إلى الاعتراف بأن هذا العجوز الثرثار قد أباح لنفسـه أن تأخذه بها شـفقة وأن يكون لها بمثابة الحامي تقريباً، شـاعراً بأنه إذ يفعل ذلك إنما يشرِّفها. ومع ذلك لم يتركها الجنرال، وظل يتكلم بلا توقف.

ـ يقـال إن مدينـةً مـن المـدن لا يمكن أن تبقـى إلّا إذا كان يحميها سـبعة صالحيـن... نعم... سـبعة... في ما أظـن... لا أتذكّر العـدد المطلوب على وجه الدقة. ومن بين صالحينا السبعة الذين لا يُجحدون، لا أعرف عدد الذين يشـهدون حفلتك هذه، ولكنني رغم حضورهم لا أشـعر بالثقـة والطمأنينة. إنـك تغفرين لي، يا سـيدتي الفاتنة، أليس كذلك؟ إننـي أتكلم رمزاً. ولكنني ذهبت إلى البوفيه فعددت نفسـي سـعيداً لأنني استطعت أن أخرج منه سليماً لم يمسسني سوء. إن صاحبنا الطيب بروخورتش ليس في مكانه، وأنا أخشى

أن لا يطلع الصباح إلّا ويكون مبناه قد انقلب عاليه سافله! أنا أمزح على كل حال. ولكنني أنتظر الرقصة الرباعية التي مدارها على الأدب، وبعد ذلك أمضي إلى سريري فأنام. اعذريني فأنا مريض بداء النقرس. إنني أنام في ساعةٍ مبكِّرة. وعلى كل حال، فأنا أنصحك بأن تنامي أنت أيضاً. أنا إنما جئت خاصةً لأمتّع بصري بالجمال الغض النضر. ولست أستطيع طبعاً أن أجد منه تشكيلة غنية كالتشكيلة التي يمكن أن أراها في هذا المكان... إنهن جميعاً من الحيِّ الذي يقع على الضفة الأخرى من النهر. وهو حي لا أذهب إليه أبداً. هناك زوجة أحد الضباط، الضباط القنَّاصة إذا لم يخطئ ظني. إنها حسناء... وتعرف أنها حسناء. لقد تحدثت مع الصغيرة الغنجة. ما هي بالخجول!... ثم... إن الفتيات نضيرات. ولكن ليس فيهن شيء غير هذا. على كل حال، لقد سُررت بمرآهن. إن بينهن لبراعم ورد حقاً. خسارة أن شفاههن سميكة قليلاً. إن الجمال الروسي بوجه عام يفتقر إلى اتساق القسمات... "تغفرين لي، أليس كذلك؟ (بالفرنسية). الأعين جميلة، يجب الاعتراف بهذا... هي أعين ضاحكة. إن براعم الورد هذه لذيذة ما ظلت فتية... أي مدة سنتين... أو ثلاث سنين... ثم هي تتفتح تفتحاً شديداً، فتتشوه، إلى الأبد... فتبعث في الأزواج ذلك النوع من "اللا.. اكترا.. ثية" التي تساهم كثيراً في مفاقمة قضية المرأة... إذا صحَّ ما أفهمه من هذه القضية وما أعرفه عنها... همْ... الصالة جميلة، والغرف قد أُعدت إعداداً لا بأس به. كان يمكن أن يكون إعدادها أسوأ. والموسيقى أيضاً كان يمكن أن تكون أردأ. لا أقول إنها كان ينبغي أن تكون أردأ!... الشيء الذي لا ترتاح إليه النفس هو قلة عدد السيدات. لا أقول شيئاً عن زينة السيدات، بل عن عددهن. من المؤسف أن هذا الرجل، الذي يرتدي بنطلوناً رمادياً، قد أباح لنفسه أن يرقص الكانكان منذ الآن. إنني أعذره لو كان يتهزّز هذا التهزّز عن فرح. ثم إنه أحد الصيادلة عندنا... إنه لكثير على صيدلي أن يبدأ منذ الساعة الحادية عشرة. لقد بكَّر كثيراً... وفي البوفيه رأيت رجلين يتبادلان اللكمات منذ لحظات، ولم يطردوهما. إن الذين يتضاربون في الساعة الحادية عشرة يجب أن يُطردوا، مهما تكن

عادات الجمهور وأخلاقه. لا أقول شيئاً عن الساعة الثالثة من الصباح، ففي الساعة الثالثة من الصباح لا بد من بعض التنازلات. ولكن هل يمكن أن تدوم هذه الحفلة حتى الساعة الثالثة؟... أرى أن فرفارا بتروفنا لم تبرَّ بوعدها فترسل أزهاراً. همْ... إن هموم رأسها الآن لا تسمح لها بالتفكير في هذا الأمر. يا للأم المسكينة! والشقية ليزا! هل سمعت؟ هذه قصة ملغزة في ما يقال، إن ستافروجين يظهر على المسرح من جديد!... همْ... يحلو لي أن أذهب الآن فأنام. إن عينيَّ تغمضان. والرقصة الرباعية الأدبية، متى عساها تبدأ؟

وبدأت الرقصة الرباعية الأدبية أخيراً. وكان الناس بالمدينة، في الآونة الأخيرة، ما إن يجيء الحديث على ذكر الحفلة حتى يتعرضوا لأمر هذه الرقصة، فإن حب الاطلاع كان يثور حتى يبلغ أقصاه. ولا شيء يمكن أن يكون خطراً على نجاح هذه الرقصة كهذه الحالة النفسية. لذلك ما كان أشد خيبة أمل الناس حين رأوها!

انفتح أحد أبواب الصالة البيضاء التي ظلت مغلقةً حتى ذلك الحين، وخرج منه فجأةً عددٌ من الراقصين المقنّعين. فسرعان ما أحاط بهم الجمهور. وجميع الذين كانوا في البوفيه هرعوا إلى القاعة. وتهيأ المقنّعون للرقص مصطفّين. واستطعت أنا أن أتسلل إلى أمام، فصرت وراء جوليا ميخائيلوفنا وآندره أنطونوفتش والجنرال تماماً. وفي تلك اللحظة رأيت بطرس ستيفانوفتش الذي ظل متنحياً طوال الوقت، رأيته يهرع نحو جوليا ميخائيلوفنا، ويهمس قائلاً لها بهيئة تلميذ مذنب.

ـ سوف أبقى في البوفيه وأراقب الناس.

وكان ذلك منه تظاهراً زائفاً مفضوحاً لا يهدف في الواقع إلّا إلى إحناق المرأة المسكينة مزيداً من الحنق. فاحمرّ لونها احمراراً شديداً من فرط الغضب.

فأفلت من لسانها قولها بصوت عالٍ سمعه الناس:

ـ لا تحاول أن تخدعني بعد الآن أيها الشخص الوقح.

فولّى بطرس ستيفانوفتش هارباً، راضياً عن نفسه كل الرضى.

إنـه ليصعـب على المرء أن يتخيل رقصةً رمزية أبشـع ولا أغبى ولا أدعى إلـى الرثاء من تلـك "الرقصة الرباعية الأدبية"! ولا شـيء أبعد منها عن ذوق جمهورنـا، وأبعـث منهـا على نفـوره! ومع ذلـك فـإن كارمازينـوف، في ما يظهـر، هو الذي وضع فكرتها. صحيح أن التنفيذ قد تولاه ليبوتين، وسـاعده فيه الأسـتاذ الأعرج الذي شـهد سـهرة فرجنسـكي. ولكن واضع الفكرة هو كارمازينـوف على كل حال. حتى لقد أكَّد بعضهم أن كارمازينوف خطر بباله أن يتقنع وأن يشـارك هو نفسـه في "الرقصة الرباعية الأدبية". لم يتجاوز عدد المقنّعين سـتة أزواج، هذا إذا صح أن يطلق اسـم المقنّع على شخص يرتدي ملابس كملابس سـائر الناس: كان أحد المقنّعين مثلاً، وهو سـيد متقدم في السـن، قصير القامـة، يلبس رداء فراك، وله لحية بيضاء محترمة (هي الشـيء الوحيد المصنوع الذي كان بمثابة قناع)، كان هذا الرجل يرقص أو قل يتهزّز فـي مكانه بجـدٍ لا يزحزحه عنه شـيء، ولا يعكره عليه شـيء، وينطق أحرفاً غريبـة بصوت خافـت مبحوح، فكانت هـذه البحَّة هي الشـيء الوحيد الذي يرمـز إلـى جريـدة معينـة معروفة. وأمـام هذا الشـخص كان يرقـص رجلان عريضـان همـا "جيـم" و "دال". كان هـذان الحرفان معلقين بدبوسـين على رداءيهمـا (الفـراك)، ولكن لم يعرف أحد ماذا يعنيان ولا إلى شـيء يرمزان. وكان "الفكر الروسـي الشـريف، إنما يمثله سـيد متوسـط العمر، على عينيه نظارتان، وفي يديه قفازان، ولباسه فراك، مع جنزير في قدميه (جنزير حقيقي مـن جنازير السـجناء المحكوم علهم بالأشـغال الشـاقة). إنـه يتأبط محفظة تحتـوي علـى "ملـف" لا أدري ما هـو. ومن جيبه تخـرج رسـالةٌ مفضوضةٌ مرسـلة إليـه من الخـارج تبرهن لأكثر الناس شـكاً وريبةً على شـرف "الفكر الروسـي الشـريف"، كما شُـرح لنا ذلك بصوتٍ عـالٍ، لأن الرسـالة لم تكن قراءتها ممكنة بطبيعة الحال. والرجل يحمل بيده اليمنى قدحاً كأنه يتهيأ لأن يقترح نخباً. وعلى جانبيه يتواثب اثنان من العدميين قد قُصَّ شعرهما قصيراً. وأمـام هذا "الثلاثي" يرقص رجل كهل يرتدي فـراكاً ويحمل بيده هراوة. إنه

يمثل جريدة يومية تصدر بموسكو، وكأن هيئته تقول: "انتظروا قليلاً فلسوف ترون ما أفعل بكم!". ولكنه رغم هراوته لا يستطيع أن يتحمّل النظرة التي يطارده بها "الفكر الروسي الشريف" من خلال نظارتيه، فهو يحاول أن يشيح عينيه، حتى إذا خطا خطوةً من اثنتين، انحنى وتلوَّى، ثم لم يعرف أين يدس نفسه من شدة ما يعاني من عذاب الضمير!... لا أتذكر الآن بقية سخافات هذه الرقصة ولكنها كانت جميعاً من هذا الطراز على كل حال، حتى شعرت أخيراً بعار شديد وخزي أليم. وقد تجلى هذا الشعور بالعار في جميع الوجوه، حتى في الوجوه المشؤومة التي وفدت من البوفيه. ولقد ظل الناس صامتين خلال مدة من الوقت، يتأملون هؤلاء المقنَّعين مدهوشين دهشةً غاضبةً حانقة. ولكن من عادة الإنسان أن الشعور بالعار يجعله شريراً ميالاً إلى الاستهتار والاستخفاف. فهذه جلبة صماء تعلو شيئاً بعد شيء:

دمدم أحد أصدقاء البوفيه متسائلاً:

- ما معنى هذا كله؟

وقال آخر:

- يا للبلاهة!

فأجاب ثالث:

- هذا أدب. إنهم ينتقدون جريدة "الصوت".

- ولكن فيم يعنيني أنا هذا؟

وبين جماعة أخرى دار الحوار التالي:

- هؤلاء حمير!

- أنا لست حماراً!

- وأنا لست حماراً!

وفي جماعة أخرى دار الحوار التالي:

- يجب أن يُركل قفاهم بالأقدام وأن يرسلوا إلى الشيطان!

- تعال نخرّب الصالة كلها.

وفي حلقة أخرى:

ـ كيف لا يستحي آل لمبكه أن يروا هذا كله؟
ـ علام يستحون؟ وأنت لماذا لا تستحي؟
ـ إنني لأشعر بالحياء فعلاً، ثم إنه هو حاكم!
ـ وأنت أيضاً خنزير!
ـ لم أشهد في حياتي كلها حفلة رقص تبلغ هذا المبلغ من العامية والابتذال.

كذلك قالت بلهجة مسمومة وصوتٍ عالٍ، راغبةً في أن تُسمع، سيدةٌ كانت بقرب جوليا ميخائيلوفنا. إن جميع الناس في المدينة تقريباً يعرفون هذه السيدة التي تبلغ من العمر زهاء أربعين عاماً، السمينة، المثقلة الوجه بالمساحيق والأصباغ، المرتدية ثوباً من حرير صارخ الألوان. ولكنها لم تكن تُستقبل في منازل علية القوم. إنها أرملة مستشار دولة، أورثها زوجها منزلاً من خشب وراتباً هزيلاً. وكانت قبل شهرين قد مضت إلى منزل جوليا ميخائيلوفنا تحاول زيارتها، ولكن جوليا لم تستقبلها.

أضافت تقول وهي تلقي على جوليا ميخائيلوفنا نظرة وقحة:
ـ على كل حال كان هذا متوقعاً.
ـ فلم تستطع جوليا ميخائيلوفنا أن تسيطر على نفسها، فأجابتها قائلةً:
ـ إذا كان متوقعاً، فما كان ينبغي لك أن تجيئي.
فسرعان ما ردَّت السيدة تقول رافعةً رأسها في تحدٍ:
ـ كنت ساذجةً مسرفةً في السذاجة.
كان واضحا أن السيدة كانت تتحرّق شوقاً إلى مشاجرة جوليا ميخائيلوفنا.
ولكن الجنرال تدخل قائلاً بصوت خافت وهو يميل نحو جوليا ميخائيلوفنا:

ـ سيدتي العزيزة، حقاً إنه لمن الأفضل أن تنصرفي. نحن لا نزيد هنا على أن نضايقهم. فلو انصرفنا لتسلّوا وابتهجوا أكثر من هذا. لقد قمت بواجباتك الآن... لا سيما وأن آندره أنطونوفتش ليست صحته حسنةً في ما أظن... قد يحصل شيء خطير.

ولكن كان قد فات الأوان.

إن آنـدره أنطونوفتش، منـذ أن ظهر المقنَّعون، لم ينقطـع عن النظر إليهم بدهشـة يمازجها غضب. وحين أخذ الجمهور يضحـك، ألقى على ما حوله نظراتٍ قلقة عدة مرات. وحينذاك إنما لاحظ لأول مرة وجوهاً كريهة تستحق العقـاب. فارتسـمت علـى وجهـه عندئذ أقصـى معانـي الشـدة. وانفجرت قهقهات على حين فجأة: إن ناشـر الجريدة اليومية "الرهيبة" بموسكو، الذي كان يرقص مع هراوة، وقد عجز عن أن يحتمل النظرة التي يرشقه بها "الفكر الروسـي الشـريف" مزيداً من الاحتمال، وأصبح لا يعرف كيف يتجنّبها، لم يجـد وسـيلةً أفضـل من أن يمشـي على يديه، رافعـاً قدميه في الهـواء، وهذه إشـارة لطيفـة إلـى الفوضى الفكريـة التي تتخبـط فيها هذه الجريـدة وإلى ما تتصف به من بعدٍ عن الحس السـليم ونأي عن العقل. ولما كان ليامشـين هو الشـخص الوحيد الذي يستطيع السـير على يديه، فقد تولى بنفسه تمثيل دور هذه الشـخصية التي تحمَلِ الهراوة. لم يكن يخطر ببال جوليا ميخائيلوفنا أن مشـهداً كهذا المشهد سيُمثَّل: "لقد أخفوا عني هذا الأمر، لقد كتموه عني!". كذلـك كانـت تردد فيما بعد مسـتاءةً غاضبةً حانقـة. وكان الناس يضحكون. ولكنهـم لا يضحكـون طبعـاً مـن "الرمـز" الـذي لا يهم أحـداً، وإنمـا كانوا يضحكـون من منظر سيدٍ يرتدي فراكاً وقد جعل رأسـه فـي أدنى وقدميه في أعلى. وارتعش فون لمبكه غضباً. وها هو ذا يأخذ يصيح مشيراً إلى ليامشين:

ـ شـقي!... امسـكوه!... اقلبوه!... اجعلوا قدميه في أسـفل، ورأسـه في أعلى... في أعلى!...

استقام ليامشين على قدميه. وتضاعفت القهقهات.

وصاح فون لمبكه آمراً على حين فجأة:

ـ اطردوا جميع هؤلاء الأوغاد الذين يضحكون!

فاشتد الضحك صخباً، وطفق الجمهور كله يضج مرحاً:

ـ هذا سلوك غير لائق يا صاحب السعادة!

ـ لا تجوز إهانة الجمهور!

وصاح صوت في ركن من الصالة يقول:

ـ أنت الغبي!

وقذف آخرٌ قوله:

ـ نصابون!

فلما سمع لمبكه هذا الصيحة التفت فجأةً، واصفرّ وجهه اصفراراً شديداً. وألمّت بشفتيه ابتسامة مبهمة. لكأنه كان يتذكر شيئاً ويسترد وعيه.

قالت جوليا ميخائيلوفنا وهي تحاول أن تقتاد زوجها وأن تُخرجه من الجمهور الذي كان يزحمهما من كل جهة:

ـ أيها السادة! اعذروا آندره أنطونوفتش. إن آندره أنطونوفتش مريضٌ. اعذروه. اغفروا له...

نعم، لقد سمعتها تنطق بهذه الجملة "اغفروا له". وقد جرى المشهد سريعاً جداً. ولكنني أتذكر جيداً أن جزءاً من الجمهور قد ارتاع حين سمع ذلك، فهرع يخرج من الصالة. بل إنني أتذكر تلك الصرخة التي أطلقتها امرأة جعلت تبكي بكاءً عصبياً وتقول:

ـ آه... تجدد الأمر!

وفي وسط هذه الفوضى والبلبلة، انفجرت قنبلةٌ جديدة. فهذا صوتٌ يصيح قائلاً:

ـ النيران! النيران! الضاحية تحترق!

لا أدري على وجه الدقة من أين انبعثت هذه الصرخة. أظن أن أحداً في حجرة المدخل قد أطلقها بعد أن صعد درجات السلَّم أربعاً أربعاً. المهم أن هلعاً وجزعاً عامَّين لا يوصفان قد استوليا على الناس. إن أكثر من نصف الجمهور إنما يسكن في الضاحية (أي في الحيِّ الذي يقع على الضفة الأخرى من النهر). وهرع الناس إلى النوافذ، فأبعدوا الحجب وانتزعوا الستائر. كانت الضاحية تحترق فعلاً. إن الحريق لم يبدأ إلّا منذ برهةٍ قصيرة. ولكن المرء يرى رؤيةً واضحةً أن النار قد شبت في ثلاثة أماكن مختلفة. وذلك هو أفظع ما في الأمر.

أعول الجمهور يقول:
ـ عمال مصنع شبيجولين هم الذين أشعلوا النار.
وإني لأتذكر بضع صيحات ذات دلالةٍ كبيرة:
ـ كنت أتوقع أن يشعلوا النار! كنت أوجس هذا طوال هذه الأيام الأخيرة!
ـ هذه ضربة من عمال مصنع شبيجولين. ليس في هذا شك.
ـ لقد جمعونا هنا عمداً لإشعال النار في بيوتنا.

إن هذه الصرخة الأخيرة، وهي أغرب سائر الصرخات كافةً، إنما أطلقتها على غير إرادة منها، من دون أن تفكر فيها، امرأة جُنت من الذعر يقال لها كوروبوتشكا.

واتجه الناس نحو باب الخروج. لن أحاول أن أصف عويل النساء المروَّعات، وبكاء الفتيات، والتزاحم والتدافع في حجرة المدخل حول المعاطف والشالات. ولا غرابة في أن عدداً من الناس قد انصرف في وسط هذه الفوضى قبل أن يعثر على معطفه. ولكنني لا أعتقد أنه كان هناك سرقات كما رُوي ذلك بالمدينة في ما بعد. وقد أوشك لمبكه وجوليا ميخائيلوفنا أن يداسا في هذا الزحام فيهشما تهشيماً.

وكان لمبكه يصرخ مرغياً مزبداً، ماداً نحو الجمهور ذراعه، مهدداً:
ـ أوقفوا الجميع! اعتقلوا الجميع! لا يخرجنَّ أحد!
فجاءه الجواب على ذلك شتائم وسباباً من كل جهة بالقاعة.
وصرخت جوليا ميخائيلوفنا تقول له وقد طاش صوابها:
ـ آندره أنطونوفتش! آندره أنطونوفتش!
فصرخ يقول وهو يومئ إليها بإصبعه:
ـ اعتقلوها هي قبل أي شخص آخر. وفتشوها قبل أن تفتشوا أي شخصٍ آخر! لقد أقيمت حفلة الرقص لإشعال النار في المدينة.

فأطلقت جوليا ميخائيلوفنا صرخةً، وسقطت مغشياً عليها (لقد أغمي عليها إغماءً حقيقياً في هذه المرة). فأسرعنا إلى نجدتها أنا والأمير والجنرال. وهبَّ إلى مساعدتنا في هذه اللحظة الصعبة أشخاصٌ آخرون، حتى إن عدداً

من السيدات كنَّ بين الذين هبوا إلى مساعدتنا. وأفلحنا في أن نخرجها من هذا الجحيم وأن نُركبها عربتها. ولكنها لم تستيقظ من إغمائها إلّا حين وصلت إلى البيت. فكانت الكلمات الأولى التي نطقت بها هي السؤال عن آندره أنطونوفتش. لقد أصبحت لا تفكر إلّا فيه وسط انهيار جميع أحلامها. وأرسلنا نستدعي طبيباً. وبانتظار وصول الطبيب قضيت إلى جانبها ساعةً أنا والأمير. وقد عصفت بالجنرال نوبة كرم وأريحية (رغم أنه كان هو نفسه خائفاً مذعوراً) فقرر أن يبقى ساهراً على "سرير المسكينة" طول الليل. ولكنه ما إن انقضت عشر دقائق حتى أخذه الكرى فنام على مقعد، وتُرك وشأنه.

وقد استطاع رئيس الشرطة الذي كان يريد أن ينتقل إلى مكان الحادث المشؤوم بأقصى سرعةٍ، استطاع أن يخرج لمبكه من صالة الحفلة وأن يركبه العربة إلى جانب جوليا ميخائيلوفنا، ناصحاً "صاحب السعادة" الحاكم بأن ينال قسطاً من الراحة. إنني لا أفهم لماذا لم يلحَّ مزيداً من الإلحاح. وطبيعي أن كان فون لمبكه لا يريد أن يسمع أحداً ينطق بكلمة "الراحة"، ويصرُ على أن يرى الحريق بنفسه إصراراً شديداً. ولم يكن هذا بالحجة الكافية، ولكن رئيس الشرطة اصطحبه في عربته أخيراً وأخذه إلى "الضاحية". وقد روي بعد ذلك أن فون لمبكه ظل طوال الطريق يحرك يديه بإشاراتٍ معينة ويصدر أوامر غريبة عجيبة "يستحيل تنفيذها". وفي التقرير الذي قدمه في ما بعد صرَّح بأن "صاحب السعادة" كان في تلك اللحظة، بسبب ذعرٍ مفاجئ وهلعٍ مباغت، يعاني نوبة حمى حارة".

لا داعي إلى أن أروي عليكم كيف انتهت الحفلة. لقد هرب الجميع إلّا عشرين أو ثلاثين شخصاً وبضع سيدات. أما الشرطة فلم يبق منها أحد. وهؤلاء الذين لم يهربوا لم يسمحوا لأعضاء الأوركسترا أن ينصرفوا، حتى إنهم ضربوهم حين أرادوا الفرار. وفي الصباح كانت "دكان" بروخورتش قد خوت تماماً. لقد ظلوا يشربون حتى ضاعت عقولهم، وظلوا يرقصون بخطى مترنحة مبعثرة، وملأوا بالأوساخ الأرض ولطخوا بالأقذار الجدران. فلما طلع الفجر اتجه جزء من العصبة إلى الضاحية سُكارى تماماً، وكانت

النيـران قـد بدأت تنطفـئ. وهناك استرسـلوا في أنـواع جديدة مـن الفوضى والتشـويش... أمـا الجـزء الآخر منهم، فكانـت الخمرة قد خرَّبتهـم تخريباً، فقضوا بقية الليل على الأرض أو على أرائك المخمل يعانون جميع ما يعانيه السكارى من عقابيل السكر البشعة الأليمة. حتى إذا شرقت الشمس أُخرجوا من المنزل جراً من أقدامهم. فهكذا انتهت حفلة الرقص التي أقيمت لمعاونة معلّمات إقليمنا.

إن النار لـم تنشـب في الضاحية من تلقاء نفسـها. لقد كان واضحاً أنها من فعـل فاعلين. وذلـك خاصةً هو ما بث الذعر والهلع بين سـكان "الضاحية". يجـب أن نلاحظ أن الصرخة التي انطلقت قائلـةً: "النيران!" قد أعقبتها على الفـور صرخةٌ أخرى تقـول: "إنهم عمـال مصنع شـبيجولين!". ولقد أصبح معروفاً اليوم أن ثلاثة من عمال مصنع شبيجولين هم الذين أشعلوا النار فعلاً. ولكن زملاءهـم جميعاً قد اتضحت براءتهم، للقضاة وللناس على حد سواء. إن أولئك الأوغاد الثلاثة (الذين قُبض على واحد منهم فاعترف بكل شـيء، ولا يزال الآخران هاربين)، قد فعلوا فعلتهم هذه مع فدكا، السـجين الهارب من سـجن الأشـغال الشاقة: ذلك أمر لـم يبق أي شـك فيه الآن. وهذا مجمل مـا نعرفه عن أصل الحريق الذي شـب في "الضاحيـة". أما الافتراضات التي قامت في الأذهان فشـأنها شـأنٌ آخر. مـاذا كان هدف هـؤلاء الجناة الثلاثة؟ أكان يوجههم أحد أم لا؟ لا تزال الإجابة عن هذا السؤال صعبة أشد الصعوبة حتى الآن!

المهـم أن ريحاً قويـة قـد أورت النيـران، فـاذا بالحريق الـذي اندلع في ثلاثة أماكن مختلفة في آن واحد، ينتشـر انتشـاراً سـريعاً جـداً فيمتد في حيٍ بكاملـه، لا سـيما وأن المنـازل التي تقع علـى هذه الضفة الأخـرى من النهر كانت جميعها تقريباً من خشب (سيتبيَّن لنا في ما بعد أن واحداً من المساكن الثلاثة قد اكتُشـفت فيه النار فسـرعان ما أُطفئت). على أن مراسـلي صحف العاصمة قد ضخّمت الحادث: فالنيران لم تلتهم في الواقع إلّا ربع الضاحية فـي أكثر تقديـر (إن لم يكن أقـل من ذلـك). إن رجال المطافئ فـي مدينتنا،

رغم أن عددهم قليل بالقياس إلى سعة المدينة وعدد سكانها، قد عملوا بهمةٍ ونشاط، وتصرفوا تصرفاً يتسم بالجرأة والجسارة. ومع ذلك فإن جميع جهودهم كان يمكن أن تذهب سُدى، رغم مساعدة الأهالي لهم، لولا أن الريح قد سكنت فجأةً عند طلوع الشمس. إنني حين وصلت إلى "الضاحية" بعد ترك الحفلة بساعة رأيت الحريق يستعر استعاراً مجنوناً. كان الشارع الموازي للنهر مشتعلاً كله. وكان المرء يرى على وهج النيران كلَّ شيء كأنه في وضح النهار. لن أسهب في وصف المشهد تفصيلاً: من ذا الذي لا يعرف روسيا؟ في الشوارع الصغيرة المجاورة، بلغ الاضطراب حداً رهيباً. السكان الذين ما تنفك النيران تقترب منهم مهدِّدةً، ينقلون أثاث بيوتهم وأمتعتهم العتيقة، ولكنهم لا يستطيعون أن يعزموا أمرهم على الابتعاد عن منازلهم، فيظلون في الشارع، جالسين على صناديقهم وألحفتهم، تحت نوافذ بيوتهم. الرجال يندفعون في القيام بأعمالٍ قاسية: يهدُّون ألواح الحواجز بغير رحمه، ويهدُّون حتى الخصاص والأكواخ حين تكون في متناول النيران والرياح. الأطفال الذين انتشلوا من نومهم يبكون. النساء اللواتي فرغن من جمع أمتعتهن حولهن ينتحبن انتحاباً شديداً. واللواتي لم يفرغن من ذلك ما زلن يعملن في نقل متاعهن صامتات. الشرارات وجمرات الفحم تتطاير إلى بعيد، فيسارع المسارعون إلى إطفائها كيفما اتفق لهم ذلك. أناس يهرعون من جميع أركان المدينة يحتشدون في أمكنة الكارثة. فبعضهم يساعد رجال المطافئ وبعضهم لا يزيد على أن ينظر إلى الحريق مشاهداً. إن رؤية نيران عظيمة في الليل يُحدث على الدوام أثراً يهيِّج الأعصاب ويحرِّض النفس في آن واحد. ذلك هو سرُّ تأثير الأسهم النارية التي تُطلق في الأعياد ابتهاجاً. ولكن الأسهم النارية زينة مقصودة، وليس فيها خطر مهدِّد. لهذا لا تحدث في النفس إلّا إحساسات خفيفة ونشوة يسيرة كتلك التي تحدثها كأس شمبانيا. ولا كذلك الحريق: فها هنا ذعر وشعور بخطر شخصي يضافان إلى اهتياج فرح تولِّده نيران الليل، فإذا بالمشاهد (اللهم إلّا إذا ألمّت به الكارثة هو نفسه) يشعر بنوع من هزّة عصبية وتستيقظ في نفسه غرائز التدمير،

الغافية عند كل إنسان ـ وا أسفاه! ـ وحتى عند موظفٍ خجول هادئ! إن هذا الاحساس الغامض يكاد يكون مسكراً دائماً. "أشك أن يكون من الممكن أن يتأمل المرء حريقاً من دون أن يشعر من ذلك بلذةٍ ما". ذلكم ما قاله لي، كلمةً كلمةً، في ذات يوم، ستيفان تروفيموفتش، حين عاد من رؤية حريق شهده في الليل مصادفةً، ولقد قال لي هذا الكلام وهو لا يزال يشعر بالأثر الأول الذي تركه في نفسه منظر ذلك الحريق. لست أنفي طبعاً أن هذا الهاوي نفسه من هواة الحريق قد يكون قادراً قدرة تامة على أن يلقي بنفسه في النار لإنقاذ طفلٍ أو امرأةٍ عجوز عند اللزوم. ولكن هذا الأمر أمرٌ آخر.

تبعت جمهور المستطلعين فاستطعت من دون سؤال أحد أن أصل إلى أخطر مكان في الحريق، وهنالك لمحت أخيراً لمبكه الذي كنت أبحث عنه بإلحاح من جوليا ميخائيلوفنا. فرأيت الرجل في ظرف من أعجب الظروف. كان واقفاً فوق بقايا سياج. وفي يساره، على مسافة ثلاثين خطوة، يرى المرء هيكلاً أسود لمنزل خشبي من طابقين، احترق احتراقاً شبه كامل، وباتت في مكان نوافذه فوهات مفغورة. لقد انهار سقف المنزل. وهذه حيَّات من النار لا تزال تلعق عوارضه المتفحمة هنا وهناك. وفي الفناء يحاول رجال من رجال المطافئ أن يكافحوا ألسنة اللهب التي أخذت منذ ذلك الحين تخرج من جناح في وسط فناء ذي طابقين. وعلى اليمين، كانوا يحاولون أن يحموا مبنى كبيراً من خشب قد تسللت إليه النار مراراً ، وكان واضحاً أن مصيره إلى الاحتراق. فكان لمبكه يصرخ، ويحرك يديه بإشارات كثيرة أمام الجناح، ويصدر أوامر لا ينفذها أحد. أحسست أنهم قد تركوه لشأنه يصيبه ما يصيبه. والواقع أن الجمهور الذي كان يحيط به وكان كثيفاً وكان متنوعاً، وقد عرفت منه عدداً من السادة، بل لقد عرفت منه كبير كهنة الكاتدرائية، أقول إن هذا الجمهور كان يصغي إلى لمبكه مدهوشاً مستغرباً مستطلعاً، غير أن أحداً لا يكلمه. كان لمبكه أصفر الوجه، ملتمع العينين، يلقي خطباً عجيبة ويقول كلاماً غريباً. وكان إلى ذلك حاسر الرأس، لأنه فقد قبعته منذ مدة طويلة.

ـ هـذا فعل فاعلين! إنهم عدميون! حين يشب حريق فالمذهب العدمي هو المسؤول...

هـذا ما سمعته مرتاعاً. والحق أنه أصبح على المرء أن لا يستغرب من لمبكه شيئاً. ولكن حتى حين يتوقع الإنسان كل شيء، لا يملك إلّا أن يهزّه الواقع القاسي الأليم وأن يبث الاضطراب في نفسه.

قال له واحد من مفوضي الشرطة وقد هرع إليه مسرعاً:

ـ صاحب السعادة، عليك أن تعود إلى المنزل وأن تنال قسطاً من الراحة... بل إنه خطر عليك أن تبقى هنا يا صاحب السعادة!...

إن هذا الموظف، كما علمت ذلك في ما بعد، كان قد كلّفه رئيس الشرطة بأن يسهر على آندره أنطونوفتش وأن يحاول اقتياده إلى المنزل ولو بالقوة في حالة الخطر، وذلك أمر يفوق طاقة مفوض الشرطة طبعاً.

ـ دموع الضحايا ستكفكف، ولكن المدينة ستهلك. إنهم أولئك الأوغاد الأربعة... الأربعة والنصف!... اعتقلوا هذا الشقي! إنه وحده المسؤول. أما الآخرون فقد افترى عليهم زوراً! هو يتسلل إلى الأسر، ويدمر شرفها. لقد كلفوا المعلّمات بإشعال النيران في البيوت. هذا جبن! هذه حقارة! هذه خسة ودناءة!...

هكذا كان يتكلّم الحاكم. وإذ رأى فجأةً على سطح البيت المحترق رجلاً من رجال المطافئ تحدق به ألسنة اللهب، صرخ يقول:

ـ آي... ماذا يفعل هنا؟ اسحبوه من هذا المكان! سوف يسقط! سوف يهلك! أطفئوه! ماذا يعمل هنالك؟

ـ إنه يطفئ النيران يا صاحب السعادة.

ـ مستحيل! النيران في الضمائر لا في المنازل. اسحبوه من هناك، ودعوا كل شيء! الأفضل أن يُترك كل شيء! سينتهي الأمر من تلقاء نفسه!... من ذا الذي يبكي أيضاً! عجوز! العجوز تبكي! لقد نسوا العجوز!

في الطابق الأرضي من الجناح المحترق كانت تصرخ فعلاً عجوز في الثمانين من العمر، هي قريبة صاحب المنزل التي كانت تلتهمه النيران.

لكنها لم تكن قد نُسيت، وإنما هي رجعت بإرادتها كالمجنونة تريد أن تنتشل لحافها من غرفة لم تكن النيران قد نالتها، ولكنها بلغتها الآن فهي تشتعل. فكانت العجوز وقد خنقها الدخان والحرارة الشديدة تصرخ صراخاً قوياً مع استمرارها في دفع لحافها من إطار النافذة بكلتا يديها. فأسرع لمبكه يحاول نجدتها: رؤي يركض نحو النافذة، ويمسك طرف اللحاف ويشده إليه بكل ما يملك من قوة. ولكن المصادفة شاءت بما يشبه العمد أن يسقط لوح من ألواح خشب السقف في تلك اللحظة نفسها، فيصيب عنق آندره أنطونوفتش. لم يقتل لوح الخشب حاكمنا، ولكنه وضع خاتمةً لحياته بالوظيفة، في إقليمنا على الأقل. لقد قلبته الصدمة، ووقع مغشياً عليه.

وطلع الفجر أخيراً... طلع كالحاً مشؤوماً حزيناً. خبت النيران، وسكنت الريح. وأخذ يهطل مطر ناعم كسول. كنت قد صرت في حي آخر من الضاحية، بعيداً عن مكان الحادث الذي وقع للحاكم. وهناك علمت أشياء غريبة جداً، علمت أنه في أرضٍ نائية مقفرة، وراء بساتين الخضار، على مسافة خمسين خطوة من المساكن الأخرى في أقل تقدير، كان يوجد بيت صغير من خشب، جديد كل الجدة، وفي ذلك البيت المنعزل إنما اشتعلت النار قبل أي مكان آخر، في أول ظهور الحريق. فلو أن هذا البيت قد احترق، لما أمكن أن تصل ألسنة اللهب إلى المنازل الأخرى من "الضاحية". وكذلك كان يمكن أن تحترق الضاحية كلها دون أن يكون هذا البيت مهدداً بأي خطر، مهما تكن الريح شديدة عاتية. فكيف اشتعلت النار في هذا البيت إذًا؟ هل كان ذلك عن فعل فاعل متعمد؟ ولكن الأمر الأقرب من هذا هو أن النار التي شبت في البيت قد أمكن إطفاؤها منذ البداية، فإذا بأمور خارقة رهيبة تتكشف فيه. إن مالك البيت، وهو تاجر صغير كان يسكن غير بعيد عن ذلك المكان، قد رأى النار تشتعل في بيته الجديد، فأسرع يطفئها بمساعدة الجيران على الفور، ونجح في ذلك فعلاً ببعثرة الحطب المتكوم عند الحائط. ولكن البيت كان مسكوناً. فماذا رأى في البيت؟ رأى ساكنيه، وهم كابتن معروف في المدينة، وأخته وخادمتها العجوز، رآهم جميعاً مذبوحين في تلك الليلة

نفسها، وقد سُلبوا ما يملكون حتماً (من أجل أن يذهب إلى مكان الجريمة إنما كان رئيس الشرطة قد ترك فون لمبكه قبيل إنقاذ اللحاف). كان نبأ جريمة الاغتيال هذه قد انتشر بسرعة، فما طلع الصباح حتى كان جمهور كبير من الناس قد غزا الأرض الخاوية حول البيت الصغير، وقد انضم إليه حتى أناس من المنكوبين. وبلغ الازدحام من الشدة أنه أصبح يستحيل على المرء أن يتقدم. وقد ذُكر لي أن الكابتن وُجد منحور الرقبة، راقداً على دكة وهو يرتدي ثيابه كلها، ولعله حين طُعن كان نائماً كالميت من فرط السكر، فلم يشعر بشيء، وإنما نزف كما "تنزف بقرة"، أما أخته ماريا تيموفئفنا فقد كانت "مخرَّقة بطعنات سكين"، راقدةً على العتبة. وهذا ما يمكن أن يُستنتج منه أنها تخبطت وقاومت القاتل. وأما الخادمة التي لا شك أن الضجة هي التي أيقظتها من نومها فقد كانت مهشمة الرأس . ومما رواه مالك البيت أن الكابتن قد جاء إليه في صبيحة الأمس سكرانًا كل السكر، وأراه على سبيل التباهي والمفاخرة بالغنى، حزمةً من الأوراق المالية قدرها مائتا روبل على وجه التقريب. وقد وُجدت المحفظة الخضراء التي كان لبيادكين يضع فيها نقوده، وجدت فارغةً ملقاةً على أرض الغرفة. ولكن صندوق ماريا تيموفئفنا لم يمسسه أحد، وكذلك إطار الأيقونة المصنوع من فضة، وأمتعة الكابتن. واضح أن القاتل، وهو مستعجل أمره، كان يعرف المكان، وكان لا يريد أن يأخذ إلّا مال الكابتن، وكان يعرف أين يوجد هذا المال. ولو أن مالك البيت لم يصل بالسرعة المناسبة لأحرقت كومة الحطب البيت كله، ولكان من الصعب اكتشاف الحقيقة.

ذلك ما كان يرويه الجمهور. وكانوا يضيفون إلى هذا أن البيت إنما استأجره نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين، ابن الجنرالة ستافروجين، وإنه هو الذي فاوض مالك البيت على استئجاره: لقد كان مالك البيت لا يريد تأجير بيته، لأنه كان يقدِّر أن يفتتح فيه حانة، ولكنه استجاب لإلحاح ستافروجين الذي دفع له أجرة ستة أشهر سلفاً من دون أن يكترث بمقدار الأجرة أصلاً.

كل الناس يقولون في الجمهور:

ـ لا شك أن هناك أمراً مدبَّراً.

ولكـن أكثرهم كان يلـزم الصمت. الوجوه مظلمه مربـدة مكفهرة. ولكن النفـوس لا تبدو مهتاجة اهتياجاً شـديداً على أنهم لا يكفون عن الكلام على سـتافروجين. كانـوا يقولون: إن المرأة القتيل زوجته. وبالأمس اسـتمال إليه "بحيلة غير مشروعة" ابنة الجنرال دروزدوف، وهي آنسة تنتمي إلى أكرم أسر المدينة. وكان سيُشـكى إلى بطرسـبرج. فمن أجل أن يسـتطيع تزوج الآنسـة دروزدوف إنما قُتلت إذًا زوجته.

لـم تكـن سكفورشـنيكي تبعد عـن المكان أكثـر من فرسـخين ونصف. لذلك تسـاءلت (ما زلت أذكر هذا): ألسـتُ أحسـن صنعاً إذا أنا مضيت أنبئ آل ستافروجين بما حدث من دون أن أذكر مع ذلك أنهم يستثيرون الجمهور ويحرِّضونـه؟ ولكنني أبصـرت عدداً من أفراد مشـبوهين عرفتهم فوراً لأنني كنـت قـد رأيتهم في حفلة الرقـص. وإني لأذكر منهم علـى وجه الخصوص شـاباً طويلاً هزيلاً، جعدَ الشـعر، أدكن اللون: إنه قفَّال كما عرفت ذلك فيما بعد. لم يكن الشـاب سـكراناً، ولكن على خلاف الجمهور القاتم الصامت، كان يبـدو خارجـاً عن طـوره. إنه لا يني يتكلـم فيقول أمـوراً مفككة مبعثرة، ويحرك يديه بإشـاراتٍ كثيرة، ويستشـهد بالشعب سـائلاً: "ما معنى هذا أيها الأخوة؟ هل يجوز لنا أن ندع الأمور تجري على هذا النحو؟...".

الفصل الثالث

نهاية رواية

1

من الصالة الكبرى بسفورشنيكي (تلك الصالة نفسها التي استقبلت فيها فرفارا بتروفنا صاحبنا ستيفان تروفيموفتش آخر مرة)، كان المرء يستطيع بنظرة واحدة أن يشمل منظر الحريق كله. وفي الفجر، في نحو الساعة السادسة من الصباح)، كانت ليزا واقفةً قرب النافذة الأخيرة على اليمين تتأمل الضياء الأحمر الواسع الذي كان يشحب شيئاً فشيئاً. لقد كانت وحيدةً. إنها ترتدي ذلك الثوب نفسه الذي كانت ترتديه أمس، في الصبيحة الأدبية، وهو ثوب أنيق جداً، أخضر كابٍ، مغطى بالدنتيلا، لكنه الآن مجعد تماماً. واضح أن ليزا قد لبسته بسرعة لتغطي به جسمها، حتى إن جزأه الأعلى عند الصدر لم يزرَّر تماماً. فيما لاحظت الفتاة ذلك احمرَّ وجهها، وأسرعت تصلح من فوضى هندامها، وتناولت خماراً كانت قد ألقته عنها في الليلة البارحة على مقعد حين دخولها، فلفَّت به الآن جيدها. إن شعرها الكثيف يتدلى حلقاتٍ على كتفها اليمنى وإن وجهها يبدو منهكاً مهموماً، ولكن عينيها تلتمعان تحت حاجبيها المقطبين. وها هي ذي تقترب من النافذة، وتسند جبينها الملتهب على زجاجها البارد.

وفُتح الباب، ودخل نيقولاي فسيفولودوفتش. قال:

ـ مضى يستطلع الأخبار خادم يركب حصاناً. فما هي إلّا دقائق حتى نعرف كل شيء. يقول الناس إن جزءاً من "الضاحية" قد احترق، على

طول الشاطئ، يمينَ الجسر. وقد اشتعلت النار بين الساعة الحادية عشرة ومنتصف الليل. وهي الآن تنطفئ.

لم يمض ستافروجين إلى النافذة، وإنما لبث وراء ليزا. ولم تلتفت ليزا.

قالت ليزا غاضبةً:

ـ لو صدق التقويم لكان ينبغي أن يطلع الصبح منذ ساعة. ومع ذلك لايزال يخيم الظلام كأننا في الليل.

فقال نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين بابتسامة لطيفة محببة:

ـ التقاويم كلها تكذب...

ولكنه لم يلبث أن شعر بالخجل من قول كلام مبتذل معاد مكرور، فأسرع يضيف:

ـ لشد ما تكون الحياة مضجرة إذا عيشت وفقاً لحسابات التقاويم يا ليزا!

وغضب ستافروجين مرةً أخرى من إفلات لسانه بسخافة جديدة، فسكت ثم لم ينطق. فابتسمت ليزا بمرارة، وقالت:

ـ إن مزاجك ليبلغ من الحزن إنك لا تدري ما عساك تقول لي. ولكن هدئ نفسك! لقد صدقت في ما قلت: إنني أعيش دائماً على حسب التقويم. كل خطوة من خطاي مرتبة وفقًا للتقويم. أأنت مدهوش؟

والتفتت ليزا بقوة وجلست على مقعد. وقالت:

ـ اجلس أنت أيضاً، أرجوك! لن نبقى معاً مدةً طويلة. ويجب أن أقول لك كل ما بنفسي... لماذا لا تقول لي أنت أيضاً كل ما تود أن تقوله؟

جلس نيقولاي فسيفولودوفتش إلى جانبها، وأمسك يدها برفق أو قل بما يشبه الوجل.

ـ ما هذه اللغة يا ليزا؟ لماذا هذه اللغة؟ ما معنى قولك: "لن نبقى معاً مدة طويلة؟" هذه هي المرة الثانية التي تقولين لي فيها هذه الجملة الملغزة خلال نصف ساعة منذ أن استيقظت.

قالت وهي تبتسم ابتسامةً خفيفة:

ـ ها أنت ذا قد أخذت تحصي جملي الملغزة. ولكن هل تتذكر أنني

بالأمس، حين دخلنا، قد قلت لك إنك تستقبل ميتة؟ لقد رأيتَ من المناسب أن تنسى هذه الجملة، أن تنساها وأن لا توليها انتباهاً.

ـ لا أذكر هذا يا ليزا. لماذا "ميتة"؟ يجب أن نحيا...

ـ وها أنت ذا تقف. لستَ اليوم جمَّ الفصاحة والبلاغة. لقد دقت ساعتي على هذه الأرض ويكفيني هذا. هل تتذكر كريستوفر إيفانوفتش؟

ـ أجاب ستافروجين وقد أظلم وجهه:

ـ لا!

ـ كريستوفر إيفانوفتش؟ في لوزان؟ كان يضجرك إضجاراً رهيباً. كان يقول دائماً حين يدخل: "إنني آتٍ للحظة واحدة"، ثم يمكث يوماً بكامله. لا أريد أن أكون مثل كريستوفر إيفانوفتش، فأبقى يوماً بكامله.

ـ ليزا، هذه اللغة الساخرة تؤلمني. وهذا التمثيل يؤلمك أنت نفسك. علام هذا؟ لماذا؟

وسطعت عيناه. وتابع كلامه يقول:

ـ ليزا، أحلف لك: إنني أحبك الآن أكثر مما كنت أحبك بالأمس حين دخلت إلى هنا.

ـ يا له من اعترافٍ غريب! لماذا هذه المقارِنة بين الأمس واليوم؟ لماذا القياس؟

واستأنف ستافروجين كلامه فقال بلهجة تكاد تعبر عن اليأس:

ـ لن تتركيني! سوف نسافر معاً، في هذا اليوم نفسه! أليس كذلك؟

ـ آي! إنك توجعني! لقد ضغطت يدي ضغطًا شديداً جداً! نسافر معاً؟ في هذا اليوم نفسه؟ إلى أين؟ "انبعاث جديد" مرةً أخرى؟... لا... كفى تجارب!... ثم إنني عاجزةٌ عن هذا. هذا كله أكبر مني وأعظم مني! إذا سافرنا، فسيكون سفرنا إلى موسكو، من أجل أن نستقبلَ الناس ونزور الناس. ذلك هو مثلي الأعلى. إنك تعرفه جيداً. أنا لم أُخفِ عنك حقيقتي منذ كنا بسويسرا. ولما كان من المستحيل أن نسافر إلى موسكو وأن نقوم بزيارات، ما دمتَ متزوجاً، فلا داعي إلى الكلام على السفر...

ـ ولكن ما الذي جرى بالأمس إذًا يا ليزا؟

ـ جرى ما جرى!

ـ مستحيل. هذه قسوة!

لا يهم أن تكون هذه قسوة! احتملها!

فدمدم ستافروجين يقول بابتسامة صفراء:

تنتقمين مني لنزوتك بالأمس.

فاحمرت ليزا.

ـ يا لها من فكرة دنيئة.

ـ فلماذا وهبت لي إذًا "تلك السعادة كلها"؟ هل من حقي أن أعرف جواب هذا السؤال؟

ـ لا!... استغن عن هذا الحق. لا تضف الحماقة إلى دناءة افتراضك. لا حظّ لك اليوم! بالمناسبة: أتراك تخشى رأي الناس، وأن يدينوك بسبب تلك "السعادة"؟ إذا كان الأمر كذلك، فهدئ روعك، ناشدتك الله! أنت لم ترتكب إثماً، وليس لأحد أن يحاسبك! حين فتحت أنا بابك بالأمس، كنت أنت لا تدري من ذا الذي يدخل عليك. لم يكن الأمر إلّا نزوةً مني، كما قلتَ منذ هنيهة، ولا شيء غير ذلك، في وسعك أن لا تغض الطرف أمام أحد، وأن تسير في الناس مرفوع الرأس.

ـ إن أقوالك وضحكاتك تجمِّدني ذعراً منذ ساعة. إن هذه "السعادة" التي تكلمينني عنها الآن بهذه اللهجة المبغضة الكارهة، تكلفني... كل شيء! هل يمكنني في هذه اللحظة أن أفقدك؟ أؤكد لك أنني كنت أحبك أمس أقل مما أحبك اليوم. فلماذا تنتزعين مني اليوم كل شيء؟ هل تعلمين ماذا كلفني هذا الأمل الجديد؟ لقد دفعت ثمنه حياة...

ـ حياتك أنت أم حياة أحد غيرك؟

فنهض ستافروجين فجأة. وقال يسألها وهو يحدِّق إليها بانتباه:

ـ ماذا تعنين؟

ـ أردت أن أعرف فقط هل دفعت ثمنه من حياتك أو من حياتي أنا...

ثم هتفت تسأله:

- أتـراك أصبحت لا تفهم شـيئاً؟ لماذا نهضت ذلـك النهوض المفاجئ؟ لمـاذا تنظـر إليَّ على هـذا النحو؟ إنـك تخيفني! ما الذي تخشـاه؟ إنك تبث الرعب في نفسـي! لكأنـك خائف. إنني ألاحظ منذ مـدة طويلة أنك خائف، ولا سيما الآن... في هذه اللحظة بالذات... رباه! ما أشد اصفرار وجهه!

- إذا كنت تعرفين شـيئاً يا ليزا، فإنني أنا لا أعرف شـيئاً... أحلف لك. وما عن "هذا" تكلمت حين قلت لك إنني دفعت الثمن...

دمدمت ليزا تقول خائفةً:

- لا أفهمك البتة!

وسـرحت على وجه سـتافروجين ابتسـامة مبهمة بطيئة آخـر الأمر. وعاد يجلس، وأسند كوعيه إلى ركبتيه، وأخفى وجهه فى يديه.

- حلم سيئ... كابوس ثقيل... كنا نتكلم في أمرين مختلفين.

- لا أدري عـمَّ كنت تتكلم. هل يُعقل أن لا تكون قد حزرت بالأمس أنني سأتركك اليوم؟ أكنت تعلم هذا أم لا؟ لا تكذب. أكنت تعلمه؟

دمدم ستافرجين يقول:

- كنت أعلمه.

- فمـاذا تريـد أكثـر مـن ذلـك؟ كنـت تعلـم، ومـع هـذا اختلسـتها، تلك "اللحظة"... فعلام هذا الحساب كله الآن؟

صاح ستافروجين يسألها بلهجة أليمة:

- قولي لي الحقيقة كلها: حين فتحت بابي بالأمس، أكنت تعلمين أنك لا تفتحينه إلّا من أجل يوم واحد؟

فرشقته بنظرة كره وبغض، وقالت:

- يتفق لأكثر الرجال جداً أن يلقوا أسـئلة سـخيفة مضحكة. فيم تقلق هذا القلق؟ أهي الكبرياء التي تدفعك إليه؟ أهو تصوُّرك أن امرأةً هي التي تتركك ولسـت أنـت الذي تتركها؟ هـل تعلم يا نيقـولاي فسـيفولودوفتش أنني منذ دخلت هذا المكان لاحظت في ما لاحظت أنك كريم معى غاية الكرم. ذلك

بعينه هو ما لا أستطيع أن أحتمله منك.

نهض ستافروجين وسار بضع خطوات في الغرفة.

ـ طيب... أسلِّم بأن الأمر كان لا بد أن ينتهي هذه النهاية... ولكن كيف حدث كل هذا؟

ـ يا له من اهتمام يشغل بالك! لا سيما وأنك تعرف الأمر، وتدركه خيراً مما يدركه أي إنسان آخر، وأنك كنت تتوقع هذه النهاية! أنا آنسة، وقد نشأ قلبي وترعرع في الأوبرا. هكذا بدأت المسألة. ذلك هو السر كله.

ـ لا.

ـ لا شيء في هذا يمكن أن يجرح كبرياءك. هذه هي الحقيقة كلها. بدأ الأمر بلحظة جميلة لم أستطع مقاومتها. أمس الأول، حين آذيتك بالكلام على مسمع من الناس، فأجبتني بطريقة تزخر فروسية، حزرتُ فوراً أنك تتحاشاني وتتجنّبني لأنك متزوج، لا لأنك تحتقرني، وهو أمر كنت أخشاه أكثر مما أخشى أي شيء آخر بصفتي فتاة من فتيات المجتمع. لقد أدركت أنك إذ تتجنبني إنما كنت تحمي هذه المجنونة، أنا. فانظر كم أقدر لك كرمك! وفي تلك اللحظة هرع بطرس ستيفانوفتش، فشرح لي كل شيء. قال إنك ملك فكرةٍ عظيمة لا نساوي نحن بالقياس إليها شيئاً، لا أنا ولا هو، غير أنني مع ذلك حجر عثرة في طريقك، ثم إنه لا يريد أبداً أن يتركنا، وإنما هو يحرص على أن يكون الثالث. قال لي أشياء رائعة عن "سفينة" لا أدري ما هي، سفينة شراعية لها مجاديف من أشجار القيقب، وأنشدني أغنية روسية. أزجيت له المديح، وقلت له إنه شاعر، فقبل ذلك وسلَّم به على أنه أمر محقق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وإذ كنت أعلم منذ زمن طويل أن قراراتي ليست إلّا كنار القش، عزمت أمري على أن أتصرف فوراً. ذلك كل شيء. وكفى هذا الآن. أرجوك، لا تسألني إيضاحات أخرى. وإلا فقد نتشاجر. لا تخف من شيء. إنني أتحمل التبعة كلها. أنا شريرة، ذات نزوات، انقدت لإغراء سفينة أوبرا... أنا آنسة! ولكن هل تعلم أنني كنت أتخيل، رغم كل شيء، أنك تحبني حباً جنونياً؟ لا تحتقر الحمقاء ولا تسخر

مـن هذه الدمعة التي سـالت من عينـي الآن. إنني أحب سـكب الدموع على نفسـي، رثاءً لمصيري، وتألماً لحظِّي! ولكن كفى كفى! إنني غير قادرة على شـيء، ولا أنت قادر على شـيء، فليعـزِّ كل منا صاحبه بمدِّ لسـانه له تهكماً وسخرية! بهذا لا تتألم كبرياؤنا على الأقل.

هتف نيقولاي فسيفولودوفتش وهو يعقف يديه:

ـ حلم! جنون! عزيزتي المسكينة ليزا، ماذا فعلت؟

وكان يذرع الغرفة بخطى كبيرة.

حرقـت إصبعـي، وهـذا كل شـيء. أرجـو أن لا تأخذ في البـكاء. أصلح وقفتك، وكن أقل حساسية!

ـ لماذا جئت؟

ـ أتـراك لا تـدرك أخيراً سـخافة الموقف الذي تضعني فيـه أمام الناس إذ تلقي عليَّ هذه الأسئلة؟

ـ لماذا ضيَّعت نفسك بهذه الطريقة الغبية، السخيفة؟ وما العمل الآن؟

ـ أهذا هو ستافروجين، "الدموي ستافروجين"، كما تسَميك سيدةٌ تهواك هوًى شـديداً؟ اسـمع، لقد سـبق أن قلت الأمر: إنني أعطيت حياتي كلها من أجل ساعة. وأنا الآن هادئة. فافعل مثلي!... على كل حال، أنت شأنك شأن آخر، ستكون لك "ساعات" أخرى كثيرة، و"لحظات" أخرى كثيرة!...

ـ علـى قدر ما سـيكون لك منها، على قدر ما سـيكون لـك منها. أعاهدك على ذلك. لا ساعة واحدة أكثر منك.

كان لا ينفك يمشـي. لم يرَ النظرة السـريعة الثاقبة التي ألقتها عليه، والتي سطع فيها على حين فجأة شعاع أملٍ سرعان ما انطفأ.

ـ ليتك تعرفين ثمن "صدقي" المسـتحيل في هذه اللحظة، ليتني أسـتطيع فقط أن أكشف لك يا ليزا...

ـ أن تكشـف لي؟ هل تريد أن تكشـف لي عن شيء أيضاً؟ وقاني الله شرَّ مكاشفاتك...

كذلك قاطعته ليزا شبه مذعورة.

فوقف وانتظر قلقاً مهموماً. قالت ليزا:

ـ يجب أن أعترف لك بأنني منذ كنا في سويسرا قد رسخ في ذهني أن ضميرك يخفي شيئاً ما، شيئاً رهيباً، موحلاً، دامياً... لكنه في الوقت نفسه يجعلك مضحكاً إلى درجة فظيعة. فحذار أن تكشف لي عن هذا الشيء إن صح تقديري: وإلا فسوف أضحك منك، وأتهكم على حياتك كلها... آي... ها أنت ذا يصفر لونك من جديد! فلن أقول بعدُ شيئاً، لن أقول شيئاً! ها أنا ذا منصرفة...

كذلك هتفت تقول وهي تنهض بحركة احتقار واشمئزاز.

قال ستافروجين يائساً:

ـ عذبيني! أدينيني! صبِّي عليَّ غضبك! من حقك أن تفعلي هذا. لقد كنت أعلم أنني لا أحبك وأنني ضيعتك! نعم، "لقد انتهزت اللحظة". كان لي أمل... منذ مدة طويلة... أمل أخير... ولم أستطع أن أقاوم الضياء الذي بهرني حين جئت من تلقاء نفسك، بمحض إرادتك. عندئذٍ، ظننت فجأة... ولعلني ما زلت أظن...

ـ سأجيب على صراحتك النبيلة بصراحة مثلها. لا أريد أن أكون لك راهبة رحمة وإحسان. إن لم أفلح في أن أموت اليوم ـ وهذا يجيء في حينه إذا جاء ـ فقد أصبح في يوم من الأيام راهبة ممرِّضة، ولكنني لن أكون ممرِّضةً لك أنت، رغم أنك أشبه بكسيح أو أكتع. لقد خيِّل إليَّ دائماً أنك ستقودني في يوم من الأيام إلى مكان يسكنه عنكبوت ضخم في حجم إنسان، وأننا سنقضي حياتنا ناظرين إلى العنكبوت مرتعشين من الخوف، وأن هذا هو ما سيؤول إليه حبنا. اذهب إلى داشا: إن داشا ستتبعك إلى حيث تقودها.

ـ لا تستطيعين أن تنسيها، حتى في هذه اللحظة!

ـ يا للكلبة الصغيرة المسكينة! سلِّم لي عليها! هل تعلم أنك منذ كنت في سويسرا، تدَّخرها لشيخوختك؟ يا للتبصر بالمستقبل! أي... مَنْ هناك؟

لقد شُقَّ الباب الذي في آخر الصالة، فأطل من شقه الضيق رأس سرعان ما اختفى في تلك اللحظة نفسها.

قال ستافروجين سائلاً:

ـ أهذا أنت يا إيغورتش؟

فعاد الرأس يظهر من شق الباب، فإذا هو رأس بطرس ستيفانوفتش يجيب عن السؤال قائلاً:

ـ بل هذا أنا. نعمت صباحاً يا ليزافتا نيقولايفنا. كنت أعلم أنني سأجدكما كليكما في هذه الصالة. لم أجئ إلّا للحظة واحدة يا نيقولاي فسيفولودوفتش: يجب عليَّ حتماً أن أقول لك كلمتين... إنه أمرٌ مستعجلٌ جداً، ولا غنى عنه أبداً. كلمتان فقط!

اتجه ستافروجين نحو الباب. ولكنه ما إن قطع ثلاث خطوات حتى رجع إلى ليزا، وقال:

ـ إذا سمعت شيئاً يا ليزا، فاعلمي أن الجاني هو أنا.

فارتعشت ونظرت إليه مرتاعة. وخرج مسرعاً.

انتقل ستافروجين إلى الغرفة المجاورة، وهي حجرة مدخل كبيرة بيضوية الشكل. وكان بطرس ستيفانوفتش، عند دخوله، قد رأى الخادم العجوز ألكسي إيجورتش، فطلب منه أن يتركه وحيداً.

أغلق نيقولاي فسيفولودوفتش باب الصالة وانتظر، فشمله بطرس ستيفانوفتش بنظرة سريعة فاحصة.

قال ستافروجين:

ـ هيه؟

فأجاب الزائر ولا تزال نظرته كأنها تريد أن تنبش أعماق ستافروجين، أجاب قائلاً:

ـ إذا كنت على علم بما جرى، فيجب أن أقول لك إن أحداً منا ليس مذنباً طبعاً، ولا سيما أنت، ولا يعدو الأمر أن يكون مصادفة... لا يعدو أن يكون تضافر عدد من الظروف... الخلاصة... من الناحية القانونية لا يمكن أن تُمسَّ، وقد جئت لأنبئك...

ـ هل حُرقوا؟ هل قُتلوا؟

ـ قتلوا! ولكن أجسامهم لم تمسسها النار. ذلك هو الشيء المؤسف. أقسم لك بشرفي أنني غير ضالع في ما حدث، مهما تكن شكوكك وشبهاتك. ذلك أن من الجائز أن تشتبه فيَّ، هه؟ هل تريد أن تعرف الحقيقة كلها؟ اسمع: في لحظة من اللحظات، خطر ببالي فعلاً أن... وأنت الذي أوحيت إليَّ بهذه الفكرة، لا إيحاءً جاداً بطبيعة الحال، بل من باب السخرية لا أكثر... (ذلك أنك لا يمكن أن توحي إليَّ بشيء كهذا إيحاءً جاداً)، ولكنني لم أستطع أن أعزم أمري، وما كنت لأعزم أمري بحال من الأحوال، بأي ثمن، ولو كان مائة روبل... لا سيما وأن ذلك لا يعود عليَّ بأي نفع، عليَّ أنا طبعاً... (كان تدفق كلامه يزداد سرعةً). ولكن انظر إلى هذه المصادفة العجيبة! من مالي الخاص (نعم، من مالي الخاص، فليس لك في هذا الأمر روبل واحد، وإنك لتعرف هذا حق المعرفة)، أعطيت ذلك الأبله لبيادكين مائتين وثلاثين روبلاً مساء أمس الأول. هل تسمع؟ مساء أمس الأول، لا أمس، بعد الجلسة الأدبية. لاحظ هذا. فهو أمر هام. ذلك أنني في أمس الأول لم أكن قد تيقنت بعد من أن ليزافتا نيقولايفنا ستجيء إليك. أعطيت لبيادكين ذلك المبلغ من جيبي، لأنك في أمس الأول دبَّرت لي مكيدة وكشفت عن سرِّك لجميع الناس. لا أدخل الآن في بحث الأسباب التي... فهذا من شأنك... لقد تصرّفت تصرف فارس... ولكنني أعترف لك أن ذلك كان ضربة عصا على ظهري... لقد ذُهلت و صُعقت. لقد طاش صوابي. ومع ذلك فإنني وقد سئمت جميع هذه التراجيديات، وكان هذا يعرقل خططي أخيراً فقد عاهدت نفسي على أن أرحِّل لبيادكين وأخته إلى بطرسبرغ مهما كلف الأمر، على غير علم منك، لا سيما وأن الكابتن كان لا يحلم إلّا بهذا. لم أرتكب إلّا خطيئةً واحدة: هي أنني أعطيته المال زاعماً أنه منك أنت. أهذا خطأ أم لا؟ ربما لم يكن هذا خطأ؟ هه؟ ولكن اسمع الآن، اسمع كيف جرت الأمور...

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وهو في قمة الحرارة من حديثه، واقترب من ستافروجين فأمسك ثنية ردنجوته (لعله فعل ذلك عامداً) فما كان من ستافروجين إلّا أن هوى على ذراعه بضربة قوية.

قال بطرس ستيفانوفتش:

ـ ماذا جرى لك؟ انتبه... كدت تكسر ذراعي...

واستأنف حديثه الأول بمزيد من التدفق، غير مدهوشٍ للضربة:

ـ نقدته المال مساء أمس الأول، وتـمَّ الاتفاق على أن يسافر هو وأخته في الغداة عند طلوع الصباح. وكلفت ذلك الوغد ليبوتين أن يضعه في القطار. ولكن ليبوتين كان حريصاً أشد الحرص على أن يدبر للجمهور ذلك "المقلب" القذر في الصبيحة الأدبية. لعلك سمعت عن هذا؟ فاسمع إذًا، اسمع! لقد شربا معاً، ونظما أشعاراً. وكان نصف الأبيات على الأقل من نظم ليبوتين. وألبس ليبوتين صاحبه الكابتن رداء فراك (مؤكداً لي مع ذلك أنه قد اصطحب لبيادكين إلى المحطة في ذلك الصباح نفسه)، وأخفاه لا أدري أين، ليدفعه إلى المنصة في اللحظة المنشودة. ولكن لبيادكين يسكر بسرعة، لذلك تولى ليبوتين قراءة الأشعار نيابةً عنه. وقامت الفضيحة. اقتيد الكابتن لبيادكين إلى البيت شبه ميت من فرط السكر، واختلس منه ليبوتين مائتي روبل ولم يترك له إلّا قليلاً من نقود صغيرة. ولكن كان من سوء حظ لبيادكين أنه في ذلك الصباح قد تباهى وأظهر على المائتي روبل أولئك الذين ما كان ينبغي لهم أن يروها. ولما كان فدكا لا ينتظر إلّا هذه الفرصة، ولا سيما أنه كان قد سمع بعض الأمور عند كيريلوف (هل تتذكر تلميحك) فقد قرر أن ينتهز هذه الفرصة. تلك هي الحقيقة كلها. يسرّني على الأقل أن فدكا لم يجد المال، بينما كان يعوِّل أن يعثر على ألف روبل حتماً. ولقد كان متعجلاً. فإن النيران قد أخافته هو أيضاً... هل تصدّق؟ لقد كان الحريق أشبه بضربة مطرقة على رأس، شيء غير مقبول، هذا الخروج على النظام والانضباط! اسمع! إنني أعلق عليك آمالاً كباراً وأنتظر منك أموراً كثيرة، لذلك لن أخفي عنك شيئاً: الحق أن فكرة الحريق هذه تراودني منذ مدة طويلة. إنها وسيلة من وسائل العمل شائعة جداً في وطننا. ولكنني كنت أحتفظ بهذه الوسيلة للّحظة الحرجة، للدقيقة الرائعة العظيمة التي سنقوم فيها كلنا قومةً واحدة...

ولكن ها هم أولاء أباحوا لأنفسهم أن يتصرفوا من تلقاء أنفسهم، من دون أمرٍ يصدر إليهم عني، وفي لحظة نحن أحوج ما نكون فيها إلى أن نبقى ساكنين، هـذا قلة نظـام وانضبـاط!... الخلاصة، لا أعـرف بعدُ شـيئاً... وإنما يجري الحديث عن عاملين من عمال مصنع شبيجولين!... ولكن إذا كان واحد من جماعتنا قد شـارك في إشـعال هذا الحريق، وضلع في هذه القضية من قريب أو بعيـد، فالويل له! إنك تعرف مـا يحدث متى تراخى المرء معهم قليلاً! لا، لا، يسـتحيل الاعتمـاد على معونة هذا الوغـد الديموقراطي و"حلقاته" إن ما نحـن فـي حاجة إليه هـو إرادة واحدة عليـا طاغية تعتمد على شـيء ثابت... عندئذ تأتي الجماعات تلعق أحذيتنا وتسـتطيع عندئذ أن نستعملها. على كل حـال، رغم ما يُذاع في كل مكان بالمدينة الآن من أن المدينة قد أحرقت لأن ستافروجين يريد أن يقتل زوجته...

ـ ماذا؟ أيذاع هذا منذ الآن؟

ـ لا، لا منـذ الآن والحـق يقـال. وأنـي لأعترف بأنني لم أسـمع شـيئاً من هـذا القبيل. ولكن ماذا يمكن أن يُنتظر من الجمهور؟ ولا سـيما المنكوبين: "صَـوت الخلـق صوت الحق" (باللاتينية)! هل من الصعب نشـر أسـخف الإشـاعات؟ ولكـن ليس هنـاك ما يجب أن تخشـاه على كل حـال. أنت من الناحيـة القانونية بـريء، بل أنت بريء فـي الواقع حتى من الناحية النفسـية، لأنـك لم تـرد جريمة القتل هذه، أليس كذلك؟ هل كنـت تريدها؟ لا. وليس هناك أي دليل يدينك... هي مصادفة محض مع ذلك قد يتذكر فدكا كلماتك الطائشـة عنـد كيريلوف (لماذا قلـت تلك الكلمات؟). ولكـن هذا لا يبرهن على شيء، وسوف نُسكت فدكا سأتولى الأمر في هذا اليوم نفسه.

ـ ألم تنل النيران أجسامهم البتة؟

ـ البتـة! إن هذا الوغد لم يحسـن حتى القيـام بالمهمة. ان ما يبهجني على الأقل هو أنك هادئ هذا الهدوء كله... فإنك، وان تكن بريئاً كل البراءة، حتى مـن جهة النيـة والتفكير... علـى كل حال، لاحظ أن هذا يرتـب أمورك على

خير وجه: ها أنت ذا قد ترمَّلت، ففي وسعك أن تتزوج على الفور فتاةً أخاذة واسعة الثراء، عدا أنها بين يديك منذ الآن! انظر ماذا يمكن أن ينتج عن مجرد تضافر عدد من الظروف. هه؟

ـ أتهددني أيها الأحمق؟

ـ دعك من هذا الكلام. ما أسرع ما تصفني بأنني أحمق! ما هذه اللهجة؟ عليك أن تكون راضياً مسروراً، فإذا أنت، بدلاً من ذلك... انظر كيف تكافئني أنا الذي هرعت أخبرك بالنبأ خصيصاً... بماذا عساني أهددك؟ إنني لا أريد أن أملكك بالتهديد. وإنما أنا في حاجة إلى إرادتك الحرة. أنت الضياء والشمس. وأنا الذي أخاف منك خوفاً رهيباً. أنا لست مافريكي نيقولايفتش... بالمناسبة، تصور: لقد رأيت مافريكي نيقولايفتش في قرارة حديقتك قرب السياج حين مررت هناك. لا شك أنه قضى الليلة كلها في ذلك المكان. ليس للجنون الإنساني حدود.

ـ مافريكي نيقولايفتش؟ صحيح؟

ـ هي الحقيقة خالصةً! إنه جالس قرب السياج... على مسافة ثلاثمائة خطوة من هنا، إن لم يخطئ ظني. مررت أمامه بأقصى سرعة استطعتُها، ولكنه رآني. ألم تكن تعلم؟ يُسعدني إذًا أنني أنبأتك. إن أمثال هذا الرجل يمكن أن يصبحوا خطرين جداً إذا كان في حوزتهم مسدس. أضف إلى ذلك، الليلَ والمطر وما يعتمل في نفسه من حنق طبيعي في مثل هذه الظروف. فعلاً: تصوَّر وضعه الآن! هأ هأ!... ما رأيك؟ لماذا تُراه يبقى متربصاً هناك؟

ـ واضح أنه ينتظر ليزافتا نيقولايفنا.

ـ تماماً! ولكن لماذا عساها تلحق به؟ ثم... في مطر منهمر كهذا المطر... يا له من أحمق!

ـ ستلحق به.

ـ هه هه... يا لها من فكرة عجيبة! معنى ذلك... ولكن اسمع: إن وضعها الآن قد تغير رأساً على عقب: ما حاجتها إلى مافريكي نيقولايفتش؟ أنت أرمل، وفي وسعك أن تتزوجها منذ غد. إنها لا تعرف شيئاً بعد. دعني

فأتصـرّف في الأمر كله. أين هي؟ يجب أن نزف إليها النبأ الجميل، إليها هي أيضاً.

ـ النبأ الجميل؟

ـ أظن أنه نبأ جميل. هيّا!

ـ ألا يدور في خلدك أن هذه الجثث سوف تثير شبهاتها؟

كذلك سأله ستافروجين وهو يلقي عليه نظرة ذات دلالة.

فأجابه بطرس ستيفانوفتش يقول متغابياً:

ـ لا، أبـداً... إذ مـن الناحيـة القانونية... ثم هبها حزرت شـيئاً ما! إن هذه الأمـور تُرتَّـب مع النسـاء بسـهولة! إنك لا تعرف النسـاء بعـد!... ومن جهة أخـرى فـإن مـن مصلحتهـا أن تتزوجك، لأن سـمعتها قد سـاءت مهما يكن مـن أمر. زد على ذلك أنني كلّمتها عن السـفينة الشـراعية التـي لها مجاديف من خشـب القيقب، فلاحظت أن هذه الأشـياء تفعل فيها فعل السـحر. هذه فتاة حارة الطبع. لا تخشـى شـيئاً، لسـوف تخطو من فوق هـذه الجثث حتى لتسـتغرب أنـت نفسـك ذلك، لا سـيما وأنـك بريء، ألسـت بريئـاً؟ ولكنها سـتدّخر لـك ذكرى هـذه الجثث لتقدمها إليك بعد سـنتين من الـزواج مثلاً. إن كل امـرأة تدَّخـر لزوجهـا بعـض الخطايا القديمة لتسـتعملها فـي الوقت المناسب. ولكن هل يعلم المرء ماذا يمكن أن يحدث بعد سنة؟ هأ هأ هأ!...

ـ إذا كنت قد جئت راكباً عربة فاصطحبها فوراً إلى مافريكي نيقولايفتش. لقد قالت لي منذ هنيهة إنها تكرهني وإنها تتركني. ولن تقبل عربتي أنا طبعاً.

ـ عجيب! تريد أن تنصرف؟ لماذا؟

كذلك سأل بطرس ستيفانوفتش مذهولاً. فأجابه ستافروجين بقوله:

ـ لعلهـا حـزرت فـي هـذه الليلـة من بعـض العلامـات والقرائـن أنني لا أحبها... وذلك ما تعرفه منذ زمن طويل على كل حال.

سأله بطرس ستيفانوفتش متظاهراً بالدهشة:

ـ هل صحيح أنك لا تحبها؟ ولكن إذا كان الأمر كذلك، فلماذا احتجزتها بالأمـس بدلاً من أن تتصرف تصرف رجل شـريف فتعلـن لها أنك لا تحبها.

هذا جبن من جانبك. وما أدنأ الوضع الذي وضعتني فيه إزاءها!

فانفجر ستافروجين ضاحكاً. ثم أسرع يشرح قائلاً:

- إنني أضحك من قردي.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يضحك مرحاً:

- آ... حزرت إذًا أنني إنما كنت أمثّل. لقد أردت أن أضحكك. تصور أنني منذ رأيتك داخلاً عليَّ أدركت من وجهك فوراً أن ثمة "مصيبةً" قد حلَّت. بل ربما إخفاق كامل، هه؟

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك ثم هتف يصيح وقد غمره الفرح:

- أراهن أنكما قضيتما الليلة كلها جالسين أحدكما إلى جانب الآخر على كرسيين، تضيّعان وقتاً ثميناً في مناقشة أمور رفيعة نبيلة سامية!... اغفر لي! اغفر لي! ما شأني أنا على كل حال... لقد كنت أعلم منذ الأمس أن ذلك كله سينتهي بينكما إلى سخافات. إنني لم آتك بها إلّا لأسلّيك، ولأبرهن لك على أنك لن تضجر معي. سوف أخدمك خدمات كثيرة من هذا النوع. إنني، على وجه العموم، أحب أن أسرَّ الناس. إذا كنت قد سئمت منها الآن - وهذا ما كنت أتوقعه وأعوِّل عليه حين أتيت إلى هنا - فإنني في هذه الحالة...

- ألم تجئني بها إذًا إلّا لتسليني؟

- طبعاً.

- وليس لتجعلني أقرر قتل زوجتي؟

- ولكن هل أنت الذي قتلتها؟

- بل أنت، فكأن..

- أنا؟ ألم أقل لك إنني لا شأن لي في الأمر. لقد بدأتَ تقلقني...

- أكمل. لقد قلت لي منذ برهة: "إذا كنت قد سئمت منها الآن، فإنني في هذه الحالة...".

- نعم، فإنني في هذه الحالة أتولّى كل شيء. سأزوجها مافريكي نيقولايفتش بسهولة. يجب أن أذكر لك عابراً أنني لست أنا الذي جعلته يرابط في آخر الحديقة. فلا ينصرفن بك الخيال إلى هذا أيضاً. أؤكد لك

أنني خائف منه. لقد جئتَ منذ قليل على ذكر العربة، فاعلم أنني مررت أمامه بأقصى سرعة... ذلك لأن معه مسدساً. من حسن الحظ أن معي مسدسي أنا أيضاً. هو ذا (هنا أخرج بطرس ستيفانوفتش المسدس وأراه ستافروجين ثم أسرع يخبئه). لقد تزودت به احتياطاً للطوارئ... على كل حال سأدبّر لك الأمر كله في برهةٍ وجيزة: إن قلبها يتألم الآن حين تفكر في مافريكي... أو على الأقل لا بد أن قلبها يتألم. وإني لأشفق عليها حقاً. وما إن آخذها إلى مافريكي حتى تعود تفكر فيك، وتتغنى بمحاسنك، وتندد بعيوبه. ذلك هو قلب المرأة. آ... ها أنت ذا تضحك من جديد. لشد ما يسرّني أن أراك مرحاً هذا المرح كله. طيب. هيَّا بنا! سأبدأ أولاً بمافريكي... أما الآخرون... الذين قُتلوا... فلعل الأفضل أن لا نذكر عنهم شيئاً الآن أليس كذلك؟ ستعلم هي بالأمر قريباً.

ـ أي أمر سأعلم به؟ من الذي قُتل؟ ماذا قلت عن مافريكي نيقولايفتش؟

كذلك صاحت ليزا سائلةً وهي تفتح الباب.

ـ آه... أكنت تتنصتين وراء الباب؟

ـ ماذا قلت عن مافريكي نيقولايفتش؟ هل قُتل؟

ـ إذًا لم تسمعي. هدئي نفسك. إن مافريكي نيقولايفتش حي، وإن صحته جيدة، كما تستطيعين أن تقتنعي من ذلك بنفسك فوراً، لأنه مرابط في الحديقة، قرب الطريق... أظن أنه بقي هنالك طوال الليل، تحت معطفه. لا بد أنه مبلل. وقد رآني حين وصلت.

ـ ليس هذا صحيحاً. لقد نطقتَ بكلمة "قُتل". فمن الذي قُتل؟

كذلك ألحت تقول بشك أليم.

فقال ستافروجين بصوت ثابت:

ـ زوجتي هي التي قُتلت مع أخيها لبيادكين وخادمتهما.

ارتعشت ليزا، واصفرت اصفراراً شديداً.

وأسرع بطرس ستيفانوفتش يتدخل فقال:

ـ مصادفةٌ غريبة، عجيبة، يا ليزافتا نيقولايفنا. اغتيال من أغبى وأسخف

الاغتيالات. استغل الجناة الحريق ليقتلوا ويسلبوا. إنه فدكا السجين الهارب من سجن الأشغال الشاقة. لقد كان هذا الأحمق لبيادكين يتباهى في كل مكان بأن جيوبه ملأى مالاً... ذلك ما جعلني أهرع... ضربة فظيعة فعلاً. لقد كاد ينقلب ستافروجين حين أبلغته النبأ. وكنا نتباحث الأن لنقرر أنعلمك بالخبر أم لا!

قالت ليزا تسأل ستافروجين وهي تنطق كل كلمة بمشقة:

ـ نيقولاي فسيفولودوفتش، أهو يقول الحقيقة؟

ـ لا، إنه لا يقول الحقيقة.

فصرخ بطرس نيقولايفتش يقول:

ـ كيف؟ ما هذا أيضاً؟

صاحت ليزا:

ـ رباه! أكاد أُجن!

فصرخ بطرس ستيفانوفتش صراخاً قوياً يقول:

ـ ألا فاعلمي إذًا أن هذا الرجل قد فقد عقله. مهما يكن من أمر، فإن زوجته هي التي قُتلت، انظري إلى شحوبه الشديد!... لقد قضى الليلة كلها معك، ولم يتركك. فكيف يمكن الاشتباه فيه؟

ـ نيقولاي فسيفولودوفتش. قل لي صادقاً كما لو كنت أمام الله. أأنت جانٍ أم لا؟ يميناً لأصدقنَّ كلامك كأنه كلام الله، ولأتبعنَّك إلى آخر الدنيا! نعم، نعم! سأتبعك، مثل كلب!...

زأر بطرس ستيفانوفتش يقول غاضباً غضباً مسعوراً:

ـ ما بالك تعذبها هذا التعذيب أيها الإنسان العجيب! يا ليزافتا نيقولايفنا. أحلف لك صادقاً، ولتدقّيني في هاون إن كنت أكذب: إن نيقولاي فسيفولودوفتش بريء. والأحرى أن يقال إنه هو الذى قُتل بهذا النبأ. إنه يهذي. ها أنت ذا ترينه بعينيك. إنه عاجز عن أن يفعل شيئاً من هذا القبيل، حتى بالخيال!... إن الذين فعلوا هذه الفعلة أناس من قطاع الطريق، سيُعرفون حتماً في غضون ثمانية أيام، وسيُجلدون. هو فدكا السجين الهارب من

سـجن الأشغال الشـاقة وعمالٌ من مصنع شـبيجولين. المدينة كلها تتحدث في الأمر... وهذا هو السبب في أنني...أنا أيضاً...

قالت ليزا تسأل ملحةً:

ـ أهذا صحيح؟ أهذا صحيح؟

وكانت تنتظر الكلام الحاسم واجفةً راعشة.

قال ستافروجين:

ـ لم أقتل، وكنت أعارض هذا القتل، ولكنني كنت أعرف أنهم سيقتلونهم، فلم أمنع القتلة من ارتكاب ما ارتكبوا. دعيني يا ليزا.

قال ستافروجين ذلك، ورجع إلى الصالة.

خبّأت ليزا وجهها بيديها وخرجت من المنزل. فأراد بطرس ستيفانوفتش أن يركض وراءها، ولكنه عدل عن رأيه هذا، وهرع يعود إلى الصالة.

دمدم يقول وقد جُن جنونه غضباً وأخذ الزبد يخرج من بين شفتيه:

ـ آ... هكذا إذن! هكذا إذن! لستَ خائفاً إذن من شيء.

كان سـتافروجين واقفاً في وسـط الصالة. فظل صامتـاً ولم يجب بكلمة. وكان يشدُّ شعره بيده اليسرى وقد ألمت بوجهه ابتسامة غامضة.

شدَّه بطرس ستيفانوفتش من كمِّه بقوة، وقال له:

ـ هل فقدت عقلك؟ إلى هنا وصلت؟ إنك سـوف تشي بجميع الناس ثم تمضـي تعتكف في أحد الأديرة، أو تمضي إلى جهنـم!... ألا فاعلم إذًا أنني سأقتلك، وإن لم تكن خائفاً مني.

دمدم سـتافروجين يقول وكأنه لم يلاحظ وجود بطرس سـتيفانوفتش إلّا في تلك اللحظة:

ـ هه؟ أأنت الذي تحدث هذه الجلبة كلها؟

وبدا عليه فجأةً أنه رجع إلى وعيه، فأضاف يقول له:

ـ اركـض وراءهـا! خذ العربـة! لا تتركها!... ما بالـك لا تركض؟ أعدها إلـى بيتهـا، ولا يعلمنّ أحـد!... امنعها خاصـةً من الذهاب إلـى هناك ورؤية الجثث... الجثث! أركبها في العربة قسراً!... يا ألكسي إيجورتش، يا ألكسي إيجورتش!

ـ انتظـر! لا تصـرخ! هـي بيـن ذراعـي مافريكي منـذ الآن!... لـن يركب مافريكي عربتك.. انتظر... ليس الأمر الآن أمر عربة!

وأخـرج مسدسـه ثانيـةً، فألقى عليـه سـتافروجين نظرة رصينـة، وقال له بصوتٍ هادئ:

ـ اقتلني!

فصاح بطرس ستيفانوفتش يقول مرتعشاً من شدة الغضب:

ـ عجيـب! هل يمكـنِ للمرء أن ينطلـي عليه تمثيله هو نفسـه! حقاً يجب عليَّ أن أقتلك! وقد كان ينبغي لها أن تبصق في وجهك! لا، ما أنت "سفينة"! أنـت قـارب عتيق مثقـوب، لا يصلح في أكثـر تقدير إلّا حطبـاً للموقد. ذلك أنـت!... هـلاً غضبت بعض الغضب على الأقل. لا شـك أن جميع الأشـياء تستوي في نظرك الآن، ما دمت تطلب بنفسك أن تُقتل!

ابتسم ستافروجين ابتسامةً غريبةً وقال:

ـ لـو لا أنك مهرِّج لكان يمكن أن أقـول لك نعم... ليتك أذكى قليلاً على الأقل...

ـ أنـا مهـرِّج. ولكنني لا أريد أن تكون أنت مهرجاً، أنت الجزءَ الأساسـي من نفسي. هل تفهمني؟

ولقـد كان سـتافروجين يفهم. ولعلـه الوحيد الذي كان يسـتطيع أن يفهم بطرس سـتيفانوفتش. إنكم تتذكرون دهشـة شاتوف حين قال له ستافروجين إن بطرس ستيفانوفتش قادر على أن يتحمس.

ـ اذهب الآن إلى الشـيطان! قد أسـتطيع من الآن إلى الغـد أن أتخذ قراراً ما. ارجع غداً.

ـ في الغد إذن؟ أهذا أكيد؟

ـ أنّى لي أن أعرف! اذهب إلى الشيطان!

قال ستافروجين ذلك وخرج.

فجمجم بطرس ستيفانوفتش يحدّث نفسه قائلاً: "ربما كان هذا أفضل... من يدري!". وأعاد المسدس إلى جيبه.

2

أسرع بطرس ستيفانوفتش يلحق بليزافتا نيقولايفنا التي لم تكن قد ابتعدت كثيراً.

كان ألكسي إيجورتش قد حاول أن يثنيها عن الخروج، ولكنه لم يفلح، فهو الآن يتبعها باحترام، لابساً رداء الفراك، حاسر الرأس، على مسافةٍ منها. إن الخادم العجوز مرتاعٌ أشد الارتياع، يهمُّ أن يبكي من الهلع، وهو يضرع إليها أن تنتظر العربة.

قال له بطرس ستيفانوفتش وهو يدفعه:

ـ ارجع إلى البيت . مولاك يطلب شايًا، وليس هناك من يجيئه بالشاي غيرك.

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك للخادم العجوز، وأمسك ذراع ليزافتا نيقولايفتش بسطوة. فلم تسحب ليزا ذراعها. ولم تكن تملك وعيها كاملاً على كل حال: إنها لم تعد إلى صوابها بعد.

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول لها:

ـ أولاً: لقد سرت في اتجاه خطأ، فما ينبغي أن نمر أمام الحديقة، لنمضي من هنا. وثانياً: يستحيل عليك استحالةً مطلقة أن تعودي إلى بيتك سيراً على القدمين، فالمسافة تبلغ ثلاثة فراسخ، ولست ترتدين معطفاً. فالأفضل أن تنتظري قليلاً. لقد وصلت أنا بعربة. وهي الآن في فناء المنزل. سأستدعيها فتركبينها وأوصلك إلى بيتك. فلا يراك أحد.

ـ قالت ليزا بصوتٍ رقيق عذب:

ـ ما أطيب قلبك!...

ـ ما هذا الذي تقولين؟ إن كل إنسان شريف لا بد أن يفعل ما أفعل، في مثل هذه الحالة.

فنظرت إليه ليزا مدهوشةً تقول:

ـ رباه! كنت أظنه الخادم العجوز!...

ـ اسمعي. يسرني أن تأخذي الأمر هذا المأخذ، فما ذلك كله على كل حال إلّا وهم من الأوهام الاجتماعية الباطلة. ولكن، إذا كان الأمر كذلك، أفليس الأفضل أن نأمر العجوز بإعداد المركبة، فما تنقضي دقائقُ عشر إلّا وتكون المركبة مهيأة؟ وبانتظار ذلك نحتمي بسقيفة الباب، هه؟

ـ أريد قبل كل شيء... أين هي الجثث؟

ـ يا لها من نزوةٍ غريبة! ذلك ما كنت أخشاه... لا... لا تفكري في هذا. لنترك هذه الجثث اللعينة حيث هي. ما بك حاجة إلى رؤيتها.

ـ أنا أعرف أين هي؟ إنني أعرف ذلك البيت!

ـ ليس بالأمر الهام أن تعرفيه. اسمعي. إن المطر ينهمر، والضباب يغشى كل شيء ـ رباه! ما أغناني عن هذا العناء كله!... ـ اسمعي يا ليزافتا نيقولايفنا! أحد أمرين: إما أن تركبي في العربة معي، وفي هذه الحالة فلنقف هنا، ولتنتظريني، إذ لو سرنا عشرين خطوةً أخرى فسوف نلقى مافريكي نيقولايفتش...

ـ مافريكي نيقولايفتش؟ أين هو؟ أين؟

ـ إذا كنت تحرصين حرصاً مطلقاً على أن تذهبي إليه، فإنني أوافق على أن أسير معك بضع خطواتٍ أخرى، لأدلك أين هو، ولكنني أفرُّ بعد ذلك. إنني لا أريد الاقتراب منه الآن.

صاحت ليزا قائلةً وهي تقف فجأة:

ـ رباه! إنه ينتظرني!...

واصطبغ وجهها بحمرة شديدة.

ـ إذا كان رجلاً متحرراً من الأوهام الاجتماعية، فلا قيمة للأمر البتة. تعلمين يا ليزافتا نيقولايفنا أنني لا شأن لي في هذه القضية كلها. تعلمين هذا علماً تاماً. ولكنني مع ذلك لا أريد لك إلّا الخير. إذا لم تنجح "سفينتنا"، واتضح أنها ليست إلّا قارباً قديماً بالياً...

ـ آه... رائع!

ـ ها هي ذي تبكي الآن! يجب أن يتحلّى المرء بالشجاعة في مثل هذه

المناسبات. لا ينبغي للمرأة أن تخضع أمام الرجل. في أيامنا هذه... حين يحدث لامرأة أن...

هنا كاد بطرس ستيفانوفتش أن يبصق من شدة الغضب. ولكنه أردف يقول:

ـ الشيء الرئيسي هو أن لا تأسفي على شيء: إن من الجائز أن تسوَّى الأمور في النهاية. إن مافريكي نيقولايفتش رجل... رجل حساس... رغم أنه صموت... والصمت صفة ممتازة على كل حال... المهم أن يكون متحرراً من الأوهام الاجتماعية.

ـ رائع! رائع!

كذلك هتفت ليزا وهي تضحك ضحكاً عصبياً.

فقال بطرس ستيفانوفتش منزعجاً على حين فجأة:

ـ هوه! لاحظي يا ليزافتا نيقولايفنا أنني في سبيلك إنما أسعى الآن هذا السعي كله. ما شأني أنا!... لقد ساعدتك أمس حين أردت أنت نفسك... واليوم!... إننا نستطيع أن نرى مافريكي نيقولايفتش من هنا. انظري. هو ذا. إنه لم يبصرنا. ليزافتا نيقولايفنا، هل قرأت "باولين ساكس".

ـ ماذا؟

ـ "بولين ساكس". هي رواية. قرأتها حين كنت طالباً. إنها تحدثنا عن موظف، غني جداً، رأى زوجته متلبسةً بالجرم المشهود، في الريف. دعينا من هذا على كل حال! ما شأني أنا؟ إن مافريكي نيقولايفتش سيعرض عليك الزواج حتى قبل أن تصلي إلى البيت. سوف ترين. لم يبصرك حتى الآن.

هتفت ليزا تقول كالمجنونة:

ـ آه... ما يجب أن يراني. فلنهرب! فلنهرب! في الغابة! في الحقول!...

وعادت أدراجها راكضة.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يركض وراءها:

.. ليزافتا نيقولايفنا! ما هذا الضعف!... لماذا لا تريدين أن يراك! بالعكس: حدِّقي في عينيه، بكبرياء!... إذا كانت المسألة هي مسألة...

هي مسألة بكارتك... فذلك وهم اجتماعي سخيف... ذلك تأخر فكري كبير!... ولكن إلى أين تذهبين؟ إلى أين تذهبين؟ إنها تركض!... لنعد إلى سكفورشنيكي، لنركب عربتي... ولكن إلى أين تركضين هذا الركض... في الحقول؟!... ها... ها هي ذي تقع!

وقف بطرس ستيفانوفتش. كانت ليزا تركض كالمجنونة من دون أن تعرف إلى أين تمضي. وكان بطرس ستيفانوفتش قد أصبح بعيداً عنها. وتعثرت أخيراً بتلعة من الأرض فسقطت. وفي تلك اللحظة دوَّت صرخة رهيبة: إنه مافريكي نيقولايفتش رأى هرب الفتاة وسقوطها، فهو الآن يركض لنجدتها عبر الحقول.

فسرعان ما رجع بطرس ستيفانوفتش إلى منزل ستافروجين ليركب عربته بأقصى سرعة.

ها هو ذا مافريكي نيقولايفتش يقف بقرب ليزا مرتاعاً. لقد نهضت ليزا. وها هو ذا يميل عليها ويتناول يدها بيديه. إن الظروف الخارقة التي تكتنف هذا اللقاء قد بثت في نفس الفتى اضطراباً شديداً، وهذه دموع تسيل غزيرةً على خديه. لقد رأى تلك التي يحبها حباً يبلغ العبادة، رآها تركض كالمجنونة خلال الحقول، في هذه الساعة المبكرة من الصباح، تحت المطر، من دون معطف، بثوبها الجميل الذي كانت ترتديه أمس، مشعَّثةً ملطخةً بالوحل... فلم يملك أن يقول كلمة واحدة، ولم يزد على أن خلع عنه معطفه، ودثّر به كتفي ليزا بيديه المرتعشتين. وها هو ذا يهتف قائلاً على حين فجأة، إذ أحس بشفتي ليزا على يده:

ـ ليزا! أنا لا أصلح لشيء. ولكن لا تنبذيني! لا تطرديني!

فقالت له ليزا:

ـ لننصرف من هنا! لا تتركني!

وأمسكت ذراعه وجرَّته وراءها. وأردفت تقول بصوت خائف:

ـ مافريكي نيقولايفتش، كنت أُظهر الشجاعة هناك، ولكنني هنا خائفةٌ من الموت. سوف أموت، سوف أموت بعد قليل، و لكنني خائفة، خائفة من الموت...

بهذا دمدمت ليزا وهي تضغط على ذراع صاحبها.

فقال مافريكي نيقولايفتش وهو يلقي من حوله نظراتٍ يائسة:

ـ ليت أحداً هنا على الأقل... قدماك ستبتلان... سوف... سوف تفقدين عقلك.

دمدمت تقول محاولةً أن تبث فيه شيئاً من الشجاعة:

ـ لا تخف! ما هذا بشيء! ما هذا بشيء! لقد قلَّ خوفي منذ أصبحت أنت بجانبي. أمسك يدي، قدني!... إلى أين نذهب الآن؟ إلى الدار؟ لا... إنني أريد أن أرى الجثث أولاً. يقال إنهم قتلوا زوجته. ولكنه يقول إنه هو الذي قتلها. ليس هذا صحيحاً أليس كذلك؟ ليس صحيحاً، هه؟ أريد أن أرى بعينيَّ... الأشخاصَ الذين قتلوهم بسببي أنا!... بسببهم إنما فقدت حبه هذه الليلة... سوف أرى كل شيء وأعرف كل شيء. أسرع! أسرع! إنني أعرف ذلك البيت.. ولقد أشعلوا فيه النار... مافريكي نيقولايفتش، لا تغفر لي، لقد كان سلوكي غير شريف! لماذا عسى يُغفر لي؟ ما بالك تبكي؟ اصفعني، واقتلني، في هذا المكان نفسه، كما يُفعل بكلب!

قال مافريكي نيقولايفتش بصوتٍ ثابت:

ـ لا أحد يحق له أن يحكم عليك. وأنا آخر من يحق له أن يحكم عليك! غفر الله لك!

إن الحوار الذي جرى بينهما سيبدو للقارئ غريباً عجيباً إذا أنا نقلته. كانا يمشيان يداً بيد، بخطى وئيدة، كمجنونين، سائرين نحو الحريق قُدُماً لا يلويان على شيء. لم يكن مافريكي نيقولايفتش قد فقد الأمل، بعدُ، في أن يلقى عربةً ما، ولكن الطريق كانت خالية مقفرة. و إن رذاذاً من المطر يحجب المنظر، مذيباً الأشكال والألوان، مغشّياً كلَّ شيء بنقاب أشهب. كانت الشمس قد شرقت منذ مدة، و مع ذلك كان الجو كأنه ليل. وفجأةً، من هذا الضباب المتجلّد، انبجست قامةٌ غريبة، شاذة. إنني حين أتصور هذا المشهد أتخيل أنني لو كنت في محل ليزافتا نيقولايفنا لما صدَّقت عينيَّ. ولكن ليزافتا نيقولايفنا سرعان ما تعرّفت صاحب القامة، فأطلقت صرخة فرح.

إنـه سـتيفان تروفيموفتش. كيف هرب مـن بيته؟ كيف اسـتطاع أن ينفّذ ذلك المشروع الخيالي الغريب الذي كان يساوره منذ زمن طويل؟ ـ ستعرفون كل شيء في ما بعد. وحسبي الآن أن أشير إلى أنه كان مريضاً منذ الصباح: كانت بـه حمى. ولكن لا شـيء كان يسـتطيع أن يثنيه عما عقد النية عليه. إنه يسـير فـي الطريـق الموحلة بخطى ثابتة. ومـن يَرَه يدرك أنه كان قـد أعدَّ قراره كما يمكـن أن يُعدِّه رجل غيـر ذي خبرة، وحيداً في غرفة مكتبه الهادئ السـاكن. كان سـتيفان تروفيموفتش مرتدياً "لباس السـفر"، أي أن معطفه كان مشدوداً على جسـمه بحـزام عريض من جلد لامـع، وكان يحتذي جزمتيـن عاليتين. لعـل هـذه الصورة هي التي كانـت في خياله عن "المسـافر". أما حزام الجلد وحـذاء الفـارس اللذين كانـا يضايقانه في سـيره كثيراً، فأغلب ظنـي أنه كان قـد هيأهما منذ عدة أيام. وكان يُكمل هـذا اللباس قبعةٌ عريضة الحافة، ولثام مشدود حول عنقه. وكان يحمل بيسراه كيساً للسفر صغيراً لكنه محشو حتى ليـكاد ينفجر، ويحمل بيمنـاه عصا ومظلةً مفتوحة. إن هذه الأشـياء الثلاثة ـ العصا، والكيس، والمظلة ـ كان حملها مزعجاً جداً، وقد ثقلت على ستيفان تروفيموفتش منذ الفرسخ الثاني.

هتفت ليزا تقول:

ـ أهذا أنت؟ هل يُعقل أن تكون أنت؟

لقد كانت حركتها الأولى فرحاً، ولكن سـرعان ما حلَّ محل الفرح دهش أليم!

وهتف ستيفان تروفيموفتش هو أيضاً يقول وهو يهرع إليها:

ـ ليـزا! عزيزتـي! عزيزتي! هل يُعقـل أن... أن تكوني أنـت قد...في هذا الضباب المظلم؟ هل ترين الحريق؟ "إنك شقية، أليس كذلك؟" (بالفرنسية). إنني أرى هذا. لا تقصِّي عليَّ شيئاً، ولا تسـأليني عن شيء أيضاً. "نحن جميعاً أشقياء، ولكن يجب أن نغفر لهم جميعاً! فلنغفر يا ليزا!" (بالفرنسية) ولنكن أحـراراً إلى الأبد! ولكي ننتهي من الناس ونصبح أحراراً يجب أن نغفر، وأن نغفر، وأن نغفر! (بالفرنسية).

ـ ولكن ما بالك تجثو راكعاً على ركبتيك؟
ـ لأنني وأنا أودِّع العالم أريد أن أودِّع في شخصك ماضيَّ كله!

وأخذ ستيفان تروفيموفتش يبكي، وحمل يدي ليزا إلى عينيه وأردف يقول:

ـ إنني أجثو راكعاً أمام كل ما كان في حياتي جميلاً. إنني أقبل يديك وأقول لك شكراً! لقد شطرتُ حياتي شطرين: مجنوناً هناك كان يحلم بأن يرتقي السماء، "اثنتين وعشرين سنة"! وشيخاً هنا، مسحوقاً، متجمداً، معلّماً... "عند ذلك التاجر، هذا إذا وُجد ذلك التاجر" (بالفرنسية).

وصاح ستيفان تروفيموفتش قائلاً وهو ينهض لأنه أحس بالأرض رطبةً تحت ركبتيه:

ـ ولكنك مبتلة يا ليزا! وكيف يمكن هذا؟ أبهذه الملابس؟... وسيراً على القدمين؟... وسط الحقول؟... إنك تبكين! "أأنت شقية؟" (بالفرنسية). آ... نعم... سمعت... ولكن من أين أنت الآن آتية؟

كان يلقي عليها هذه الأسئلة وجلَ الهيئة، ملقياً على مافريكي نيقولايفتش نظرات دهشة. وأردف يسأل:

ـ ولكن هل تعلمين كم الساعة الآن؟

قالت ليزا:

ـ ستيفان تروفيموفتش، هل سمعت عن أولئك الأشخاص الذين قتلوا؟... أهذا صحيح؟... أهذا صحيح؟...

ـ أولئك الأشخاص! لقد لبثت الليل كله أتأمل حمرة لهيب جريمتهم. كان لا يمكن أن ينتهوا إلى غير هذا.

وسطعت عيناه من جديد. وواصل كلامه يقول:

ـ إنني هارب من هذيانهم. إنني أنتزع نفسي من كوابيسهم. إنني ماضٍ أبحث عن روسيا. أهي توجد، روسيا؟ آه... هذا أنت أيها الكابتن العزيز! لم يساورني أبداً شك في أنني سأراك في يوم من الأيام تحقق عملاً نبيلاً. ولكن خذي مظلتي. ثم لماذا السير على الأقدام؟ ناشدتك الله! خذي مظلتي على

الأقل! وسأجد في النهاية عربةً تقلني. لقد رحلت سيراً على القدمين لأن ستازي (يريد أن يقول ناستاسيا) كان يمكن أن تهيج الشارع كله لو عرفت أنني راجل. لقد تسللت مجهولاً. إن جريدة "الصوت" ملأى بقصص عن قاطعي طرق. ولكن يستحيل، في ما أظن، أن أقع على واحدٍ من قطاع الطرق فور سيري في الطريق. عزيزتي ليزا، يخيَّل إليَّ أنك قلت منذ هنيهة أن أحداً قُتل، أليس كذلك؟ رباه! إنها يُغمى عليها.

هتفت ليزا تقول بحرارة وهي تجر مافريكي نيقولايفتش من جديد:

ـ هيَّا بنا، بسرعة! يا ستيفان تروفيموفتش، لحظة...

قالت ذلك و عادت إلى ستيفان تروفيموفتش. وتابعت تخاطبه:

ـ أريد أن أرسم عليك إشارة الصليب، أيها الرجل المسكين! لعل الأفضل أن توثق بالأغلال، و لكنني أوثر أن أباركك. أنت أيضاً صلِّ للمسكينة ليزا، قليلاً، من دون أن تتعب نفسك.

وعادت تخاطب مافريكي نيقولايفتش فقالت له:

ـ يا مافريكي نيقولايفتش، أعد إلى هذا الطفل مظلته. أعدها إليه حالاً. هلمَّ بنا... فلنمش!

ووصلا إلى المنزل المشؤوم بعد أن كان الجمهور الذي يحتشد في مكان الجريمة قد سمع كلاماً كبيراً عن ستافروجين وعن الفوائد التي يجنيها من مقتل امرأته. ومع ذلك ظل أكثر الناس هادئين صامتين. وإنما كان يضطرب ويصرخ بينهم عددٌ من السكارى والمندفعين، كذلك القفَّال الذي سبق أن تكلمت عنه. إن هذا القفَّال مشتهر بأنه رجل وديع مسالم، ولكنه يفقد صوابه تماماً حين يعصف به انفعال قوي، فلا يدرك عندئذٍ ماذا يفعل.

إنني لم أرَ وصول ليزا ومافريكي نيقولايفتش. فما كان أشدَّ دهشتي حين لمحتها في وسط الجمهور المحتشد، بعيداً عني! أما مافريكي نيقولايفتش، فإنني لم أميِّزه في اللحظة الأولى. جائز أن يكون الجمهور قد فصله عن الفتاة، فأصبح متخلّفاً عنها قليلاً. كانت ليزا تشق الحشد الغفير من دون أن ترى أو أن تسمع ما يجري حولها، كأنها مجنونة هاربة من المستشفى. لذلك

لم تلبث أن لفتت إليها الأنظار. فدوَّت عندئذٍ صيحات كثيرة، وصرخ أحدهم يقول فجأةً: "هذه آنسة ستافروجين!"، وقال صوت آخر: "لا يكفيهم أن يقتلوا الناس، وإنما يريدون أيضاً أن يروا جثثهم!".

وفجأةً رأيت ذراعاً ترتفع فوق ليزا وتهوي على رأسها. و سمعت في تلك اللحظة نفسها صيحةً رهيبة: إنه مافريكي نيقولايفتش يثب لنجدة الفتاة، ويضرب بجميع قواه الرجلَ الذي كان يفصله عن ليزا. ولكن القفَّال الذي كان وراءه أمسك يديه.

كان الاضطراب والازدحام يبلغان من الشدة أنني خلال بضع ثوان لم أستطع أن أرى شيئاً. أظن أن ليزا نهضت، ولكنها لم تلبث أن سقطت مرةً أخرى بضربةٍ جديدة. وابتعد الجمهور فجأةً فشكّل دائرةً حول ليزا الراقدة على الأرض ومافريكي نيقولايفتش المسعور النازف دماً، الذي كان يميل على الفتاة عاقفاً يديه. لا أتذكّر على وجه الدقة ماذا جرى بعد ذلك. ولكنني أتذكّر أن الناس حملوا ليزا. وركضت أنا وراءهم: كانت ليزا ما زالت تتنفس. بل لعلها لم تكن قد أُغمي عليها. واعتُقل القفَّال وثلاثة أفرادٍ آخرين. إن هؤلاء الثلاثة لا يزالون إلى اليوم يحتجّون ببراءتهم ويؤكّدون أنهم اعتُقلوا خطأً. ولعلهم صادقون. أما القفَّال فرغم أنه شوهد متلبساً بالجرم، لم يمكن أن يُستخرج منه شيء، بسبب اضطراب أفكاره. وحين دُعيت للشهادة، رغم أنني لم أرَ شيئاً كثيراً، أفدت بأن هذا القتل كان نتيجة تضافر ظروفٍ سيئة، وأن القتلة وقد هاجهم كل ما كانوا قد سمعوه، عدا أنهم سكارى، إنما تصرّفوا بغير وعي أو شعور، ولم يدركوا ما كانوا يفعلون. ولا يزال هذا رأيي إلى اليوم.

الفصل الرابع

قرار أقصى

1

إن أشخاصاً عدة التقوا ببطرس ستيفانوفتش في ذلك الصباح. وقد تذكروا في ما بعد أنه بدا لهم مهتاجاً اهتياجاً شديداً.

وفي الساعة الثانية بعد الظهر مرَّ بمسكن جاجانوف الذي وصل أمس من الريف. كان البيت مليئاً بالناس، وكان هؤلاء يناقشون أحداث المدينة بحرارةٍ واندفاع. وقد تحدّث بطرس ستيفانوفتش أكثر مما تحدث الآخرون، واستطاع أن يحملهم على الإصغاء إليه. إن الناس عندنا كانوا دائماً يعدّونه "طالباً ثرثاراً مختلاً بعض الاختلال"، ولكنه أدار الحديث على جوليا ميخائيلوفنا، فكان ذلك موضوعاً مثيراً للاهتمام، في وسط تلك البلبلة العامة الشاملة. وقد ذكر عن جوليا ميخائيلوفنا، بصفته من خلصائها المقرَّبين، عدداً من التفاصيل الجديدة غير المتوقعة. ونقل كذلك (كأنما عن طيش ومن دون أن يريد ذلك) عدداً من أحكامها على بعض الأشخاص المرموقين، فكان من شأن هذا طبعاً أن قَرَصَ كبرياء الحاضرين منهم. وكان يعبِّر عن نفسه بكلامٍ مبهم مقطَّع مفكَّك. لذلك أشعر الناس بأنه رجلٌ قليل المكر لكنه شريفٌ، اضطر أن يشرح دفعةً واحدةً طائفةً من أنواع سوء التفاهم، فهو لسذاجته الخرقاء لا يعرف من أين يبدأ وأين ينتهي. وقد أفلت من لسانه قوله بغير حذر: إن جوليا ميخائيلوفنا كانت على علمٍ بسرّ ستافروجين، وأنها هي التي حبكت المؤامرة التي كان بطرس ستيفانوفتش هو نفسه ضحيةً لها، لأنه

كان هـو أيضـاً مغرماً بحب تلك المسـكينة ليزا. وقد بلغـت من إحكام حبك المؤامرة أنه هو، بطرس سـتيفانوفتش قد تولى بنفسه "تقريباً" إيصال ليزا إلى سـتافروجين بالعربة. "نعم، يا سادة، إنه لسهلٌ عليكم أن تضحكوا! ولكن لو أننـي عرفـت، لو أنني عرفت، ما سـتؤول إليه الأمور!". وجواباً عن الأسـئلة القلقـة التـي ألقوها عليه بصدد سـتافروجين صـرَّح بقوله إنـه يعتقد أن مقتل لبيادكين لم يكن إلّا مصادفةً محضاً، وأن لبيادكين كان ضحية حماقته نفسها، لأنـه راح يتباهـى فـي كل مكان بـأن عنده مـالاً. وقد بدت تعليـلات بطرس سـتيفانوفتش فـي هـذا الصدد واضحـةً جداً. ومـع ذلك علّق أحد مسـتمعيه علـى كلامـه قائلاً: "هذا تمثيـل لا ينطلي على أحد": لقد شـرب وأكل حتى لقـد نام عند جوليا ميخائيلوفنا إن صـح التعبير، وها هو ذا رغم ذلك أول من يقول فيها سوءاً. ليس ذلك بالأمر المستحسن منه كما قد يُظن. ولكن بطرس ستيفانوفتش دافع عن نفسه بلهجةٍ وفورةٍ جداً يقول:

ـ إذا أكلـتُ وشـربتُ عندهـا، فليس ذلك عن عـوز. أأكون مذنبـاً إذا هي دعتنـي دائمـاً؟ اسـمح لي أن أكون بنفسـي حكماً على ما يجـب لها عليَّ من شكر وامتنان!

كان الشـعور العـام مؤيداً له على وجـه الإجمال. "إنه لـم يختـرع البارود طبعـاً، ولكـن لا يمكـن أن يُعدَّ مسـؤولاً عـن حماقـات جوليـا ميخائيلوفنا. بالعكس كان في ما يبدو يحاول أن يكبح جماحها...".

في نحو الساعة الثانية سرت إشاعة على حين فجأة تقول إن ستافروجين قد سـافر إلى بطرسبرج في قطار الظهر. وقد أثار هذا النبأ فضولاً قوياً، حتى إن بعضهم اكفهر وجهه. أما بطرس ستيفانوفتش فقد بلغ من الاضطراب للنبأ أنه غيَّر سـحنته في ما يقال، وصرخ يسـأل: "من ذا الذي تركه يسـافر؟". ولم يلبـث أن غـادر الحفل فوراً. ولكنه رؤي في منزلين آخرين أو في ثلاثة منازلِ أخرى.

وفي نحو المسـاء استطاع أن ينفذ إلى عند جوليا ميخائيلوفنا، بغير قليلِ من العناء، لأنها كانت ترفض رفضاً قاطعاً أن تلقاه. إنني لم أعلم بهذه الزيارة

إلّا بعد ثلاثة أسابيع، وذلك من جوليا ميخائيلوفنا نفسها قبيل رحيلها إلى بطرسبرج وهي لم تطلعني على التفاصيل، ولكنها اعترفت وهي ترتعش بأنه في تلك الزيارة قد "أدهشها إدهاشاً يفوق كلَّ حد". أظن أنه هدّدها بأن يشي بها شريكةً إذا هي تكلّمت. لقد كان صمت ميخائيلوفنا لا غنى عنه إطلاقاً لمشاريع بطرس ستيفانوفتش التي كانت المرأة المسكينة تجهلها طبعاً. ولم تدرك جوليا إلّا بعد خمسة أيام لماذا كان يحرص ذلك الحرص كله على أن تصمت و لماذا كان يخشى أن يتجلى استياؤها صريحاً.

وفي نحو الساعة الثامنة من المساء، حين خيَّم الظلام كاملاً، كان "أصحابنا" يجتمعون كلهم، هم الخمسة، في مسكن الضابط حامل الراية، إركل، الذي كان يقيم في منزلٍ صغير بأقصى المدينة يوشك أن يتداعى. إن بطرس ستيفانوفتش نفسه هو الذي دعا إلى عقد هذا الاجتماع. ولكنه تأخر عن الموعد فلم يصل حتى الآن، فأعضاء الحلقة ينتظرونه منذ ساعةٍ كاملة. إن إركل هو ذلك الضابط نفسه الذي لبث في سهرة فرجنسكي جالساً طوال الوقت أمام دفتر الملاحظات، وفي يده قلم رصاص. إنه مقيم عندنا منذ مدةٍ قصيرة، وهو يقطن في شارعٍ صغير صامت، لدى أختين عانسين. وكان يقول إنه سيغادر مدينتنا بعد وقتٍ قصير. لقد عُقد الاجتماع في بيته لأن عقد الاجتماع في هذا المكان غير معرَّضٍ لأن يلاحظ كما يمكن أن يلاحظَ في مكانٍ آخر. و لقد كان هذا الفتى الغريب صموتًا صمتاً خارقاً: كان يمكن أن يقضي عشر سهراتٍ متتاليات في مجتمع يبلغ أقصى درجات الحركة والحماسة، وأن يستمع إلى أحاديث طويلة تبلغ أقصى درجات الجلبة والصخب، من دون أن ينبس بكلمةٍ واحدة، وإنما هو ينصت إلى المتحدّثين ساكتاً، منقِّلاً بينهم عينيه اللتين تشبهان عيني طفل، متفرساً فيهم بانتباه. وكان له وجه جميل لا يخلو من ذكاء. إنه ليس واحداً من حلقة "الخمسة" التي كان أعضاؤها يعدّونه مكلفاً بمهمة خاصة تنفيذية لا أكثر. ولكننا نعلم الآن أنه لم يكن مكلفاً بأية مهمة. ولعله هو نفسه كان لا يدرك وضعه إدراكاً واضحاً. لقد كان يكفيه أن يعبد بطرس ستيفانوفتش الذي عرفه منذ مدة قصيرة. يميناً لو

التقى إركل بأيِ مخلوقٍ شـاذ، فاسـتطاع هذا المخلوق الشـاذ أن يضفي على حديثه إليه ثوباً اشـتراكياً رومانسـياً ما، في سـبيل أن يدفعه إلى تأليف عصابةٍ من قطاع الطرق، ثم أمره من أجل وضعه في موضع الاختبار أن يقتل ويسلب أول فـلاحٍ قـادم، لانصاع إركل للأمـر الذي صدر إليه ولنفَّـذه بغير أي تردد. كانـت أمه المريضة تعيش في الريف، وكان يرسـل إليها نصف راتبه الهزيل. فما كان أعظم شـوق الأم إلى تقبيل هذا الرأس الأشـقر، وما كان أشـد قلقها عليه، وما كان أقوى حبّها له. لا شك أنها كانت تدعو له كثيراً!

كان "أصحابنـا" مضطربيـن اضطراباً شـديداً. لا شـك أن أحـداث الليلة البارحة قد أدهشتهم وروَّعتهم. إن الفضيحة التي ساهموا في إحداثها راضين قد انتهت إلى خاتمةٍ لم تكن في الحسبان قط. فحريق الليل، ومقتل لبيادكين، وتهشـيم ليزا، كل ذلك مفاجـآتٌ لم تكن جزءاً مـن برنامجهم. إنهم يتهمون بطرس سـتيفانوفتش بالاسـتبداد ويأخذون عليه بكثير من المـرارة أنه يخفي عنهـم الأمـور. الخلاصة أنهم بانتظـار وصول بطرس سـتيفانوفتش قد بلغوا من الحنق أنهم قرروا أن يسـألوه إيضاحاتٍ قاطعة، وأن يطلبوا منه تفسـيراتٍ فاصلة. فإذا راوغ مرةً أخرى، فسـوف يحلون حلقتهم، وسـوف ينشئون بدلاً منها جمعيةً سريةً جديدةً ترمي إلى هدفٍ واحد هو "الدعاية للأفكار"، وتقوم على قواعد المسـاواة والديموقراطية. وكان ليبوتين وشـيجالوف والشخص الذي يقول إنه يعرف الشـعب الروسـي حـق معرفته، يؤيدون هذا المشـروع بحرارةٍ وحماسـة، وكان ليامشـين صامتاً ولكن هيئته تعبر عن تأييدٍ وتحبيذ. أما فرجنسـكي فكان لا يزال متـردداً، وكان يلح على ضرورة انتظار الإيضاح من بطرس سـتيفانوفتش. وتقرر أخيراً أن يُفسـح لبطرس ستيفانوفتش مجال الإيضـاح. ولكـن بطرس سـتيفانوفتش ما يـزال متأخراً عـن الحضور، فكان إهمالـه هذا يصب على النار زيتاً. وكان إركل صامتاً يحضّر الشـاي ويقدمها بنفسه في أقداح على صينية حتى لا تدخل الخادمة الغرفة.

لـم يصل بطرس سـتيفانوفتش إلّا في السـاعة التاسـعة والنصف. وها هو ذا يتقـدم بخطى سـريعة نحـو المائدة المسـتديرة التـي جُعلت أمـام الديوان

وتحلّقت حولها الجماعة. وقُدِّمت إليه قدحٍ من الشاي لكنه رفضها. وكان وجهه يُعبِّر عن حنق وقسوة وتكبر. لعله أدرك من هيئة الحاضرين فوراً أن الحلقة "تتمرّد".

قال وهو يبتسم ابتسامةً صفراء ويطوف ببصره على الوجوه:

ـ قبل أن أفتح فمي، أفرغوا ما في أنفسكم من كلام!

فانبرى ليبوتين يتحدث "باسم الجميع" فقال بلهجةٍ مستاءة "إن الاستمرار على هذا الأسلوب يهدد كل واحدٍ بتحطيم جبهته". ونحن لا نخشى أبداً أن تتحطم جباهنا، لا، بل إننا مستعدون لهذا أتم الاستعداد، ولكن على شرط أن يكون الهدف هو خدمة العمل المشترك وحده.

هنا قام أفراد الجماعة بحركات شتى تنم عن التأييد. وتابع ليبوتين كلامه فقال: فيجب إذًا أن تكون صريحاً مع أعضاء الجماعة ليعرفوا سلفاً إلى أين هم سائرون، وإلا فما عسى يحدث؟".

هنا أيضاً ظهرت حركات تأييد وقامت دمدمات شتى. وواصل ليبوتين كلامه يقول: إن هذا التصرف يشتمل على إذلال، كما أنه محفوفٌ بالخطر. "ليس معنى ذلك أننا خائفون. ولكن إذا عمل فردٌ واحد بينما الآخرون لا يزيدون على أن يكونوا بيادق شطرنج يحركها كما يشاء، فإنه سيورِّطهم جميعاً في ما لا يد لهم فيه".

"نعم، نعم!". كذلك تعالت أصوات الآخرين مؤيدةً.

ـ ماذا تريدون مني؟

ـ ما شأن المكائد الصغيرة التي يديرها ستافروجين بالعمل المشترك والقضية العامة؟

كذلك تابع ليبوتين كلامه سائلاً باستياء. وأردف يقول:

ـ ربما كان عضواً في اللجنة المركزية ـ هذا إذا كان لتلك اللجنة السرية العجيبة وجودٌ حقاً ـ ولكننا لا نريد أن نعرف من ذلك شيئاً. غير أن جريمة قتل قد ارتكبت، والشرطة تبحث القضية، فإذا تابعت الخيط إلى آخره وصلت إلينا.

قال تولكاتشنكو الرجل الذي يعرف الشعب الروسي حق معرفته، قال مضيفاً إلى كلام ليبوتين:

ـ إذا أُخذت مع ستافروجين، فسوف نؤخذ نحن أيضاً.

وقال فرجنسكي يختم الحديث:

ـ وسوف نؤخذ بدون أية فائدة تعود على قضيتنا المشتركة.

ـ يا للحماقة! إن جريمة القتل هذه لا ترجع إلّا إلى المصادفة. إن فدكا هو الذي فعل هذه الفعلة ليسلب الكابتن ما معه من مال.

قال ليبوتين معقِّبا، وهو يحرِّك قسمات وجهه بمعنى التهكم:

ـ همْ!... مصادفة عجيبة مع ذلك.

ـ ثم إن الخطأ خطأكم على كل حال.

ـ خطأنا نحن؟ كيف هذا؟

ـ أولاً: لقد شاركت أنت نفسك في تدبير الحيلة يا ليبوتين. والأخطر من هذا ثانياً أنني أمرتك بترحيل لبيادكن إلى بطرسبرج، حتى لقد أعطيتك المال اللازم. فماذا فعلت؟ لو أنك رحَّلته لما حدث شيء مما حدث.

ـ ولكن ألست أنت الذي أوحيت إليّ فكرة حمله على قراءة أشعارٍ في الصبيحة الأدبية؟

ـ إذا أوحيت إليك فكرة فليس معنى ذلك أنني أصدرت إليك أمراً. إن الأمر الذي أصدرته إليك هو أن ترحِّله.

ـ "الأمر" الذي أصدرته إليِّ؟ يا له من تعبيرٍ غريب... إن الواقع هو نقيض هذا: لقد أمرت بالتريث، وإرجاء رحيله.

ـ أخطأتَ الفهم، وبرهنتَ على أنك شديد الحماقة وعلى أنك لا تتقيد بالنظام. إن جريمة القتل كانت من فعل فادكا. وقد تصرّف من تلقاء نفسه بغية الاستيلاء على مال الكابتن. وأنت سمعت أقاويل فصدَّقتها فوراً، فخفت. ليس ستافروجين غبياً إلى هذا الحد. والبرهان أنه سافر ظهر هذا اليوم بعد أن قابل نائب الحاكم. فلو كان هناك ما يدعو إلى الاشتباه فيه، لما أُذن له بالسفر في وضح النهار.

استأنف ليبوتين كلامه بلهجةٍ تشتمل الآن على حقدٍ وتخلو من التحرج:
ـ نحن لا نقول البتة إن السيد ستافروجين قتل بيديه. حتى ليمكن أن يكون جاهلاً بكل شيء، مثلي أنا. إنك لتعلم علم اليقين أنني كنت أجهل كل شيء، وها أنا ذا مع ذلك قد أُقحمت في الفخ.
ـ فمن ذا تتهم إذًا؟
كذلك سأله بطرس ستيفانوفتش مربدَّ الوجه.
فأجابه ليبوتين:
ـ أتهم أولئك الذين يحرقون المدن.
ـ أنكى ما في الأمر أنك تمكر وتراوغ. على كل حال، أرجو أن تحمِّل نفسك عناء قراءة هذه الورقة، وأن تنقِّلها بعدئذٍ بين الآخرين من باب العلم بالشيء.
قال بطرس ستيفانوفتش ذلك واستل من جيبه رسالة غير مذيلة باسم صاحبها (وهي رسالة كان لبيادكين قد كتبها إلى لمبكه)، ومدَّها إلى ليبوتين. فقرأها ليبوتين ثم ناولها جاره ذاهلَ الهيئة. ولم تلبث الرسالة أن طافت على الحضور جميعاً.
سأل شيجالوف:
ـ أهذا خط لبيادكين حقاً؟
فقال ليبوتين وتولكاتشنكو مؤكدين:
ـ نعم، هو خط لبيادكين.
قال بطرس ستيفانوفتش وهو يعيد الرسالة إلى جيبه:
ـ لم أطلعكم على الرسالة إلّا لتكونوا على علم، ولأنني رأيت أنكم ترثون لمصير لبيادكين. هكذا يكون فدكا قد خلَّصنا إذًا من رجلٍ خطر إلى أقصى حدود الخطر. هناك مصادفاتٌ غريبةٌ أحياناً. أليس هذا بليغ الدلالة يا سادة؟
تبادل أعضاء الحلقة نظرةً سريعةً.
قال بطرس ستيفانوفتش وقور الهيئة:
ـ والآن يا سادة جاء دوري أنا لأسألكم. كيف أبحتم لأنفسكم أن تشعلوا

الحريق في المدينة بدون إذني.

ـ ماذا؟ أنحن أشعلنا الحريق في المدينة؟

تابع بطرس ستيفانوفتش يقول من دون أن يقيم وزناً لسؤالهم المتعجب:

ـ أفهم أن تكونوا قد اندفعتم فتطرفتم وأسرفتم. ولكن الأمر ليس أمر فضيحةٍ صغيرةٍ في هذه المرة. لقد جمعتكم هنا أيها السادة لأريكم مدى الخطر الذي أدت حماقتكم الشديدة إلى وضعه فوق رؤوسكم والذي يهدّد مصالح أخرى غير مصالحكم أنتم.

هتف فرجنسكي يقول مستاءً وكان قد ظل ساكتاً حتى ذلك الحين:

ـ اسمح لي. نحن الذين كنا ننوي أن نحتج على استبدادك وطغيانك اللذين فرضا هذا التدبير الغريب العجيب الخطير!

ـ إذًا أنتم تنكرون، ولكنني أنا أؤكد أنكم أنتم أحرقتم المدينة. لا تكذبوا أيها السادة. إنني أملك معلوماتٍ دقيقة. إن عدم انضباطكم يجعل القضية المشتركة والعمل المشترك في خطر. ما أنتم إلّا حلقةٌ واحدة في شبكةٍ واسعة، فيجب أن تخضعوا للجنة المركزية خضوعاً أعمى. ومع ذلك فإن ثلاثة منكم لم يصدر إليهم أي أمر في هذا الموضوع هم الذين دفعوا عمال مصنع شبيجولين إلى إشعال النار في المدينة، فشبَّ الحريق.

ـ من هم هؤلاء الثلاثة؟ اذكر أسماءهم!

ـ أمس الأول، في الساعة الثالثة من الصباح، في كاباريه "ميوزوتس"، قمتَ أنت يا تولكاتشنكو بتحريض زافيالوف.

قال تولكاتشنكو منتفضاً:

ـ اسمح لي. أنا لم أكد أقول إلّا كلمةً واحدةً في هذا الصدد، ولم أكن أنتوي أي شيء معيَّن محدَّد، ولم أتكلم إلّا لأنه كان قد جُلد في الصباح. ثم سرعان ما تركته إذ لاحظت أنه سكران. ولولا أنك ذكَّرتني بهذا الحادث الآن، لما خطر ببالي من تلقاء نفسه في لحظةٍ من اللحظات. إن كلمةً تقال عرضةً ومصادفةً لا يمكن أن تشعل النار في مدينة.

ـ أنت أشبه بإنسانٍ يدهشه كثيراً أن تفجِّر شرارةٌ مخزن بارود.

هتف تولكاتشنكو يقول:
ـ لقد كلمته بصوتٍ خافت، همساً في أذنه، وكنا في آخر الصالة. فكيف علمت بالأمر؟
ـ كنت مختبئاً تحت المائدة. لا تخشوا شيئاً أيها السادة. إنني أعرف كل واحد منكم. أراك تبتسم ساخراً يا سيد ليبوتين. طيب. أنا أعلم مثلاً أنك منذ ثلاثة أيام، في منتصف الليل، حين رقدت على فراشك، قرصت زوجتك حتى أدميتها.
فغر لبيوتين فاه من الدهشة واصفرَّ لونه.
(وقد عُلم في ما بعد أن بطرس ستيفانوفتش قد علم بفعلة ليبوتين هذه من آجافيا، خادمة ليبوتين التي كانت منذ البداية تتجسس لبطرس ستيفانوفتش).
سأل شيجالوف وهو ينهض فجأةً:
ـ هل أستطيع أن أقرر واقعةً؟
ـ افعل.
فعاد شيجالوف يجلس، وفكَّر لحظةً، ثم قال:
ـ إذا كان ما فهمته صحيحاً ـ ومن المستحيل أن لا يكون صحيحاً ـ فإنك قد قلت منذ البداية ثم كررت مرةً أخرى، متكلماً بكثير من البلاغة والفصاحة، وإن يكن كلامك نظرياً، أن هناك شبكة تغطي روسيا كلها وأن جماعتنا ليست إلّا حلقة في هذه الشبكة. فكل جماعةٍ من هذه الجماعات، وهي جزء من الحزب الذي يتفرع ويتفرع إلى غير نهاية، يجب عليها أن تقود بدعايةٍ منظمة تقوِّض السلطات المحلية، وتنشر الاضطراب في الأرياف، وتثير الفضائح، وتذكي الرغبة في حالٍ أفضل، وكذلك تعمد إلى إشعال الحرائق التي هي وسيلةٌ شعبيةٌ جداً، لتغرق البلاد في وهدة اليأس في الوقت المناسب. أهذه أقوالك نفسها حاولت أن أحفظها كلمةً كلمةً أم لا؟ أهذا هو برنامجك الذي نقلته إلينا بصفتك عضواً في لجنةٍ مركزية لا نعرفها بعد، وتكاد تبدو لنا قائمةً في عالم الغيب؟
ـ هذا صحيح. و لكن ما أطول إسهابك؟

ـ لكل إنسانٍ أن يعبِّر عما بنفسه كما يشاء. إنك حين أفهمتنا أن الشبكة التي تغطي روسيا كلها تُعدّ منذ الآن بمئات الحلقات، وحين أفهمتنا أنه إذا قامت كل حلقةٍ من هذه الحلقات بواجبها، فإن روسيا كلها، فإن روسيا كلها، بإشارةٍ واحدة...

ـ شيطانٌ يأخذكم جميعاً! إن على عاتقي أعباء كافية، بدون أن تزيدوها أنتم...

كذلك قال بطرس ستيفانوفتش وهو يتحرك على مقعده.

قال شيجالوف:

ـ طيب. سأوجز. وسأكتفي بأن ألقي عليك السؤال التالي: لقد شهدنا هنا فضائح منذ الآن، ورأينا استياء الأهالي، وحطمنا سلطة الإدارة المحلية، وشهدنا حريقاً. فممَّ استياؤك إذًا؟ أليس هذا برنامجك؟ ما الذي تستطيع أن تأخذه علينا؟

ـ آخذ عليكم عدم خضوعكم!

كذلك صرخ يقول بطرس ستيفانوفتش. وتابع كلامه فقال:

ـ ما دمت أنا هنا فإنه لمحظورٌ عليكم أن تتصرفوا بدون إذنٍ مني. كفى! سيوشى بنا غداً بل ربما الليلة، وسنعتقل جميعاً. ذلك ما أردت أن أقوله لكم. معلوماتي أكيدة.

أذهلهم هذا النبأ بل صعقهم.

ـ سيوشى بنا من حيث إننا مشعلو حرائق، ومن حيث أننا ثوريون. إن الواشي يعرف جميع التفاصيل. هذه ثمرة حماقاتكم!

صاح ليبوتين يقول:

ـ هو ستافروجين حتماً.

ـ ستافروجين؟... لماذا؟...

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وجمد. ولكنه لم يلبث أن ثاب إلى نفسه. ثم قال:

ـ بل هو شاتوف. أظن أنكم تعلمون جميعاً أن شاتوف كان في الماضي

عضـواً بالجمعية. ويجب عليَّ أن أقول لكم إنني قد كلفت بمراقبته أناسـاً لا يُرتاب في أمرهم، فما كان أشـد دهشـتي حين عرفت أن تنظيم شـبكتنا ليس سـراً خافياً عليه... وأنه يعلم كل شـيء!... ومن أجل أن يجعل السلطة تعفو عن اشـتراكه في الجمعية، فإنه سـوف يشـي بالجميع. ولقـد كان يتردد حتى الآن، وكنـت أنـا أداريه. أما الآن فإنكم بالحريق قـد أطلقتم يديه، وحررتموه من التردد، فعزم أمره، ولن يصده عن الوشـاية بنا شـيء. سـنُعتقل جميعاً في الغد، بصفتنا مشعلي الحرائق وبصفتنا مجرمين سياسيين.

ـ ولكن هل هذا صحيح؟ كيف يعرف شاتوف؟

كان الانفعال الذي سيطر على أعضاء الجماعة لا يوصف.

ـ هـذا صحيـح كل الصحـة. ليـس مـن حقـي أن أطلعكم على الوسـائل التي اسـتعملتها، ولا أن أذكر لكم كيف اكتشـفت كل شـيء. إليكم مع ذلك ما لا أزال قادراً على فعله لكم: إنني أسـتطيع، بواسـطة شـخصٍ ما، أن أؤثر في شـاتوف من دون أن يشتبه في الأمـر، فأحمله على إرجاء الوشـاية أربعاً وعشـرين سـاعةً. ففي وسـعكم إذًا أن تعدوا أنفسـكم في مأمن حتى الصباح من بعد غد.

ساد الصمت دقيقةً.

ثم صاح تولكاتشنكو فجأةً يقول:

ـ فلنرسل شاتوف إذًا إلى جهنم!

فتدخل ليامشين قائلاً بصوت حانق وهو يضرب المائدة بقبضة يده ضربةً قوية:

ـ هذا ما كان ينبغي أن نفعله منذ مدةٍ طويلة.

فدمدم ليبوتين سائلاً:

ـ كيف؟

فأسـرع بطـرس سـتيفانوفتش يتلقـف الكـرة ويعـرض خطتـه، فيقول إن المطلـوب هو اسـتدراج شـاتوف غداً عنـد هبوط الليـل إلى المـكان النائي الذي دفن فيه آلة الطباعة، بحجة اسـتردادها. فمتى وصل شـاتوف إلى هناك

"تفعلون اللازم". وقد دخل بطرس ستيفانوفتش في تفاصيل سأسكت عنها الآن، وعرض وضع شاتوف في الجمعية، وهو وضع ملتبس كما يعرف القارئ.

قال ليبوتين بصوتٍ متردد:

ـ هذا كله حسن، ولكن حكاية القتل الجديدة هذه... سوف تبلبل الأذهان...

فأجابه بطرس ستيفانوفتش مؤيداً:

ـ حتماً. ولكن هذا أيضاً محسوب. إننا نملك الوسيلة التي تمكننا من أن نصرف عنا الشبهات تماماً.

وبذلك الوضوح نفسه تكلم عن كيريلوف، وعن اعتزامه الانتحار، وذكر أن كيريلوف لن ينتحر إلّا في اللحظة المطلوبة، وأنه سيترك رسالةً يتهم فيها نفسه بكل ما يطلب إليه أن يتهم به نفسه (إن القارئ مطلع على هذه الأمور كلها).

وأضاف بطرس ستيفانوفتش معقباً:

ـ إن اعتزام كيريلوف الانتحار، وهو اعتزامٌ قاطعٌ يفسِّره هو تفسيراً فلسفياً ولكنه ليس في رأيي إلّا محض جنون، معروفٌ "هناك". و"هناك" لا يدعون لشيء أن يضيع، لا يتركون لشعرة أن تُفلت، بل لا يسمحون لذرة غبار أن تذهب سدىً. إن كل شيء يمكن أن يفيد عملنا المشترك. وهكذا فإن "اللجنة" إذ تنبأت بالفائدة التي يمكن أن تجنى من انتحاره، وإذ اقتنعت بأن نية الانتحار لديه جدٌ لا هزل، قد أعطته مالاً ليعود إلى روسيا (ذلك أن كيريلوف ـ لا أدري لماذا! ـ يحرص حرصاً مطلقاً على أن يموت بروسيا)، وعهدت إليه بمهمة تكفل بإنفاذها، وهو ينفذها فعلاً، وتعهَّد عدا ذلك بأن لا يطلق الرصاص على رأسه إلّا حين يصدر إليه الأمر بهذا. لاحظوا أنه يريد أن ينفع المجتمع. لا أستطيع أن أقول لكم أكثر من ذلك. ففي الغد، "بعد شاتوف"، سأملي عليه رسالةً يصرِّح فيها بأنه هو الذي قتله. وسوف يظهر هذا الأمر معقولاً: فقد كان الرجلان صديقين، وقد سافرا معاً إلى أمريكا

وتشاجرا هناك... سوف يذكر هذا كله في الرسالة... و... حتى لقد يمكننا، إذا كانت الظروف مواتيةً، أن نملي على كيريلوف أشياء أخرى أيضاً... في ما يتعلق بالمنشورات التحريضية مثلاً... بل في ما يتعلق بالحريق كذلك... على كل حال، سأفكر في الأمر مزيداً من التفكير. لا تخشوا شيئاً: إنه متحرر من الأوهام الاجتماعية الباطلة، وسوف يوقِّع كل شيء يمكن أن نمليه عليه.

أظهر الحضور بعض الشكوك. إن هذا كله يبدو عجيباً كأنه الخيال. ومع ذلك كانوا قد سمعوا جميعاً عن كيريلوف، ولا سيما ليبوتين.

فقال بطرس ستيفانوفتش قاطعاً:

ـ لا تقلقوا أيها السادة. سوف يقبل. وبمقتضى الاتفاقات التي تمت بيننا، يجب أن أبلغه الأمر قبل موعد التنفيذ بيوم، أي يجب أن أبلغه في هذا اليوم. لذلك اقترح أن يصحبني ليبوتين، ويشهد لقاءنا، ويقول لكم عند عودته، في هذا اليوم نفسه، أأنا ذكرت لكم الحقيقة أم لا.

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك ثم أسرع يضيف في حنق، كأنه أحسَّ أنه بمحاولة إقناع هؤلاء الناس الصغار يهب لهم شرفاً عظيماً لا يستحقونه:

ـ على كل حال، افعلوا ما تشاؤون! فإذا لم تعزموا أمركم فقد انفرط عقدكم وانفكت رابطتكم، وكان ذلك كله إنما يرجع إلى عدم طاعتكم وإلى خيانتكم. وبعد تلك اللحظة، يمضي كل منا في سبيله ولكن اعلموا أنكم مهدَّدون عندئذٍ بالنتائج التي ستترتب على وشاية شاتوف بكم، وأنكم مهددون عدا ذلك بانزعاج سبق أن نُبّهتم إليه عند إنشاء هذه الحلقة. إنني، من جهتي، لا أخشاكم كثيراً أيها السادة... لا تظنوا أن مصيري مرتبطٌ بمصيركم... على كل حال، ليس لهذا كله من قيمة...

قال ليامشين:

ـ نحن عازمون على العمل.

ودمدم تولكاتشنكو قائلاً:

ـ ليس هناك حلٌ آخر، وإذا أكَّد ليبوتين أقوالك عن كيريلوف...

هنا صاح فرجنسكي يقول وهو ينهض:

ـ أنا معارضٌ! إنني أحتج احتجاجاً شديداً على هذا القرار الدموي.

ـ ولكن؟

كذلك سأله بطرس ستيفانوفتش. فقال فرجنسكي:

ـ ماذا "ولكن"؟

ـ أنت قلت "ولكن"، وأنا أنتظر أن تتم كلامك...

ـ أظـن أنني لم أقل "ولكن"... وإنما قصدت أنني إذا اتخذتم هذا القرار، سوف...

ـ سوف ماذا؟

صمت فرجنسكي.

وتدخَّل إركل فجأةً فقال:

ـ قد لا يكترث الإنسان بأمنه وسلامته، ولكن إذا كان الأمر يضرّ بالقضية، فلا يحق للمرء عندئذٍ أن يهمل أمنه وسلامته...

وارتبك إركل وسكت. ونظر الجميع إليه مدهوشين، رغم انشغال بال كلٍ منهم بمصيره الشخصي. ذلك أنهم لم يألفوا أن يفتح إركل فمه بكلمةٍ أبداً.

قال فرجنسكي:

ـ في سبيل القضية، أنا مستعدٌ لكل شيء.

ونهضوا. وتقرر أن لا يُعقد اجتماعٌ في الغد، ولكن أعضاء الحلقة سيُطلعون على الوضع ظهراً، وسيُتفق عندئذٍ على التفاصيل. وشرح بطرس ستيفانوفتش أين توجد آلة الطباعة، ووزَّع على الأفراد أدوارهم واحداً واحداً، ثم مضى إلى كيريلوف يصحبه ليبوتين.

2

صحيحٌ أن "أصحابنا" أصبحوا مقتنعين بأن شاتوف يستعد للوشاية بهم، ولكنهم مقتنعون في الوقت نفسه بأن بطرس ستيفانوفتش يحرّكهم كما تُحرّك البيادق على رقعة الشطرنج. ومع ذلك كانوا يعرفون جميعاً أنهم سيذهبون

إلى المكان الذي حدّده لهم، وأن مصير شاتوف قد تقرر. يشعرون بسخطٍ وحنق، ولكنهم في الوقت نفسه يرتعشون خوفاً.

لا شك أن بطرس ستيفانوفتش قد أخطأ في حقهم. لقد كان يمكن تدبير الأمور كلها تدبيراً أقرب إلى الكياسة، وأدنى إلى اليسر والسهولة لو أنه كلَّف نفسه عناء تجميل الواقع ولو قليلاً. فبدلاً من أن يعرض لهم الوقائع عرضاً يظهر جانبها النبيل، كأن يحدثهم عن الرومانيين وعن تقيدهم بالنظام وتفانيهم في سبيل الوطن، عمد إلى التخويف وحده، فجعل كل واحدٍ منهم يخشى على جلده هو، وذلك شيءٌ يفتقر إلى اللطف والكياسة حقاً. صحيح أن كل شيء إنما يرتد إلى الصراع في سبيل الحياة، أي إلى تنازع البقاء، فذلك هو المبدأ الوحيد: هذا أمر يعرفه الجميع. ولكن، مع ذلك...

ولكن بطرس ستيفانوفتش لم يتسع وقته للاستعانة بالرومانيين. لقد كان هو نفسه في حالة تشوشٍ وحيرة. إن اختفاء ستافروجين قد بث في قلبه كثيراً من الاضطراب. كذب بطرس ستيفانوفتش حين قال إن نيقولاي فسيفولودوفتش قد تحدّث مع نائب الحاكم قبل أن يسافر. الواقع أن ستافروجين استقل القطار من دون أن يرى أحداً، حتى أمه. والشيء الغريب أن الشرطة لم تقلقه (حوسبت السلطات على ذلك في ما بعد). ولقد حاول بطرس ستيفانوفتش أن يستعلم عن ستافروجين، ولكنه لا يعرف حتى الآن شيئاً. لذلك كان مضطرباً أشد الاضطراب. هل كان يمكنه فعلاً أن يستغني هذا الاستغناء عن نيقولاي فسيفولودوفتش، وأن يذعن لفقده؟ ذلكم هو السبب في أنه لم يكن رقيقاً مع "أصحابنا"، لا سيما وأنهم كانوا يكبِّلون يديه: فلقد كان يريد في الواقع أن ينطلق ساعياً وراء ستافروجين على الفور. ولكن كان عليه أن يهتم بأمر شاتوف، وكان عليه أن يعزز ارتباط الخمسة بعضهم ببعض: "من يدري؟ قد أظل أستفيد منهم!". ذلك ما لعله كان يحدّث به نفسه.

زد على ذلك أنّ بطرس ستيفانوفتش كان مقتنعاً اقتناعاً تاماً بأن شاتوف يستعد للوشاية بهم. لقد كذب على "الخمسة": فالحق أنه لم ير تلك الوشاية

أبداً، ولا سمع عنها في يوم من الأيام ولكنه كان مقتنعاً بوجودها. كان يُخيَّل إليه أن شاتوف لن يستطيع احتمال الأحداث الأخيرة ـ موت ليزا، مقتل ماريا تيموفئفنا ـ وأنه سيعزم أمره أخيراً على أن يفعل. من يدري؟ لعل بطرس ستيفانوفتش كان من حقه أن يفكر هذا التفكير. ولقد عُرف منذئذٍ أنه يكره شاتوف كرهاً شخصياً، فهما قد تشاجرا مرةً في الماضي، وليس بطرس ستيفانوفتش الذي يغفر إهانةً في يوم من الأيام. بل إنني لمقتنع بأن هذا هو السبب الرئيس في المؤامرة التي دبَّرها لشاتوف.

إن أرصفة الآجر ضيقةٌ جداً في بعض الأماكن عندنا حتى لقد تنوب عنها ألواحٌ خشبيةٌ أحياناً. فكان بطرس يسير في وسط الرصيف فيشغله كله، غير مكترثٍ بليبوتين أي اكتراث، وكان ليبوتين مضطراً أن يركض وراءه أو أن تتخبط قدماه في وحل الشارع إذا هو أراد أن يكلمه. وتذكر بطرس ستيفانوفتش فجأةً كيف كان يحب هو نفسه هذا الخبب منذ بضعة أيام إلى جانب ستافروجين الذي كان هو أيضاً (مثل بطرس ستيفانوفتش في هذه اللحظة تماماً) يسير في وسط الرصيف فيشغله كله. فحين وافته ذكرى هذا المشهد كاد يختنق غضباً.

ولكن ليبوتين كان غاضباً هو أيضاً، في وسع بطرس ستيفانوفتش أن يتصرّف مع الآخرين كما يحلو له، ولكن لا معه هو، هو ليبوتين، الذي يعرف أكثر مما يعرفه الآخرون، ويرتبط بالتنظيم ارتباطاً أوثق، ويشارك فيه مشاركةً أعمق، وذلك منذ مدة طويلة. صحيحٌ أنه كان يدرك حق الإدراك أن بطرس ستيفانوفتش يستطيع حتى في هذه اللحظة أن يتخلّص منه، بل أن يضيِّعه إذا لزم الأمر. ولكنه كان قد أخذ يكره بطرس ستيفانوفتش منذ مدةٍ طويلة، بسبب موقف الغطرسة هذا الذي يقفه، وليس بسبب الأخطار التي يقوده إليها. أما الآن وقد تقرر قتل شاتوف، فإنه حانقٌ أكثر من سائر "أصحابنا" مجتمعين، ولكنه يعرف مع ذلك أنه سيشرع غداً في عمله أول واحد، "كعبدٍ ذليل"، بل إنه سيحمل عليه الآخرين. لذلك لا يساورني أي شك في أنه لو كان يستطيع أن يقتل بطرس ستيفانوفتش فوراً، من دون أن يهلك نفسه طبعاً، لفعل حتماً بغير تردد.

كان غارقاً في إحساساته ومشاعره، ملتزماً الصمت، يخبُّ وراء جلاده. وكان يبدو أن بطرس ستيفانوفتش قد نسيه تماماً. ولكنه يصدمه بكوعه من حينٍ إلى حين، من دون أن ينتبه إلى ذلك أي انتباه. وفجأةً وقف في شارعٍ من شوارعنا الصغيرة التي تحفل بالناس، ودخل أحد المطاعم.

هتف ليبوتين يسأله:

ـ إلى أين؟ ألا ترى أن هذا مطعم؟

ـ أريد أن آكل شريحةً من اللحم.

ـ المكان يغص بالناس هنا.

ـ لا يهمني.

ـ ولكن... سنصل متأخرين. الساعة قد بلغت العاشرة.

ـ يستطيع المرء أن يذهب إلى كيريلوف مهما يكن الوقت متأخراً.

ـ أنا الذي سوف أتأخر. إنهم ينتظرون عودتي.

ـ فلينتظروا! ومن الغباء أن تعود إليهم. إنني لم أصب غدائي اليوم بسببكم.

دخل بطرس ستيفانوفتش إلى حجرةٍ خاصة من المطعم. واضطر ليبوتين أن يجلس متنحياً على مقعد، غاضباً حانقاً، ينظر إليه وهو يأكل. دام ذلك أكثر من نصف ساعة. لم يتعجّل بطرس ستيفانوفتش، وكان واضحاً أنه يتلذذ بتناول طعامه. وقد رنَّ الجرس ينادي الخادم عدة مرات، فطلب منه بيرة ثم طلب خردلاً من نوعٍ خاص، كل ذلك من دون أن يتوجّه إلى ليبوتين بكلمةٍ واحدة. كان يبدو غارقاً في أفكاره العميقة، إنه قادر في الواقع أن يفعل شيئين في آنٍ واحد: يأكل بشهوةٍ ويفكر. وكان ليبوتين من فرط ما يشعر به من كرهٍ وبغض لا يستطع أن يحوِّل عنه بصره. شيء مرضي حقاً. كان يعدُّ كلَّ لقمةٍ من لقم شريحة اللحم، التي كان الآكل يحملها إلى فمه. إنه يكرهه لطريقته في فتح هذا الفم، لطريقته في مضغ الطعام، لتذوّقه اللقم الدسمة أكثر من غيرها، إنه يكره شريحة اللحم نفسها. واضطرب بصره أخيراً، وأخذ يشعر بدوار، وسرت في ظهره رعدات.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يرمي إلى ليبوتين ورقة:

ـ ما دمت لا تفعل شيئاً، فاقرأ هذا.

دنا ليبوتين من الشمعة. إن الورقة ملأى بكتابة مرصوصة، خطُّها لا يكاد يُقرأ وفيها شطب كبير. فلما انتهى ليبوتين من قراءة الورقة بغير قليل من الصعوبة، كان بطرس ستيفانوفتش قد فرغ من طعامه، ودفع الحساب، ونهض لينصرف.

وردَّ إليه ليبوتين الورقة في الشارع. فقال له بطرس ستيفانوفتش:

ـ بل احتفظ بها، سأشرح لك في ما بعد... ولكن ما رأيك على كل حال؟

فارتعش ليبوتين.

ـ رأيي أن منشوراً من هذا النوع... سخيفٌ، ومضحك!

لقد أصبح ليبوتين عاجزاً عن أن يحتمل أكثر مما احتمل، وأن يصبر مزيداً من الصبر، فكان يحس كأن شيئاً يُنهضه عن الأرض ويلقيه إلى أمام. واستطرد يقول وهو يرتعش حنقاً مسعوراً:

ـ إذا نحن قررنا أن نوزع منشوراتٍ من هذا النوع، فإن الناس جميعاً سيحتقروننا لغبائنا وجهلنا بالواقع.

قال بطرس ستيفانوفتش بلهجةٍ قاطعةٍ وهو لا يزال يتقدّم بخطًى ثابتة:

ـ همْ...أما رأيي أنا فرأي آخر...

ـ ذلك رأيي. هل يُعقل أن تكون أنت الذي كتبت هذا البيان؟

ـ لا شأن لك.

ـ أرى أيضاً أن قصيدة "البطل" قصيدةٌ رديئةٌ جداً كذلك، ولا يمكن أن يكون هرتسن هو الذي نظم هذه الأشعار.

ـ أنت تكذب: القصيدة رائعة.

قال ليبوتين نافضاً كلَّ ما كان يجيش في قلبه:

ـ يدهشني أن يُقترح علينا أن نعمل على تقويض كل شيء. في أوروبا طبيعيٌ أن يتمنى المرء أن يتقوّض كل شيء، لأن لديهم طبقة بروليتاريا، أما نحن فلسنا إلّا هواة ولا نزيد على أن نثير غباراً. ذلك هو رأيي.

ـ كنت أظن أنك من أتباع فورييه.
ـ الأمر عند فورييه مختلف، مختلفٌ تماماً.
ـ نعم، أعرف! ما آراء فورييه إلّا سخافات.
ـ لا، ليس عند فورييه سخافات... معذرةً، يستحيل عليَّ أن أصدِّق أن الثورة ستقوم في شهر أيار (مايو).

اضطر ليبوتين أن يحل أزراره من شدة ما كان يشعر به من حر.

قال بطرس ستيفانوفتش منتقلاً بهدوء محيِّر إلى موضوعٍ آخر:

ـ كفى. والآن ـ قبل أن أنسى ـ يجب عليك أنت أن تجمع هذا البيان وأن تطبعه. سوف نخرج مطبعة شاتوف من مدفنها، و نسلمها لك غداً. وعليك، بأقصى ما تستطيع من سرعة،أن تطبع لنا عدداً من النسخ لنوزِّعها أثناء الشتاء تنفيذاً للتعليمات الصادرة إلينا. عليك أن تطبع أكبر عددٍ ممكن من النسخ، لأن أقاليمِ أخرى. ستطلب منا نسخاً.

ـ لا، معذرةً... لا أستطيع أن آخذ على عاتقي أن... إنني أرفض.

ـ لكنك ستنفذ مع ذلك ما أقوله لك. إنني أعمل وفق تعليمات اللجنة المركزية، وعليك أن تطيع.

وأنا أرى أن اللجنة المركزية في الخارج لا تدرك الواقع الروسي، وأنها قد قطعت كل صلةٍ لها بالبلاد. إنهم هناك يخرفون. بل إن من رأيي أنه لا يوجد إلّا حلقة خماسية واحدة هي حلقتنا، وأن الشبكة التي تتحدّث عنها ليست إلّا وهماً...

هذا ما انطلق به لسان ليبوتين وقد نفد صبره. فقال بطرس ستيفانوفتش:

ـ إنه لشيء يدعو إلى الاحتقار أن تكون قد لاحقت القضية من دون إيمانٍ بها... وأن تظل تركض الآن ورائي مثل كلبٍ صغير...

ـ لا، لست أركض. إن من حقنا أن ننسحب وأن ننشئ جمعيةً جديدة.

قال بطرس ستيفانوفتش بلهجة التهديد:

ـ غبي!

وقدحت عيناه شرراً.

بقي الاثنان متقابلين لحظات. وأشاح بطرس ستيفانوفتش وجهه أخيراً، وتابع سيره بخطى ثابتة.

التمعت في ذهن ليبوتين فكرةٌ سريعة كومض البرق فقال يحدّث نفسه: "سأعود أدراجي وأقفل راجعاً. إن لم أفعل هذا الآن فلن أفعله يوماً". وحين قال ذلك لنفسه كان قد سار عشر خطوات. وفي الخطوة الحادية عشرة شقّت ذهنه فكرةٌ جديدة، فكرةٌ يائسة، فلم يعد أدراجه، ولم يقفل راجعاً.

وكانا قد اقتربا من عمارة فيليبوف، ولكنهما قبل أن يصلا إليها، سارا في شارعٍ صغير بل قل في ممرٍ لا يكاد يُرى، مما يحاذي السياج ويمتد على طول حفرة. إنهما لا يتقدمان هناك إلّا في مشقةٍ وعناء، متشبّثين بالسياج في كل لحظة، لأن القدمين تنزلقان على المنحدر. فلما وصلا إلى ناصية ذلك السياج، أزاح بطرس ستيفانوفتش لوحاً من الخشب، ودخل من الثغرة. وتبعه ليبوتين مدهوشاً بعض الدهشة. وأعادا لوح الخشب بعد ذلك إلى مكانه. هذا هو المدخل السري الذي كان يتسلل منه فدكا إلى المنزل.

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول بلهجةٍ قاسية:

ـ يجب أن لا يعرف شاتوف أننا هنا.

3

كان كيريلوف، على عادته في مثل تلك الساعة، جالساً على أريكته الجلدية يحتسي الشاي، فلما رأى الزائرين لم ينهض، ولكنه ارتعش وألقى عليهما نظرةً قلقة.

قال بطرس ستيفانوفتش:

ـ لم يخطئ ظنك، فإنما أنا جئت لذلك الأمر نفسه.

ـ اليوم؟

ـ لا، لا، بل غداً... في مثل هذه الساعة تقريباً.

وأسرع يجلس أمام المائدة متأملاً كيريلوف بشيءٍ من القلق. وكان

كيريلـوف قد اسـترد هدوءه علـى كل حال، واسـتعاد وضعـه المألوف. قال بطرس ستيفانوفتش يسأله:

ـ إنهم لا يريدون أن يصدقوني. هل يسوؤك أنني اصطحبت ليبوتين؟

ـ لا، اليوم لا بأس... أما غداً فأريد أن أكون وحدي.

ـ ولكن الأمر سيتم بحضوري.

ـ بل أود أن لا تكون حاضراً.

ـ تذكَّر أنك وعدتَ بأن تكتب كلَّ ما سأمليه عليك وأن تمهره بتوقيعك.

ـ سواءٌ عندي. والآن هل تبقيان مدةً طويلة؟

ـ هناك شـخص يجب أن أراه وسـأمكث عندك نحو نصف سـاعة. فرتِّب أمورك كما تشاء، لكنني سأبقى نصف ساعة.

التـزم كيريلوف الصمـت. وكان ليبوتين فـي أثناء ذلك قد جلـس متنحِّيًا تحت صورة الأسـقف. إن الفكرة التي سـاورته منذ قليل تستولي على فكره الآن أكثـر فأكثـر. وكان كيريلـوف لا يكاد يلقـي إليه بالاً، ولا يـكاد ينتبه إليه أيَّ انتبـاه. إن ليبوتين يعرف نظرية كيريلوف، وكان في الماضي يسـخر منها. ولكنه اليوم صامتٌ ينظر حوله مظلمَ الوجه.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يقترب من المائدة:

ـ يسـرني أن أصيب شـيئاً من الشـاي. لقد أكلت شـريحة لحمٍ منذ قليل، وكنت أعوِّل على أن أشرب الشاي عندك.

ـ اشرب إذا شئت.

قال بطرس ستيفانوفتش بلهجةٍ لاذعة:

ـ في الماضي كنت أنت الذي تقدم لي الشاي!

ـ سيان! وليشرب ليبوتين أيضاً.

ـ لا... لا أريد!

ـ لا أريد أو لا أستطيع؟

كذلك سأل بطرس ستيفانوفتش فجأةً وهو يلتفت إلى رفيقه.

فأجابه ليبوتين بلهجةٍ ذات دلالة:

ـ لن أشرب عنده.

فقطب بطرس ستيفانوفتش حاجبيه.

ـ تفوح من هذا الكلام رائحة الغيبية. لا يعرف إلّا الشيطان أي أناسٍ أنتم جميعاً!

لم يجبه أحد. ودام الصمت دقيقةً كاملة.

عاد بطرس ستيفانوفتش يتكلم بخشونةٍ وجفاف فقال:

ـ أنا لا أعرف إلّا شيئاً واحداً، هو أنه ما من وهمٍ من الأوهام الاجتماعية سيمنعنا من أن يحقق كل منا واجبه.

سأل كيريلوف:

ـ هل سافر ستافروجين؟

ـ نعم.

ـ أحسن صنعاً.

ألقى بطرس ستيفانوفتش على كيريلوف نظرةً جادة، ولكنه كظم ما في نفسه وسيطر على إرادته.

ـ لا يهمني كثيراً ما تراه من رأي، ولكن يهمني أن يفي كل واحدٍ بما قطعه على نفسه من عهد.

ـ سأفي بوعدي.

ـ على كل حال، كنت أنا دائماً على ثقة بأنك ستفي بعهدك، كما يفعل رجلٌ مستقل متقدم.

ـ أما أنت فرجلٌ مضحك.

ـ لا مانع. يسعدني أن أُضحك. يسعدني دائماً أن أسرَّ أحداً.

ـ إنك ترغب رغبةً شديدةً في أن أنتحر، وتخشى خشيةً قوية أن أعزف عن ذلك.

ـ أنت الذي ربطت خطتك بعملنا. لقد شرعنا في عمل معيَّن على أساس تلك الخطة، فلا يمكنك بحالٍ من الأحوال أن تعدل عنها إلّا وتعرِّضنا للخطر.

ـ ليس لكم عليَّ أيُّ حق.

ـ أفهم، أفهم تماماً: هذه إرادتك الحرة، وما نحن بشيء، وإنما المهم أن تتحقق هذه الإرادة الحرَّة.

ـ وسيكون عليَّ أن أحمل على عاتقي جميع دناءاتكم؟

ـ اسمع يا كيريلوف: أتُراك خائفاً؟ إذا كنت تفكر في التراجع، فأعلن هذا فوراً.

ـ لست خائفاً.

ـ سألتك هذا السؤال لأنني رأيتك تلقي أسئلةً كثيرة.

ـ أتسافر قريباً.

ـ أسؤالٌ آخر؟

نظر إليه كيريلوف باحتقار.

وعاد بطرس ستيفانوفتش يتكلم وقد أخذ حنقه وقلقه يزدادان وأصبح يعجز عن العثور على اللهجة المناسبة:

ـ اسمع يا كيريلوف: إنك تريد أن أسافر من أجل أن تبقى وحدك، من أجل أن تخلو إلى نفسك. وهذه كلها أعراضٌ خطرة عليك، خطرةٌ عليك أنت قبل أي شخصٍ آخر. إنك تريد أن تفكر. وفي رأيي أن الأفضل أن لا تفكر، وإنما تُقدم على العمل ببساطةٍ. لقد أخذت تقلقني.

ـ شيءٌ واحدٌ يثير في نفسي الاشمئزاز، هو أنني في لحظةٍ كتلك اللحظة سيكون بقربي حشرةٌ مثلك!

ـ إذا كان هذا ما تخشاه فالأمر بسيطٌ! إنني مستعدٌ لأن أخرج أثناء ذلك الوقت فأنتظر على درجات المدخل. إذا كنت تقيم هذا الوزن كله لأمور كهذه الأمور وأنت تتهيأ للموت، فذلك... فذلك شيءٌ خطر. سأبقى على درجات المدخل، ولن يكون عليك إلّا أن تتخيل إنني لا أفهم شيئاً، وأنني دونك إلى غير نهاية.

ـ لا، لست دوني إلى غير نهاية: إنك لا يعوزك الذكاء، غير أن هناك أموراً كثيرة لا تفهمها لأنك إنسان فاسدٌ شرير.

ـ طيب. طيب. أنا مفتونٌ بهذا الكلام. سبق أن قلت لك أنني يسعدني أن أسرَّك... في مثل هذه اللحظة.

ـ إنك لا تفهم شيئاً.

ـ أقصد أنني... على كل حال، ها أنا ذا أصغي إليك بإجلال وإعظام...

ـ بل أنت غير قادرٍ على شيءٍ البتة. إنك لا تستطيع حتى أن تخفي في هذه اللحظة حنقك الحقير وغيظك الدنيء، رغم أن ذلك يضرك. ستغضبني أخيراً، فأراني أرجئ الأمر ستة أشهرٍ على حين فجأة.

نظر بطرس ستيفانوفتش في ساعته. ثم قال:

ـ إنني لم أفهم من نظريتك شيئاً في يومٍ من الأيام، لكنني أعلم أنك لم تتخيلها من أجلنا نحن. معنى ذلك أنك ستنفذ عزمك حتى بدون أن يكون لنا في الأمر شأن. وأعلم أيضاً أنك لست أنت الذي التهمت الفكرة وإنما الفكرة هي التي التهمتك. فلن تتراجع إذن!

ـ كيف؟ الفكرة التهمتني؟

ـ نعم.

ـ ولستُ أنا الذي التهمت الفكرة؟ هذا كلام ممتاز. إن لك بعض الذكاء. ولكنك تكتفي بالمزاح، أما أنا فلي كبريائي.

ـ عظيم، عظيم. ذلك بعينه هو ما نحن في حاجةٍ إليه: أن يكون لك كبرياؤك.

ـ كفى. لقد انتهيتَ من شرب الشاي، فانصرف الآن!

قال بطرس ستيفانوفتش وهو ينهض:

ـ يجب أن أنصرف فعلاً. ولكن لا يزال الوقت مبكِّراً. اسمع يا كيريلوف: هل أجد ذلك الرجل عند الجزَّارة؟ إنك تعلم من أعني، هه؟ أم تراها كذبت هي أيضاً؟

ـ لا، لن تجده عندها، لأنه هنا.

ـ هنا؟ شيطانٌ يأخذه! ولكن أين هو؟

ـ في المطبخ. يأكل. يشرب.

ـ كيف سمح لنفسه بأن...

احمر وجه بطرس ستيفانوفتش غضباً، وتابع كلامه فقال:

ـ لقد أُمر أن ينتظر... يا للحماقة. إنه لا يملك لا مالاً ولا جواز سفر.

ـ لا أدري. لقد جاء يودِّعني. وهو يستعد للسفر. سيسافر إلى غير رجعة. يقول أنك رجلٌ وغد، وأنه لا يريد أن ينتظر مالك.

ـ آه... إنه يخاف أن أ... إذا... أين هو؟ في المطبخ؟

فتح كيريلوف باب حجرةٍ صغيرةٍ مظلمة فيها سلم ذو ثلاث درجات يفضي إلى المطبخ الذي هو أشبه بزنزانةٍ تسكنها الخادمة في العادة. ففي ركن بهذا المطبخ، تحت الأيقونات، كان فدكا جالساً أمام قنينة فودكا وطبق لحم بارد مع بطاطس. كان يأكل على مهلٍ بغير تعجل، ويبدو نصف سكران. وكان يرتدي سترته المصنوعة من جلد الخروف تأهباً للرحيل. إن السماور يغلي ماؤه وراء الحاجز، ولكنه ليس لفدكا. بالعكس: إن فدكا نفسه هو الذي أصبح منذ أسبوع يحضِّر الشاي "لألكسي نيلتش لأن ألكسي نيلتش قد ألف أن يشرب الشاي في الليل". وهناك ما يجعلني أعتقد أن الخادمة كانت غائبة، وأن كيريلوف كان قد أمر بطهو اللحم والبطاطس منذ الصباح، من أجل فدكا.

هتف بطرس ستيفانوفتش سائلاً وهو يهرع إلى المطبخ:

ـ ما هذا أيضاً؟ لماذا لم تنتظرني هناك كما أمرتك؟

وضرب المائدة بقبضة يده ضربةً سريعة.

فاصطنع فدكا هيئة قلة الاكتراث، ثم قال وهو يقطِّع كل كلمة من كلماته متصنعاً:

ـ انتظر يا بطرس ستيفانوفتش، انتظر قليلاً. يجب عليك قبل كل شيء أن تفهم أنك في زيارة السيد كيريلوف، آلكسي نيلتش، الذي يجب عليك أن تلمِّع له حذاءيه، لأنه بالقياس إليك رجلٌ مثقف، على حين أنك أنت لست إلا....

قال ذلك والتفت فبصق بغير لعاب. إن لهجته المتغطرسة، المتفيهقة، الهادئة هدوءاً كاذباً حتى حدوث أول انفجار، كانت خطرة في أبعد حدود

الخطر. ولكن بطرس ستيفانوفتش لم يتسع وقته لملاحظة الخطر. هذا عدا أن فكره كان تائهاً بعد أن ذهبت بصوابه أحداث النهار وإخفاقاته...

وكان ليبوتين يراقب المشهد من أعلى السلَّم.

ـ أتريد أم لا تريد أن تملك جواز سفر وأن تنال مبلغاً ضخماً لتمضي إلى حيث أُمرت أن تمضي؟ أنعم أم لا؟

ـ اسمع يا بطرس ستيفانوفتش: لقد خدعتني منذ البداية، وأنا لذلك أعدُّك وغداً حقيراً كقملة. هذا أنت في نظري. لقد وعدتني بمالٍ كثير لقاء الدم البريء، وعدتني به باسم السيد ستافروجين. ثم اتضح أن ذلك كله لم يكن إلّا كذباً دنيئاً منك. فأنا لم أقبض ألفاً وخمسمائة روبل، بل لم أقبض كوبكاً واحداً، كما علمنا أن السيد ستافروجين قد صفعك منذ قليل على خدَّيك. وها أنت ذا الآن تستأنف تهديدك لي، وتستأنف وعدي بالمال، ولكنك لا تذكر الغرض من ذلك. ولكنني أحس أنك ترسلني إلى بطرسبرج معتمداً على سذاجتي وسرعتي في التصديق، لتنتقم من السيد ستافروجين، نيقولاي فسيفولودوفتش. فالقاتل حقاً إنما هو أنت. وهل تعلم ماذا ينتظرك من جراء انغماسك في حمأة الرذيلة إلى أن كفرت حتى بالله، الخالق الحق؟ إنك أشبه بوثني، وإنك لا تفضل تترياً. لقد شرح لك ألكسي نيلتش مراراً، وهو فيلسوفٌ كبير، شرح لك مراراً حقيقة الله، خالق كل شيء، وحدَّثك حديثاً طويلاً عن خلق العالم والحياة الآخرة، وعن بعث البشر والحيوان كما جاء في رؤيا القديس يوحنا. ولكنك ظللت لا تحس ولا تنطق، كشخصٍ أبله جامد. لقد أغويت الضابط إركل، مثل ذلك المغوي الشرير الذي يسمى ملحداً...

ـ يا للسكير! يسرق الأيقونات ثم يدعو إلى الإيمان بالله...

ـ هذا صحيح. أعترف لك بذلك يا بطرس ستيفانوفتش. لقد سلبت أيقونات. لكنني اكتفيت بأخذ اللآلئ. ومن يدري؟ لعل دموعي في هذه اللحظة نفسها تتحوّل إلى لآلئ أمام هيكل الرب، لأنني أُهنت وأُذيت، لأنني يتيم، حتى إنني كنت لا أعرف أين أُرقد رأسي. هل قرأت في الكتب القديمة،

أنه حدث في الماضي، في الأزمنة السحيقة، أن رجلاً من البائعين قد سرق لؤلؤة من إكليل السيدة العذراء، أم المسيح وهو يصلي ويبكي؟ وبعد ذلك، على مرأى من الشعب المحتشد، سجد أمام الأيقونة، ووضع المبلغ كله عند قدميها، فألقت عليه الأم العذراء حجابها تستره عن أعين الناس جميعاً؟ لقد تحققت في تلك المناسبة إذًا معجزة حقيقية، وأصدرت السلطات أمرها بتدوينها دقيقةً في كتب الدولة. ولكنك أنت قد سلَّلت فأراً. وبذلك تكون قد أهنت يد الرب نفسها. ولولا أنك السيد الذي حملتُه على ذراعيَّ مراهقاً، لقتلتك في هذه اللحظة نفسها، فوراً.

جُنَّ جنون بطرس ستيفانوفتش من الغضب.

ـ أجبني، هل رأيت اليوم ستافروجين؟

ـ لا أسمح لك بأن تسألني. إن السيد ستافروجين يُدهش من أعمالك. إنه لم يصدر إليك أمراً ولا أعطاك مالاً. بل إنه لم يشارك في جريمة القتل أي مشاركة، ولو بالفكر والخيال. لقد كذبتَ عليَّ.

ـ سوف تنال المال. وسوف تتلقى أيضاً ألفي روبل ببطرسبرج، في المكان المعيَّن، بل سوف تتلقى هناك أكثر من ذلك.

ـ أنت تكذب، أنت تكذب يا عزيزي، بل إنني ليضحكني أن أراك واثقاً هذه الثقة كلها. إن ستافروجين هو بالقياس إليك رجلٌ يقف في قمة سلَّم، وأنت في أسفل السلم تنبح نباح كلبٍ صغير، بينما هو يحس أنه يشرِّفك كثيراً إذا ارتضى أن يبصق عليك من أعلى.

أعول بطرس ستيفانوفتش يقول وقد بلغ ذروة الحنق:

ـ ولكن هل تعلم أنني لن أدعك تخرج من هنا أيها الشقي، وأنني سأسلمك للشرطة فوراً؟

فنهض فدكا بوثبةٍ واحدة وقد قدحت عيناه شرراً. فسرعان ما أخرج بطرس ستيفانوفتش مسدسه. إنه لمشهد سريع بشع. وقبل أن يتسع وقت بطرس ستيفانوفتش لإطلاق النار، كان فدكا، السريع كومض البرق، قد هوى على خده بلطمةٍ رهيبة أتبعها بلطمةٍ ثانية فثالثة فرابعة على الخد أيضاً. فدمدم

بطرس ستيفانوفتش ببضع كلمات مبهوتاً مصعوقاً، ثم خر على أرض الغرفة.

صاح فدكا يقول باعتزازٍ وزهو:

ـ هو ذا. افعل به ما تشاء.

ثم تناول قبعته وسحب خُرجه من تحت الدكة وانسل خارجاً.

كان بطرس ستيفانوفتش يحشرج مغشياً عليه، حتى لقد تخيل ليبوتين خلال لحظة إنه قد مات. وهرع كيريلوف إلى المطبخ. وصرخ يقول:

ـ إليّ بماء.

وغرف ماءً من سطل، وسكب منه على وجه بطرس ستيفانوفتش. فتحرك بطرس بعد لحظة، وأنهض رأسه، ونظر أمامه زائغ البصر.

سأله كيريلوف:

ـ هيه! كيف الحال الآن؟

فتأمله بطرس ستيفانوفتش ملياً، من دون أن يتعرفه في ما يبدو ولكنه حين أبصر ليبوتين الذي كان ينظر إليه من أعلى السلم، ابتسم ابتسامته الشريرة تلك، ثم إذا هو يتناول مسدسه فجأةً، وينهض عن الأرض.

وصرخ قائلاً وهو يهرع نحو كيريلوف كمجنون:

ـ إذا خطر ببالك غداً أن تهرب كما فعل ذلك الوغد ستافروجين (كان شاحب اللون وكان صوته يختنق في حلقه)... فلسوف أجدك... في الطرف الآخر من العالم... وسوف أقبض عليك... كذبابة... فأسحقك... هل فهمت؟...

وصوَّب مسدسه إلى جبهة كيريلوف. ولكن في تلك اللحظة نفسها تقريباً ثاب إليه رشده تماماً، فخفض يده، ودسَّ المسدس في جيبه وخرج راكضاً من دون أن يقول كلمةً واحدة. وتبعه ليبوتين. فسارا في ذلك الممر نفسه، محاذيين المنحدر مرةً أخرى، متشبّثين بالسياج كما فعلا في المجيء. فلما صارا في الشارع أخذ بطرس ستيفانوفتش يسير بخطى تبلغ من السرعة أن ليبوتين لم يستطع أن يتبعه إلّا بكثيرٍ من العناء. حتى إذا بلغ مفترق طرقٍ توقف على حين فجأة.

وقال يخاطب ليبوتين بلهجة التحدي:

ـ طيب!

وكان ليبوتين لا يزال يرتجف ارتجافاً شديداً من ذكرى المسدس والمشهد الذي رآه. ولكن الجواب تساقط من شفتيه كأنما من تلقاء نفسه رغم إرادته، فقال:

ـ أظن... أظن "أنهم من سمولنسك إلى طشقند... لا ينتظرون الطالب نافدي الصبر إلى هذا الحد"...

ـ هل رأيت ماذا كان يشرب فدكا في المطبخ؟

ـ ماذا كان يشرب؟ كان يشرب فودكا...

طيب... فاعلم إذًا أنه قد شرب الآن فودكا آخر مرة في حياته. إني أنصحك بأن تتذكر هذا من أجل ما قد تراه من آراء في المستقبل. سوف يفيدك أن تتذكره. والآن، اذهب إلى الشيطان!... لم أعد في حاجةٍ إليك حتى الغد... ولكن حذار: لا ترتكب حماقات!

رجع ليبوتين إلى بيته سريع الخطى.

4

كان ليبوتين قد صنع لنفسه منذ مدةٍ طويلة جواز سفر باسمٍ مزوَّر. إن هذا الشخص الصغير الحيسوب، هذا الخادم الطاغية، هذا الموظف الذي ينتمي إلى أتباع فورييه ويتعاطى الربا في الوقت نفسه، قد بدت له منذ زمنٍ طويل هذه الفكرة العجيبة، وهي أن يحصل على جواز سفر استعداداً لكل طارئ، كي يستطيع أن يسافر إلى الخارج إذا حدث أن... نعم لقد بدت له هذه الفكرة، مهما يدهشكم ذلك من مثله. لقد كان يسلم إذًا أن ذلك يمكن أن يحدث، ومع هذا، لو سألته ماذا تعنيه هذه العبارة "إذا حدث أن..."، لما استطاع أن يجيبك على وجه الدقة.

ولكن ها قد اتضح اليوم هذا الاحتمال على حين فجأة مكتسياً صورةً هي أبعد ما تكون عن التوقع. إن الفكرة اليائسة التي دخل بها على كيريلوف

والتي كانت قد ومضت في ذهنه حين وصفه بطرس ستيفانوفتش بالغباء هي أن يترك كل شيء وأن يهرب إلى الخارج في صباح الغد. إن الذي يرفض أن يسلِّم بأن أشياء خارقة من هذا النوع يمكن أن تحدث في واقعنا الحالي، ما عليه إلّا أن يراجع حياة المهاجرين الروس. ما من أحد منهم هرب لأسبابٍ معقولة أكثر من ذلك: هذا أفق العجائب، هذه رحاب اللاواقع!

فلما رجع ليبوتين إلى البيت أغلق على نفسه الباب بالمفتاح، ثم أخذ يهيئ كيس السفر. وكانت مسألة المال تشغل باله أكثر من أي شيءآخر: كم يجب أن يأخذ؟ هل يتاح له أن ينقذ كل ما يملك؟ نعم، أن ينقذ. فهو يتصوّر أنه لم تبق ساعة واحدة يمكن أن يضيعها، وأن عليه أن يسير عند طلوع الشمس. وكان لا يعرف أيضاً أين يجب عليه أن يركب القطار: لعل الأفضل أن يركب القطار بعد محطتين أو ثلاث محطاتٍ من مدينتنا، ولو اقتضى الأمر يمضي إلى هناك سيراً على الأقدام. كانت هذه الأفكار كلها تدور في رأسه كالإعصار وهو يرتب أمتعته في كيسه، حين توقف فجأةً، فترك كل شيء، وتهاوى على أريكته وهو يئن أنةً طويلة.

لقد أحس إحساساً واضحاً وأدرك على حين فجأة أنه سيهرب طبعاً، ولكنه عاجزٌ عن أن يقرر بنفسه هل يهرب "قبل" مقتل شاتوف أو "بعده". ذلك أنه الآن ليس إلّا جسماً عاطلاً عن الحركة، ليس إلّا كتلةً ساكنة تحرِّكها قوةٌ غريبةٌ رهيبة. إنه يملك جواز سفر من أجل أن يرحل إلى الخارج، فيستطيع إذًا أن يهرب "قبل" شاتوف (أكان يستعجل لولا أن الأمر كذلك؟)، ولكنه مع ذلك يدرك أنه لن يسافر "قبل" شاتوف، بل "بعده"، لأن الأمر قد تقرر، ووُقِّع، وخُتم. وها هو ذا يبقى على هذه الحال، مستلقيًا على أريكته، يعذبه القلق، ويرتعد لأيسر ضجةٍ، يئن تارةً، ويحبس أنفاسه تارةً أخرى، ولا يفهم هو نفسه ما الذي يحدث في نفسه، حتى حانت الساعة الحادية عشرة، فحدثت أخيراً الصدمة التي أطلقت قراره. ففي الساعة الحادية عشرة، ما إن فتح باب غرفته حتى أخبره ذووه أن فدكا، الهارب من سجن الأشغال الشاقة، الذي كان ينشر الرعب والقتل والحرائق في كل كان، والذي تلاحقه

الشـرطة منـذ مدةٍ طويلة مـن دون أن تسـتطيع القبض عليه، قـد وُجد مقتولاً هذا الصباح، على مسـافة سبعة فراسـخ من المدينة عند تقاطع الدرب الكبير وطريق زاخارينو. إن المدينة كلها لا تتحدّث إلّا عن هذا النبأ. أسـرع ليبوتين يتقصـى الأخبار فـوراً فعرف ما يلي: إن فدكا الذي وُجد مهشـم الرأس لا بد أنه قد سُـلب ما كان معه، وأن الشـرطة تعتقد، لأسـباب وجيهة، في ما يبدو، أن القاتل هو فومكا، أحد عمال مصنع شبيجولين، الذي قتل لبيادكين وأخته مشـتركاً مـع فدكا، وحاول أن يشـعل النار فـي بيتهما. ولعـل الرجلين، فدكا وفومـكا، قد تشـاجرا فـي الطريق على المبلـغ الضخم الـذي كان فدكا (كما يظن رفيقه) قد سرقه من عند الكابتن لبيادكين...

أسـرع ليبوتين إلى منزل بطرس ستيفانوفتش فعلم من الخادمة أن مولاها قد رجع إلى البيت في نحو الساعة الواحدة من الصباح، فنام نومًا هادئاً حتى الساعة الثامنة.

لا عجـب طبعاً فـي موت فـدكا: فعلى هذا النحـو إنما يموت فـي العادة أمثال هؤلاء الرجال. ولكن تحقق نبوءة بطرس سـتيفانوفتش ("فاعلم إذًا أنه قد شـرب الآن فودكا آخر مرة في حياته!")، بدا له مليئاً بالدلالة، فوضع حداً لتردده. لكأن صخرة قد سقطت عليه فسحقته إلى الأبد.

وحيـن عـاد إلى البيت دفع كيس السـفر بقدمه حتى جعله تحت السـرير. وفي السـاعة المحددة من المساء وصل أولَ من وصل إلى المكان الذي كان يجب أن يُلتقى فيه بشاتوف. ولكنه كان يحمل في جيبه جواز السفر.

الفصل الخامس

المسافرة

1

إن مـوت ليزا ومـوت ماريا تيموفئفنا قد سـحقا شـاتوف سـحقاً، وهدَّما نفسـه تهديماً. سـبق أن قلـت إنني لقيتـه في ذلـك الصباح، ففوجئـت بهيئته التائهـة ونظرتـه الزائفـة. وقد ذكر لي، في مـا ذكر، أنه في الليلـة البارحة، في نحو السـاعة التاسـعة (أي قبل الحريق إذاً بثلاث سـاعات) كان قد ذهب إلى ماريا تيموفئفنا. وفي الصباح مضى يشـاهد الجثث، ولكنه احتفظ بافتراضاته ولـم يبـح بها لأحد. غيـر أن عاصفةً حقيقية قد ثارت في نفسـه آخر النهار... و... و... أظن أنني أسـتطيع أن أؤكد أنه فـي لحظةٍ من اللحظات قد مرَّت به لحظةٌ قرر فيها أن يكشـف عن كل شـيء. أما ما هو "كل شـيء" هذا فإنه كان هو نفسـه لا يعرفـه على وجه الدقة. ومـن الواضح أن قيامه بهـذه الخطوة ما كان يمكـن أن يـؤدي إلى أيـة نتيجة. كل مـا هنالك أن الرجل كان سـيعرِّض نفسـه للخطـر. إنـه لا يملك أيـة براهين تدين الجنـاة: إنه لا يملـك إلّا ظنوناً وتخمينـات لا تعـدل اليقين إلّا في نظره هو. ولكنه كان مسـتعداً لأن يضحي بنفسه في سبيل "سحق هؤلاء الأشقياء" على حد تعبيره هو. فلم يكن بطرس ستيفانوفتش إذاً على خطأ حين توقع هذا الانفجار عند شاتوف، وحين أدرك أنه بإرجاء تنفيذ مشـروعه الرهيب إلى الغد إنما يجازف كثيراً. ومع ذلك قرر الإرجـاء. غيـر أنه على عادتـه كان يمتلئ ثقةً بنفسـه واحتقـاراً لجميع هؤلاء "الناس الصغار" ولشاتوف خاصةً. إنه يحتقر شاتوف منذ مدةٍ طويلة ويحتقر

"طبيعته الخاصة البكاءة"، كما قال عنه حين كان لا يزال في الخارج، لهذا كان مقتنعاً أنه يستطيع أن يتغلّب بسهولةٍ على إنسان يبلغ مبلغه من السذاجة والبساطة: يكفيه من أجل هذا أن يكلّف أحداً بمراقبته طول النهار، فإذا لاحظ شيئاً وقف في طريقه وسدَّ عليه سبيل إنفاذ ما يريد إنفاذه. ومع ذلك أستطيع أن أقول إن "الأشقياء" لم ينجوا ويسلموا في هذه المرة إلّا بفضل حادثٍ غير متوقع ما كان لهم أن يتنبأوا به.

ففي الساعة الثامنة من المساء، بينما كان أصحابنا عند إركل ينتظرون وصول بطرس ستيفانوفتش ويضطربون ويتحركون، كان شاتوف، المثقل الرأس المصاب بحمى، كان مستلقياً على سريره في الظلام. وكان في أثناء ذلك يتقلب بين قرارٍ وقرار، فيغتاظ ويحنق ويتعذب، ويلعن تردده، ويتنبأ بأنه عاجزٌ عن المبادرة إلى القيام بعمل. وشيئاً فشيئاً نام وحلم: حلم بأنه موثقٌ في سريره لا يستطع حراكاً، ولكنه مع ذلك يسمع ضجةً رهيبة: إن طرقاتٍ قوية تهزّ باب المنزل، وجدرانه، وجناح كيريلوف، وإن صوتاً بعيداً، مألوفاً أليماً، يناديه باسمه شاكياً متوجعاً. استيقظ شاتوف من نومه منتفضاً، وانتصب على سريره. فما كان أشد دهشته حين أدرك أن الباب لايزال يُطرق، وأن الطرقات وإن تكن أقلَّ قوةً مما كان يسمعها أثناء الحلم، متكررةٌ وعنيدة، وأن الصوت الغريب الأليم لا يزال يرتفع ولكنه ليس شاكياً متوجعاً، بل هو على عكس ذلك نافد الصبر شديد الغضب. وكان يختلط به صوتٌ آخر أهدأ منه. وثب شاتوف عن سريره، وفتح النافذة الصغيرة، ومدَّ رأسه ناظراً، ونادى قائلاً وقد تجمد من الخوف حقاً:

ـ من هذا؟

فأجابه من تحت صوت جاف قاطع:

ـ إذا كنت شاتوف فأرجوك أن تقول لي بصراحةٍ وشرفٍ وصدق أتسمح لي بأن أدخل أم لا؟

"إنها هي!".

لقد تعرَّف صوتها.

ـ ماري!... أهذه أنت؟

ـ نعم، أنا ماري شاتوف، وأؤكد لك أن الحوذي لا يستطيع أن ينتظر دقيقةً واحدةً أخرى.

فنادى شاتوف يقول بصوتٍ ضعيف:

ـ حالاً... سأشعل الشمعة...

وأخذ يبحث عن عيدان كبريت، ولكنه كما يحدث دائماً في مثل هذه الأحوال لم يهتد إليها، حتى لقد قلب الشمعدان والشمعة. غير أنه ترك أخيراً كل شيء، استجابةً للنداء المتكرر الذي أطلقه الصوت النافد الصبر تحت، وانطلق على السلم يهبط درجاته أربعاً أربعاً، وفتح الباب.

قالت ماري شاتوف وهي تمد إليه كيساً خفيفاً من أكياس السفر المصنوعة من قماشٍ والمزودة بمسامير من نحاس، مما يُصنع بمدينة درسدن:

ـ تناول كيسي لحظةً، أرجوك، حتى أدفع لهذا الغبي أجره.

والتفتت نحو الحوذي فقالت له بلهجةٍ غاضبة:

ـ أبيح لنفسي أن أقول لك إن مطالبتك غير عادلة. لقد ظللت تجري بي هنا وهناك ساعةً كاملةً في هذه الشوارع الوسخة. فذلك خطأك: كنت لا تعلم مكان هذا الشارع الغبي وهذا المنزل البليد! خذ الثلاثين كوبكاً التي تستحقها وثق أنك لن تنال كوبكاً واحداً آخر غيرها.

ـ أنت التي سميت لي شارع "الصعود" يا سيدتي. أما هنا الشارع فهو شارع الابيفانيا. إن شارع الصعود بعيدٌ جداً عن هنا. لقد أوشك حصاني أن يموت تعباً.

ـ شارع "الصعود"، شارع "الابيفانيا"!... لا بد أن تعرف هذه الأسماء الحمقاء خيراً مني أنا، لأنك من هذه المدينة. ثم إنك مخطئ: أنا إنما سمّيت لك منزل فيليبوف قبل كل شيء فأكدت لي أنك تعرفه. على كل حال، تستطيع أن تشكوني غداً إلى قاضي الصلح، أما الآن فأرجوك أن تدعني وشأني.

تدخل شاتوف قائلاً:

ـ هذه خمسة كوبكات أخرى...

وأخرج من جيبه قطعة نقدية مدَّها إلى الحوذي.

قالت السيدة شاتوف محتجةً:

ـ ما تدخلك أنت؟ إنني أمنعك...

ولكن الحوذي كان قد انصرف.

أمسك شاتوف زوجته من يدها وأدخلها في الدهليز.

ـ لنصعد بسرعة يا ماري، بسرعة... لا قيمة لهذا البتة! إنك مبتلةٌ تماماً! انتبهي... ههنا درجات. يؤسفني أننا من شدة الظلام لا نرى شيئاً! السلَّم وعر... تمسكي بالدرابزين جيداً. ها نحن وصلنا. هذه غرفتي. معذرةً. ليس عندي ضوء!... حالاً... حالاً...

وتناول الشمعدان من أرض الغرفة. ولكنه ظل لا يهتدي الى أعواد الكبريت أيضاً. كانت السيدة شاتوف واقفةً في وسط الغرفة، جامدةً لا تتحرك، تنتظر صامتةً.

ـ الحمد لله. ها هي ذي عيدان الكبريت.

كذلك هتف شاتوف فرحاً. وأشعل الشمعة. فطافت ماري شاتوف ببصرها على المسكن. ثم قالت بصوتٍ مشمئز:

ـ ذُكر لي أن مسكنك سيئ، ولكنني لم أتوقع كل هذا السوء. آه... ما أشد ما أعانيه من تعب!...

وتهالكت على سرير شاتوف، الخشن القاسي، خائرة القوى. وأردفت تقول:

ـ أرجوك، ضع الكيس على الأرض، واجلس على هذا الكرسي. بل افعل ما يحلو لك. ولكن لا تبقى واقفاً هذا الوقوف أمامي. لن أمكث عندك إلّا وقتاً قصيراً، إلى أن أجد عملاً، ذلك أنني لا أعرف أحداً هنا، ولا أملك قرشاً واحداً. ولكن إذا كان وجودي يضايقك، فأرجو أن تعلن لي هذا فوراً، كما ينبغي أن تفعل إذا كنت رجلاً شريفاً صادقاً. مهما يكن من أمر، أستطيع أن أبيع في الغد متاعاً ما، فأدفع أجر فندق، ولكن سيكون عليك في هذه الحالة أن تقودني إلى فندق... آه... ما أشد ما أشعر به من تعبٍ وإعياء.

قال شاتوف وهو يرتعش ارتعاشاً شديداً:

ماري، يجب ألا تتكلمي عن فندق! ما هذه الفكرة! لماذا؟ وضمَّ يديه إحداهما إلى الأخرى.

ـ إذا كان يمكن تدبير الأمور من دون الذهاب إلى فندق، فيجب مع ذلك توضيح الموقف. تذكر يا شاتوف أننا عشنا معاً بمدينة جنيف كما يعيش رجلٌ وزوجته، مدة خمسة عشر يوماً، قبل ثلاث سنين، ثم افترقنا، بغير شجار على كل حال. ولكن لا يذهبن بك الظن إلى أنني أعود الآن لأستأنف تلك الحماقة. أنا إنما أعود لأعمل، وإذا كنت قد اخترت هذه المدينة، فلأن الأمور كلها عندي سواء. إنني غير نادمةٍ على شيء، أرجو أن لا تخطر ببالك سخافةٌ من هذا النوع.

دمدم شاتوف يقول:

ـ أوه! ماري! هذا كله لا داعي إليه، لا داعي إليه البتة!

ـ ما دام الأمر كذلك، ما دمت تملك آراء تبلغ من التقدم هذا المبلغ الذي يتيح لك أن تفهم ما أقول، فإنني أبيح لنفسي أن أضيف أنني إذا كنت قد اتجهت إليك، إذا كنت قد جئت إليك رأساً، فمما يدفعني إلى ذلك أنني لم أعددك في يوم من الأيام رجلاً حقيراً، بل لعلني عددتك في جميع الأحيان فوق جميع أولئك... الأوغاد.

كانت عيناها تلتمعان، وواضح أنها لا بد أن تكون قد تألمت كثيراً من بعض أولئك "الأوغاد".

ـ وثق أنني لم أكن أسخر منك منذ قليل حين وصفتك بأنك طيب. لقد تكلّمت بصراحةٍ، من دون اصطناع جملٍ مزوَّقة، ثم إنني أحتقر الجمل المزوقة. ولكن كفى عن هذا! لقد أمّلت دائماً أنك ستكون ذكياً ذكاءً يكفي لأن يجعلك تتركني هادئة، آه... كفى! ما أشد هذا التعب!

ونظرت إليه طويلاً، بألم، كان شاتوف واقفاً على مسافة بضع خطواتٍ منها يصغي إلى كلامها خجلَ الهيئة. ولكن وجهه كان يسطع بنورٍ جديد كمن ارتد عمره سنين عدة إلى وراء. إن هذا الرجل القوي القاسي، المشعث

دائمـاً، قـد أحس بعذوبةٍ كبيرة تنفذ فيه فجأةً. إن شـيئاً غريبـاً، غير متوقع، قد أخذ يهتز في نفسه. ثلاث سنوات من الفراق لم تكن قد محت من قلبه شيئاً. وفي خلال تلك السنوات الثلاث، لعله لم يمض يومٌ واحد من دون أن يذكر فيه هذه الإنسانة الغالية التي قالت له ذات مرة: "أحبك". إنني أعرف شاتوف معرفـةً كاملـة، فأسـتطيع أن أؤكـد واثقاً أنـه لم يحلم يومـاً أن تقول لـه امرأةٌ "أحبك". لقد كان قوي العفة شديد الحياء إلى حد التوحش، وكان يظن في نفسه بشاعةً رهيبةً، وكان يكره وجهه وطبعه، ويعد نفسه نوعاً من مسخٍ مشوهٍ خليـق بأن يُعرض فـي المعارض. لذلك كان يُنزل الشـرف فـي أعلى منزلة، ويعده أسمى من كل شيء، وكان مخلصاً لاعتقاداته إلى حد التعصب، فكان يبـدو مظلم الوجه صموتاً متكبـراً في جميع الأحيان. وها هي ذي الآن، تلك الإنسانة الوحيدة التي أحبته طوال أسبوعين (من هذا هو على يقين)، الإنسانة التـي كان يضعهـا في مقـام أعلى من مقامه بما لا نهاية لـه، مع إدراكه الكامل لأخطائها، الإنسـانة التي يغفر لها "كل شيء"، كل شيء على الإطلاق (حتى إن الأمر نقيض هذا، فإن شاتوف يحمِّل نفسه جميع الأخطاء)، هذه الإنسانة، ماري شـاتوف، ها هي ذي أمامه من جديد، بقربـه... ذلك أمر لا يكاد يُفهم. إن دهشـته تبلـغ من القـوة، وإن في هذا الحادث شـيئاً يبلغ مـن الهول ويبلغ من السـعادة فـي الوقت نفسـه، أنه كان لا يسـتطيع حتماً، ولعلـه لا يريد، أن يثوب إلى رشـده، فهو يخاف أن يفعل. هذا حلـم. ولكنه حين لاحظ نظرتها الموجعـة المرهَقة المضنـاة أدرك أن هذه المرأة تتألـم. فارتعش قلبه عندئذٍ، وتأمَّل قسـمات وجهها بعطفٍ أليـم: كانت نضارة الشـباب الأول قد زايلت هـذا الوجه المتعب منذ مدةٍ طويلة. ولكنها مع ذلك لا تزال جميلة، وهي في نظر شـاتوف لا تزال رائعة الجمال (إنها في الخامسـة والعشرين من عمرها، ممتلئة الجسـم، طويلة القامة بل هي أطول من شـاتوف، لها شـعر كسـتنائي غزير، ووجه شـاحب مسـتطيل، وعينان سـوداوان جميلتان تعانيان الآن من حمـى)، ولكـن حيويتهـا القديمـة التي تشـتمل على سـذاجة وتسـودها قلة الاكتراث، والتي يعرفها شـاتوف جيداً، قد حلت محلها الآن سـرعة الغضب

والاهتياج وحلَّ محلها نوع من الاستهتار لم تألفه حتى الآن فلا شك أنه شاق عليها. وهي الآن مريضةٌ بخاصة. رأى شاتوف ذلك واضحاً كل الوضوح. لذلك اقترب منها وأمسك يديها رغم خوفه منها. وقال لها:

ـ ماري... اسمعي... لا بد أنك متعبةٌ جداً... لا تزعلي، أتوسل إليك... ما رأيك في أن تجرعي شيئاً من الشاي، هه؟ الشاي مفيدٌ دائماً. ليتك توافقين، هه؟...

ـ أوافق طبعاً. إنك لا تزال طفلاً كما كنت. أعطني شاياً إذا كان عندك شاي ما أضيق مسكنك هنا! وما أشد البرد!

ـ آه... سأجيء بحطبٍ فوراً. عندي حطب!

كذلك هتف شاتوف وهو يتحرك ويسعى هنا وهناك. وتابع يقول:

ـ نعم... حطب... أي... وسآتيك بشاي أيضاً...

وتناول قبعته عازماً أمره.

ـ إلى أين تذهب؟ أليس عندك إذًا في البيت شاي؟

ـ سيكون عندي شاي، بعد لحظةٍ واحدة. سوف يكون عندنا كل ما يجب.

وتناول مسدسه من على الرف.

ـ سأبيع هذا المسدس... أو أرهنه.

يا للغباوة! وسيستغرق هذا زمناً طويلاً. إليك بعض النقود ما دمت لا تملك شيئاً. ههنا أربعةٌ وعشرون كوبكاً في ما أظن. ذلك كل ما معي. لكأن مسكنك مسكن رجلٍ مجنون.

ـ لا، لا، لست في حاجة إلى نقودك. أنا عائدٌ حالاً، بعد لحظة... سأدبر أمري حتى بدون المسدس!

وأسرع إلى كيريلوف. حدث هذا قبل زيارة بطرس ستيفانوفتش وليبوتين بساعتين تقريباً. إن شاتوف وكيريلوف، وهما يقيمان في مبنى واحد، كانا لا يتزاوران أبداً، وإذا اتفق أن التقيا عرضاً لم يكلم أحدهما الآخر ولم يسلِّم أحدهما على الآخر: لقد عاشا في أمريكا جنباً إلى جنب مدةً أطول مما يجب.

ـ كيريلـوف، أنـت عنـدك دائماً شـاي. فهل تسـتطيع أن تعطيني شـيئاً من الشاي وأن تعيرني السماور؟

كان كيريلـوف يسـير في الغرفة طـولاً وعرضاً على عادته (إنه يظل يسـير هكذا طول الليل)، فوقف وتأمل شاتوف بانتباه، ولكن بغير دهشةٍ كبيرة.

ـ عندي شـاي، وسـكر، ولكن لماذا السـماور؟ الشاي سـاخن: فاجلس واشرب.

ـ كيريلـوف، لقد عشـنا معاً في أمريكا... إن زوجتـي وصلت إلى بيتي... وأنا... أعطني شاياً... وإني أحتاج أيضاً إلى السماور.

ـ إذا كانـت زوجتـك قـد وصلـت فأنت في حاجـة إلى السـماور. لكنك سـتناله في ما بعد. عندي اثنان. أما الآن فخذ غلاية الشـاي من على المائدة. إنها سـاخنة، سـاخنةٌ جداً. خذ كل شيء، خذ السكر، خذ كل شيء. الخبز... عندي خبز كثير. خذ الخبز كله. وعندي أيضاً لحم عجل. وروبل.

ـ أعطني الروبل، سأرده إليك غداً. آه... كيريلوف!

ـ أهـي زوجتـك التـي كانت بسويسـرا؟ هذا حسـن. وحسـن أيضـاً إنك هرعت إليَّ.

صاح شاتوف يقول وهو يتأبط غلاية الشاي ويحمل بيديه الخبز والسكر:

ـ كيريلـوف! كيريلوف! ليتك تسـتطيع أن تتخلى عن نزواتك الرهيبة وأن تنبذ إلحادك. إذًا لصرت إنساناً كبيراً... يا كيريلوف!

ـ واضـحٌ أنك تحـب امرأتك بعد الذي حدث بسويسـرا. حسـنٌ جداً إذا احتجت إلى مزيد من الشاي فارجع إليَّ. في أية ساعة تعال. إنني أسهر الليل كله. سيكون السماور مهيأً. خذ الروبل. هذا هو. عد إلى زوجتك. سأبقى هنا وسأفكر فيك وفي زوجتك.

انقضّـت ماري شـاتوف على الشـاي بشـراهة، مسرورةً سـروراً واضحاً بسـرعة زوجها. ولكنهما لـم يحتاجا إلى السماور: فإنها لـم تشرب إلّا نصف فنجانٍ من الشـاي ولـم تزدرد إلّا قطعةً صغيرةً من الخبز. أما لحم العجل فقد نبذته مشمئزةً حانقة الهيئة.

قال شاتوف خجلاً وجلاً مع استمراره على التحرك حولها:

ـ أنت مريضة يا ماري. فيك شيءٌ مريض.

ـ طبعاً أنا مريضة. اجلس اجلس. من أين جئت بهذا الشاي؟ لم يكن عندك شاي.

شرح لها شاتوف، ببضع كلمات، من هو كيريلوف. وكانت قد سمعت عنه على كل حال.

ـ أعرف أنه مجنون. كفى، أرجوك. لا ينقصنا أغبياء. إذًا ذهبت إلى أمريكا؟ أنا أعلم أنك كتبت من هناك.

ـ نعم... كتبت... إلى باريس.

ـ كفى عن هذا الموضوع! لنتحدث عن شيء آخر! هل أنت من دعاة السلافية.

ـ أنا... ليس معنى هذا أنني... ولكن لأنني لم أستطع أن أكون روسياً، فقد أصبحت من دعاة السلافية.

قال شاتوف ذلك وهو يجبر نفسه على ابتسامة هي ابتسامة إنسانٍ يعلم أنه يمزح في غير موضع المزاح.

ـ ألست إذًا روسياً؟

ـ لا.

ـ هذه كلها سخافات. اجلس، أرجوك. ما بالك تركض هذا الركض يمنةً ويسرة؟ ألعلك تظن أنني أهذي؟ ربما هذيت بعد قليل. هل قلت إنكما في هذا المنزل اثنان لا أكثر؟

ـ نعم، اثنان... وتحت...

ـ وكلاكما ذكي كصاحبه؟ وتحت؟ لقد قلتَ منذ لحظة: "تحت"... فماذا تحت؟

ـ لا، لا شيء.

ـ كيف لا شيء؟

ـ أردت أن أقول إننا الآن اثنان لا أكثر، وتحت كانت تقيم أسرة لبيادكين.

ـ التي ذُبحت في هذه الليلة؟
ـ ألقت ماري شاتوف هذا السؤال وهي تنتصب فجأة. وتابعت تقول:
ـ سمعت عن القتلى منذ وصولي. وشبت عندكم حرائق أيضاً؟
ـ نعم يا ماري. ولعلني ارتكب دناءةً كبيرة في هذه اللحظة لأنني أغفر لأولئك الأوغاد...

قال شاتوف ذلك ونهض وأخذ يسير شاهراً قبضتي يديه في انتفاضة غضب.

ولكن ماري لم تفهمه. لقد كانت تسأل زوجها، غير أنها لا تصغي إلى أجوبته. قالت ماري:

ـ تحدث أشياءٌ جميلة في مدينتكم! آه... ما أحقر هذا كله! ليس هؤلاء جميعهم إلّا أوغاداً. ولكن لماذا لا تجلس؟ لشد ما تضايقني...

ولم تطق صبراً على ما بها، فهوت برأسها على الوسادة.

ـ ماري، سوف أجلس. تحسنين صنعاً إذا نمت يا ماري، ما رأيك؟

لم تجب ماري شاتوف وأغمضت عينيها. إنها بوجهها الشاحب أشبه بميتة. واستولى عليها الندم في تلك اللحظة نفسها تقريباً. نظر شاتوف حواليه. وقوَّم الشمعة. وبعد أن ألقى نظرةً قلقة أخيرة على المرأة الشابة، ضمَّ يديه إحداهما إلى الأخرى وخرج إلى فسحة السلم بخطى رقيقة لا يُسمع لها وقع. ولبث هنالك واقفاً قرابة عشر دقائق، ساكناً لا يتحرك، ملتفتاً بوجهه إلى الجدار. وكان يمكن أن يمكث مدةً أطول لولا أنه سمع خطى خفيفة: إن أحداً كان يصعد السلم ببطءٍ وحذر.

تذكر شاتوف أنه نسي أن يغلق باب فناء المنزل.

قال يسأل بصوتٍ خافت:

ـ مَنْ هنا؟

فلم يجب الزائر المجهول. حتى إذا وصل إلى فسحة السلم توقف. إن المرء لا يستطيع في هذا الظلام أن يميز وجهه. وها هو ذا يسأل مدمدماً على حين فجأة:

ـ إيفان شاتوف؟

فأجابه شـاتوف بنعم، وأسـرع يمد يده ليمنعه من الدخـول. ولكن الزائر أمسـك باليد الممدودة إليه، فارتعش شـاتوف كأنه لامس حية. وقال بصوتٍ مختنق:

ـ ابـق هنا. لا أسـتطيع أن أسـتقبلك الآن. لقد وصلت زوجتي. سـأجيء بشمعة.

فلما عاد حاملاً الشمعة رأى ضابطاً شاباً لا يعرفه إلّا وجهاً.

عرَّف الآخر بنفسه قائلاً:

ـ أنا إركل. لقد التقينا عند فرجنسكي.

ـ أذكر هذا. كنت تدوِّن ما يدور من نقاش.

وظـل شـاتوف يتكلّم بصوتٍ خافـت، وهو يقترب من الفتـى خارجاً عن طوره:

ـ اسـمع... أراك رسـمتَ علـى راحـة كفي إشـارة. فاعلم إذًا أننـي أحتقر هذه الإشـارات جميعاً وابصق عليها جميعاً. إننـي لا أقبل... لا أريد... إنني أستطيع أن أرميك إلى أسفل السلم، هل تعرف هذا؟

فقال الزائر بسذاجة:

ـ لا، إنني لا أعرف شيئاً. هناك شيءٌ عليَّ أن أبلغك إياه. وهذا هو السبب فـي أنني جئت بغيـر إبطاء. إن عندك آلة مطبعة ليسـت لك، ويجب عليك أن تردها إلى أصحابها كما تعلم ذلك أنت نفسك. لقد تلقيت أمراً بأن أقول لك إن عليك أن ترد الآلة غداً، في السـاعة السـابعة من المساء، إلى ليبوتين. وأنا مكلّف عدا هذا بأن أعلن لك أنك بعد ذلك لن يُطلب منك أي شيء.

ـ لن يُطلب مني أي شيء؟ أصحيح هذا حقاً؟

ـ لـن يُطلب منك شـيءٌ على الإطلاق. سـتتحقق رغبتك، سـتكون حراً. ذلك بعينه ما كُلِّفت بأن أنقله إليك.

ـ من أمرك بهذا؟

ـ الذين أبلغوني الإشارة.

ـ أأنت آتٍ من الخارج؟
ـ يخيَّل إليَّ، يخيَّل إليَّ... إنك يجب أن لا تكترث بهذا.
ـ طيب. ولكن لماذا لم تأت قبل الآن، منذ صدر إليك الأمر؟
ـ تقيدت بالتعليمات الصادرة إليَّ، ولم أكن وحدي.
ـ أفهم... أفهم أنك لم تكن وحدك. ولكن لماذا لم يجئ ليبوتين بنفسه؟
ـ سأجيء إليك غداً في الساعة السادسة من المساء، وسنمضي إلى هناك معاً، ولن يكون ثمة أحد غيرنا نحن الثلاثة.
ـ وفرخوفنسكي؟
ـ لن يكون هناك. إن فرخوفنسكي يسافر غداً في الساعة الحادية عشرة من الصباح.
دمدم شاتوف يقول محنقاً مغتاظاً وهو يلطم فخذه بقبضة يده:
ـ قدَّرت هذا. إنه يهرب، هذا الشقي!
وشرد ذهنه. وكان إركل ينتظر صامتاً، وهو يلاحظه بانتباه.
ـ ما عساكم تصنعون بالمطبعة؟ لا يمكنكم أن تحملوها في خلال المدينة على مرأى وعلم من جميع الناس.
ـ لن نأخذها. ستدلنا على المكان المدفونة فيه، فنتأكد من أنها موجودة حقاً. إننا نعرف الجهة ولكننا لا نعرف الموضع على وجه الدقة. هل سبق أن دللت أحداً على المكان؟
حدَّق إليه شاتوف متفرساً.
ـ صبي مثلك... أحمق صغير... ها أنت قد وقعت في الفخ كخروف! إنهم في حاجة إلى شباب مثلك فعلاً! طيب. انصرف الآن. إن ذلك الوغد قد ورَّطكم جميعاً، ولاذ بالفرار.
كانت هيئة إركل، المسالمة الساذجة، تدل على أنه لا يفهم.
وردَّد شاتوف يقول كازاً أسنانه:
ـ نعم، لقد هرب فرخوفنسكي، نعم، فرخوفنسكي!
قال إركل بلهجةٍ محببة مقنعة:

ـ ولكنه لا يزال هنا. إنه لم يسافر. لقد طلبت منه أن يحضر استرداد المطبعة شاهداً، كما تقتضي ذلك التعليمات التي صدرت إليَّ... فما كان أشد أسفي حين رفض ذلك بحجة السفر.

قال إركل ذلك مصطنعاً السذاجة، وأضاف:

ـ والحق أنه يتعجل السفر، لا أدري لماذا!

ألقى شاتوف نظرة شفقة على الغر المسكين، مرةً أخرى، ثم رفع منكبيه كأنما ليقول: "هل يستحق أن أرثي لحاله؟".

ثم أعلن قائلاً:

ـ طيب، سأجيء! والآن، هيَّا انصرف!

قال إركل وهو يحيي تحيةً مهذبة:

ـ سأتي إذًا لاصطحابك في الساعة السادسة تماماً.

وهبط السلم بغير تعجل. ولم يطق شاتوف أن يكظم ما بنفسه، فهتف يقول له من أعلى:

ـ مغفل!

وكان إركل قد وصل إلى تحت، فالتفت يسأله:

ـ ماذا؟

ـ لا شيء! هيَّا انصرف!

ـ ظننتك تريد أن تقول لي شيئاً.

2

إن إركل واحدٌ من أولئك "المغفلين الصغار" الذين يعجزون عن التفكير بأنفسهم فينفذون أوامر غيرهم أحسن تنفيذ، حتى لقد يبرهنون في تنفيذها على شيء من حسن الحيلة والمكر. إنه مخلص "للقضية" أو قل هو مخلص لفرخوفنسكي إخلاصاً متعصباً، إخلاصاً طفولياً، فهو يتصرف وفق التعليمات التي أصدرها إليه فرخوفنسكي عند "أصحابنا"، حين وزَّعوا في ما بينهم أدوار العمل في الغد. حتى إن بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي قد

انتحى به جانباً قبل الافتراق، وتحدث معه بضع دقائق. إن الطاعة حاجةٌ ملحة من حاجات هذه الطبيعة الغبية، الشرهة إلى الخضوع، باسم "قضيةٍ كبرى" أو "فكرةٍ عظيمة" طبعاً. ولكن الهدف ليس له على وجه الإجمال من شأن في هذه الحالة، لأن الشباب المتعصبين مثل إركل لا يفهمون الإخلاص لقضية إلّا بمقدار ما تكون هذه القضية متجسدة في شخصية تمثلها في نظرهم. إن إركل، على أنه حساسٌ ورقيقٌ وطيب، قد يكون أبعد هؤلاء المتآمرين عن الرأفة والرحمة، وسوف يساهم في مقتل شاتوف ربما من دون أي كرهٍ شخصي، ولكن من دون أي تردّدٍ أيضاً. لقد أوصي مثلاً بأن يلاحظ وضع شاتوف بانتباه، وحين أفلت من لسان شاتوف (ربما من دون أن يشعر بذلك) أن امرأته قد عادت إليه، كان إركل ماكراً مكراً كافياً من أجل أن يدرك أن عليه أن لا يُظهر أي فضولٍ بهذا الصدد. ومع ذلك حزر فوراً أن عودة ماري شاتوف يمكن أن تكون لها شأنٌ كبير في نجاح ما عقدوا النية على تنفيذه.

والحق أن هذا الحادث وحده هو الذي كان له الفضل في نجاة هؤلاء "الأوغاد"، وأن عودة امرأة شاتوف هي التي أتاحت لهم أن يتخلّصوا منه. إن عودة امرأة شاتوف قد قلبت شاتوف رأساً على عقب، وأخرجته عن عاداته، وجرَّدته مما عُهد فيه من محاذرة ونفاذ بصيرة. لقد غرق في مشاغله الجديدة، فأصبح الآن عاجزاً عجزاً مطلقاً عن التفكير في الخطر الذي كان معرَّضاً له. بالعكس: صار يحلو له أن يصدِّق حكاية هرب فرخوفنسكي التي تأتي مؤيدةً لجميع شكوكه أكبر تأييد.

عاد شاتوف إلى الغرفة، وجلس في ركن من الأركان، وأسند كوعيه إلى ركبتيه، وخبأ وجهه في يديه. إن خطراتٍ مُرة تعذبه.

وكان ينهض من حين إلى حين، فيمضي إلى السرير ماشياً على رؤوس الأصابع ليتأملها، فيقول محدثاً نفسه: "يا إلهي! لا شك أن حمى خبيثة ستلمُّ بها غداً، بل لعل الحمى قد بدأت! واضح أنها قد أصابها برد. إنها لم تألف هذا الجو الفظيع. ثم... الدرجة الثالثة بالقطار... والرياح في الخارج والأمطار!... إن معطفها خفيفٌ جداً!... ولا تكاد تكسوها ثياب! كيف

أتركها وأمنع عنها أية نجدة؟ وهذا الكيس... هذا الكيس الصغير، الخفيف، الذي لا يزيد وزنه على عشرة أرطال... في أكثر تقدير! مسكينة... كم تعذبت! كم احتملت من آلام! ولكنها ذات كبرياء، لذلك لا تتشكى! غير أنها غاضبةٌ محنقة! ما أشد حنقها! الذنب في هذا ذنب مرضها! المرض يجعل حتى الملائكة شديدي الحنق! لا بد أن جبينها محترقٌ جاف. ويا لهذه الهالة الزرقاء حول عينيها! و... ومع ذلك ما أجمل استدارة وجهها المستطيل! وهذا الشعر الرائع!..."

قال ذلك محدثاً نفسه ثم حوَّل عينيه بأقصى سرعة، وابتعد مروَّعًا من مجرد أن يرى فيها أكثر من إنسانة شقية معنَّاة مضناة يجب إسعافها. "هل يمكن أن تساور المرء آمال في مثل هذه اللحظة؟!... ما أدنأ الرجل و ما أسفله!".

ورجع إلى ركنه، وجلس ثانيةً، ودفن وجهه في يديه من جديد، واسترسل في الأحلام، والذكريات... وعادت الأحلام تنبعث في نفسه.

"آه... ما أشد ما أشعر به من تعب!" تذكر شاتوف هذه الصيحة، وتذكّر الصوت الضعيف المحطم. "رباه! كيف يمكنني أن أتركها في مثل هذه اللحظة! إنها لا تملك إلّا أربعة وعشرين كوبكاً. وقد مدت إليَّ محفظة نقودها، الصغيرة، العتيقة الرثة! إنها تبحث عن عملٍ... ماذا تعرف عما يجري هنا، بل ماذا يعرفون جميعاً عن روسيا؟ أطفال سذَّج أغرار يستطيعون الاسترسال في الأخيلة والأوهام! يا للمسكينة! إنها تغضب لأن روسيا لا تشبه الفكرة التي قامت في ذهنها عنها وهي في الخارج! مساكين! سذج أبرياء! ولكن... حقاً إن البرد هنا شديد!...".

تذكّر أنها اشتكت من البرد، وأنه وعد بإيقاد المدفأة. "عندي حطب. في وسعي أن أُصعده. بشرط أن لا أوقظها! سأحاول. وما العمل بلحم العجل؟ قد تأكل منه حين تستيقظ... سوف نرى! إن كيريلوف يظل ساهراً طول الليل! بأي شيءٍ يمكنني أن أغطيها؟ إنها نائمة نوماً عميقاً، ولكن لا شك في أنها تحس ببرد، ببردٍ شديد...".

دنا من السرير مرةً أخرى. كان ثوب المرأة الشابة مشموراً بعض الشيء فكانت ساقها اليمنى مكشوفة حتى الركبة. فتقهقر شاتوف بحركةٍ مفاجئة، كأنه أحس برعب، ونضا عن جسمه معطفه (محتفظاً بردنجوته وحده)، فغطى به ساقيها مشيحاً بعينيه عن النائمة.

هذه الأمور كلها ـ الاسترسال في الأحلام، التأمل، إيقاد المدفأة، السير في الغرفة ذهاباً و إياباً على رؤوس الأصابع ـ قد استغرقت ساعتين أو ثلاث ساعات جاء فرخوفنسكي وليبوتين في أثنائها إلى عند كيريلوف. ونام شاتوف أخيراً في ركنه. وانطلقت من صدر ماري أنةٌ على حين فجأة، لقد استيقظت من نومها ونادته. فانتفض كما ينتفض مجرم.

ـ ماري... لقد نمت... ما أشقاني يا ماري!

نهضت ماري، ونظرت حولها مدهوشة، فلعلها كانت لا تدرك أين هي! وها هي ذي تضطرب على حين فجأة، مستاءةً غاضبةً، وصاحت تقول له:

ـ لقد استوليت على سريرك. وغلبني النوم فنمت، ولكن لماذا لم توقظني؟ كيف أبحت لنفسك أن تظن أنني أريد أن أكون عالةً عليك؟

ـ هل كان يمكنني أن أوقظك يا ماري؟

ـ نعم، كان يمكنك أن توقظني، بل كان يجب عليك أن توقظني. ليس عندك إلّا سريرٌ واحد استوليت أنا عليه، فما ينبغي لك أن تضعني في موقفٍ خطأ! أتُراك تظن أنني أنتوي استغلال حسناتك؟ استرد سريرك فوراً، وسأرقد أنا على كراسي...

ـ ماري، ليس عندي كراسٍ كافية. ثم ليس عندي ما أضعه عليها.

ـ إذًا سأرقد على أرض الغرفة. وإلا سيكون عليك أنت أن ترقد على أرض الغرفة. سأنام على أرض الغرفة حالاً.

ونهضت، وتقدمت خطوة، إلّا أن آلام مغصٍ شديد قد جرَّدتها فوراً من كل قوة، ومن كل عزيمة، فعادت تتهالك على الكرسي في أنين. فهرع شاتوف إليها، ولكن ماري أمسكت يده، وشدت على هذه اليد شداً قوياً يكاد يهشمها، وهي تدفن رأسها في الوسادة.

ـ ماري، عزيزتي، إن الدكتور فرنتزل قريبٌ جداً من هنا. وأنا أعرفه جيداً... ففي وسعي أن أستدعيه.
ـ دعني و شأني!
ـ أين ألمك يا ماري، قولي لي! في إمكاننا أن نضع لك كماداتٍ ساخنة... على البطن. لا حاجة إلى طبيب من أجل هذا... أم تؤثرين قليلاً من دواء الخردل.
ـ سألته بصوتٍ غريب:
ـ ما هذا الكلام؟
ورفعت رأسها ونظرت إليه مرتاعةً.
قال شاتوف مدهوشاً:
ـ ماذا تعنين يا ماري؟ رباه! لقد فقدت عقلي تماماً. ماري، سامحيني. ولكنني لا أفهم شيئاً البتة.
ـ دعني. ليس هذا شأنك. بل إنه ليكون أمراً سخيفاً مضحكاً من جهتك أن...
وابتسمت بمرارةٍ.
وأردفت تقول:
ـ اقصص عليَّ شيئاً. امش وتكلم. إنني أطلب منك هذا للمرة المائة.
أخذ شاتوف يسير في الغرفة طولاً وعرضاً، محاولاً أن لا يرفع عينيه نحو المرأة الشابة.
ـ يوجد هنا ـ لا تزعلي يا ماري، أرجوك ـ يوجد هنا شيء من لحم العجل وقليلٌ من الشاي. إنك لم تأكلي إلّا قليلاً جداً...
فحركت ماري يدها بإشارة اشمئزاز وتقزز. فعضَّ شاتوف على شفتيه.
قالت ماري:
ـ اسمع. إنني أنتوي أن أفتتح هنا ورشة تجليد أقيمها على أسس الاشتراك المبنيِّ على العقل. فقل لي: ما رأيك؟ أأنجح أم أخفق؟

ـ لكن الناس عندنا لا تقرأ يا ماري. ولا توجد كتب. أنّى له "هو" أن يفكر في تجليد الكتب؟

ـ من "هو"؟

ـ القارئ. ساكن هذا المدينة يا ماري.

ـ هلا تكلمت بوضوح. ما معنى قولك "هو"؟ من هو؟ ألا تعرف قواعد النحو؟

دمدم شاتوف يقول متلعثماً:

ـ هذا في روح اللغة يا ماري.

ـ دعني من الروح هذه. أرحني من كلامك. لقد سئمت. ولماذا لا يجلّد القارئ هنا كتبه؟ لماذا لا يجلد ساكن هذه المدينة كتبه؟

ـ لأن قراءة كتاب وتجليده مرحلتان من مراحل الحضارة تضم كل منهما فترةً طويلة. ففي البداية يتعلم الإنسان القراءة، شيئاً فشيئاً، خلال عدة قرون، ولكنه لا يعتني بكتبه أي اعتناء، بل يعاملها معاملة شيءٍ ليس له أي قيمة، أما تجليد الكتاب فهو علامة على أن الكتاب أصبح يحظى باحترام، وهو يدل على أن الإنسان أصبح لا يحب أن يقرأ فحسب، بل على أنه أصبح يعرف ما للقراءة من عظيم الشأن. إن روسيا لم تبلغ هذه المرحلة حتى الآن. أما أوروبا فإنها تجلّد الكتب منذ مدةٍ طويلة.

قالت ماري:

ـ رغم لهجتك المتعالمة المتفيهقة، فإن ما تقوله ليس غبياً، وهو يذكرني بالأحاديث التي كانت تقوم بيننا منذ ثلاث سنين. لقد كنت لمّاح الفكر أحياناً قبل ثلاث سنين.

نطقت ماري هذه الكلمات بتلك اللهجة نفسها التي تكلمت بها حتى تلك اللحظة، وهي لهجة فيها اشمئزاز، وفيها جموحٌ ونزوة.

عاد شاتوف يتكلم فقال في حنان:

ـ ماري، ماري! أوه! ماري! ليتك تعرفين جميع التغيرات التي حدثت منذ ثلاث سنين حتى الآن! لقد سمعت عنك أنك تحتقرينني لأنني تخليت

عن اعتقاداتي السابقة! وهل تعلمين ما الذي أصبحت أنبذه وأرفضه؟ لقد أصبحت أنبذ أعداء الحياة الحية، صرت أرفض اللبراليين الصغار المتخلّفين الذين يخشون استقلال أنفسهم، صرت أنبذ العبيد من أدعياء الفكر، وصرت أنبذ أعداء الحرية والشخصية، وصرت أنبذ أولئك المنحطين من دعاة التحلل والفساد والتفسخ. ماذا نجد عند هؤلاء؟ إننا نجد عندهم التردي، والتفاهة، والسخف في أحقر أشكاله وأكثرها بورجوازية، ونجد مساواة الحسد، المساواة الخالية من الكرامة الشخصية، المساواة كما يتصورها خادمٌ أو كما كان يتصورها فرنسيٌّ عام 93... والأنكى من ذلك أنهم جميعاً ليسوا إلّا أوغاداً، أوغاداً، أوغاداً!...

دمدمت ماري تقول بصوتٍ فيه ألم:

ـ نعم، هناك أوغادٌ كثر...

كانت مستلقية استلقاءً تاماً، على الجنب قليلاً، كأنها تخاف أن تتحرك، محدقةً إلى السقف بنظرة ثابتة محمومة. وكان وجهها شاحباً وكانت شفتاها يابستين محترقتين.

قال شاتوف:

ـ أتسلِّمين إذًا بهذا يا ماري؟ أتسلِّمين به؟

فهمَّت أن تحرك يدها بإشارة إنكار، غير أن مغصاً جديداً عقف جسمها فجأةً، فهرع إليها شاتوف كالمجنون من الذعر، فشدت على يده بكل ما تملك من قوة، دافنةً وجهها في الوسادة، كما فعلت في المرة الأولى.

ـ ماري، ماري! قد يكون مرضك خطيراً! ماري!

فصرخت تقول بما يشبه الغضب الحانق وهي تدير ظهرها:

ـ اسكت... لا أريد! لا أريد! إنني أمنعك من أن تنظر إليَّ هكذا. إنني لا أريد شفقتك. إنني أرفض هذه الشفقة. امش، تكلم، قل أي شيء!...

كان شاتوف كمن ضاع عقله تماماً، فدمدم ببضع كلمات غير متميزة.

فقاطعته سائلةً بصوتٍ منزعج:

ـ ما الذي تعمله هنا؟

ـ أعمل في مكاتب تاجرٍ من التجار. ولو شئت يا ماري لكسبت هنا مالاً كثيراً.

ـ هنيئاً لك به...

ـ لا تتخيلي يا ماري أنني... أنا لم أقصد شيئاً البتة...

ـ وماذا تعمل أيضاً؟ إلى ماذا تدعو؟ إنك لا تستطيع الامتناع عن الدعوة إلى شيءٍ ما: ذلك في طبعك.

ـ أدعو إلى الله يا ماري.

ـ الذي لا تؤمن به أنت نفسك. إنني لم أستطع أن أفهم هذه الفكرة في يومٍ من الأيام.

ـ دعينا من هذا يا ماري. سوف نتحدث عنه في ما بعد.

ـ ماذا كانت ماريا تيموفئفنا تلك؟

ـ هذا أيضاً ندعه الآن ونتحدث عنه في ما بعد.

ـ أمنعك من أن تكلمني بهذه الطريقة! هل صحيح أن جريمة القتل هذه إنما هي من صنع أولئك... الأوغاد.

ـ بدون أي شك يا ماري.

قال شاتوف ذلك كازاً أسنانه. فأنهضت ماري رأسها، وهتفت تقول له:

ـ أمنعك من أن تحدثني عن هذه الأمور أبداً... أبداً...

وتهالكت على السرير وقد وافتها آلام أخرى عنيفة. هذه ثالث نوبة. غير أن الأنّات في هذه المرة قد أصبحت صرخات.

قالت:

ـ آه... إنك لا تُطاق! لا تطاق!

وكانت تتخبط وتدفع عنها شاتوف الذي مال عليها.

قال لها شاتوف:

ـ ماري، سأفعل ما تريدين، سأمشي وأتكلم...

ـ ولكن ألا ترى إذًا أنّ الأمر بدأ؟

ـ الأمر بدأ؟ أي أمرٍ بدأ؟

ـ لا أعرف! لا أفهم شيئاً! آه... لعنة الله عليَّ... لعنة الله على كل شيء!

ـ ماري، ليتك تقولين لي ما هو الأمر الذي بدأ... إذ ماذا أستطع أن أفعل؟... إنني لا أفهم...

ـ أنت رجلٌ ثرثار لا فائدة منه، أنت مغرور متفيهق... آه... ألا لعنة الله عليكم جميعاً!...

ـ ماري! ماري!

وأخذ يعتقد أنها جُنَّت.

فنهضت ماري نصف نهوض ونظرت إليه، وقالت له:

ـ ألست ترى إذًا أنني في مخاض؟

وكان الكره والألم قد قلبا وجهها. وأردفت تقول:

ـ ألا فلتحل اللعنة على هذا الولد!

هتف شاتوف يقول وقد أدرك أخيراً ما يحدث:

ـ ماري! ماري! لماذا لم تقولي لي قبل الآن؟

وتناول قبعته بحركةٍ حازمة. قالت ماري تجيبه:

ـ وهل كنت أعرف ذلك حين دخلت إلى هنا؟ أكنت أجيء إليك لو كنت أعلمه؟ لقد قيل لي إنني لن ألد إلّا بعد عشرة أيام. إلى أين تذهب؟ إلى أين تذهب؟ إنني أمنعك...

ـ سأجيء بمولِّدة. سوف أبيع مسدسي. نحن الآن في حاجةٍ إلى المال قبل كل شيء.

ـ أمنعك من أن تفعل أي شيء. لا أريد مولِّدة... تكفيني أية امرأة عجوز. لا يزال معي أربعة وعشرون كوبكاً في محفظة نقودي... الفلاحات يستغنين عن المولِّدة. وإذا فطست، كان ذلك أفضل...

ـ سأجيء بامرأة عجوز، وبمولِّدةٍ أيضاً. ولكن كيف أتركك وحيدةً يا ماري؟

لكنه وقد قدَّر أن تركها الآن وحيدةً خيرٌ من تركها وحيدةً بعد حين، هُرع يهبط السلم مسرعاً، لا يلتفت إلى أنَّاتها وصرخاتها.

3

دخل شاتوف أولاً على كيريلوف. كانت الساعة قريبةً من الواحدة. إن كيريلوف واقفٌ في وسط غرفته.

ـ كيريلوف، امرأتي تلد.

ـ كيف؟

ـ تلد. سوف تلد ولداً.

ـ أأنت متأكد؟

ـ نعم، الآلام بدأت. هي في حاجةٍ إلى امرأةٍ عجوز ما... فوراً... هل يمكننا العثور على واحدة؟ كان هنا عجائز كثيرات...

قال كيريلوف:

ـ يؤسفني أني لا أُحسن التوليد... أقصد لا أعرف كيف يكون التوليد... أوه!... إنني لا أهتدي إلى الكلمات التي تعبِّر عن قصدي.

ـ تريد أن تقول أنك لا تستطيع أن تساعد امرأةً تلد. ولكن ليس هذا هو الأمر. ما نحن في حاجةٍ إليه إنما هو امرأةً عجوز، خادمة، ممرِّضة...

ـ سنأتي بواحدةٍ. ولكن قد لا تستطيع إحضارها فوراً. أستطيع أن أحلَّ محلَّها إذا شئت.

ـ أوه! مستحيل. أنا ذاهبٌ فوراً إلى عند المولِّدة فرجنسكي.

ـ حقيرة!

ـ نعم يا كيريلوف، لكنها خير مولِّدة. صحيح أن كل شيء سيجري معها بغير رأفة، وبغير فرح، وبغير حب، صحيح أنها فظة غليظة القلب. آه... ما أكبره من سرٍ مع ذلك أن يولد كائنٌ جديد! وما أعجب ماري إذ تلعنه منذ الآن!...

ـ إذا شئت فإنني...

ـ لا، لا، ولكن أثناء غيابي (نعم، سأجيء بها هذه الفرجنسكي) اصعد أنت إلى غرفتي من حينٍ إلى حين، وتنصَّت من خلال الباب على

ما يجري. ولكن لا تدخل، لأنك سترعبها إذا دخلت. لا تدخل أبداً. تنصَّت فقط. لا يعرف المرء ماذا يمكن أن يحدث. فإذا سمعت شيئاً رهيباً يحدث، فادخل عند ذاك.

ـ فهمت. إليك هذا الروبل أيضاً. كنت أريد أن آكل في الغد دجاجةً. أما الآن فقد صرفت النظر عن ذلك. اركض بسرعةٍ، اركض بكل ما تملك من قوة. سيظل السماور يغلي طول الليل.

كان كيريلوف يجهل كل شيءٍ عن المؤامرة المبيتة لشاتوف. بل إنه كان لا يخطر بباله الخطر الذي يتعرّض له شاتوف. كل ما كان يعرفه هو أن بين "هؤلاء الناس" وبين شاتوف حسابات قديمة. ومع ذلك كان قد أُقحم بعض الإقحام في هذه القضية، على أثر تعليمات تلقاها في الخارج (وهي على كل حال تعليمات مبهمة وسطحية، لأن كيريلوف قد ظل دائماً في خارج الجمعية)، ولكنه في الآونة الأخيرة كان قد ترك كل شيء، وتحرّر من جميع المهمات، ونأى بنفسه عن كل أمرٍ من الأمور، ولا سيما "العمل المشترك"، وانصرف انصرافاً تاماً إلى حياة التأمل وحدها. لذلك فرغم أن فرخوفنسكي قد جاء إلى كيريلوف مع ليبوتين بغية أن يقتنع ليبوتين بأن كيريلوف سيرضى أن ينسب إلى نفسه مقتل شاتوف، فإن بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي لم يقل لكيريلوف كلمةً واحدةً عن هذه القضية، مقدِّراً أن ذلك خطرٌ، لأن كيريلوف ليس بالرجل الذي يوثق به ويُطمأن إليه. وهكذا آثر أن يرجئ الإيضاحات إلى الغد، وأن يضع كيريلوف أمام الأمر الواقع. كان فرخوفنسكي يقول لنفسه: إن كيريلوف ستستوي عنده جميع الأمور في تلك اللحظة. وقد لاحظ ليبوتين جيداً أن فرخوفنسكي لم يجئ على ذكر شاتوف عند كيريلوف، رغم الوعد الذي بذله "لأصحابنا". ولكن ليبوتين كان عندئذٍ أكبر اضطراباً وأشد انفعالاً من أن يعترض أو يحتج.

ركض شاتوف إلى شارع "النملة" بسرعة الريح، لاعناً طول الطريق شاعراً بأنه لن يصل إلى نهايته.

وكان أفراد أسرة فرجنسكي قد ناموا جميعاً منذ مدة طويلة حين طرق

شـاتوف بابهـم. فلما لـم يتلقَّ أي جواب أخـذ يضرب مصـراع الباب بقبضة يده ضرباتٍ قوية. فأخذ كلب من كلاب الحراسـة في فناء المنزل ينبح نباحاً شـديداً حانقاً، وهو يجر سلسلته. وطفقت كلاب الشارع كلها تردُّ على نباحه بنباح مثله فوراً. فكانت جلبة رهيبة.

وفتحت كوة النافذة أخيراً.

ـ ما بالك تطرق الباب هذا الطرق، وماذا تريد؟

إنه فرجنسكي، الذي يتعارض صوته الرقيق تعارضاً واضحاً مع الضوضاء الشديدة.

وعـلا صـوتٌ صـارخ غاضب حانق يسـأل منسـجماً فـي هـذه المرة مع الظروف، هو صوت أخت زوجة فرجنسكي، العانس:

ـ من الطارق؟ من هذا الوغد؟

ـ أنا شاتوف. امرأتي عادت، وقد جاءها المخاض فهي تلد...

ـ طيب. مع السلامة.

ـ جئت سـاعياً إلى أرينا بروخوروفنا أريد اصطحابها، ولن أنصرف بدون آرينا بروخوروفنا.

ـ إنهـا لا تسـتطيع أن تذهـب إلـى أي بيت. ولا يحـق لجميـع الزبائن أن يوقظوها في الليل. اذهب إلى ماكشايفنا، ودعنا وشأننا.

كذلك صرخت العانس ساخطةً. وكان يُسمع مع ذلك أن فرجنسكي كان يحاول أن يسكتها، ولكنها كانت تدفعه عنها ولا تدع له أن يتكلم.

صرخ شاتوف يقول مكرراً:

ـ لن أنصرف.

فأجابـه فرجنسـكي الـذي اسـتطاع أخيراً أن يبعـد أخت زوجتـه عن كوة النافذة:

ـ انتظر! انتظر! أرجوكَ يا شاتوف، انتظر خمس دقائق، وسوف أوقظ آرينا بروخوروفنا... ولكن كفاكَ طرقاً ونداءً. هذا فظيع!

وبعـد دقائق خمس أحسَّـها شـاتوف دهراً، ظهرت آرينـا بروخوروفنا في النافذة.

قالت له من الكوة تسأله:

ـ أرجعت زوجتك إليك؟

فما كان أشـدَّ دهشـته من أن صوتها لـم يكن غاضباً، كان صارماً فحسب! الحق أن آرينا بروخوروفنا لا تستطيع أن تتكلّم بغير هذه الطريقة.

قال يجيبها:

ـ نعم رجعت. وهي الآن تلد.

ـ ماريا أجناتيفنا؟

ـ نعم، ماريا أجناتيفنا طبعاً.

وساد صمت. كان شاتوف ينتظر. وسمع تهامس وراء الزجاج.

سألت السيدة فرجنسكي:

ـ هل وصلت منذ مدةٍ طويلة؟

ـ هذا المساء، الساعة الثامنة. تعالي بسرعة، أرجوك...

واستؤنف التهامس: لعلهم يتشاورون.

ـ ألست مخطئاً؟ أهي التي أرسلتك؟

ـ لا، لم ترسلني إليك. لقد طلبت أية امرأةٍ عجوز، حتى لا تتكلّف نفقات. ولكن لا تخافي. سأدفع لك.

ـ طيـب. سـأجيء، سـواء أدفعـت أم لم تدفـع. لطالما قـدرت العواطف الاستقلالية لدى ماريا أجناتيفنا، رغم أنها لا تتذكرني أغلب الظن. هل عندك الأشياء الضرورية في البيت؟

ـ لا، ليس عندي شيء، ولكن يمكن إحضار أي شيء...

حدّث شـاتوف نفسـه قائلاً وهو يتجـه إلى بيت ليامشـين: "هؤلاء الناس قـادرون على الكـرم مع ذلك. إن الإنسـان وأفكاره شـيئان مختلفان اختلافاً كبيراً، فيما يخيَّل إليَّ. لعلني مخطئ كثيراً في حقهم... جميع البشر مذنبون... جميعهم يخطئون... ولكن ليتهم يدركون ذلك!...".

لم يحتج شاتوف إلى أن يطرق باب ليامشين مدةً طويلة. وما كان أشد دهشته حين رأى ليامشين يفتح الكوة على الفور تقريباً: لقد قفز من سريره حافي القدمين متعرضاً للإصابة بالبرد، رغم أنه رهيف العناية بنفسه شديد الاهتمام بصحته. غير أن تعجله كان له في تلك اللحظة سببٌ خاص: إنه منذ الاجتماع الذي عقده أصحابنا يحس باضطرابٍ شديدٍ وقلق عنيف فلا يستطيع أن ينام. كان يرتعد خوفاً، وينتظر في كل لحظة ظهور زوار لا يرغب في زيارتهم. وكان الشيء الذي يعذبه خاصةً هو وشاية شاتوف التي كان لا يشك في أن شاتوف مقدم عليها لا محالة. وهذا بابه يُطرق طرقاً قوياً.

فلما لمح شاتوف بلغ من الرعب أنه أوصد الكوة ورجع إلى سريره.

وعاد شاتوف يطرق الباب ويصرخ.

صاح ليامشين يقول بصوتٍ مهدِّد متوعِّد ولكنه كان يرتعد خوفاً، صاح يقول بعد دقيقتين حين قرر أن يفتح الكوة واستطاع أن يقتنع بأن شاتوف وحيدٌ ليس معه أحد:

ـ كيف تجرؤ أن تحدث هذه الجلبة كلها في الليل؟

ـ هذا مسدسك، خذه وأعطني خمسة عشر روبلاً.

ـ ما معنى هذا؟ أأنت سكران؟ هذا عمل خليق باللصوص وقطّاع الطرق. سوف يصيبني زكام. انتظر قليلاً، ريثما أتدثر بمعطف.

ـ أعطني خمسة عشر روبلاً على الفور. وإلا ظللت أصرخ وأطرق الباب إلى الصباح. لسوف أحطم النافذة.

ـ وأنا سأصرخ مستنجداً، فتُسجن.

ـ أتظن أنني سأظل أخرس فلا أستدعي الشرطة؟ من منا نحن الاثنين أحرى بأن يخاف الشرطة، أأنا أم أنت؟

ـ كيف يمكن أن تراودك أفكار دنيئة هذه الدناءة كلها!... إنني أعرف إلى ماذا تلمح. انتظر. انتظر. لا تطرق الباب. رحماك! هل يمكن أن يملك المرء في بيته ليلاً مبالغ ضخمة كالتي تطلبها؟ وما حاجتك إلى المال إذا لم تكن سكراناً؟

ـ إن امرأتي رجعت. لقد خفَّضت لك عشرة روبلات. ولم أطلق من المسدس رصاصةً واحدةً. استردَّ المسدس. استردَّه فوراً. في هذه اللحظة!

مدَّ ليامشين يده من الكوة بحركة آلية وأخذ المسدس. ولكنه بعد لحظة تفكير أطلَّ برأسه مرةً أخرى ودمدم يقول زائغ الهيئة مرتعشاً كل الارتعاش:

ـ أنت تكذب. لم ترجع امرأتك... كل ما هنالك أنك تريد أن تهرب.

ـ يا لك من غبي أبله! لماذا عساني أهرب؟ إن صاحبك بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي هو الذي يهرب، لا أنا. لقد ذهبت إلى زوجة فرجنسكي ورضيت أن تأتي. اسأل. إن زوجتي تلد. أنا في حاجةٍ إلى مال. أعطني خمسة عشر روبلاً.

ها هي ذي نيرانٌ من أفكار متناثرة تنتشر في رأس ليامشين. إن الموقف يبدو له في ضوءٍ جديد كل الجدة على حين فجأة. ولكن الخوف زاد عقله ظلاماً.

ـ ولكن كيف هذا؟... إنك لم تكن تعيش مع امرأتك!

ـ سأحطم رأسك إذا ألقيت أسئلةً كهذه!

ـ أوه! سامحني. فهمت. ولكن ذلك النبأ قد أدهشني... فهمت... فهمت... ولكن هل رضيت آرينا بروخوروفنا أن تجيء حقاً؟ لقد زعمت في البداية أنها عندك منذ الآن. ألم يكن صحيحاً إذًا؟ أرأيت كم تكذب في كل لحظة؟

ـ لا شك أنها الآن عند امرأتي. لا تؤخرني. ليس ذنبي أنا أنك غبيٌّ أبله.

ـ لا، لست غبياً. هذا غير صحيح. معذرةً، يستحيل عليَّ تماماً أن...

قال ليامشين ذلك، وفقد صوابه من جديد، فعاد يغلق الكوة. ولكن شاتوف أطلق صرخات بلغت من القوة أن ليامشين ظهر ثانيةً.

ـ هذا اعتداءٌ عليَّ... لا أكثر و لا أقل! ماذا تريد مني؟ هيَّا، قل، ماذا تريد مني؟ أفصح عن مرادك. ولاحظ، لاحظ أن الوقت ليل.

ـ أريد خمسة عشر روبلاً يا حمار!

ـ ولكن ربما كنت لا أريد استرداد المسدس. ليس هذا من حقك إنك قد

اشتريت وانتهى الأمر، فليس من حقك أن ترد ما اشتريت. لست أملك مبلغاً كهذا المبلغ ليلاً. أين لي بمثل هذا المبلغ الآن؟ من أين عساني أجيئك به؟

ـ لا يخلـو بيتك من مالٍ أبداً. لقد تنازلت لك عن عشـرة روبلات، ولكن جشعك أمرٌ معروفٌ جداً.

ـ تعـال بعد غد. هل فهمت؟ بعد غد صباحاً، عند الظهر تماماً، فأرد إليك كل شيء، كل شيء، هه؟

عاد شاتوف يضرب بقبضة يده إطار النافذة ضرباتٍ قوية. ثم قال:

ـ أعطني عشرة روبلات حالاً، ثم تعطيني الباقي غداً في الصباح.

ـ لا بل خمسـة روبلات بعد غد في الصباح. أما غداً، فمستحيل مستحيلٌ كل الاستحالة. لا فائدة من مجيئك غداً، لا فائدة البتة!

ـ هات عشرة روبلات يا حقير!

ـ لمـاذا تشـتمني و تهينني؟ انتظر حتى أشـعل شـمعة. لقد كسـرت مربع الزجاج. يا لها من فكرة أن يجيء المرء إلى الناس ليلاً لإهانتهم! خذ!

قال ليامشين ذلك ومدَّ إلى شاتوف ورقة نقدية.

تناول شاتوف الورقة، إنها خمسة روبلات.

قال له ليامشين:

ـ أحلـف لـك أنني لا أسـتطيع أن أعطيك أكثر من هذا. اقتلني إذا شـئت. ولكن هذا كل ما أملك أن أعطيك. بعد غدٍ، ممكن. أما الآن، فلا...

أعول شاتوف قائلاً:

ـ لن أنصرف!

ـ طيب. خذ أيضاً. هاتان ورقتان. ولكن ذلك كل شـيء. اصرخ ما شـئت أن تصرخ، فلن أعطيك شيئاً آخر... لا... لا... لا!...

كان يشعر بكربٍ رهيب، وكان العرق يتصبّب منه.

نظر شـاتوف في الورقتين النقديتين. إن كلاً منهما روبلٌ واحد. فمجموع ما قبضه إذًا سبعة روبلات.

قال شاتوف:

- شيطانٌ يأخذك! سأعود غداً يا ليامشين، ولأقتلنك إذا لم تكن قد أعددت لي الثمانية روبلات الباقية.

فحدث ليامشين نفسه قائلاً: "وأنا لن اكون غداً في البيت أيها الغبي!".

وصاح يقول لشاتوف الذي كان قد أخذ يركض مسرعاً:

- انتظر لحظة، انتظر. ارجع. قل لي: هل رجعت إليك زوجتك حقاً؟

فأجابه شاتوف قائلاً:

- غبي!

4

كانت آرينا بروخوروفنا لا تعلم شيئاً عن القرارات التي اتّخذت أمس في الاجتماع. ذلك أن فرجنسكي، حين عاد إلى البيت، وكان مصعوقاً، لم يجرؤ أن يحدث امرأته في الأمر. لكنه في صباح الغد لم يطق صبراً فروى لها جزءاً مما يعرف، أي قال لها إن المعلومات المتوفرة لدى فرخوفنسكي تشير إلى أن شاتوف يستعد لأن يشي بالجميع. ولكن فرجنسكي حرص على أن يضيف إلى ذلك قوله إنه من جهته لا يصدِّق هذه الدعوى كثيراً. ومع هذا شعرت آرينا بروخوروفنا برعبٍ شديد. وذلك هو السبب في أنها، رغم تعبها الشديد كل الشدة بسبب إشرافها في الليلة البارحة على ولادة عسرة، قد قررت أن تذهب إلى شاتوف بلا إبطاء حين سعى إليها شاتوف طالباً معونتها. لقد كانت دائماً مقتنعة بأن رجلاً إمَّعة مثل شاتوف لا يتورّع أي تورّع عن ارتكاب دناءة من هذا النوع، ولكن وصول ماريا أجناتيفنا يبدل الوضع تبديلاً كاملاً. إن ذعر شاتوف، وكربه، ويأسه، وتوسله، وضراعته، إن ذلك كله يدل على أن عواطف الخائن قد تغيرت: إن رجلاً يقرر تسليم نفسه لا لشيء غير تضييع الآخرين، لا يمكن أن يكون وجهه هذا الوجه، ولا يمكن أن تكون لهجته هذه اللهجة. كذلك كانت تقول لنفسها آرينا بروخوروفنا. الخلاصة: لقد قررت أن ترى كل شيء بعيني رأسها، وأن تعرف كل شيء بنفسها. وقد سُرَّ فرجنسكي كثيراً من قرارها هذا. حتى لقد شعر بأنه يتخفف من حملٍ

ثقيل، بل إنه أخذ الآن يأمل خيراً: إن وضع شاتوف يتعارض تعارضاً تاماً مطلقاً مع شكوك فرخوفنسكي.

لم يخطئ شاتوف: فحين وصل إلى البيت كانت آرينا بروخوروفنا قد سبقته إليه. وقد بادرت آرينا بروخوروفنا منذ وصولها إلى طرد كيريلوف الذي كان يترقب عند أسفل السلم. ولم تشأ المريضة أن تتعرف المولِّدة على أنها من قدامى الأصحاب. كانت في حالةٍ نفسية سيئةٍ جداً، فهي شريرة شرسة ساخطة قد استبد بها وسيطر عليها "يأسٌ فيه جبن لا مثيل له"، على حد تعبير آرينا بروخوروفنا. ولكن آرينا لم تلبث أن طوَّعتها بعد خمس دقائق في أكثر تقدير.

وحين دخل شاتوف كانت تقول لها:

ـ ما بالك تكررين أنك لا تريدين مولِّدة باهظة الأجور؟ هذه سخافة، هذه آراء فاسدة ناشئة عن حالتك التي ليست حالة طبيعية سليمة. إذا جاءتك امرأة عجوز ما، فمن الجائز أن تجري الأمور مجرى سيئاً. هذا أحد احتمالين متساويين قوةً. ثم إنك قد تقعين في مشاكل وتدفعين نفقاتٍ ضخمة إذا لم تتعهدك مولِّدة ماهرة تزعمين أنها باهظة التكاليف. ثم من قال لك إن أجوري غالية؟ سوف تدفعين لي في المستقبل، ولن أطلب منك كثيراً. وأنا من جهة أخرى أضمن لك النجاح والسلامة. لن تموتي بين يدي. ما أكثر ما رأيت من حالاتٍ كحالتك! أما الولد فسأحمله منذ الغد إلى ملجأ، ثم نعهد به إلى مرضع في الريف، فينتهي كل شيء. حتى إذا شُفيت وجدت عملاً، فما هو إلّا وقتٌ قصير حتى تكونين قد عوَّضت شاتوف أجور الإقامة والنفقات التي لن تكون ضخمة إلى الحد الذي تتصورين...

ـ لا يحق لي أن أكون عالةً عليه...

ـ هذه عواطف معقولة ومشاعرُ نبيلة. ولكن ثقي أن شاتوف لن يتكبد أية نفقة إذا هو رضي أن يترك أوهامه وأخيلته وأن يعتنق آراءً أسلم وأصح. يكفي أن لا يرتكب حماقات، أن لا يجري في المدينة مدلِّياً لسانه نافخاً في بوق. إن شاتوف، إذا لم يحتجز بالقوة، لن يتورع عن الذهاب منذ الغد إلى جميع أطباء

المدينة بغية اصطحابهم إليك. عندي أنا، أهاج جميع كلاب الحي. لست في حاجةٍ إلى طبيب. قلت لك إنني أضمن كل شيء. على أنك تستطيعين أن تستعيني بامرأةٍ عجوز لخدمة البيت. هذا لا يكلّف نفقةً ذات بال. ثم إن شاتوف يمكن أن يفيد في شيءٍ ما أيضاً. إن له ذراعين وساقين. فسيذهب إذًا إلى الصيدلية من دون أن يجرح هذا كرامتك. ما هذا منةٌ منه وكرم. أليس هو الذي جعلك في هذا الوضع؟ ألم يوقع شقاقاً بينك وبين تلك الأسرة التي كنت تعملين عندها مربية، ولم يكن له من ذلك إلّا هدفٌ أناني هو أن يتزوجك؟ لقد سمعنا عن هذا... ثم إنه قد هرع إلينا كالمجنون وأحدث جلبةً كبيرة. إنني لا أريد أن أفرض حضوري على أحد. وإنني لم أجئ إلّا من أجلك أنت تقيداً بالمبدأ، لأن جماعتنا يجب أن ينصر بعضها بعضاً. قلت له هذا حتى قبل أن أخرج من بيتي. فإذا كان وجودي في نظرك نافلاً فوداعاً إذًا! بشرط أن لا يقع لك سوء، وهو سوء ليس تحاشيه بالأمر السهل.

كذلك قالت آرينا بروخوروفنا، حتى لقد قامت لتنصرف.

وكانت ماري قد بلغت من الضعف والألم، وبلغت من الخوف مما ينتظرها في الواقع أنها لم تجسر أن تدع آرينا بروخوروفنا تنصرف. ولكن آرينا بروخوروفنا أصبحت كريهةً في نظرها فجأةً: إن كل ما قالته آرينا كان متعارضاً أشد التعارضِ مع ما كان يحدث في نفس ماري. غير أن خوفها من أن تموت بين يدي مولِّدة ليست بذات خبرة قد جعلها تتغلب على نفورها من آرينا وكرهها لها، وكذلك أصبحت تجاه شاتوف منذ تلك اللحظة أكثر شدةً وأقل رحمة، حتى لقد حظرت عليه في النهاية لا أن ينظر إليها فحسب، بل أن يلتفت بوجهه نحوها.

وتفاقمت الآلام مزيداً من التفاقم، واشتدت اللعنات والشتائم التي تطلقها ماري مزيداً من الاشتداد.

قالت آرينا بروخوروفنا:

ـ سنطرده إلى الخارج. إنه بوجهه المنقلب يبث في نفسك الخوف والرعب. إنه شاحبٌ كميت.

والتفتت تقول لشاتوف:

ـ ولكـن فيـم يعنيك أنت هـذا؟ ألا إنك لرجلٌ غريبٌ شـاذٌ حقـاً! ما هذه المهزلة!

لم يجب شاتوف. لقد قرر أن يلتزم الصمت.

ـ رأيـت فـي مثل هذه الأحـوال آباءً بلهـاء يفقدون عقولهـم تماماً. ولكن أولئك على الأقل...

ـ اسكتي، أو دعيني أفطس! لا يقل أحدٌ كلمةً بعد الآن لا أريد. لا أريد.

كذلك صرخت ماري.

ـ يستحيل علـى المرء أنِ لا يفتح فمه. لا بد أن يكـون المرء قد فقد عقله حتى يفرض مثل هذه المطالب. ولكنك في حالةٍ غير طبيعية. لنتكلم في أمورٍ جدية على الأقل. قولي لي: هل أعددت كل شيء؟ أجب يا شاتوف. هي في حالة لا تمكنها من الإجابة.

ـ قولي لي ما هي الأشياء اللازمة تماماً.

ـ ألم تُهيىء إذًا شيئاً؟

كذلـك أجابته آرينـا بروخوروفنا، ثم أخذت تحصي له مـا هي في حاجةٍ إليـه. يجـب أن نذكر لها هذا الفضـل، وهو أنها لم تطلـب إلّا ما هو لازمٌ كل اللزوم. وقد اتضح أن بعض الأشياء المطلوبة متوفرةٌ عند شاتوف. وأخرجت مـاري مفتاحها ومدَّته إليـه ليفتح الكيس الذي حملته في سـفرها. وإذ كانت يداه ترتعشـان فقد اسـتغرق إدخـال المفتاح في القفل وقتـاً أطول من الوقت اللازم، فأثار هذا حنق ماري وأغاظها غيظاً شـديداً. ولكن حين هرعت آرينا بروخوروفنـا لتأخذ المفتاح من يدي شـاتوف لم تشـأ المريضة أن تنظر آرينا في كيسـها وأصرَّت باكيةً صارخةً على أن يكون شاتوف هو الذي يتولى فتح الكيس.

وكان لا بـد مـن الذهاب إلى كيريلوف لإحضار بعض الأشـياء. ولكن ما إن غـادر شـاتوف الغرفـة حتى أخذت مـاري تناديه بصرخاتٍ كبيـرة، ثم لم تهدأ ثائرتها إلّا حين رجع شـاتوف مسـرعاً ليشـرح لها أنه لا يخرج إلّا لحظةً

واحدة، وأن خروجه لا غنى عنه، وأنه عائد على الفور.

قالت آرينا بروخوروفنا ضاحكةً:

ـ ما أصعب إرضاءك يا سيدتي الصغيرة! فتارةً تطلبين أن يُلصق أنفه بالحائط فلا ينظر إليك، وتارةً تنفجرين باكيةً إذا هو اضطر أن يغيب لحظة. لا بد أن يتخيل شيئاً في النهاية. هيَّا، هيَّا! لا تضطربي. أنا أمزح طبعاً.

ـ ليس من حقه أن يتخيل شيئاً.

ـ لولا أنه هائمٌ بك حباً لما ركض في الشوارع كالمجنون، ولما هاج جميع كلاب المدينة. لقد حطم اطار نافذة بيتي.

5

كان كيريلوف مستمراً في ذرع غرفته جيئةً وذهاباً، وقد بلغ من فرط الاستغراق في تأمله أنه نسي حتى وصول امرأة شاتوف، فكان يصغي إلى شاتوف من دون أن يفهم عنه.

قال أخيراً وكأنه ينتزع نفسه انتزاعاً شاقاً من فكرةٍ جذابةٍ فاتنة:

ـ آ... نعم... امرأةٌ عجوز... أكنت تتكلم عن زوجتك أم عن حاجتك إلى امرأةٍ عجوز. آ... نعم، عن زوجتك وعن امرأة عجوز، أليس كذلك؟ تذكرت الآن. لقد بحثت وسألت: فالعجوز ستأتي، ولكنها لن تأتي فوراً. خذ الوسادة. ماذا أيضاً؟ نعم... انتظر... هل اتفق لك يا شاتوف في يومٍ من الأيام أن شعرت بلحظات انسجامٍ كلي شامل؟

ـ اسمع يا كيريلوف، يجب عليك بعد الآن أن لا تسهر كل ليلة...

بدا على كيريلوف أنه ثاب إلى نفسه. والشيء الغريب أنه أخذ يتحدث حديثاً فيه من اليسر والسهولة والراحة والمنطق أكثر مما عُهد فيه. واضحٌ أنه كان قد صاغ هذه الأفكار لنفسه منذ مدةٍ طويلة، بل لعله أيضاً قد سطَّرها على الورق. قال:

ـ هناك لحظات تدوم خمس ثوانٍ أو ستاً تحس أثناءها فجأةً بحضور الانسجام الأبدي، وبأنك بلغت هذا الانسجام الأبدي. ليس ذلك شيئاً

أرضياً: لا أقول إنه سماوي، ولكنني أقول إن الإنسان من جانبه الأرضي عاجزٌ عن احتماله. فيجب أن يتغير جسم الإنسان أو يموت. إنه شعورٌ واضح، لا جدال فيه، مطلق. تدرك الطبيعة كاملةً على حين فجأة، وتقول لنفسك: نعم، هذا هو، هذا حق. حين خلق الله العالم كان يقول في آخر كل يوم: "نعم، هذا خيرٌ، هذا عدلٌ، هذا حق". ليس ذلك نوعاً من ترقق العاطفة والحنان. إنه شيءٌ آخر. إنه فرحٌ. وأنت عندئذٍ لا تغفر شيئاً، إذ لا يبقى ثمة ما تغفره. وليس ذلك حتى حباً. آه... إنه فوق الحب. الأمر الرهيب هو أنه واضح وضوحاً مخيفاً مروّعاً، غير أن فرحاً واسعاً يغمر كل شيء! لو دام أكثر من خمس ثوانٍ، لما استطاعت النفس أن تتحمله ولكان عليها أن تزول. في هذه الثواني الخمس أحيا حياة بكاملها، وإني لمستعد في سبيلها أن أهب حياتي كلها... لأن هذه الثواني الخمس تساويها. من أجل أن يستطيع المرء احتمال ذلك عشر ثوانٍ يجب أن يتغيّر جسمه. وأظن أنه يجب على الإنسان أن يكفّ عن التناسل. لماذا الأطفال، لماذا نمو الإنسانية، إذا كانت لغاية قد بُلغت؟ لقد جاء في الإنجيل أن البشر لن يولدوا بعد البعث في الحياة الآخرة، وإنهم سيكونون جميعاً كملائكة الله. هذه إشارة. هل امرأتك تلد؟

ـ هل يحدث لك هذا كثيراً يا كيريلوف؟

ـ كل ثلاثة أيام، كل أسبوع...

ـ ألست مصاباً بمرض الصرع؟

ـ لا.

ـ ستصاب بهذا المرض. انتبه يا كيريلوف: لقد سمعت أن مرض الصرع إنما بهذا يبدأ. وقد حدثني أحد المصابين به فوصف لي المشاعر التي تسبق نوبات الصرع تفصيلاً. لقد تكلم هو أيضاً عن ثوان خمس، فكان يقول إن المرء يستحيل عليه أن يتحمّل هذا مدة أطول. تذكّر جرة النبي محمد، التي لم تكن قد فرغت من مائها حين عاد من معراجه إلى السماء. إن الجرة هي هذه الثواني الخمس التي تتحدث عنها، وإن المعراج هو هذا الانسجام الكلي الذي تحسّ به. ولقد كان محمد يصاب بغيبوبة.

انتبه إلى الصرع يا كيريلوف.

قال كيريلوف وهو يبتسم ابتسامة وادعة:

ـ لن يتسع الوقت لإصابتي بهذا الداء.

6

كان الليل ينقضي بطيئاً. وكان شاتوف يُطرد ويُشتم ثم يُستدعى. لقد بلغت ماري ذروة الهلع. كانت تصرخ قائلةً إنها تريد أن تعيش "حتماً، حتماً"، وإنها خائفة من الموت، فهي ما تنفك تكرر "يجب أن لا أموت، يجب أن لا أموت!". ولولا أن آرينا بروخوروفنا كانت هناك لكان يمكن أن تجري الأمور مجرى سيئاً جداً. ولكن آرينا بروخوروفنا قد استطاعت أن تسيطر على المريضة شيئاً فشيئاً، فأصبحت المريضة في النهاية تخضع لأي أمر تصدره إليها، كما يخضع طفل. لقد عمدت آرينا بروخوروفنا إلى الشدة والقسوة لا إلى الرفق واللين، ولكنها كانت خبيرة في فنّها. وأخذ الصبح يطلع. وتخيلت آرينا بروخوروفنا فجأة أن شاتوف، وقد خرج إلى فسحة السلّم، هو الآن يصلي ويدعو الله، فانفجرت تضحك. فأخذت ماري تضحك هي أيضاً، ضحكاً خبيثاً، ضحكاً ساخراً، فكأن هذا الضحك كان يخفف عنها بعض التخفيف، وأخيراً أُخرج شاتوف من الغرفة. فبقي على فسحة السلم، مستنداً إلى الجدار، في الوضع الذي فاجأه فيه إركل بالأمس. كان يرتعش كورقة في مهب الريح، وكان يخشى أن يفكر. ولكن، كما يحدث للمرء في الحلم، كان فكره يتابع الصور التي تتشكل في خياله وتنقطع في كل لحظة. لم يعد يسمع أنات، بل أصبح يسمع إعوالات رهيبة، وصرخات كصرخات وحش، صرخات لا تُطاق تصل إليه من الغرفة. أراد أن يسدّ أذنيه، ولكنه لم يستطع أن يعزم أمره على ذلك، وجثا على ركبتيه مكرراً بغير شعور: "ماري! ماري!" وفجأة سمع صرخة جديدة أرعشته وأنهضته بوثبة واحدة، هي صرخة طفل صغير، صرخة ضعيفة، كأنها مصدوعة. فرسم على صدره إشارة الصليب وهرع إلى الغرفة. كانت آرينا بروخوروفنا تمسك كائناً صغيراً

أحمـر مجعّداً، لا حول له ولا قوة،يسـتدر الشـفقة، يمكـن أن تعصف به ذرة خفيفة كأنه ذرة من غبار، ولكنه يصرخ ويحرك ذراعيه وسـاقيه الصغيرة كمن يريـد أن يطالب بحقه في الحياة. وكانت ماري كالمغمى عليها، لكنها فتحت عينيها بعد دقيقة، وألقت على شـاتوف نظـرة غريبة، نظرة جديدة كل الجدة، نظرة كان لا يستطيع أن يفهمها بعد، ولا رآها أبداً قبل الآن.

سألت بصوت فيه ألم:

ـ صبي؟ صبي؟

فأجابتها آرينا بروخوروفنا وهي تقمّط الطفل:

ـ نعم، صبي بدين.

وقبـل أن تضعـه بين وسـادتين على السـرير، ناولته شـاتوف لحظـةً، فإذا بماري، وكأنها تخشـى أن تراها آرينا بروخوروفنا، تومئ إلى زوجها، فيسرع يقرّب منها الطفل.

دمدمت تقول بصوت ضعيف وهي تبتسم:

ـ ما أجمله!

فهتفت آرينا بروخوروفنا تقول وقد أدهشـها ما رأته في وجه شـاتوف من تهلل الأسارير:

ـ انظروا إليه قليلاً! انظروا إلى وجهه العجيب!

فجمجم شاتوف قائلاً وقد أسكره الكلام الذي قالته ماري عن الطفل:

ـ ابتهجي يا آرينا بروخوروفنا... إنها فرحة كبرى!

فصاحـت آرينا بروخوروفنـا تقول مرحةً وهي تذهـب وتجيء في الغرفة لترتّبها:

ـ فرحة كبرى؟ ما هذا الذي تقول؟

فدمدم شاتوف يقول كالسكران:

ـ إن انبثاق كائن جديد سـر كبير، سر لا يُفهم يا آرينا بروخوروفنا. خسارة أنك لا تفهمين هذا.

كان شـاتوف كمن فقد عقله، وكانـت الكلمات كأنها تخرج من فمه رغم إرادته. وتابع كلامه يقول:

ـ كانا اثنين، فإذا بكائن إنساني جديد يظهر: روح جديدة، تامة مكتملة، لم تخلق مثلها يد إنسانية قط، فكر جديد، حب جديد. هذا أمر يكاد يكون رهيباً. لا شيء أعظم من هذا في العالم.

ـ أمواج من الكلام! ليس الأمر كله إلّا نموّ الجسم، ولا شيء غير هذا. لا سرّ!

كانت آرينا بروخوروفنا تضحك ضحكاً مرحاً صريحاً. وتابعت كلامها تقول:

ـ على هذا الأساس يكون نشوء أحقر بعوضة سراً من الأسرار. ولكن اسمعي ما سأقوله لك: الأجدر أن لا يولد في العالم بشر بلا فائدة منهم. قبل أن تلدوا أطفالاً ابدأوا بتغيير كل شيء، بحيث لا يكونون بغير فائدة منهم. أما الآن فيجب عليك أن تحملي الوليد بعد غد إلى ملجأ اللقطاء.

قال شاتوف مطرقاً إلى الأرض:

ـ لن أحمله إلى ملجأ اللقطاء بحال من الأحوال!

ـ أتتبناه؟

ـ هو ابني منذ الآن!

ـ طبعاً. إنه يحمل اسم شاتوف، إن القانون نفسه يوجب أن يكون اسمه شاتوف. فلا تمثّل دور محسن إلى الإنسانية. إنك لا تستطيع الاستغناء عن الألفاظ الكبيرة! هذا كله حسن جداً. ولكن آن لي أن أنصرف.

كذلك قالت آرينا بروخوروفنا وقد فرغت من ترتيب الغرفة. وأردفت تقول:

ـ سأرجع في هذا الصباح مرةً أخرى، وسأعود أيضاً في المساء إذا وجب الأمر. أما الآن وقد تمّ كل شيء على ما يُرام، فيجب أن أزور نساء أخريات ينتظرنني. لقد عثرت على امرأة عجوز يا شاتوف، لكن لا تتكل عليها وابق هنا. قد يُحتاج إليك. أعتقد أن ماريا اجناتيفنا لن تطردك... هيّا، هيّا، أنا أمزح.

وبقرب البوابة التى رافق إليها شاتوف المولّدة مشيعاً، أضافت تقول:

ـ لقد أضحكتني إلى آخر أيام حياتي. لن أتقاضى منك أجراً... لسوف أضحك من هذا حتى في المنام. حسبي ذلك. لم أر في حياتي رجلاً أبعث

على الضحك منك هذه الليلة.

وانصرفت مرتاحة أشد الارتياح، راضيةً كل الرضى. كانت تحدّث نفسها قائلة: "إنه لواضح من منظر شاتوف ومن أقواله أن هذا الرجل قد صيّر نفسه أباً منذ الآن، وأنه ليس إلّا إمّعةً ضعيف الشخصية". ورغم أنها كان عليها أن تزور امرأة أخرى على الفور فقد ذهبت أولًا إلى بيتها لتبلغ فرجنسكي انطباعاتها.

بدأ شاتوف يكلّم ماري خجلاً وجلاً فقال لها:

ـ ماري، إنها تقول إن عليك أن لا تنامي حالاً. لكنني أرى مع ذلك أن هذا سيكون شاقاً جداً عليك. سأجلس هنا، قرب النافذة، أسهر عليك، هل تريدين؟

قال ذلك وجلس قرب النافذة وراء الديوان، بحيث لا تستطيع أن تراه. ولكنها نادته بعد دقيقة، وسألته بلهجة احتقار أن يرتب وسائدها. وبينما كان شاتوف ينفذ أمرها، كانت هي تحدق إلى الجدار بإصرار.

ـ ما هكذا! ما هكذا! يا لخراقة يديك!

كان شاتوف يبذل كل ما في طاقته.

وأمرته على حين فجأة قائلة له بصوت أجش، جاهدةً أن لا تنظر إليه:

ـ ملْ عليّ.

فارتعد ولكنه مال عليها.

ـ مزيداً من الميل... ما هكذا... اقترب أكثر!...

وفجأة أمرّت يدها اليسرى حول عنق شاتوف. وأحسّ شاتوف على جبينه بقبلة حارة مخضلة.

ـ ماري!

كانت شفتا المرأة الشابة تختلجان. وكان واضحاً أنها تحاول أن تسيطر على نفسها، ولكنها أنهضت جسمها فجأة، وقالت متقدة العينين:

ـ إن نيقولاي ستافروجين رجل شقي!

وبارحتها قواها بغتة فعادت تتهالك على السرير، دافنةً رأسها في الوسائد، وانفجرت باكية وهي تضغط بيديها يد شاتوف.

ومنـذ تلـك اللحظة لم تفلـت زوجها. وطلبت إليـه أن يجلس إلى جانب سـريرها. وكانت لا تسـتطيع أن تتكلّم، فهي تتأمله ملياً، وقـد ألمّت بوجهها ابتسامة افتتان، ابتسامة طفلة صغيرة بلهاء. كل شيء كان يبدو لها متغيراً. أخذ شاتوف يبكي بكاء طفل، ثم طفق يتكلّم في

ما هبّ ودبّ بلهجة الملهم كأنه سـكران، ويقبل يديها من حين إلى حين مـرة تلـو مرة. وكانـت هي تصغي إليه نشـوى، ربما مـن دون أن تفهـم ما كان يقول، ولكنها تمسّـد شـعره بيـد ضعيفة واهنـة، وترتبه وتصففـه وهي تتأمله بحب ووجد. كلّمها عن كيريلوف، وعن الحياة الجديدة التي سـتبدأ بالنسبة إليهمـا، وعن وجـود الله، وعن طيبة البشـر. ومن فرط حماسـتهما، أخرجا الطفل من أقماطه ليُعجبا به مزيداً من الإعجاب.

هتف شاتوف قائلاً وهو يمسك الطفل في ذراعيه:

ـ ماري! لقد انتهينا من الهذيان القديم، من الخزي، من الموات القذر. ألا فلنبدأ العمل نحن الثلاثة! إن حياة جديدة تفتح ذراعيها لنا! نعم، نعم! ولكن ماذا نسميه يا ماري؟

فأجابت تكرر سؤاله بدهشة:

ـ ماذا نسميه؟

وارتسم على وجهها فجأةً ألمٌ شديد.

وضمـت يديها إحداهما إلى الأخرى، ونظرت إلى شـاتوف عاتبة الهيئة، ودفنت وجهها في الوسائد.

هتف شاتوف يسألها مرتاعاً:

ـ ماذا؟

ـ كيف أمكنك أن... كيف أمكنك أن... آه... عقوق!

ـ عقوك يا ماري، عقوك يا ماري!... أنا إنما سـألت ماذا نسـميه... لسـت أفهم...

قالت وهي تُنهض رأسها المحترق المبلل بالدموع:

ـ سنسـميه إيفان، إيفان. كيف أمكنك أن تتصور أن في وسـعنا أن نسـميه باسمٍ آخر، باسمِ "فظيع"؟

ـ ماري، هدئي نفسك. إن أعصابك مهتاجة!

ـ وهذه فظاظةٌ أخرى منك. لماذا تنسب دموعي إلى اهتياج أعصابي؟... يميناً لو اقترحتُ أن نسميه بذلك الاسم... ذلك الاسم الفظيع... لوافقت أنت فوراً، حتى لقد لا تنتبه إلى الأمر أي انتباه. آه... ما أشد عقوقكم... ودناءتكم... جميعاً، جميعاً!...

وبعد دقيقة، ساد بينهما السلام طبعاً، وألح عليها شاتوف أن تنام قليلاً. فنامت، ولكن من دون أن تدع يده التي كانت تقبض عليها بيديها. وكانت تستيقظ من حينٍ إلى حين، فتنظر إليه كأنها خائفةٌ أن ينصرف، ثم تغفو ثانيةً على الفور.

وصلت العجوز التي أرسلها كيريلوف حاملةً "تهنئاته"، وحاملةً كذلك شاياً ساخناً وشرائح لحم ومرقاً وخبزاً أبيض "لماريا أجناتيفنا". فشربت المريضة المرق بشراهة، وقمطت العجوز الطفل. وأجبرت ماري زوجها شاتوف على أن يأكل شريحة لحمٍ أيضاً.

وكان الوقت يمضي. وأخذ التعب من شاتوف كل مأخذ فغفا على كرسي مستنداً برأسه إلى وسادة زوجته. وعلى هذه الحال إنما وجدتهما آرينا بروخوروفنا حين جاءت براً بوعدها. فأيقظتهما مرحةً، وألقت إلى ماري بتعليماتها، وفحصت الطفل، وحظرت على شاتوف مرةً أخرى أن يترك زوجته. ثم بعد أن مازحت الزوجين بشيء من الازدراء والتعالي، انصرفت راضيةً مسرورة، كما فعلت في الصباح.

حين استيقظ شاتوف، كان الظلام قد خيَّم، فأشعل الشمعة، وأسرع يبحث عن العجوز، فما كان أشد دهشته حين هبط السلم فإذا هو يسمع وقع خطواتٍ خفيفة محاذرة. كان هناك رجل يتقدم نحوه: إنه إركل.

همس شاتوف يقول له:

ـ لا تدخل.

ثم أمسك يد الزائر وقاده نحو البوابة. وقال له:

ـ انتظرني هنا. سأرجع فوراً. نسيتك تماماً. لقد عرفت كيف تذكِّرني بك!

بلغ شاتوف من الاستعجال أنه لم يدخل على كيريلوف واكتفى بمناداة

المرأة العجوز. وقد غضبت ماري أشد الغضب واستاءت أشد الاستياء من أنه "أمكن أن يخطر بباله أن يتركها وحيدة".

فهتف يقول متحمساً:

هذه آخر مرة. إن طريقاً جديدة تنشق أمامنا، ولن نفكر أبداً، أبداً، في هول الأيام الماضية.

واستطاع أن يهدئها بعض التهدئة، ووعدها أن يرجع في الساعة التاسعة تماماً، وقبّلها وقبّل الطفل، وأسرع يدرك إركل.

اتجه الرجلان نحو حديقة آل ستافروجين، في سكفورشنيكي، حيث كان شاتوف، قبل سنةٍ ونصف سنة، قد دفن في موضع ناء، على حدود الحديقة، عند غابة صنوبر، المطبعة التي عُهد بها إليه. إن المكان موحش، مقفر، بعيد عن مسكن آل ستافروجين. والمسافة بينه وبين منزل فيليبوف تُقدَّر بثلاثة فراسخ ونصف، وربما بأربعة فراسخ.

قال شاتوف سائلاً:

ـ هل نقطع الطريق كله سيراً على الأقدام؟ إنني أفضِّل كراء عربة.

فقال إركل:

ـ بل يجب أن نقطع الطريق سيراً على الأقدام. لقد أصروا على هذا كثيراً. إن الحوذي يمكن أن يُتخذ شاهداً.

ـ طيب. لا بأس. المهم أن أنتهي، أن أنتهي!

وكانا يسيران بخطى سريعة.

هتف شاتوف يسأل صاحبه:

ـ إركل، بنيَّ، هل سعدت في حياتك يوماً من الأيام؟

فقال إركل متعجباً:

ـ يبدو لي على كل حال أنك الآن سعيد.

الفصل السادس

ليلة مشقات ومخاوف

أثناء النهار طاف فرجنسكي على بيوت جميع "أصحابنا" لينبئهم بأن شاتوف لن يشي بهم حتماً، وذلك بسبب عودة امرأته التي ولدت عنده منذ قليل: كان يستحيل على فرجنسكي أن يسلِّم بأن شاتوف يمكن أن يكون خطراً في هذا الأوان، "لمعرفته بالقلب الإنساني". ولكن ما كان أشدَّ حسرة فرجنسكي حين لم يجد أحداً منهم في بيته، إلّا إركل وليامشين. ولقد أصغى إركل إلى كلامه صامتاً رقيق الهيئة. ولكن حين ألقى عليه هذا السؤال المباشر: "أأنت ذاهب اليوم إلى الموعد في الساعة السادسة؟" أجابه إركل و هو يبتسم: "طبعاً!".

أما ليامشين فقد كان في سريره، دافناً رأسه تحت الغطاء، وكان يبدو عليه أنه مريض فعلاً. وحين رأى فرجنسكي خاف خوفاً شديد، ومنذ أن أخذ فرجنسكي يتكلم تضرع إليه، محركاً يديه، بأن يُترك هادئاً مرتاحاً. غير أن المعلومات التي ذكرها فرجنسكي عن شاتوف بدت له هامة فأصغى إليها بانتباه. حتى إذا علم أن زائره لم يجد أحداً من "أصحابنا" في بيته، أزعجه ذلك كثيراً. وقد اهتز فرجنسكي هو أيضاً حين قصَّ عليه ليامشين، بكلامٍ مفكك، ما وقع لفدكا (وكان قد علم ذلك من ليبوتين). فلما ألقى عليه فرجنسكي هذا السؤال المباشر: "هل يجب الذهاب إلى الموعد؟"، عاد ليامشين يضطرب و أعلن "أن ذلك كله لا شأن له هو به، وأنه لا يعرف شيئاً، وأن عليهم أن يتركوه هادئاً".

رجع فرجنسكي إلى بيته قلقاً مرهقاً. ولقد كان يصعب كثيراً أن يخفي عن أسرته ما يعتمل في نفسه، لأنه اعتاد أن لا يكتم عن امرأته شيئاً. ولقد كان يمكن أن يرقد أخيراً في سريره مثل ليامشين لولا أن فكرةً جديدة قد نبتت فجأةً في ذهنه المحموم، فكرةً بدا له أنها يمكن أن تدبر الأمور بما يرضي الجميع. وقد بثت هذه الفكرة في نفسه شجاعةً، حتى إنه أصبح ينتظر الساعة المحددة نافد الصبر، وانطلق يسير إلى مكان الموعد المضروب في وقتٍ أبكر من اللازم.

كان المكان حزيناً كئيباً على حدود حديقة آل ستافروجين الواسعة. لقد ذهبتُ إليه خصيصاً في ما بعد، وإني لأتخيل مدى ما كان يبدو عليه ذلك المكان من جهامة وشؤم في ذلك المساء الحزين من أماسي الخريف. كانت أشجار الصنوبر الضخمة الطاعنة في السن تشكِّل في ظلمات الغابة بقعاً سوداً مبهمة. وقد بلغت الظلمة من الحلك أن المرء لا يكاد يرى قدَّامه أكثر من خطوتين. ولكن بطرس ستيفانوفتش وليبوتين قد تزودا بمصابيح. إن مغارة من حجارة غير مقدودة، مغارةً مضحكة، كانت قد بُنيت في ذلك المكان لا يدري أحد متى، ولا يدري أحد لاي غرض بنيت. والمائدة والكراسي الموجودة في داخل المغارة كانت منخورة مسوَّسةً متآكلةً تتساقط غباراً. إن بين منزل السادة أصحاب الأرض وبين الغابة غدراناً ثلاثة تتعاقب على مسافة فرسخ. والغدير الثالث يقع يمنةً على بعد نحو مائتي متر من المغارة. يصعب على المرء أن يفترض أن ضجةً ما، كصرخة أو حتى طلقة رصاص، يمكن أن يسمعها سكان المنزل الذي هجره أصحابه ولم يبق فيه، منذ سفر نيقولاي فسيفولودوفتش بالأمس وسفر ألكسي إيجورتش، إلّا خمسة خدم عجائز أو ستة. ومن الجائز جداً على كل حال، حتى لو سمعوا صرخات ألم أو نداءات استغاثة، أن لا يزعجوا أنفسهم بالانطلاق إلى مكان الصوت إغاثةً للضحية.

في الساعة السادسة وعشرين دقيقة كان الجميع قد اجتمعوا، إلّا إركل الذي كان عليه أن يقود شاتوف. في هذه المرة لم يتأخر بطرس ستيفانوفتش.

لقد وصل مع تولكاتشنكو. وكان تولكاتشنكو قاتم الوجه مهموم النفس. لقد بارحته وقاحته المعهودة فيه، وبارحته رباطة جأشه وثقته بنفسه. إنه لا يترك بطرس ستيفانوفتش، ويبدو مخلصاً له بغير تحفظ. وهو الآن كثير الحركة والسعي، لا يكف عن الهمس في أذن صاحبه، ولكن صاحبه لا يكاد يجيبه أو هو يجمجم منزعج الهيئة ببضع كلمات تخلصاً منه.

ولقد وصل شيجالوف وفرجنسكي قبل بطرس ستيفانوفتش بقليل. فلما أبصراه انسحبا متنحيين، ملتزمين الصمت. فرفع بطرس ستيفانوفتش مصباحه وتفرس فيهما بانتباهٍ فيه استهانةٌ واحتقار، قائلاً لنفسه: "إنهما يستعدان للكلام".

سأل مخاطباً فرجنسكي:

ـ ألم يجيء ليامشين؟ من قال إنه مريض؟

أجاب ليامشين قائلاً وهو يخرج من وراء شجرة:

ـ أنا هنا.

كان يرتدي معطفاً ضخماً، وقد أحاط عنقه وكتفيه بغطاء، فلا يكاد يميِّز المرء وجهه إلّا بكثيرٍ من العناء، ولو سلط عليه ضوء المصباح.

ـ لا ينقص إذًا إلّا ليبوتين.

وخرج ليبوتين من المغارة من دون أن يقول كلمةً واحدةً.

دفع بطرس ستيفانوفتش مصباحه من جديد. وقال له:

ـ لماذا تختبئ؟ لماذا لم تخرج في الحال؟

فدمدم ليبوتين يقول، ربما من دون أن يعرف ماذا كان يريد أن يقول على كل حال:

ـ أفترض أننا محتفظون بحرية... حركاتنا..

قال بطرس ستيفانوفتش رافعاًصوته، محدثاً بذلك جواً يناقض جو الهمس الذي يسود منذ قليل:

ـ أيها السادة... أظن... أنكم تدركون أنه لا فائدة الآن من الإفاضة في الكلام، لقد قيل أمس كل شيء، وكُرِّر كل شيء، بوضوحٍ، وبجلاء. ولكنني

أرى في الوجوه أن بعضكم يود أن يتكلم. فليتكلم، بأقصى سرعة. ليس لدينا متسعٌ من الوقت: من الممكن أن يجيء به إركل بين لحظةٍ وأخرى...

تدخل تولكاتشنكو قائلاً لا يدري أحد لماذا:

ـ لسوف يجيء به حتماً.

وقال ليبوتين يسأل من دون أن يعرف أيضاً لماذا يلقي هذا السؤال:

ـ إذا لم يخطئ تقديري، فإن أول شـيء نفعله هو اسـتلام المطبعة، أليس كذلك؟

ـ حتماً. علام نضيِّع مطبعة؟

بهـذا أجاب بطرس سـتيفانوفتش وهو يقرِّب المصبـاح من وجه ليبوتين. واستطرد يقول:

ـ لكننا اتفقنا بالأمس على أن استلام المطبعة ليس إلّا خدعة. سوف يدلنا علـى المكان الذي دفن فيه المطبعة، فنتولـى نحن إخراجها من الأرض فيما بعد. إنني أعلم أنها على مسـافة عشـر خطوات من إحدى زوايا هذه المغارة. كيف أمكن أن تنسـى هذا يا ليبوتين؟ شيطان يأخذك! لقد تم الاتفاق على أن تمضي إلى لقائه وحدك، ثم لا نظهر نحن إلّا بعد ذلك... إن أسـئلتك غريبة. اللهم إلّا أن يكون لكلامك دافعٌ واحدٌ هو الرغبة في الكلام لا أكثر...

كان وجـه ليبوتين مربداً، ولـم يجب بكلمـة. ولبث الجميع صامتين بضع لحظات. وقامت الريح تهب على ذرى أشجار الصنوبر فتهزّها.

أضاف بطرس ستيفانوفتش يقول نافد الصبر:

ـ آمل أيها السادة أن يقوم كل منكم بواجبه.

دمدم فرجنسـكي يقول منفعلاً انفعالاً شـديداً، وهو يجري بيديه حركاتٍ عريضة:

ـ أعرف أن زوجة شـاتوف قد رجعت إليه هـذه الليلة، وأنها ولدت. ومن يعرف القلب الإنسـاني. يدركُ بداهةً... أنه لن يشـي بنا... لأنه سعيد!... لقد سـعيت إلـى الجميـع ركضاً في هـذا اليوم... لكننـي لم أجد أحـداً... فلعلنا نستطيع أن نعدل الآن عن...

وتوقف عن الكلام منقبضَ الحلق.

فسأله بطرس ستيفانوفتش وهو يتقدم منه:

ـ إذا أصبحت سعيداً على حين فجأة، فهل تتراجع لا عن وشاية (لأن الأمر ليس أمر وشاية)، بل عن القيام بواجبٍ محفوفٍ ببعض الأخطار، واجبٍ تصورته قبل أن تعرف سعادتك، واجبٍ تعدُّه واجبك، رغم مخاطره ورغم ضياع سعادتك؟

ـ لا، لا أتراجع، لا أتراجع بحالٍ من الأحوال!

كذلك صرخ فرجنسكي مرتعشاً أشد الارتعاش، بحماسةٍ تكاد تكون مضحكة.

ـ أنت تؤثر إذًا أن تعود شقياً تعيساً على أن تكون جباناً رعديداً!

ـ نعم، نعم، بالعكس... أوثر أن أكون جباناً... لا، ليس هذا ما أريد أن أقوله... أريد أن أقول إنني أوثر أن أكون شقياً على أن أكون جباناً.

ـ فاعلم إذًا أن شاتوف يعدُّ هذه الوشاية واجباً مقدساً، ويعدها عملاً متفقاً ومبادئه كل الاتفاق. والبرهان على ذلك أنه يخاطر كثيراً حين يسلمنا للسلطات. صحيح أن السلطات ستغفر له أشياءً كثيرة، مراعاةً لوشايته، وإكراماً لها. ولكن رجلاً مثله لا يتقهقر في يومٍ من الأيام عن القيام بما يعده واجباً. ما من سعادة تبقى وتدوم. لسوف يثوب إلى نفسه منذ الغد، فيلوم نفسه لوماً مراً، ثم ينفذ ما عقد العزم عليه. ثم أين السعادة في رجعة امرأته إليه بعد غياب ثلاث سنين لتلد في بيته ولداً حملت به من ستافروجين؟

قال شيجالوف:

ـ ولكن ما من أحدٍ رأى تلك الوشاية على كل حال!

فصرخ بطرس ستيفانوفتش يقول:

ـ أنا رأيتها. إنها موجودة. وهذا الكلام كله غباءٌ مطلق أيها السادة.

فانفجر فرجنسكي فجأةً يقول:

ـ وأنا أحتج، أحتج بكل قواي... إنني أريد... إليكم ما أريد: حين يصل نهب إلى لقائه جميعاً، ونسأله عن حقيقة الأمر. فإذا صحَّ أن هناك وشاية

طلبنا إليه أن يعدل عنها وأن يحلف على ذلك... وعندئذٍ ندعه ينصرف. على كل حال يجب أن نحكم عليه، لا أن نختبئ ثم ننقض عليه.

ـ منتهى الغباء أن نفسد عملنا كله بالركون إلى يمينٍ يحلفه. أيها السادة، إن ما تفعلونه الآن لهو البلاهة بعينها! أهذا هو إذًا موقفكم في ساعة الخطر؟

كان فرجنسكي لا يزال يردد قوله:

ـ أحتج... أحتج...

ـ على كل حال، سُدَّ بوزك! وإلا لم نتمكن من سماع الإشارة. إن شاتوف (أوه! ما هذا الغباء كله!)... سبق أن قلت لكم إن شاتوف من دعاة السلافية، أي أنه من أغبى الناس طراً... على كل حال، لا يهمني هذا... لا يعنيني هذا في شيء! ... إنكم بمقاطعاتكم لي لا تزيدون على إرباك فكري، وتشويش ذهني... إن شاتوف، أيها السادة، كان رجلاً ساخطاً، ولما كان عضواً في الجمعية رغم كل شيء، سواء أأراد ذلك أم لم يرده، فلقد كنت آمل حتى آخر لحظة أن نستطيع الاستفادة منه بصفته ساخطاً. وكنت أهتم به وأداريه وأراعيه رغم التعليمات القطعية التي صدرت إليَّ بشأنه. ومع ذلك قرر أخيراً أن يشي بنا! إلى جهنم على كل حال!... ولكن فليجرؤ واحدٌ منكم أن ينسحب الآن! ما من أحد يحق له أن يترك "القضية". تستطيعون أن تقبِّلوا شاتوف إذا شاء قلبكم ذلك، ولكن ليس من حقكم أن تعرِّضوا كل شيءٍ للخطر ركوناً إلى عهدٍ يقطعه على نفسه، أو يمينٍ يحلفه. وليس يتصرف هذا التصرف إلّا خنازير أو أناس باعوا أنفسهم للحكومة...

أسرع ليبوتين يسأل قائلاً:

ـ من الذي باع نفسه للحكومة هنا؟

ـ ربما أنت. خير لك أن تسكت يا ليبوتين. إنك لا تتكلم إلّا بحكم العادة. الذين باعوا أنفسهم للحكومة هم جميع الذين يخافون في لحظة الخطر. لن تخلو صفوف الجبناء يوماً من غبي يهرب في آخر دقيقة صارخاً: "المغفرة المغفرة! إنني أسلمكم إياهم جميعاً". ولكن اعلموا أيها السادة أنه ما من وشايةٍ يمكن أن تجعلكم تحصلون على العفو. قد يُخفَّف العقاب درجتين،

ولكنه سيظل نفياً إلى سيبيريا. هذا عدا أنكم لن تفلتوا عندئذٍ من سيفٍ آخر أقطع من سيف الحكومة.

كان بطرس ستفانوفتش غاضباً في حديثه أشد الغضب. وهنا تقدم شيجالوف نحوه بخطى ثابتة حازمة، وقال بثقةٍ هادئةٍ ومنطق منظم على عادته (وإني لأعتقد أنه لو تزلزلت الأرض من تحته، لما رفع صوته ولما غيَّر ترتيب كلامه أي تغيير):

ـ إنني أقلِّب المسألة على وجوهها المختلفة منذ مساء الأمس، ولقد وصلت بعد طول التفكير إلى نتيجةٍ واضحة هي أن قتل شاتوف ليس فقط تضييعاً لوقتٍ ثمين يمكن أن يُستعمل استعمالاً أجدى وأجل شأناً، بل هو كذلك انحرافات من تلك الانحرافات المشؤومة التي طالما أضرَّت بالقضية وأخَّرت نجاحها عشرات السنين، بإخضاعها لتأثير أناسٍ سياسيين ليسوا اشتراكيين صرفاً. لقد جئت إلى هنا لغرضٍ واحد أن أحتج على هذا المشروع، آملاً أن يؤثر عملي هذا في العقول، وها أنا ذا أنسحب لا خوفاً من الخطر ولا حباً بشاتوف الذي لا أشتهي أن أقبِّله البتة، بل لأن هذا الأمر، من بدايته إلى نهايته، يناقض برنامجي. أما عن الوشاية بكم، ففي وسعكم أن تكونوا مطمئنين كل الاطمئنان: فلن أشي بكم!

قال شيجالوف ذلك ثم استدار وانصرف.

هتف بطرس ستيفانوفتش قائلاً وهو يخرج مسدسه من جيبه:

ـ شيطان يأخذه! لسوف يلقاهما فيحذِّر شاتوف.

وسُمع صوت ديك المسدس وهو يُرفع:

قال شيجالوف وهو يلتفت:

ـ ثق أنني إذا لقيت شاتوف فقد أحييه ولكنني لن أحذِّره.

ـ هل تعلم أن هذا يمكن أن يكلفك غالياً يا سيد فورييه؟

ـ أرجوك أن تلاحظ أنني لست فورييه. إنك إذ تخلط بيني وبين ذلك الثرثار العاطفي المجرد، تبرهن على أنك تجهل مخطوطتي جهلاً تاماً، رغم أنها كانت بين يديك، أما عن تهديدك، فإنني أقول لك إنك قد أخطأت إذ رفعت

ديـك مسدسـك: فإن هـذا لا يمكن إلّا أن يضـرك في اللحظة التـي نحن فيها. وإذا نويت أن تنتقم مني غداً أو بعد غد، فإنك سـتجلب لنفسـك بقتلي هموماً جديدة: سوف تقتلني، ولكنك ستعود إلى مذهبي عاجلاً أو آجلاً. الوداع.

ـ في تلك الدقيقة دوَّت صفرة صفارة على مسافة مائتي متر، في الحديقة، مـن جهة الغديـر. وكما اتُفـق بالأمس ردَّ ليبوتيـن على الصفرة فـوراً بصفرةٍ مثلهـا. (كان قـد اشـترى في ذاك الصباح نفسـه من السـوق صفـارةً من تلك الصفـارات الصغيـرة التي يسـتعملها الأطفـال، لأنه لا يسـتطيع الاعتماد في الصفيـر علـى فمه الأثـرم). وكان إركل قد أبلغ شـاتوف في أثنـاء الطريق أنه سيتبادل إشارات مع ليبوتين، حتى لا يراود شاتوف أي اشتباه.

قال شيجالوف وهو يخفض صوته:

ـ لا تخش شيئاً. سوف أتجنبهما، فلا يبصراني.

وبدون أن يسرع، قفل راجعاً إلى بيته عبر الحديقة المظلمة.

إن الناس يعرفون الآن أدق التفاصيل من حادثة مقتل شـاتوف. وإليكم ما جرى:

في البداية تقدم ليبوتين يسـتقبل شـاتوف وإركل عند باب المغارة. فبادر شـاتوف يقـول له، من دون أن يجيبـه، ومن دون أن يمد له يـده، رغبةً منه في الانتهاء من الأمر بأقصى ما يمكن من سرعة، قال له بصوتٍ قوي:

ـ هيـه، أين معولك؟ أليس معك مصباحٌ آخر؟ لا تخف! ليس في المكان مخلوق. ولو أطلقت قنبلة من مدفع لما سـمع أحدٌ في سكفورشـنيكي شيئاً! المطبعة هنا، في هذا المكان تماماً...

قال شـاتوف ذلك وهو يضرب بقدمه موضعاً من الأرض يقع على مسافة عشر خطواتٍ من زاوية المغارة فعلاً، من جهة الغابة.

فـي تلـك اللحظـة نفسـها وثـب تولكاتشـنكو على شـاتوف مـن خلف، وانقـض إركل علـى كوعيه يمسـكهما، وهـرع ليبوتين ينقض عليـه من أمام. واسـتطاع الثلاثة أن يقلبوه فوراً، وأن يهشـموه علـى الأرض. وعندئذٍ تدخل بطرس ستيفانوفتش مسلحاً بمسدسه.

يقال إن شاتوف قد التفت إلى جهته حينذاك، فاستطاع أن يتعرفه. إن مصابيح ثلاثة كانت تنير المشهد. أطلق شاتوف صرخةً قصيرةً، يائسة، غير أن بطرس ستيفانوفتش أطبق مسدسه على جبهة شاتوف بيدٍ ثابتة واثقة، وضغط الزناد، فانطلقت الرصاصة في رأس شاتوف، ولم يكن صوت انطلاقها قوياً في ما يقال. مهما يكن من أمر، فإن أحداً لم يسمع صوت انطلاق الرصاصة في سكفورشنيكي. لكن شيجالوف الذي لم يكن بعيداً بعداً كبيراً قد سمع الصرخة وصوت انطلاق الرصاصة حتماً، ومع ذلك لم يتوقف، وقد اعترف هو نفسه بهذا في ما بعد.

مات شاتوف تواً، على وجه التقريب. وأظن أن بطرس ستيفانوفتش كان الشخص الوحيد الذي احتفظ لا بهدوئه في ما أعتقد، بل بحضور ذهنه. فها هو ذا يجلس القرفصاء، ويأخذ ينبش جيوب القتيل بيدٍ متعجلة لكنها ثابتة. فلم يجد مالاً (كانت محفظة نقود شاتوف قد بقيت تحت وسادة ماريا أجناتيفنا)، ولم يعثر إلّا على ثلاث وريقات لا قيمة لها: رسالةٌ تتعلق بأعمال، وعنوان كتاب، وفاتورة مطعم في الخارج كان شاتوف يحتفظ بها منذ سنتين لا يدري إلّا الله لماذا! دسَّ بطرس ستيفانوفتش هذه الوريقات في جيبه. وإذ لاحظ حينئذٍ أن رفاقه المتجمعين حول الجثة كانوا يتأملونها من دون أن يفعلوا شيئاً، أخذ يشتمهم شتماً فظاً غليظاً. فسرعان ما ثاب إركل وتولكاتشنكو إلى رشدهما، فأسرعا ينفذان أوامره، فهرعا إلى المغارة، وعادا منها بصخرتين كبيرتين تزن كل واحدة منهما نحو عشرين رطلاً. ولما كانت النية منصرفةً إلى إلقاء الجثة في الغدير الأقرب (الثالث)، فقد ربطت الصخرتان بقدميه وعنقه. إن بطرس ستيفانوفتش هو الذي تولى القيام بهذا العمل، أما تولكاتشنكو وإركل فلم يزيدا على أن أمسكا الصخرتين، ونقلاها إليه. مدَّ إركل صخرته أولاً. وبينما كان بطرس ستيفانوفتش يوثق قدمي الجثة متذمراً ويربطهما بالصخرة مدمدماً، وقد دام هذا وقتاً طويلاً، كان تولكاتشنكو مائلاً إلى أمام، على وضع يشبه أن يكون وضع الاحترام، ممسكاً الصخرة الثانية بيديه الممدودتين لينقلها إلى بطرس ستيفانوفتش بلا

إبطـاءٍ متى أمـره بذلك، حتى إنه لـم يخطر بباله أن يضـع حمله على الأرض بانتظـار صدور الأمر. فلما فرغ بطرس سـتيفانوفتش مـن عمله نهض وتأمل الوجـوه التي تحيط به، تأملهـا بانتباه. وعندئذٍ إنما حـدث حادثٌ غريب، لم يكن يتوقعه أحدٌ قط، حادث أدهش الجميع.

سـبق أن قلنا إن إركل وتولكاتشنكو هما اللذان عملا، وأن الآخرين لبثوا في أماكنهم لا يفعلون شيئاً. وحين هجم الجميع على شاتوف فإن فرجنسكي هرع هو أيضاً، ولكنه لم يمسـس شـاتوف ولا ساعد في طرحه على الأرض. أمـا ليامشـين فإنـه لم ينضـم إلـى الآخريـن إلّا بعـد أن أطلق فرخوفنسـكي الرصاصة. وبينما كان فرخوفنسكي يربط الصخرتين بالجثة، أي خلال عشر دقائـق تقريبـاً، كان من ينظر إلى وجوهـم هؤلاء الناس يخيِّل إليه أنهم أشـبه بمن لا يشـعر بما يحدث، ويحس أنهم إلى الدهشة والاستغراب أقرب منهم إلـى القلق والاضطراب. إن ليبوتين مائلٌ إلى أمام، قرب الجثة. ووراءه ينظر فرجنسـكي من فوق كتفه مسـتطلعاً، حتى إنه منتصـب على رؤوس الأصابع ليـرى رؤيةً أحسـن. أما ليامشـين فقد اختبـأ وراء فرجنسـكي، يختلس نظرةً سريعةً إلى المشهد من حين إلى حين، ثم ما يلبث أن يعود إلى الاختباء فوراً. ولكن حين فرغ بطرس ستيفانوفتش من عمله ونهض واقفاً، أخذ فرجنسكي يرتعش ارتعاشـاً شديداً من قمة رأسـه إلى أخمص قدميه على حين فجأة، ثم ها هو ذا يضم يديه إحداهما إلى الأخرى، ويصرخ خائفاً:

ـ ليس هذا أبداً! لا، لا، ليس هذا أبداً!

ولعله كان سـيضيف إلـى هذا الكلام شـيئاً جديداً لو أن ليامشـين أمهله. غيـر أن ليامشـين لم يلبـث أن قبض عليه من الخلف فجأةً، وشـده متشـبثاً به تشـبثاً قويـاً، وطفق يطلق صرخاتٍ حـادة رهيبة. إنه يتفق لرجـلٍ أصابه جزعٌ مباغـت وهلـعٌ عنيـف، أن يأخـذ يصرخ بصـوتٍ ليـس صوتـه المألوف ولا يمكـن أن يفترضه له أحد أبـداً في الأحوال العادية. إن الأثر الذي يحدثه هذا الصوت في النفس إحسـاسٌ لا يحتمل ولا يُطاق في بعض الأحيان. فكذلك كان ليامشـين يصرخ بصوتٍ ليس صوتاً إنسـانياً بل هو صوت حيواني. وظل

ليامشين قابضاً على عنق فرجنسكي من خلف وظل يصرخ صراخاً ما ينفك يشتد بلا توقف، محملقَ العينين فاغرَ الفم، ضارباً الأرض بقدميه فكأنه يقرع طبلاً. فبلغ فرجنسكي من فرط الخوف أنه أخذ يصرخ هو أيضاً، محاولاً، أن ينتزع نفسه من عناق ليامشين، وأخذ يتخبط ويجهد أن يضربه من خلف ما أمكنه أن يفعل، وقد استبد به واستولى عليه حنقٌ مسعور ما كان لأحد أن يتوقعه منه. وساعده إركل أخيراً في التخلص من ليامشين، ولكن حين استطاع فرجنسكي المرتاع أن يتخلص من ليامشين، نظر ليامشين حوله فأبصر بطرس ستيفانوفتش فهجم عليه وهو يطلق صرخاتٍ جديدة. وتعثر بالجثة فسقط فوقها، فتشبث ببطرس ستيفانوفتش تشبثاً بلغ من القوة أنه في اللحظة الأولى لم يستطع لا بطرس ستيفانوفتش نفسه ولا تولكاتشنكو ولا ليبوتين أن يحملوه على تركه. فكان فرخوفنسكي يصرخ ويشتم ويضربه على رأسه بقبضتي يديه. حتى إذا أفلح في الإفلات منه أخيراً، أمسك مسدسه وصوَّبه على فم ليامشين الفاغر. ولكن ليامشين ظل يصرخ رغم التهديد، بينما كان تولكاتشنكو وإركل وليبوتين ممسكين بذراعيه إمساكاً قوياً.

وأخيراً لفَّ إركل منديله حتى جعله كالكرة، فأدخله في فم ليامشين بحذق، فأوقف بذلك صراخه، بينما كان ليبوتين وتولكاتشنكو يوثقان يديه وراء ظهره بحبل.

دمدم بطرس ستيفانوفتش وهو ينظر إلى المجنون قلقاً:

- غريب!

لقد كان مدهوشاً أشد الدهشة.

وأردف يقول حالم الهيئة شارد الذهن:

- كنت أتصوره غير ذلك!

وتُرك ليامشين في حراسة إركل موقتاً. لقد كان ينبغي الإسراع. إنهم قد صرخوا وأسرفوا في الصراخ حتى ليمكن أن يكونوا قد نبهوا أهل سكفورشنيكي. أخذ بطرس ستيفانوفتش وتولكاتشنكو مصباحيهما، وأمسكا جثمان القتيل من تحت الرأس، كما رفعه ليبوتين وفرجنسكي من القدمين.

كان الجثمان ثقيلاً بالصخرتين المربوطتين به. وكان ينبغي قطع مسافة مائتي خطوة بل أكثر. إن أقوى هؤلاء الرجال هو تولكاتشنكو. وقد نصح بأن يكون المشـي منتظمـاً، ولكن أحداً لم يصغ إليه، وسـاروا كيفمـا اتفق. كان بطرس سـتيفانوفتش يسير على اليمين. إنه مقوس الظهر تقوسـاً شديداً، يسند بكتفه رأس الميـت، ويمسـك الصخرة من تحتها باليد اليسـرى. وإذ لم يخطر ببال تولكاتشـنكو أن يساعده طوال نصف المسافة، فقد ناداه بطرس ستيفانوفتش شـاتماً. فدوّت صرخته القصيرة في الصمت. ظـل الرجال يتقدمون من دون أن يقولوا كلمة. حتى إذا صاروا على حافة الغدير صرخ فرجنسكي يقول من جديد، وقد ثناه حمله وأرهقه ثقله، صرخ يقول بصوت قلق خائف:

ـ ليس هذا أبداً، لا، لا، ليس هذا أبداً!

إن المـكان الـذي ينتهي عنده هـذا الغدير الثالث، وهـو غدير كبير، مكان خال لا يرتاده أحد، ولا سـيما في هذا الأوان المتقدم من السنة. والماء قرب الحافة قد اجتاحته الحشائش.

وُضعـت المصابيـح علـى الأرض. ورُجّحـت الجثة، بضـع لحظات ثم رميت في الغدير، فكان لسقوطها في الماء دوي أصم طويل.

رفـع بطرس سـتيفانوفتش مصباحه يحاول متابعة سـقوط الجثة، وكذلك فعل الآخرون مستطلعين. ولكنهم لم يروا شيئاً: فإن الجثة المثقلة بالصخرتين قد هوت إلى القاع رأسـاً، وسرعان ما امّحت الدوائر التي ظهرت على سطح الماء حين سقوطها فيه. انتهى كل شيء.

قال بطرس ستيفانوفتش مخاطباً الجميع:

ـ أيها السادة، ليس يخامرني أي شك في أنكم تشعرون الآن بذلك الزهو المرتبـط دائماً بتحقيـق واجب ارتضى المرء أن يقوم به حراً من تلقاء نفسـه. وإذا كنتم الآن، وا أسفاه، أشد اضطراباً من أن تحسوا ذلك الشعور، فلسوف تحسونه في غد حتماً، وإلا كان عاراً وخزياً أن لا تحسوه. أما السلوك المشين الذي سـلكه ليامشـين، فإنني أريد أن لا أرى فيه إلّا نوبة مرض، ولا سيما أنه كان مريضاً بالفعل هذا الصباح في ما قيل لي. وأما أنت يا فرجنسكي، فتكفيك

لحظة تفكير حتى تدرك أن مصلحة القضية تجعل من المستحيل علينا أن نركن إلى عهد يقطعه شاتوف على نفسه، وأن ما فعلناه هو ما كان ينبغي فعله. سوف ترى في ما بعد أن الوشاية كانت مهيأة كل التهيئة. إنني أوافق على نسيان صيحاتك! واعلموا أن لا شيء يهددنا الآن. فما من أحد يخطر بباله أن يشتبه في أحد منكم، وخاصة إذا أحسنتم التصرف. أي أن كل شيء على وجه الإجمال رهن بكم ومتوقف على اقتناعكم بأنكم أحسنتم عملاً، وهو اقتناع آمل أن يكون راسخاً في أنفسكم منذ الغد. من أجل هذا الغرض وأغراض أخرى إنما اجتمعتم، ولأنكم تؤمنون بأفكار واحدة إنما أنشأتم بحريتكم هذا التنظيم ليساعد بعضكم بعضاً، وليكون كل منكم رقيباً على الآخر إذا اقتضى الأمر ذلك. إن كلاً منكم يقع على عاتقه عبء كبير يجب أن يحمله، وتقع على عاتقه مهمة ضخمة يجب أن يحققها. إنكم مدعوون إلى تجديد مجتمع منهوك فاسد عفن: فلتكن هذه الفكرة حافزاً يبث فيكم الشجاعة ويحضكم على العمل باستمرار! إن جميع جهودكم يجب أن ترمى إلى انهيار كل شيء: الدولة وأخلاقها. سنظل وحدنا واقفين، نحن المهيئين منذ مدة طويلة لأن نستلم السلطة. فأما الأذكياء فسوف نجعلهم ملحقين بنا، وأما الأغبياء فسوف نركب على ظهورهم. ما ينبغي أن يقلقكم هذا. يجب علينا أن نعيد تربية الجيل الحالي، لنجعله جديراً بالحرية. لا يزال هناك ألوف من أمثال شاتوف. سوف ننظم صفوفنا من أجل أن نقود الحركة: إنه لعار علينا أن لا نستولي على ما يقدّم نفسه إلينا إن صح التعبير. أنا ذاهب تواً إلى كيريلوف. وفي صباح غد ستكون معي الرسالة التي يصرّح فيها قبل موته بأنه مسؤول عن كل شيء. وسيبدو الأمر معقولاً جداً. أولاً لأنه كان على خصام شديد مع شاتوف: لقد عاشا في أمريكا جنباً إلى جنب، فاتسع وقتهما لأن يكونا عدوين. وثانياً لأن شاتوف قد هجر عقائده القديمة وهذا أمر معروف، فلا بد أن يكرهه كيريلوف لخيانته ولإمكان وشاية شاتوف به، فهذه إذًا عداوة من العداوات التي لا سبيل فيها إلى صلح. ذلك كله سيذكر في الرسالة. وسيعترف كيريلوف أيضاً بأنه آوى فدكا. وهكذا لن يستطيع أولئك الحمير

أن يفهموا من الأمر شيئاً، بل لن يخطر في بالهم أن يشتبهوا فيكم. غداً لن نلتقي أيها السادة. إن عليّ أن أقوم بجولة في المقاطعة. ولكنكم ستعرفون أخباري بعد غد. أنصحكم بأن تقضوا نهار غد في منازلكم. والآن يجب أن نسلك في العودة طرقاً مختلفة. إليك أعهد بليامشين يا تولكاتشنكو. ارجع به إلى بيته. وتستطيع أن تؤثر في فكره، وأن تشرح له خاصة أن خوفه يمكن أن يكون خطراً أشد الخطر عليه. ولا أريد أن أشك في قريبك شيجالوف، ولا فيك أنت يا سيد فرجنسكي: إنه لن يشي بنا. ولا يبقى علينا إلّا أن نأسف لوضعه. على أنه لم يعلن أنه ترك الجمعية. لذلك لم يحن حين دفنه. ولكن فلنسرع يا سادة: الحذر واجب، ولو كان الآخرون حميراً...

انصرف فرجنسكي مع إركل. وقبل أن يعهد إركل بليامشين إلى تولكاتشنكو، اقتاده إلى قرب بطرس ستيفانوفتش وأعلن أن ليامشين قد ثاب إلى رشده، وأنه نادم، وأنه مستغفر، حتى إنه لا يتذكر ما حدث له تذكراً واضحاً.

انصرف بطرس ستيفانوفتش وحيداً، وسلك الطريق الأطول، وهو الطريق الذي يدور حول الغدران، فما كان أشد دهشته حين بلغ منتصف الطريق فإذا هو يرى ليبوتين ساعياً وراءه لاحقاً به، سائلاً إياه:

ـ بطرس ستيفانوفتش، هل تعلم أن ليامشين سوف يشي بنا؟

ـ لا بل سيثوب إلى صوابه فيدرك أنه إذا وشى بنا كان هو نفسه أول من يذهب إلى سيبريا. ما من أحد سيشي بنا الآن. وأنت أيضاً لن تشي.

ـ وأنت؟

ـ سأسلمكم جميعاً بطبيعة الحال متى اشتبهت أيسر اشتباه فقدّرت أنكم مقبلون على خيانة. إنك لتعلم ذلك. ولكنك لن تخون. أمن أجل أن تقول لي هذا إنما ركضت ورائي مسافة فرسخين؟

ـ بطرس ستيفانوفتش، بطرس ستيفانوفتش! قد لا نلتقي بعد اليوم أبداً!

ـ من أين تأتي بهذا الكلام؟

ـ قل لي شيئاً واحداً لا أكثر...

ـ ما هو؟ أنا شخصياً أؤثر أن تنصرف...
ـ كلمة واحدة، ولكن بشرط أن تكون صادقة: هل حلقتنا التي تتألف من خمسة أعضاء هي الحلقة الوحيدة في العالم، أم هل هناك حلقات أخرى تبلغ عدة مئات؟ إنني ألقي هذا السؤال من ناحية رفيعة بمعنى عالٍ يا بطرس ستيفانوفتش.
ـ أرى ذلك من فرط اهتياجك. ولكن هل تعلم أنك أشد خطراً من ليامشين؟
ـ أعلم، أعلم! ولكن أجبني.
ـ ما أكبر حماقتك! إني لأتساءل: فيم يهمك الآن أن تعرف أنحن حلقة واحدة أم مائة؟
صاح ليبوتين يقول:
ـ معنى هذا أنه ليس هناك إلّا حلقة واحدة. كنت أقدر ذلك. بل كنت واثقاً منه منذ مدة طويلة...
وبدون أن ينتظر جواباً آخر استدار وغاب في الظلام.
لبث بطرس ستيفانوفتش حالماً شارد الذهن لحظة. ثم قال يحدّث نفسه فجأة: "لا، لن يخون أحد منهم. ولكن يجب أن يبقوا معاً وأن يطيعوا، وإلا فلسوف... على كل حال ما أحقرهم من ناس!".

2

ذهب بطرس ستيفانوفتش أولاً إلى بيته وهيأ حقيبته باعتناء من دون تعجل. إن القطار السريع يسافر في الساعة السادسة من الصباح. وهذا القطار الذي لا يسير إلّا مرةً كلّ أسبوع يعمل منذ مدة قصيرة على سبيل التجربة. وكان بطرس ستيفانوفتش قد أبلغ "أصحابنا" أنه سيجول قليلاً في المنطقة، ولكن نياته كانت غير ذلك في الواقع، كما ظهر هذا في ما بعد.
فلما فرغ من إعداد حقيبته، دفع أجرة مسكنه لصاحبة المنزل التي كان قد أبلغها أمر رحيله، وذهب بعربة إلى إركل الذي يسكن غير بعيد عن المحطة.

ثـم لـم يتجه إلى بيـت كيريلوف إلّا إلى السـاعة الواحدة، وقـد دخل إليه من الممر الذي كان يسلكه فدكا.

كان بطـرس سـتيفانوفتش معتكر المزاج جداً. وعـدا المزعجات الكبيرة التـي كانـت آخـذة بخناقـه (مـن ذلـك مثـلاً أنـه لا يـزال لا يعرف شـيئاً عن سـتافروجين)، كان قـد بلغه فيما أظن (لكنني لسـت واثقاً من هـذا) نبأ جاءه سـراً من بطرسـبرج في أغلب الظن ينبهه إلى خطر كبير يهم أن يحدق به بعد مدة قصيرة. إن أسـاطير كثيرة تروج الآن في مدينتنا عن هذا الموضوع طبعاً. ولكن لا يسـتطيع أن يعـرف الحقيقة إلّا أولئك الذيـن مهمتهم أن يعرفوا كل شـيء. أما أنا فأعتقد أن بطرس ستيفانوفتش لا بد أنه كان له عملاء في خارج مدينتنـا. فمـن الجائز جداً أن يكون قد تلقى تنبيهاً مـا، بل إنني لمقـتنع، رغم الشـك الشـديد المسـتخف الذي عبّر عنه ليبوتين فـى ذروة كربه، أن بطرس سـتيفانوفتش يمكن أن يكـون له حلقتان أو ثلاث حلقات، في بطرسـبرج أو في موسـكو مثلاً، ولا بد أن يكون له علـى كل حال عدد من المنضوين، وأن تكـون لـه علاقات لعلها غريبـة كل الغرابة. إنـه بعد رحيله بثلاثـة أيام وصل إلـى مدينتنـا أمر بالقبض عليه فوراً، لا أدري هـل للجرائم التي ارتكبها عندنا أو لجرائـم أخرى أيضـاً. وقد جاء هذا الأمر في حينه، ليقوّي الرعب الرهيب الـذي يكاد يكون رعباً غيبياً، أعني الرعب الذي اسـتولى على السـلطات في المدينـة وعلـى المجتمـع كلـه، بعـد أن كان هـذا المجتمع مصـراً على عدم الاكتـراث، وذلك حين اكتُشـفت جريمة قتل شـاتوف العجيبة التي أوصلت اضطرابنا إلى آخر مداه بملابسـاتها السرية الغريبة. ولكن الأمر بالقبض على بطرس سـتيفانوفتش قد وصل بعد فوات الأوان، فحين وصل هذا الأمر إلى مدينتنا، كان بطرس سـتيفانوفتش قد وصل إلى بطرسـبرج واستقر فيها باسم مستعار. حتى إذا أحس أن الأمور تجري مجرى سيئاً، تسلل هارباً إلى خارج البلاد على الفور. ولكنني أستبق الأحداث.

حين دخل بطرس سـتيفانوفتش على كيريلوف كان خبيث الوجه شـرس الهيئة، حتى لكأنه حاقد على كيريلوف حقداً شـخصياً فهو يريد أن ينتقم منه.

وبدا على كيريلوف أنه سُرّ برؤيته. واضح أنه كان ينتظره منذ مدة طويلة، وأنه كان ينتظره على حالة من نفاد الصبر تكاد تكون مرضية. كان وجهه شاحباً أكثر مما عُهد فيه من شحوب. وكانت نظرة عينيه السوداوين ثقيلة ساكنة.

قال وهو ينطق بألفاظه في مشقة:

ـ كنت أظن أنك لن تجيء.

ولكنه لم ينهض لاستقبال الزائر، وظل جالساً في ركن الديوان.

فتفرّس بطرس ستيفانوفتش في وجهه صامتاً لا ينبس بكلمة. ثم قال له أخيراً:

ـ هيّا! كل شيء على ما يرام! لم نعدل عن خطتنا! مرحى!

وابتسم ابتسامة حمايةٍ وقحة ورعاية مؤذية. ثم أسرع يقول بمرح خبيث:

ـ اسمع. لقد تأخرت عن الموعد. وليس عليك أن تلومني. لقد أهديت إليك ثلاث ساعات. ـ لا أريد أن تهدي إليّ ساعات إضافية. وليس في إمكانك أن تهدي إليّ هدية... يا غبي!

فارتعش بطرس ستيفانوفتش وسأله:

ـ كيف؟

ولكنه لم يلبث أن سيطر على نفسه. فقال له وهو على تلك الهيئة نفسها التي تعبر عن رعاية وقحة:

ـ ما أسرع تأذيك! أوه! أوه! أراك غضبت! إن الهدوء أفضل في مثل هذه اللحظة. وخير شيء هو أن تعد نفسك مثل كريستوف كولومب وأن لا تعدّني إلّا فأرة لا يمكنها أن تهينك. سبق أن نصحتك بهذا أمس.

ـ لا أريد أن اعدّك فأرة!

ـ أيكون هذا مديحاً! أوه! الشاي بارد! كل شيء مقلوب رأساً على عقب. ما هذا الذي أراه هناك في صحن؟

واقترب من النافذة. وأضاف يقول:

ـ دجاجة بالرز!... ولكن لماذا لم يؤكل منها شيء؟ أنت إذًا في حالة تبلغ من الغرابة أن دجاجةً لا...

ـ أكلت. ليس هذا شأنك. اسكت!

ـ طبعاً ليس هذا شأني. ولكن الأمرين في نظري لا يستويان. هل تتصور أنني لم أكد أتغدى؟ فإذا صحّ تخميني، وهو أنك لست في حاجة إلى هذه الدجاجة، كان في وسعي أن... هه؟

ـ كُل إن استطعت.

ـ شكراً، وسأشرب شاياً.

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وجلس إلى المائدة فوراً، على الركن الآخر من الديوان، وجعل يأكل بشراهة، مع استمراره على مراقبة ضحيته بطرف عينه. وكان كيريلوف يحدّق إليه بحنق يمازجه اشمئزاز، وكأنه لا يستطيع أن يحوّل عنه بصره.

هتف بطرس ستيفانوفتش يقول من دون أن يكف عن الأكل:

ـ يجب علينا مع ذلك أن نتكلم في موضوعنا. لم تتراجع، هه؟ والرسالة؟

ـ قررت الليلة أن الأمرين عندي سواء. سوف أوقع الرسالة. وعن المنشورات التحريضية أيضاً؟

ـ نعم، أيضاً. سأملي عليك النص على كل حال. ما اهتمامك بهذا؟ هل يعقل أن يهمك مضمون هذه الرسالة في مثل هذه اللحظة؟

ـ ليس هذا شأنك.

ـ طبعاً. لا يعدو الأمر بضعة أسطر تقول فيها إنك أنت وشاتوف قد وزعتما منشورات بمساعدة فدكا الذي كنت تؤويه. إن هذه النقطة الأخيرة، أعني فدكا وإقامته عندك، أمر هام. هي أهم شيء. ها أنت ذا ترى أنني صريح معك.

ـ تقول شاتوف؟ لماذا شاتوف؟ لن أتكلم عن شاتوف.

ـ يا للفكرة العجيبة! فيم يهمك هذا؟ إنك لا تستطيع أن تلحق به ضرراً بعد الآن!

ـ رجعت زوجته. ولقد استيقظت وأرسلت تسألني أين هو.

ـ أرسلت تسألك أين هو؟ همْ... هذا شيء! قد تسأل مرة أخرى... يجب

أن لا يعرف أحد أنني هنا...

بدا القلق على بطرس ستيفانوفتش.

- لن تعرف شيئاً. لقد نامت ثانية. وإن آرينا فرجنسكي، مولِّدتها، هي الآن بقربها.

- أظـن... أنها لن تسـمع. ولكن مـن الأفضل، كما تـرى، أن يُقفل الباب بالمفتاح.

- لا، لن تسمع. أمَّا شاتوف، فسوف أخبئك في الغرفة الأخرى إذا جاء.

- شـاتوف لـن يجيء. وسـوف تكتـب أنكما تشـاجرتما لأنه كان يسـتعد للوشاية بك هذا المساء... وأنك قتلته.

هتف كيريلوف وهو يثب عن الديوان:

- مات؟

- اليوم، في السـاعة الثامنة من المسـاء، بل قل أمس، لأن السـاعة الآن هي الواحدة من الصباح.

- أنت الذي قتلته... لقد تنبأت بذلك منذ أمس.

- لم يكن التنبؤ بذلك أمراً صعباً. قتلته بهذا المسدس نفسه...

قال ذلك وأخرج مسدسه كمن يريد أن يريه كيريلوف، ولكنه لم يعده إلى جيبه، بل ظل قابضاً عليه باليد اليسرى، استعداداً لكل احتمال...

وأردف يقول:

- انـك لإنسـان غريب يـا كيريلوف: ألـم تعرف أنت نفسـك أن الأمور لا يمكـن أن تنتهـي إلى غير هذه النهاية مع هذا الغبي؟ لقد كان التنبؤ بذلك أمراً سـهلاً. كم مرة شـرحته لك! لقد كان شـاتوف يستعد لوشـاية، وكنت أراقبه. ولـم يكن يمكننـا أن ندعه يفعل. أنت نفسـك تلقيت تعليمات بهذا الشـأن. وقلت لي منذ ثلاثة أسابيع...

- اسكت. أنت قتلته لأنه بصق في وجهك بمدينة جنيف.

- لهذا الأمر ولأمر آخر أيضاً، بل لأمور أخرى كثيرة، ولكن بدون كره على كل حال. ما لك؟ لماذا هذه الهيئة؟ أوه! أوه! علام هذه النظرة إلى الأمور!...

قال بطرس ستيفاتوفتش ذلك، وهبَّ يقف بوثبة، ممسكاً مسدسه بيده لأن كيريلوف كان قد أمسك مسدسه الذي هيأه وألقمه منذ الصباح. وصوَّب بطرس ستيفانوفتش سلاحه نحو كيريلوف. فضحك كيريلوف ضحكة صفراء وقال له:

ـ اعترف أيها الوغد أنك تناولت مسدسك عالماً بأنني كنت سأقتلك... ولكنني لن أقتلك... رغم أن... رغم أن...

وصوَّب إلى بطرس ستيفانوفتش مرةً أخرى كأنه يجرِّب نفسه، ولا يستطيع العدول عن اللذة التي يمكن أن يتمتع بها إذا هو قتله.

وكان بطرس ستيفانوفتش لا يزال ينتظر متأهباً، مصمماً على الانتظار إلى آخر دقيقة من دون أن يضغط الزناد، متعرضاً بذلك لخطر تلقي الرصاصة الأولى: إن كل شيء يمكن توقعه من هذا "المهووس". ولكن المهووس خفض ذراعه أخيراً، وهو يرتعش ارتعاشاً شديداً، ويعجز عن النطق بكلمة واحدة.

وقال بطرس ستيفانوفتش خافضاً سلاحه هو أيضاً:

ـ كفى عبثاً! كنت أعلم أنك إنما تتسلى. ولكن هل تعلم أنك كنت تخاطر مخاطرة كبيرة؟ لقد كان يمكن أن أضغط على الزناد.

وعاد يجلس على الديوان هادئاً، وصبَّ لنفسه الشاي بيدٍ ترتجف بعض الارتجاف.

وضع كيريلوف مسدسه على المائدة، وجعل يسير في الغرفة طولاً وعرضاً.

ـ لن أكتب أنني قتلت شاتوف... لن أكتب شيئاً... لن أوقِّع الرسالة.

ـ لن تكتب؟

ـ لا؟

ـ يا له من جبن! ويا له من غباء!

كذلك هتف يقول بطرس ستيفانوفتش وقد اخضر لونه غضباً.

وأردف يقول:

ـ على كل حال، كنت أتنبأ بذلك. ولكنك لا تغدر بي وأنا عاجز عن كل حيلة. افعل ما يحلو لك. إذا استطعت أن أجبرك إجباراً فسوف أفعل. مهما يكن من أمر، فأنت جبان!

لقد فقد بطرس ستيفانوفتش صوابه.

واستطرد يقول:

ـ طلبتَ منا مالاً، وبذلت لنا وعوداً كثيرة... لكنني لن أدعك هكذا: سوف أرى بعيني على الأقل كيف ستطلق الرصاص في رأسك.

قال كيريلوف بلهجة حازمة وهو يقف أمامه:

ـ أريد أن تنصرف فوراً.

فأجابه بطرس ستيفانوفتش وهو يتناول مسدسه مرة أخرى:

ـ أمَّا هذه فلا! أبداً!... من يدري؟ قد تُقرر أن تؤجل كل شيء إلى غد، خبثاً أو جبناً، ثم تمضي تشي بنا في الغد لتقبض بضعة قروش أخرى. ذلك أنهم سيدفعون لك مبلغاً طيباً إذا أنت وشيت بنا، شيطان يأخذك. إن أمثالك لا يتورّعون عن شيء. ولكن اطمئن. لقد تنبأت بالأمر: لن أنصرف قبل أن أهشِّم رأسك بهذا المسدس، كما فعلت بذلك الحقير شاتوف، إذا أنت خفت وأرجأت تنفيذ مشروعك. فلتذهب إلى جهنم!

ـ أتصرُّ حتماً على معرفة لون دمي؟

ـ اعلم أنني لا أفعل هذا كرهاً بك أو بغضاً لك. أنت لا تعنيني. وإنما أنا أعمل في سبيل "القضية". إنك لترى أنه لا يمكن الاعتماد على أحد. لست أفهم من فكرتك شيئاً. لست أنا الذي أوحيت إليك بهذه الفكرة. حتى قبل أن تعرفني، كنت قد أطلعت أعضاء جمعيتنا على خطتك. لاحظ أن أحداً منهم لم يدفعك إلى ذلك، بل إن أحداً منهم لم يكن يعرفك. ولقد أسررت إليهم بكل شيء من تلقاء نفسك، في نوع من سورة عاطفية. فما ذنبنا إذا نحن وضعنا، بالاتفاق معك، وتلبيةً لاقتراح منك، (نعم، تلبيةً لاقتراح منك، لاحظ هذا)، أقول ما ذنبنا إذا نحن وضعنا خطة عمل يستحيل علينا أن نغيِّر منها الآن شيئاً؟ لا، لا، إنك قد ارتبطت والتزمت. لقد قطعت على نفسك

عهداً، وقبضت مالاً. هذا لا تستطيع أن تنكره...

لقد تحمس بطرس ستيفانوفتش وهو يتكلم، ولكن كيريلوف كان قد انقطع عن الإصغاء إليه منذ مدة طويلة، كان يذرع الغرفة حالم الهيئة، شارد الذهن!

قال وهو يقف أمام بطرس ستيفانوفتش مرةً أخرى:

ـ إنني آسف على شاتوف.

ـ وأنا أيضاً آسف عليه، ولربما..

ـ اسكت أيها الشقي... سوف أقتلك.

كذلك أعول يقول كيريلوف وهو يحرك يده بإشارة تهديد لا لبس فيها.

فنهض بطرس ستيفانوفتش بوثبة واحدة، ورفع يده كمن يريد أن يحمي نفسه، وقال:

ـ طيب، طيب، أنا كاذب... إنني غير آسف عليه البتة! ولكن كفى، كفى!

فصمت كيريلوف واستأنف سيره في الغرفة. ثم قال:

ـ لن أتراجع. أريد أن أنتحر الآن، الجميع أوغاد.

ـ فكرة عظيمة: ليس هناك إلّا أوغاد في كل مكان، ولما كان الإنسان الشريف لا يستطيع إلّا أن يشعر من ذلك باشمئزاز، فإن الأفضل أن...

ـ غبي! أنا أيضاً وغد، مثلك، ومثل جميع الناس! لم يوجد رجل شريف في يوم من الأيام.

ـ أخيراً وضع إصبعه على الحقيقة. كيف لم تدرك حتى الآن، وأنت رجل ذكي، أن جميع البشر سواء، وأنه لا أحد خير أو شر من أحد. وإنما هناك أذكياء وأغبياء، وأنه إذا كان الجميع أوغاداً (وذلك خطأ على كل حال) فليس هناك إذًا أناس شرفاء؟

سأل كيريلوف وهو ينظر إلى بطرس ستيفانوفتش مدهوشاً بعض الدهشة:

ـ ألست تمزح؟ إنك تتكلم بحرارة وبساطة، هل يُعقل أن يكون لأمثالك اقتناعات؟

ـ كيريلوف، أنا لم أستطع في يوم من الأيام أن أفهم لماذا تريد أن تنتحر.

كل ما أعرفه أن انتحارك نابع من اقتناع واعتقاد... ولكن إذا كنت تشعر بحاجة إلى أن تفضي بما في نفسك، إن صح التعبير... فأنا مستعد للاستماع... ولكن يجب أن لا يغيب عن بالنا أن الوقت يجري...

ـ كم الساعة الآن؟

أجاب بطرس ستيفانوفتش وهو ينظر في ساعته:

ـ هي الثانية تماماً منذ الآن.

وأشعل سيجارة. وحدّث نفسه قائلاً لها: "أظن أن التفاهم بيننا لا يزال ممكناً".

ودمدم كيريلوف يقول:

ـ ليس لديَّ ما أفضي به إليك.

قال بطرس ستيفانوفتش:

ـ إنني أتذكر تذكراً غامضاً أن مدار المناقشة على الله... لقد سبق أن شرحت لي هذا مرةً، بل مرتين. فقلت لي: إذا أنت انتحرت أصبحت إلهاً، أليس هذا ما قلته؟

ـ نعم، أصبح إلهاً.

حاذر بطرس ستيفانوفتش أن يبتسم. وانتظر. فرشقه كيريلوف بنظرة ماكرة. وقال له:

ـ ما أنت إلّا ماكر محتال وسياسي كاذب. إنك تريد أن تستدرجني إلى مجال النقاش الفلسفي وأن توري حماستي من أجل أن تُحلَّ السلام والوئام، من أجل أن تبدِّد غضبي، حتى إذا تصالحنا انتزعت مني الورقة التي تريدها بشأن شاتوف.

فقال بطرس ستيفانوفتش يجيبه بصراحة وبراءة توشكان أن تكونا طبيعيتين:

ـ لنسلِّم جدلاً بأنني وغد، ولكن فيم يهمك هذا الآن ياكيريلوف! لماذا نتشاجر؟ هلا قلت لي لماذا نتشاجر؟ أنت لك طبيعتك، وأنا لي طبيعتي، ثم ماذا؟ ثم إننا كلينا...

ـ من الأوغاد...

جائز... ولكنك تعلم أنت نفسك أن هذه كلها كلمات لا أكثر.

ـ لقد ظللت طول حياتي أرغب في أن لا تكون كلمات، بل شيئاً آخر. إنني ما عشت إلّا من أجل هذا... من أجل أن تكون شيئاً آخر غير الكلمات. وما زلت إلى الآن أريد في كل يوم أن لا تكون كلمات فحسب...

ـ كل امرئ يبحث عما يناسبه، ويسعى إلى ما يوافقه!... إن السمكة... أقصد إن كل إنسان ينشد رخاءه بمعنى من المعاني. هذا كل شيء. وهو معروف منذ زمن طويل.

ـ هل تقول ينشد رخاءه؟

ـ لا داعي إلى الجدال في الألفاظ.

ـ لا بل لقد أحسنت التعبير. الرخاء. صحيح. الله ضروري، إذًا لا بد أن يوجد.

ـ تماماً.

ـ لكنني أعلم أنه غير موجود، ولا يمكن أن يوجد.

ـ ذلك أرجح.

ـ هل يُعقل أن لا تفهم أن إنساناً من الناس لا يمكن أن يستمر في الحياة حاملاً فكرتين كهاتين؟

ـ فليس عليه إذًا إلّا أن يطلق في رأسه الرصاص.

ـ هل يُعقل أن لا تدرك أن المرء يمكن أن ينتحر لهذا السبب وحده؟ إنك لا تفهم أن من الممكن أن يوجد رجل، رجل واحد بين ملايين الرجال، قد لا يحتمل هذا التناقض فيعزف عن الحياة!

ـ لا أفهم إلّا شيئاً واحداً، هو أنك تبدو متردداً... وذلك سيئ جداً.

قال كيريلوف وهو لا يزال يمشي طولاً وعرضاً، مظلم الهيئة، حتى إنه لم يسمع الجملة الأخيرة التي قالها بطرس ستيفانوفتش:

ـ إن ستافروجين، هو أيضاً، قد التهمته الفكرة...

ـ كيف؟

كذلك هتف بطرس ستيفانوفتش قائلاً وهو يصيخ بسمعه. وتابع كلامه:

ـ أية فكرة؟ هل حدثك عن نفسه؟

ـ لا بل حزرت: حين يؤمن ستافروجين، فإنه لايؤمن بأنه يؤمن. وحين لا يؤمن، فإنه لا يؤمن بأنه لا يؤمن.

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول:

ـ همْ... إن لستافروجين أمراً آخر، أذكى من هذا.

وكان يقلق للمجرى الجديد الذي يجري فيه الحديث، ويلاحظ وجه كيريلوف الشاحب. قال يحدث نفسه: "شيطان يأخذه. إنه لن ينتحر. لقد أوجست دائماً هذا. إنه يتلذذ بتخيلاته. يا لهذه الزمرة من الناس ما أحطَّها!".

ـ إنك آخر من يبقى معي. فلا أحب أن نفترق افتراقاً سيئاً.

فتردد بطرس ستيفانوفتش لحظة قبل أن يجيب، قائلاً لنفسه: "ما هذا أيضاً؟". ثم قال يجيبه:

ـ ثق كل الثقة يا كيريلوف أنني لا أحمل لك أية عداوة من حيث أنا إنسان، ولا أضمر لك أي حقد شخصي، ولكنني كنت دائماً...

ـ أنت رجل شقي وفكر زائف، ولكنني مثلك. وسوف أموت أنا، وتحيا أنت.

ـ هل تريد أن تقول إنني أبلغ من السوء والرداءة والخبث ما يضمن لي البقاء على قيد الحياة؟

كان لا يعلم بعدُ هل يفيده أن يستمر في الحديث أو لا يفيده. وقرر أن "يدع الأمر للظروف". غير أن لهجة الاستعلاء والاحتقار التي يستعملها كيريلوف في مخاطبته، والتي طالما أزعجته وأغاظته في الماضي، تحنقه الآن أكثر من أي وقت مضى. لعل ذلك يرجع إلى أن كيريلوف سوف يموت بعد ساعة (ولقد كان بطرس ستيفانوفتش لا يحول بصره عنه رغم كل شيء)، فكان ذلك يهوِّن شأنه ويطفف قيمته في نظره، فهو إنسان نصف حي نصف ميت إن صح التعبير، إنسان لايطيق بطرس ستيفانوفتش أن يحتمل كبرياءه وزهوه بنفسه.

ـ يخيّل إليَّ أنك تسحقني بتفوقك لأنك ستنتحر، هه؟

قال كيريلوف الذي لم يسمع في هذه المرة أيضاً ما قاله بطرس ستيفانوفتش:

ـ يدهشني أكبر الدهشة أن الناس يستمرون في الحياة.

ـ همْ!... طيب... لنسلِّم جدلاً... هذه فكرة... ولكن...

ـ قرد! إنك تسارع إلى قول "نعم" لتستولي عليَّ. اسكت. أنت لا تفهم شيئاً. إذا كان الله غير موجود فأنا الله.

ـ هذه بعينها هي النقطة التي لم أستطع أن أفهمها منك في يوم من الأيام: لماذا أنت الله؟

ـ إذا كان الله موجوداً، كانت الإرادة كلها له، وكنت أنا عاجزاً عن كل شيء في خارج إرادته. أمَّا إذا لم يكن موجوداً فالإرادة كلها إرادتي، وعليَّ أن أنادي بإرادتي الخاصة.

ـ إرادتك الخاصة؟ ولماذا عليك أن تنادي بها؟

ـ لأن الإرادة كلها الآن إنما هي إرادتي. هل يُعقل أن لا يوجد على وجه الأرض كلها شخص يجرؤ أن ينادي بإرادته الخاصة في صورتها القصوى بعد أن قتل الله وآمن بتلك الإرادة الخاصة التي له. إن مثل من يعجز عن ذلك كمثل فقير ورث مالاً ولكنه لايجرؤ أن يقترب من الكيس لأنه يعد نفسه أضعف من أن يحق له الاستيلاء عليه. أريد أن أنادي بإرادتي أنا. سأفعل ذلك ولو فعلته وحدي.

ـ أحسنت! افعله!

ـ يجب عليَّ أن أطلق الرصاص في رأسي لأن الصورة القصوى التي تتجلى فيها إرادتي هي الانتحار.

ـ ولكنك لا تنتحر وحدك. كثيرون انتحروا قبلك.

ـ لأسباب أخرى. أمَّا للمناداة بالإرادة الشخصية وحدها، لا لأي سبب آخر، فأنا الوحيد الذي ينتحر.

حدَّث بطرس ستيفانوفتش نفسه قائلاً: "لا، لن ينتحر".

وقال منزعجاً مغتاظاً:

ـ هل تعلم؟ لو كنت في مكانك لجعلت إرادتي تتجلى في أن أقتل شخصاً آخر، أمّا أن أقتل نفسي فلا. فبذلك يمكنك أن تكون نافعاً. سأدلك على من تقتله، إذا كنت لا تخاف. في هذه الحالة تستطيع أن لا تطلق الرصاص على نفسك اليوم. يمكننا أن نتفاهم.

ـ أن أقتل شخصاً آخر فذلك أدنى شكل من أشكال تجلي إرادتي. هذا تفعله أنت. هذا أنت. أمّا أنا فلست أنت: أنا أريد الشكل الأعلى، أريد الصورة القصوى. فسأنتحر.

جمجم بطرس ستيفانوفتش يقول لنفسه ساخطاً: "اكتشف هذا وحده!".

واستأنف كيريلوف كلامه وهو لا يزال يذهب ويجيء في الغرفة:

ـ يجب أن أنادي بأنني غير مؤمن. إن أعلى فكرة في نظري هي أن الله غير موجود. تاريخ الإنسانية بأسره يشهد لي. حتى الآن كان الإنسان يخلق إلهاً ليعيش من دون أن ينتحر، أنا وحدي، لأول مرة في تاريخ العالم، أرفض أن أخترع إلهاً. ألا فليعلم جميع الناس هذا مرةً إلى الأبد.

قال بطرس ستيفانوفتش يحدّث نفسه وقد ازداد قلقه: " لن ينتحر".

وقال يحرِّضه:

ـ من الذي سيعلم هذا؟ لسنا هنا إلّا اثنين. ربما ليبوتين؟

ـ سيعلمونه جميعاً، جميعاً! لا شيء يخفى! "هو" الذي قال ذلك.

وأشار بنوع من الحماسة إلى صورة المسيح التي كان يشتعل أمامها سراج.

ثارت ثائرة بطرس ستيفانوفتش. قال:

ـ إذًا ما زلت تؤمن "به" وتشعل سراجاً. ربما من باب الاحتياط لكل شيء، هه؟

لزم كيريلوف الصمت. وأضاف بطرس ستيفانوفتش قوله:

ـ في رأيي أنك ما تزال تؤمن به أكثر مما يؤمن به كاهن!

ـ بمن؟ به "هو" ؟ اسمع...

قال كيريلوف ذلك وتوقف محدقاً إلى أمام كأنه في حاله نشوة ووجد، وتابع كلامه:

ـ اسمع. فكرة عظيمة: في ذات يوم نُصبت ثلاثة صلبان. كان أحد المصلوبين يبلغ من قوة الإيمان أنه قال للذي كان إلى يمينه: "في هذا اليوم نفسه ستكون معي في الجنة". وانتهى اليوم ومات الاثنان، ولم يجدا لا جنةً ولا بعثاً. لم يتحقق قول المصلوب. اسمع. إن ذلك الرجل كان أعظم رجل في الأرض. بسببه إنما وُجدت الأرض. فالأرض كلها وجميع ما عليها لا تكون بغيره إلّا جنوناً. لم يوجد قبله ولن يوجد بعده إنسان يشبهه ولو تحققت معجزة. والمعجزة إنما هي أن هذا الإنسان لم يوجد أحد مثله ولن يوجد أحد مثله في يوم من الأيام. فإذا كان الأمر كذلك، إذا كانت قوانين الطبيعة لم تدارِ حتى "ذلك الإنسان"، إذا لم تراعِ حتى معجزتها، واضطرته أن يحيا في وسط الكذب، وأن يموت بسبب كذبةَ، بينما الأرض كلها ليست نفسها إلّا أكذوبة، ولاتقوم إلّا على الكذب والضلال، فإن قوانين هذه الأرض نفسها ليست إلّا كذباً، وليست إلّا مهزلة شيطانية! فعلام يحيا المرء؟ أجب إذا كنت رجلاً!

ـ هذه مسألة أخرى تماماً. أخال أنك تخلط بين شيئين مختلفين، وهذا لا ينبئني بأي خير. ولكن اسمح لي: ماذا إذا كنت الله؟ ماذا إذا انتهى الكذب فأدركت أن الكذب كان يصدر عن ذلك الإله القديم؟

صاح كيريلوف يقول خارجاً عن طوره:

ـ ها أنت ذا أخيراً فهمت! الفهم إذًا ممكن، ما دام واحد مثلك قد فهم. تدرك الآن أن سلامة الجميع إنما تكون بالبرهان على هذه الفكرة للجميع؟ ومن الذي سيبرهن عليها؟ أنا! إنني لا أتصور كيف يستطيع ملحدٌ يعلم أن الله غير موجود، كيف يستطيع أن لا ينتحر فوراً. لئن يدرك المرء عدم وجود الله، ثم لا يدرك في الوقت نفسه أنه هو الله، فتلك استحالة، وإلا وجب على المرء أن ينتحر. إذا كنت تشعر بذلك فأنت ملك، ولن تنتحر، بل ستعيش في المجد. واحد لا بد حتماً أن ينتحر أول من ينتحر. وإلا فمن عسى يبدأ ويبرهن؟ إنني أنا الذي سأنتحر لأبدأ وأبرهن. لست بعدُ إلهاً إلّا بالرغم مني، وأنا شقي لأنني "مضطر" أن أنادي بإرادتي الخاصة. جميع الناس أشقياء لأنهم يخافون أن يبادوا بإرادتهم. كان الإنسان دائماً حتى الآن فقيراً وشقياً،

لأنـه كان يخشـى أن يحقق الصورة القصوى لإرادته. كان لا يسـتعمل إرادته إلّا خفيـةً وسـراً، كتلميـذ في مدرسـة، إننـي بائس بؤسـاً رهيبـاً لأنني خائف خوفاً فظيعاً. الخوف لعنة الإنسـان... لكنني سـأنادي بإرادتي! أنا مضطر أن أؤمن بأنني لا أؤمن. سـأبدأ، وسـأنهي. سأفتح الباب. وسـأنقذ. ذلك وحده سـينقذ جميع البشر، وسـيبدلهم تبديلاً جسـمياً من الجيل المقبل. إذا ما ظل الإنسـان فـي حالته الجسـمية الراهنة ـ ولقـد فكرت في هذا ملياً ـ فيسـتحيل عليه استحالةً مطلقة أن يستغني عـن الإله القديم. لقد ظللت أسـعى ثلاث سـنين إلى صفة ألوهيتي، حتى وجدتها: إن صفـة ألوهيتي هي حرية إرادتي! ذلك كل شـيء! فبفضل إرادتي إنما يمكـن أن تتجلّى الصورة القصوى لعدم خضوعـي، ولحريتي الجديـدة، حريتي الرهيبة. ذلك أنهـا رهيبة، إنني أنتحر لأبرهن على عدم خضوعي وعلى حريتي الجديدة.

كان وجهه شـاحباً شحوباً شديداً، وكانت نظرته ثقيلة. كان يبدو أنه يعاني حمّى. خُيِّل إلى بطرس ستيفانوفتش أنه سيقع على الأرض.

هتف كيريلوف يقول فجأة بوحي مباغت:

ـ أعطني الريشة! أَمْلِ عليَّ ما شئت، وسأوقع على أنني قتلت شاتوف، أَمْلِ عليَّ ما دام هذا يسليني حتى الآن. لا أخشى ما قد يقوله العبيد المتغطرسون. لسـوف ترى بنفسـك أن كل ما كان خافياً سـيُعلم. وستُسـحق أنت... أظن! أظن!.

انتهـز بطرس سـتيفانوفتش اللحظة المواتية مرتعشـاً من فرحـه بالنجاح، فنهض بوثبة واحدة، وأسـرع يضع الحبر والـورق أمام كيريلوف فوراً، وأخذ يملي عليه:

"أصرِّح أنا ألكسي كيريلوف...".

ـ قف! لا أريد! لمن أصرِّح؟

كان كيريلوف يرتعش كأن به حمى. إن هذا التصريح والفكرة التي أوحاها إليه فجأة، يسـتغرقان كل انتباهه ويفتحان مخرجاً موقتاً لنفسـه المرهقة التي أسرعت تندفع فيه فوراً.

ـ لمن أصرِّح؟ أريد أن أعرف لمن أصرح!

ـ لا تصرِّح لأحد، بل للجميع، لأول من سيقرأ. لماذا التحديد؟ هل تريد أن تصرِّح للعالم كله؟

ـ للعالـم كلـه؟ مرحى! وبدون أي ندم! لا أريد ندمـاً! لا أريد أن أخاطب السلطات.

ـ لا! فلتذهب السلطات إلى جهنم! هيَّا اكتب إذا كنت جاداً!

كذلك هتف بطرس ستيفانوفتش، ثائر الأعصاب.

ـ انتظر. أريد أن أرسم في أعلى الصفحة فماً ماداً لسانه.

ـ سـخافة! لا داعـي إلـى الرسـم. يمكـن التعبير عـن كل شـيء باللهجة وحدها.

أصبح بطرس ستيفانوفتش لا يكاد يستطيع كظم غيظه.

قال كيريلوف:

ـ باللهجة؟ حسن جداً. نعم، باللهجة، باللهجة. أَمْلِ عليَّ اللهجة!

أخـذ بطـرس سـتيفانوفتش يملي عليـه بصوت ثابـت صـارم، مائلاً على كتف صاحبه، متابعاً بانتباه شـديد كلَّ حرف من الأحرف التي كان كيريلوف يرسمها بيد مرتعشة من الانفعال:

"أصرِّح أنا ألكسـي كيريلوف، بأنني في هذا... من شـهر تشـرين الأول (أكتوبر)، عند السـاعة الثامنة مسـاءً، قد قتلت الطالب شـاتوف في الحديقة، بسبب خيانته ووشايته عن المنشورات التحريضية وعن فدكا الذي أقام عندنا بعمارة فيليبوف عشـرة أيام. وإنني أنتحر الآن بطلقة مسـدس لا لأن ضميري يعذبنـي، أو لأنني خائف منكـم، بل لأنني قد وضعت مشـروع الانتحار هذا منذ كنت في خارج البلاد.".

سأله كيريلوف مدهوشاً مستاءً:

ـ أفهذا كل شيء؟

فقال بطرس ستيفانوفتش وهو يحاول أن ينتزع منه الرسالة:

ـ لا تزد كلمة واحدة!

هتف كيريلوف يقول:

ـ قف!

ووضع يده على الورقة. واستطرد:

ـ ما هذا السخف! أحب أن أقول مع من قتلت. لماذا فدكا؟ والحريق؟ أريد أن أقول كل شيء، وأن أشتمهم فوق ذلك! اللهجة! اللهجة!

قال بطرس ستيفانوفتش متوسلاً إلى صاحبه، خائفاً أن يمزق كيريلوف الورقة:

ـ هذا كافٍ يا كيريلوف. أؤكد لك أن هذا يكفي! من أجل أن يصدِّقوك يجب أن يكون كلامك أغمض ما يمكن، يجب أن لا يشتمل إلّا على إشارات. يجب أن لا تبدي إلّا طرفاً من الحقيقة، طرفاً صغيراً هو القدر اللازم لجذبهم وإغرائهم. مهما نقل نحن، فلسوف يكذبون هم أكثر منا، ولسوف يصدِّقون طبعاً ما يكونون قد لفَّقوه أكثر مما يصدِّقون ما نلفِّقه نحن، وهذا أفضل. أعطني الورقة. هي هكذا كاملة. هيَّا! أعطنيها!

كان بطرس ستيفانوفتش يحاول أن يستولي على الرسالة. وكان كيريلوف يصغي إليه محملق العينين، وكأنه يبذل جهداً من أجل أن يفهم، ولكن كان واضحاً أنه أصبح لايفهم شيئاً.

صرخ بطرس ستيفانوفتش يقول غاضباً على حين فجأة:

ـ ما هذا يا ربّ! لم يوقِّع حتى الآن. ما بالك تحملق هكذا؟ هلاً وقعت!

فدمدم كيريلوف يقول:

ـ أريد أن أشتمهم...

ـ اكتب: عاشت الجمهورية! هذا كافٍ.

فافتتن كيريلوف بهذا الاقتراح أعظم الافتتان، وزأر يقول:

ـ أحسنت! "عاشت الجمهورية الديموقراطية الاجتماعية الشاملة أو الموت!". لا، لا، لا.هكذا! بل: "حرية، مساواة، أخوة، أو الموت!". هذا أفضل! هذا أفضل كثيراً.

وبلذة واضحة كتب تلك الجملة تحت توقيعه.

كرر بطرس ستيفانوفتش يقول:

ـ كفى! كفى!

ـ انتظر قليلاً أيضاً! اسمع، أريد أن أوقِّع مرة أخرى باللغة الفرنسية "من كيريلوف، السيد الروسي، المواطن في العالم". هأ هأ هأ! بل انتظر، وجدت ما هو أفضل من ذلك أيضاً! أوريكا! "طالب روسي، مواطن في العالم المتمدن". عظيم!

ووثب عن الديوان، وتناول مسدسه الموضوع على النافذة بحركة سريعة، وهرع إلى الغرفة المجاورة وأغلقها وراءه بالمفتاح.

لبث بطرس ستيفانوفتش لحظةً حالماً، متجهاً ببصره إلى الباب. وخاطب نفسه قائلاً: "إذا عزم أمره فوراً فقد ينتحر، أمَّا إذا أخذ يفكر فلن يحدث شيء!".

وبانتظار ما سيقع، تناول الرسالة وجلس وأعاد قراءتها، فأعجبته كثيراً. وجعل يحدث نفسه قائلاً:

"ما الذي نحن في حاجة إليه جملةً؟ نحن في حاجة إلى أن نشوشهم فترةً من الوقت، وأن ندفعهم في طريق خطأ. الحديقة؟ لا حديقة هنا، وسينتهون إذن إلى إدراك أن الحديقة المقصودة في هذه الرسالة إنما هي حديقة سكفورشنيكي. ولكن يكون قد انقضى بعض الوقت قبل أن توافيهم هذه الفكرة. وبعد ذلك يستغرق البحث في الحديقة وقتاً آخر. فإذا اكتشفوا الجثة أخيراً، أدركوا أن الرسالة كانت صادقة في ما قالته، ولا بد أن يكون سائر ما قالته صادقاً، ومنه قصة فدكا. ولكن ما فدكا؟ إن فدكا هو الحريق الذي أُشعل، ولبيادكين الذي قتل. كل شيء إذاً قد صدر عن هنا، عن عمارة فيليبوف. بينما هم لم يروا شيئاً ولا خطر ببالهم شيء! لسوف يفقدون صوابهم حقاً. ولن يدور في خلدهم أن يكون "لأصحابنا" شأن في هذه الأمور كلها. سوف يدورون حول شاتوف وكيريلوف وفدكا ولبيادكين. ولكن علام هؤلاء القتلى جميعاً؟ ذلك سر سيظل يصعب عليهم أن يجدوا

حلاً له!... غريب... ما باله لم يطلق على نفسه النار حتى الآن!...".

كان بطرس ستيفانوفتش يقرأ النص الذي أملاه ويعجب به، ومع ذلك كان يصيخ بسمعه شاعراً بقلق يعذبه تعذيباً شديداً. واعترته نوبة حنق مسعور على حين فجأة. ونظر في ساعته: كان الوقت قد تقدم كثيراً. إن كيريلوف قد حبس نفسه في الغرفة المجاورة منذ أكثر من عشر دقائق. تناول بطرس ستيفانوفتش الشمعدان واقترب من الباب. وخطر بباله في تلك اللحظة نفسها أن الشمعة ستكون قد ذابت كلها بعد عشرين دقيقة، وأنه لا يملك شمعة أخرى غيرها. وضع يده على قبضة الباب، ومدَّ أذنه: لم يسمع شيئاً. وفجأة فتح الباب ورفع الشمعة، غير أن شيئاً ما قد وثب عليه معولاً. فأسرع يعيد إغلاق الباب، واستند إليه بكل ثقله. لم يعد يُسمع شيء. صمت كصمت الموت.

لبث بطرس ستيفانوفتش مدة طويلة واقفاً، متحيراً، والشمعة بيده. إنه حين فتح الباب لم يستطع أن يميز شيئاً كثيراً. ولكنه لمح كيريلوف في آخر القاعة بسرعة كومض البرق، لمحه واقفاً قرب النافذة، وأدهشه كثيراً وثوب المهندس عليه ذلك الوثوب الذي يعبِّر عن حنق حيواني وحشي. ارتعش بطرس ستيفانوفتش، ووضع الشمعة على المائدة، ورفع ديك المسدس، ومضى بخطى كخطى الذئب يتربص في آخر الغرفة: هكذا يكون لديه متسع من الوقت لأن يصوِّب ويشد الزناد قبل كيريلوف، إذا فتح كيريلوف الباب وهجم عليه.

أصبح بطرس ستيفانوفتش لا يصدِّق أن كيريلوف سوف ينتحر. كان يحدِّث نفسه قائلاً: "إنه واقف في وسط الغرفة يفكر. في وسط غرفته المظلمة المشؤومة... ولقد وثب إلى أمام وهو يزأر... هناك احتمالان: فإما أنني أزعجته في اللحظة التي همَّ أن يضغط فيها زناد مسدسه لينتحر. وإمَّا أنه يتساءل ما السبيل إلى قتلي. نعم، هذا هو الأمر، إنه يفكر. هو يعلم أنه إذا جبن عن الانتحار، فلن أنصرف أنا قبل أن أقتله. إذًا يجب عليه أن يقتلني حتى لا أقتله. وهذا الصمت المستمر!... أنكى ما في الأمر أنه يؤمن بالله، بل إنه يؤمن بالله أكثر مما يؤمن بالله كاهن من الكهان... لا لن ينتحر! ما أكثرهم

الآن، هؤلاء "الشاذين"! وغد! سافل! ولكن الشمعة! الشمعة! بعد ربع ساعة ستكون قد ذابت حتماً... يجب إنهاء الموضوع. يجب إنهاء الموضوع مهما كلف الأمر... ثم إنني أستطيع أن أقتله الآن. الآن وقد وقّع الرسالة لن يظن أحد أنني أنا القاتل: يمكنني أن أضع الجثة وضعاً يوهم بأنه انتحر انتحاراً. سأضع المسدس فارغاً في يده... ولكن كيف أقتله؟ إذا فتحت الباب هجم عليَّ مرة أخرى وأطلق قبل أن أطلق... نعم، ولكنه لن يصيبني. هذا مؤكد".

هكذا كان بطرس ستيفانوفتش يترجح متخبطاً بين ضرورة المبادرة وبين التردد عن العمل، وهو يرتعش من نفاد الصبر. وأخيراً تناول الشمعة واقترب من الباب جاعلاً مسدسه أمامه. وحاول باليد اليسرى التي تحمل الشمعدان أن يمسك قبضة الباب وأن يديرها بغير صوت ولكن قبضة الباب صرَّت صريراً مسموعاً. فسرعان ما قال بطرس ستيفانوفتش لنفسه: "سوف يطلق النار". ودفع الباب بضربة قوية من قدمه ورفع الشمعدان وصوَّب المسدس. لا صرخة، ولا انفجار. الغرفة خالية.

ارتعش بطرس ستيفانوفتش. لم يكن للغرفة إلّا باب واحد هو الباب الذي دخل منه. لم يهرب إذًا كيريلوف. رفع بطرس ستيفانوفتش الشمعة إلى أعلى، وجال ببصره على الغرفة: لم ير أحداً. نادى كيريلوف، بصوت خافت أولاً، ثم بصوت قوي. لا جواب.

"أيكون قد هرب من النافذة؟".

وكانت الكوة مفتوحة. "سخف. لايمكنه أن يهرب من الكوة...". مضى بطرس ستيفانوفتش إلى النافذة رأساً. "لا، مستحيل". وفجأة التفت بحركة قوية، وجمد في مكانه.

عند الجدار المقابل، توجد خزانة على يمين الباب. وعلى يمين هذه الخزانة، في الزاوية التي تتشكّل من التقائها بالجدار، كان كيريلوف واقفاً على وضع غريب كل الغرابة: فهو جامد، ساكن، مسبلٌ يديه على طول جذعه، قائم الرأس، ملتصق الظهر بالجدار، يبدو كأنه يريد أن يمَّحي، وأن يختفي أكبر اختفاء ممكن. كان يريد قطعاً أن يتقي نظرة بطرس ستيفانوفتش.

أمر يصعب تصديقه. وكان بطرس ستيفانوفتش، من المكان الذي هو فيه، لا يـرى إلّا الأجزاء البارزة من هـذه القامة، ولا يجرؤ أن يقترب ليرى كيريلوف رؤية أوضح، وليحل اللغز ويكشف السر. إن قلبه يخفق خفقاناً ثقيلاً. وفجأة، استولى عليه حنق مجنون: فها هو ذا يصرخ صراخاً شديداً، ويضرب بقدميه الأرض، ويهجم على كيريلوف.

ولكـن حيـن صـار علـى مقربة منـه، حتـى كاد يلمسـه، توقف بغتـةً وقد استبد به ارتياع. إن الشـيء الذي شـدهه خاصةً هو أنه رغم صرخاته ووثوبه المسعور، ظـل الرجـل سـاكناً سـكوناً مطلقـاً، لا يختلج اختلاجـة واحدة، فكأنه تمثال من صخر أو لعبة من شـمع. وكان وجهه مصطبغاً بصفرة غريبة، وكانـت عيناه السـوداوان تحدِّقان ثابتتين إلى نقطة فـي الفضاء أمامه. خفض بطرس ستيفانوفتش الشـمعدان ورفعه، فأنار بذلك جميع أجزاء ذلك الوجه المتجمـد. ولاحظ على حيـن فجأة أن كيريلـوف، رغم تحديقـه الثابت إلى أمـام، كان ينظـر إليه بطـرف عينه، ولعلـه كان يرصده. فخطر ببالـه عندئذ أن يقرِّب الشـمعة من وجـه "ذلك السـافل"، فيحرقه ليرى ما عسـاه يفعل. لاح لـه فـي تلك اللحظة نفسـها أن ذقـن كيريلوف تتحرك، وأن ابتسـامة سـاخرة تلمُّ بشـفتيه، كأنه قد اكتشـف غرضه. فجُنَّ جنون بطرس سـتيفانوفتش خوفاً وغضباً وأمسك كيريلوف من كتفه.

إن ما حدث بعد ذلك قد بلغ من الهول والسـرعة أن بطرس سـتيفانوفتش لم يستطع بعد ذلك في يوم من الأيام أن يتذكر تسلسـل الحوادث على وجه الدقة. إنه ما إن أمسك كيريلوف حتى خفض كيريلوف جسمه بغتةً، ثم إذا هو بضربة من رأسـه يسقط الشـمعة على الأرض. لقد تدحرج الشمعدان بضجة قوية، وانطفأت الشـمعة. وفي تلك اللحظة نفسها أحسَّ بطرس ستيفانوفتش بألم شديد في خنصر يده اليسرى. فصرخ صرخة طويلة. لقد تذكر في ما بعد أنـه وقد فقد صوابه تمامـاً، قد ضرب جمجمة كيريلوف بأخمص المسـدس ثـلاث ضربـات، فـكان كيريلـوف لا يـزال يعضُّ إصبعـه. واسـتطاع بطرس سـتيفانوفتش أخيـراً أن يحملـه على إرخـاء إصبعه، وهرع يخـرج من الغرفة

متلمساً طريقه في الظلمات، بينما كانت تلاحقه صرخات رهيبة تكررت عشر مرات:

ـ فوراً! فوراً! فوراً!...

ولكن بطرس ستيفانوفتش ظل يركض، وحين دوَّت طلقة المسدس كان قد وصل هو إلى الدهليز. فلما سمع دوي الرصاص توقف، ولبث ساكناً بضع دقائق، يفكِّر في ما يجب عليه أن يفعله. وأخيراً قرر أن يعود إلى الغرفة التي كان فيها كيريلوف. كان عليه قبل كل شيء أن يعثر على الشمعة التي أسقطها كيريلوف من يديه، والتي لا بد أنها ملقاة على يمين الخزانة. ولكن كيف يشعلها؟ وهذه صورة غامضة تعود إلى ذهنه: بالأمس، حين ركض إلى المطبخ حيث كان فدكا يأكل، قد لمح في أغلب الظن علبة كبريت فوق لوح كبير من خشب أحمر. فها هو ذا يتجه الآن إلى باب المطبخ تلمساً، فيفتحه، ويتبع الممر الصغير، ويهبط الدرجات الثلاث، ويمد يده إلى ذلك الموضع نفسه من لوح الخشب، فإذا هو يقع على علبة كبريت ملأى فعلاً، فيأخذها، ويعود صاعداً إلى فوق، في الظلام أيضاً. حتى إذا صار قريباً من الخزانة، حيث ضرب كيريلوف بأخمص مسدسه، تذكر إصبعه المعضوضة فجأة، تذكرها حينئذ فقط. وفي تلك اللحظة نفسها أحس بألم يكاد لا يُطاق. فكزَّ أسنانه، وأشعل الشمعة، وأعادها إلى الشمعدان، وألقى على ما حوله نظرة دائرة: كان جثمان كيريلوف راقداً على الأرض، قرب النافذة المفتوحة كوَّتها، متجه القدمين نحو الزاوية القائمة من الغرفة. إن الرصاصة التي انطلقت من المسدس في الصدغ الأيمن قد خرجت من الجهة اليسرى نحو أعلى الجمجمة، فبذلك اخترقت الرأس من طرف إلى طرف. وهذه لطخات من الدم والدماغ قد انتثرت هنا وهناك. وكان المنتحر لا يزال ممسكاً سلاحه بيده. لا بد أنه قد مات على الفور.

فحص بطرس ستيفانوفتش كل شيء بعناية، ثم نهض وخرج ماشياً على رؤوس الأصابع. وأغلق الباب وراءه. ووضع الشمعدان على المائدة في الغرفة الأولى، وفكر لحظةً، فقرر أن لا يطفئ الشمعة، إذ قال لنفسه إنها لا

يمكن أن تسبب حريقاً. وبعد أن ألقى نظرة أخيرة على الرسالة التي كانت موضوعة في مكان بارز، ابتسم على غير إرادة منه، وترك الجناح سائراً على رؤوس الأصابع أيضاً، لا ندري لماذا!

حتى إذا تسلل إلى الخارج من الممر الذي كان يسلكه فدكا، حرص على أن يسده وراءه بعناية واهتمام.

3

في الساعة السادسة إلّا عشر دقائق تماماً، كان بطرس ستيفانوفتش وإركل يذهبان ويجيئان على رصيف المحطة أمام صفٍ طويل من حافلات القطار السريع. إن بطرس ستيفانوفتش مسافر، وقد رافقه إركل مودعاً. كانت الأمتعة قد سُجِّلت، وكانت حقيبة السفر قد وُضعت على مقعد في إحدى حجرات الدرجة الثانية إيذاناً بأن المكان محجوز. وقد انطلقت الإشارة الأولى التي تؤذن برحيل القطار، فالمسافرون ينتظرون الآن قرع الجرس بالإشارة الثانية وكان بطرس ستيفانوفتش ينظر يمنةً ويسرةً لا يحاول أن يختبئ عن الأبصار، وكان يلاحظ الناس الذين يدخلون حافلات القطار، بانتباه شديد. ولكنه لم يـر أي صديق، ولم يُتح له أن يحيي بحركة من الرأس إلّا تاجراً كان يعرفه معرفة غامضة، وكاهناً شاباً كان ذاهباً إلى أبرشيته التي تبعد عن المدينة محطتين.

واضح أن إركل كان يود في هذه اللحظات الأخيرة لو يتكلم في أمور هامة، رغم أنه ربما كان لا يعلم على وجه الدقة ما الذي يود لو يتكلم فيه، ولكنه لا يجرؤ أن يكون هو البادئ بالكلام. وكان يبدو أن بطرس ستيفانوفتش قد ضاق ذرعاً بوجوده، وأنه ينتظر انطلاق الإشارة الثانية من الجرس مؤذنة بتحرك القطار.

قال إركل على خجل ووجل، وكأنه يريد أن ينبِّه بطرس ستيفانوفتش إلى خطرٍ ما:

ـ إنك تنظر إلى الناس بطلاقة وحرية...

ـ لـم لا؟ مـا المانـع؟ لا ينبغـي لي بعـدُ أن أختبـئ. لم يحـن الآوان بعد. اطمئن. كل ما أخشـاه هو أن يرسـل الشـيطان إلينا ليبوتين: إنه إذا سـمع شيئاً فسيهرع إلينا فوراً.

قال إركل وقد عزم أمره آخر الأمر على أن يتكلم جاداً:

ـ بطرس ستيفانوفتش، إنهم ليسوا بمضمونين.

ـ من؟ ليبوتين؟

ـ هو والآخرون.

ـ سـخف! بعد الذي جرى أمس، أصبحت قابضاً على زمامهم جميعاً، لا أحد منهم سيخون. لا بد أن يفقد واحدهم عقله حتى يخاطر هذه المخاطرة.

ـ بطرس ستيفانوفتش، سيفقدون عقولهم.

لعل هذه الفكرة قد سـبق أن خامرت بطرس ستيفانوفتش، لذلك أزعجته ملاحظة إركل مزيداً من الإزعاج.

ـ أتراك خائفاً أنت أيضاً يا إركل؟ إنني أعتمد عليك أكثر من اعتمادي على جميع الآخرين. أنا أعرف الآن ما قيمة كل واحد منهم، إنني أعهد بهم إليك، فأطلعهم على ما حدث، بل اذهب إليهم في هذا الصباح نفسـه. أمّا تعليماتي المكتوبـة فاقرأهـا عليهـم غداً أو بعد غد حيـن يكونون قد ثابوا إلى أنفسـهم وعاد إليهم رشدهم... ولكن ثق أنهم سيكونون، حتى منذ الغد، قادرين على أن يسـمعوها وأن يفهموهـا. ذلـك أنهم خائفـون خوفاً رهيباً، وسـيصبحون كالشمع ليونة!... أنت خاصةً لا تفقدنَّ شجاعتك.

ـ آه يا بطرس ستيفانوفتش، الأفضل أن لا تسافر!

ـ ولكنني لن أغيب إلّا عدة أيام. سأعود قريباً.

قال إركل بحذر ولكن بلهجة ثابتة:

ـ بطرس سـتيفانوفتش. هبك ذهبت حتى إلى بطرسـبرج... أتظن أنني لا أدرك أنك إنما تعمل في سبيل "القضية" وحدها؟

ـ لم أكن أنتظر منك أقل من هذا يا إركل. إذا كنت قد حزرت أنني مسـافر

إلى بطرسبرج، فلا بد أنك أدركت أيضاً أمس أنني لم أكن أستطيع، في مثل تلك اللحظة، أن أقول لهم أنني مسافر إلى بعيد، وذلك حتى لا أفزعهم. لقد رأيت بنفسك صنف هؤلاء الناس. ولكنك تدرك أنني مسافر لأمر خطير، خطير أقصى الخطورة، أمر يعنينا جميعاً ويتعلق بنا جميعاً، ولا أسافر هرباً كما يفترض شخص مثل ليبوتين.

ـ بطرس ستيفانوفتش، هبْك سافرت حتى إلى الخارج، فلسوف أفهم ذلك. أنا أدرك أن المفروض فيك والمطلوب منك أن تكون حذراً، حريصاً على شخصك، لأنك أنت كل شيء، أمَّا نحن فلسنا شيئاً. إنني أفهم يا بطرس ستيفاتوفتش.

وكان صوت الشاب المسكين يتهدج ويختلج.

ـ شكراً يا إركل! آي... لقد لمست خنصري المريضة...

كان إركل قد صافح بطرس ستيفانوفتش بخراقة، فلمس إصبعه الجريحة المضمدة، ضماد من قماش التافتاه الأسود.

وأردف بطرس ستيفانوفتش يقول:

ـ أكرر لك مرةً أخرى إنني لا أسافر إلى بطرسبرج إلّا التماساً للأخبار. وقد لا أمكث فيها إلّا أربعاً وعشرين ساعة أعود بعدها إلى هنا. ومن أجل أن أحوِّل عني الشبهات سوف أقيم في الريف، عند جاجانوف. إذا تخيلوا أنهم معرَّضون لخطر فسأضع نفسي في مقدمتهم، فأكون أول من يصاب. على كل حال، إذا أطلت إقامتي ببطرسبرج، فسأُعلمك فوراً... بالطريقة التي تعرفها... فتتولى أنت إبلاغهم.

وانطلقت الإشارة التالية التي تؤذن بتحرك القطار بعد قليل.

ـ لم يبق لنا إلّا خمس دقائق. اسمع إنني لا أريد أن تتفرق الحلقة التي هنا وأن تتبعثر. لا لأنني خائف... فلا تخش عليَّ شيئاً. إن حلقات شبكتنا كثيرة، ولست أحرص على هذه حرصاً خاصاً. ولكنها تزيد حلقات الشبكة حلقةً على كل حال. ثم إنني أعلم أن في وسعي أن أعتمد عليك، رغم أنني أتركك هنا وحيداً في وسط هؤلاء الحمقى الأغبياء. لا تخش شيئاً. لن يخونوا، لن يجسروا أن يخونوا...

هنا رأى بطرس ستيفانوفتش فتى كان مقبلاً عليه بفرح، فصاح بطرس يسأله بصوت مرح، صوت يختلف كل الاختلاف عن صوته في حديثه مع إركل:

ـ آ... أأنت مسافر اليوم؟ أتركب القطار السريع؟ لم أكن أعرف ذلك. إلى أين أنت ذاهب؟ إلى عند أمك؟

ـ لا بل إنني ذاهب إلى أبعد من ذلك، إلى "ر..." ثماني ساعات في القطار! وأنت؟ إلى بطرسبرج؟

كذلك سأله الفتى ضاحكاً. فأجابه بطرس ستيفانوفتش وهو يضحك ضحكاً صريحاً طلقاً:

ـ لماذا تفترض أنني مسافر إلى بطرسبرج؟

فرفع الفتى له إصبعه مهدداً. وكان الفتى يلبس قفازين.

وتابع بطرس ستيفانوفتش كلامه فقال خافضاً صوته خفضاً يحمل معنى السر:

ـ نعم. حزرت. أنا مسافر إلى بطرسبرج ومعي رسائل من جوليا ميخائيلوفنا. يجب عليَّ أن أرى ثلاث شخصيات أو أربعاً... بصراحة: شيطان يأخذهم! يا لها من مهنة لعينة كريهة!

فسأله الفتى هامساً:

ـ ولكن قل لي: لماذا دب الذعر في نفسها فجأة؟ لقد رفضت حتى استقبالي أمس. وفي رأيي أنها يجب أن لا تقلق على زوجها. ليس هناك ما يوجب القلق. بالعكس: لقد وثب وثبة رائعة أثناء الحريق. جازف بحياته تقريباً.

عاد بطرس ستيفانوفتش يضحك وقال:

ـ ومع ذلك... المسألة هي أنها تخشى أن يكون أحد قد كتب من هنا... هناك أشخاص تشتبه فيهم. ثم هنالك ستافروجين خاصةً، أو قل الكونت "ك..." هذه قصة طويلة... قد أروي لك طرفاً منها أثناء الطريق... إذا سمحت لي بذلك مشاعر الفروسية طبعاً! أعرِّفك بالضابط إركل. هو قريب لي.

لـم يكن الفتى قد انقطع عن التفرس في إركل بطرف عينيه. فلما عرَّفه به بطرس ستيفانوفتش وضع يده على قبعته محيياً، فردَّ إركل التحية.

ـ هل تعلم يا فرخوفنسكي أن قضاء ثماني ساعات في القطار أمر فظيع؟ عندنا هنا، في الدرجة الأولى من القطار، الكولونيل بيرستوف، رجل مسل جداً، هو جاري في الريف. لقد تزوج فتاة اسم أسرتها جارين. فتاة لائقة جداً. حتى إن عنده أفكاراً... لقد قضى هنا يومين، إنه يعشق لعب الورق عشقاً جنونياً (الويست) فما رأيك في أن ننظم لعبة "ويست"؟ هه؟ هناك شخص رابع يمكن أن يشاركنا اللعب، إنه بريبوخلوف، تاجر من "ت..." له لحية طويلة، مليونير، مليونير فعلاً... أنا أقول لك ذلك... سأعرِّفك به. كيس دنانير، مسل جداً! سنضحك كثيراً!.

ـ يحلو لي كثيراً أن ألعب "الويست"، ولا سيما في القطار، لكنني راكب في الدرجة الثانية!

ـ لا قيمة لهذا! تعال إلى حجرتنا. سأنبئ رئيس القطار. إنه يطيعني بدون أن يقول كلمة واحدة. ماذا معك؟ حقيبة سفر؟ غطاء؟

ـ هيَّا بنا! نذهب إلى هناك.

تناول بطرس ستيفانوفتش حقيبته وغطاءه وكتابه بمساعدة إركل ومضى يستقر في الدرجة الأولى، راضياً عن هذا التغيير كل الرضى، سعيداً به كل السعادة.

ورنَّ جرس المحطة مرة ثالثة. فقال بطرس ستيفانوفتش يخاطب إركل منشغلاً أشد الانشغال، ماداً يده إلى الضابط من خلال الباب:

ـ طيب يا إركل. ها أنت ذا ترى أن عليَّ أن ألعب بالورق معهم.

ـ لا داعي إلى أن تشرح لي يا بطرس ستيفانوفتش. إنني أفهم حق الفهم يا بطرس ستيفانوفتش، أفهم كل شيء.

ـ طابت أيامك!...

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك مودعاً إركل، والتفت على حين فجأة يستجيب لنداء الفتى الذي كان يريد أن يعرِّفه بصاحبيه. ولم ير إركل صاحبه بطرس ستيفانوفتش بعد ذلك قط.

رجع إلى بيته حزيناً كل الحزن. ليس رحيل بطرس ستيفانوفتش بغتةً هو الذي يبث الاضطراب في نفسه، لا... ولكن... ولكن بطرس ستيفانوفتش قد تحوّل عنه بسرعة كبيرة استجابة لنداء هذا الفتى الأنيق... ثم... ثم لقد كان في وسعه أن يقول له في وداعه شيئاً آخر غير هذا التعبير "طابت أيامك"، أو أن يصافحه مصافحةً أقوى على الأقل.

إن تلك المصافحة التي تشتمل على قلة الاكتراث هي التي تحدث أكبر ألم. غير أن هناك شيئاً آخر أيضاً قد بدأ يعذّب قلبه الصغير، شيئاً كان هو نفسه لا يفهمه، شيئاً له علاقة بالليلة البارحة.

الفصل السابع
آخر رحلة لستيفان تروفيموفتش

1

أنا واثق بأن ستيفان تروفيموفتش كان يزداد خوفاً كلما اقتربت ساعة تنفيذ مشروعه الجنوني. أنا واثق بأنه تألم كثيراً، ولا سيما عشية رحيله، أثناء الليلة الرهيبة التي شب فيها الحريق. لقد روت ناستاسيا في ما بعد أنه اضطجع في سريره متأخراً ونام. ولكن هذا لا يدل على شيء: ألا يُروى عن المحكوم عليهم بالإعدام أنهم ينامون نوماً عميقاً عشية تنفيذ الحكم فيهم؟ ورغم أن ستيفان تروفيموفتش قد غادر مسكنه في الفجر، أي حين يكون الناس العصبيون في حالة من فرط الاهتياج عادةً (تتذكرون أن الميجر، قريب فرجنسكي، كان يكف عن الإيمان بالله متى طلع النهار)، فأنا واثق بأنه ما كان له في يوم من الأيام قبل الآن أن يتصور بغير جزع أنه سيمضي وحيداً في الطرق، وسيجد نفسه في مثل هذه الحال. ولكن يجب أن نفترض أن الكرب الشديد قد بثَّ في نفسه شجاعة، وأضعف في البداية ـ فظاعة ذلك الإحساس بالوحدة الكاملة الذي غزاه فجأة منذ ترك "ستازي" وبارح العش الدافئ الذي عاش فيه عشرين عاماً. ومهما يكن من أمر، فإن ستيفان تروفيموفتش ما كان له إلّا أن يرحل، ولو أحس إحساساً واضحاً بكل ما كان ينتظره. لقد كان في هذه الرحلة نوع من بطولة يثير حماسته رغم كل شيء. كان يمكنه طبعاً أن يقبل الشروط الرائعة التي وضعتها له فرفارا بتروفنا، وأن يرتضي آلاءها "كرجل عامي" طفيلي، ولكنه رفض تلك الصدقة ورحل.

فها هو ذا الآن يترك كل شـيء، ويرفع "راية الفكرة العظيمة" عاليةً كل العلو، الفكرة العظيمة التي سـيموت من أجلها في الطريـق العام!... لا بد أن حالته النفسية كانت هي هذه. ولا بد أن مشروعه قد بدا له في هذه الصورة.

ولقد ألقيت على نفسـي مراراً كثيرة هذا السـؤال الآخر أيضاً: لماذا رحل ماشـياً؟ لماذا لم يركب عربة؟ وأجبت نفسـي عن ذلك السؤال في أول الأمر بأن هذا يرجع إلى ما عُرف في الرجل من ضعف الحس العملي، وإلى ما كان عليـه من اضطراب فكري بتأثير العاطفة العنيفة التي تسـيطر عليه آنذاك. لقد تراءى لي أن الحصول على جواز طريق واكتراء عربة (ولو كانت ذات جرس) كانا يبدوان له أمرين مبتذلين عاميين. فالأجمل والأوقع في النفس أن يسـافر ماشـياً مشـي الحجاج (ولو كان هذا الحـاجُّ مزوداً بمظلـة)، ولا بد أن يكون لهـذه البادرة شـأن أكبر في نفس فرفـارا بتروفنا. أمَّا اليوم، بعـد أن انتهى كل شـيء، فإنني أتصور أن الأمور جرت مجرى أبسـط من هذا: لقد كان يخشى أن يكتري عربة لأن فرفارا بتروفنا قد تعلم الأمر فتمنعه من السـفر بالقوة (لا شـك أنها كانت سـتفعل ذلك)، ويخضـع هو، فأين تصير "الفكـرة العظيمة" حينذاك؟ هذا عن اكتراء العربة، وأمَّا عن جواز الطريق، فمن الواضح أنه لكي يحصـل المسـافر على جواز طريق يجـب أن يعرف إلى أين هو مسـافر. ولم تكن تلك حال سـتيفان تروفيموفتش. حتى إن هذا بعينه هو ما يعذبه في هذه الساعة أكثر من أي شيء آخر: لقد استحال عليه استحالةً مطلقة أن يعزم أمره علـى تحديـد مكان من الأمكنـة. ذلك أنه لـو اختار هذه المدينـة أو تلك من المدن لبدا له مشـروعه على الفور سـخيفاً ومسـتحيلاً. إنه يحس ذلك سلفاً، مـا عسـاه فاعلاً في تلك المدينـة التي يختارها؟ لماذا يختـار هذه المدينة من دون سـواها؟ أبحثـاً عن ذلـك "التاجر"؟ ولكن أي "تاجـر"؟ عندئذ إنما كان ينبجس في ذهنه ذلك السؤال الرهيب. الواقع أنه لا شيء في نظره كان مريعاً مثل "ذلك التاجر" الذي يسـرع هو إلى البحث عنه ويخاف أشـد الخوف أن يعثـر عليه طبعاً. لا، الأفضل أن يمشـي في الطريـق العام، الأفضل أن يمضي من دون أن يفكر في شيء ما ظل ممكناً أن لا يفكر في شيء. الطريق العام...

شيء طويل، طويل جداً، لا يرى المرء له نهاية، كالحياة الإنسانية. كالأحلام الإنسـانية. الطريق العام يتضمن فكرة. أمَّا جواز السـفر في الطريق فأية فكرة يمكـن أن يتضمـن؟ جواز السـفر نهايـة كل فكـرة... "عاش الطريـق العام"، وعلى بركة الله...

بعـد أن التقـى بليـزا ذلك اللقـاء غير المتوقـع، وهو اللقاء الذي سـبق أن وصفته، اسـتأنف سـتيفان تروفيموفتش مشـيه وقد انتابته سـورة من حماسة أشـد. إن الطريـق العـام يبعد عن سكفورشـنيكي مسـافة نصف فرسـخ. أمر غريب: إن ستيفان تروفيموفتش لم يلاحظ في البداية أنه سلك الطريق العام. مـا كان له في تلـك اللحظة أن يحتمل أن يفكر تفكيـراً منطقياً، أو على الأقل أن يشعر شعوراً واضحاً بما كان يفعله. وهذا رذاذ من المطر يتساقط من حين إلى حين، ولكن سـتيفان تروفيموفتش لا يفطن حتى إلى هطول المطر، وهو لم يفطن أيضاً إلى أنه رمى كيسـه وراء كتفه، وأن ذلك قد سـهَّل مشـيه كثيراً. ولعله كان قد مشى فرسخاً أو فرسخاً ونصف فرسخ، حين توقف فجأة ونظر حوله. إن الطريق الأسـود، المحفَّر، المحفوف بأشجار مائية، يمتد أمامه إلى غير نهاية. وعلى يمينه حقول عارية قد حُصدت منذ مدة طويلة، وعلى شماله حراج مقطوعة نمت على جذوع أشـجارها فروع صغيرة، ثم غابةٌ بعد ذلك. وهنـاك، هناك في بعيد، خط السـكة الحديدية الذي لا يُـكاد يرى، وإنما يدل عليه دخان قطار لا يُسمع له صوت من شدة البعد. شعر ستيفان تروفيموفتش بخوف، ولكن الخوف لم يدم إلّا لحظة واحدة. وتنهد سـتيفان تروفيموفتش على غير إرادة منه، ووضع كيسه على الأرض، وجلس ليستريح قليلاً، وشعر برعدة تسـري في جسـمه حين جلس فأحكم تلففه بمعطفه. وإذ لاحظ أيضاً أن المطـر يهطل فتح مظلته. ولبث جالسـاً على هذه الحـال مدة طويلة، وهو يحرِّك شـفتيه من حين إلى حين، ويمسـك قبضة المظلة إمسـاكاً قوياً، كانت صـورة مبعثـرة أشـد التبعثر تـدور في ذهنـه وتتلاحـق وتتطـارد بعضها وراء بعـض. "ليز، ليـز، ومعها مافريكـي ذاك... ما أغربهم من نـاس!... ولكن ما ذلـك الحريق الذي تحدثوا عنه؟... وتلك الجثث؟... أظن أن "سـتازي" لـم

تعلم شيئًا بعد... لا بد أنها لا تزال تنتظرني مع القهوة... بالورق؟ هل حدث لي أن خسرت رجالاً أثناء اللعب بالورق؟ همْ... في بلادنا، في روسيا، في العهد الذي يقال له عهد العبودية...آه... رباه!... وفدكا؟...".

ارتعش ستيفان تروفيموفتش مرتاعاً، ونظر حوله: "ماذا إذا كان فدكا مختبئاً هنا في مكان ما، وراء بعض الشجيرات مثلاً؟... يقال إنهم عصابة كاملة تهاجم المارة في الطريق العام. آه... يا رب! وأنا الذي... لأقولنَّ له الحقيقة كلها. سوف أقول له إنني مذنب... وإنني تألمت له خلال عشر سنين، أكثر مما تألم هو حين كان جندياً... و... وسوف أعطيه محفظة نقودي. همْ!... "معي أربعون روبلاً. سوف يأخذ المال ثم يقتلني مع ذلك" (بالفرنسية).

بهذا حدّث ستيفان تروفيموفتش نفسه جزعاً، ثم إذا هو أثناء هذا الجزع يطوي مظلته ـ لا ندري لماذا ـ ويضعها على الأرض إلى جانبه.

وفي بعيد، على الطريق، ظهرت عربة. إنها آتية من المدينة. أخذ ستيفان تروفيموفتش يراقبها قلقاً بعض القلق. وجعل يحدث نفسه قائلاً: "الحمد لله... هذه عربة. إنها تسير بطيئة. لا يمكن أن يكون هذا خطراً. هذه أفراس من هنا، أفراس بليدة مسكينة... لطالما قلت إن هذه السلالة من الأفراس... لا بل إن بطرس إيلتش هو الذي تكلم في النادي عن السلالة، بينما كنت أنا أجمع الحصيلة، ثم... ولكن ماذا وراء العربة؟... أظن أن في العربة امرأة قروية... قروي وقروية. هذا مُطمئن. المرأة في خلف، والرجل في أمام. هذا مطمئن جداً. ووراء العربة بقرة مربوطة من قرنيها. هذا مطمئن إلى أبعد حدود الطمأنينة".

ووصلت العربة إلى حيث كان ستيفان تروفيموفتش. إنها عربة من عربات الفلاحين، متينة وجديدة. كانت المرأة جالسةً على كيس كبير، وكان الفلاح راكباً في الأمام على حافة العربة متدلي الساقين. وكانت بقرة حمراء مربوطةً من قرنيها تتبع العربة فعلاً. تأمل الرجل وامرأته ستيفان تروفيموفتش محملقين، ونظر إليهما ستيفان تروفيموفتش أيضاً. ولكن ما إن تجاوزاه

عشرين خطوة حتى أسرع ينهض ليلحق بهما. إن مجاورة العربة تبدو له مطمئنةً حتماً. ولكنه ما إن وصل إلى العربة حتى كان قد نسي كل شيء، وعاد يغرق في أحلامه. وأغلب الظن أنه كان يتقدم في سيره من دون أن يخطر بباله أنه في نظر الفلاح وامرأته في هذه اللحظة أعجب وأغرب ما يمكن أن يلتقي به المرء في الطريق العام.

ولم تطق الفلاحة صبراً، فسألته وهو يرفع نحوها نظرة ذاهلة:

ـ من أنت، إذا جاز لي أن ألقي هذا السؤال؟

إنها امرأة في نحو السابعة والعشرين من عمرها، ممتلئة الجسم، سوداء الشعر، زاهية اللون، كانت ابتسامتها اللطيفة التي ترتسم على شفتيها الحمراوين تكشف عن صفين رائعين من الأسنان البيض.

دمدم ستيفان تروفيموفتش يسألها بدهشة أليمة:

ـ أتكلمينني أنا... أنا؟

قال الفلاح بثقة:

ـ لا شك أنه تاجر.

هو فلاح قوي الجسم، في نحو الأربعين من عمره، له لحية غزيرة تضرب إلى حمرة وتحف بوجهه العريض. وما هو بالرجل الغبي.

قال ستيفان تروفيموفتش مدافعاً عن نفسه كيفما اتفق:

ـ لا... لست تاجراً... أنا... أنا... "أنا شيء آخر" (بالفرنسية).

وأبطأ خطوه، فصار وراء العربة يسير محاذياً البقرة.

عاد الفلاح يتكلم فقال بعد أن سمع كلمات أجنبية:

ـ لا بد أنه سيد من السادة.

وشدَّ الازمَّة.

وقالت المرأة تكمل كلامه:

ـ ونحن كنا نقول لأنفسنا: لعله يتنزّه.

ـ هل... هل عنّي تتكلمين؟

من هنا.

قال الفلاح بلهجة الواثق بنفسه أيضاً:

ـ هذان حذاءا رجل عسكري.

ـ لا، لست عسكرياً، إنني...

وحدَّث ستيفان تروفيموفتش نفسه منزعجاً يقول: "ما أغرب هذه المرأة! وما أعجب تفرسها فيَّ!... "على كل حال" (بالفرنسية)... الخلاصة: أشعر بأنني مذنب في حقهم، ومع ذلك لست بمذنب".

فأخذت "المرأة" تكلم زوجها هامسة.

ـ إذا كان هذا لا يسوؤك، فنحن يسرنا أن نُركبك معنا... لا لشيء غير إرضائك.

فثاب ستيفان تروفيموفتش إلى نفسه فجأة وأسرع يقول:

ـ نعم نعم يا صديقيَّ. يسرني هذا كثيراً. لأنني متعب جداً. ولكن كيف أتسلق إليكما.

وأضاف يحدث نفسه: "شيء غريب جداً... مشيت إلى جانب البقرة هذه المدة الطويلة كلها ولم يخطر ببالي أن أركب عربتهما. حقاً إن "الحياة الراقية" شيء خاص جداً...".

ومع ذلك لم يوقف الفلاح حصانه. وأخيراً قال يسأله بشيء من عدم الثقة:

ـ ولكن إلى أين أنت ذاهب؟

فلم يفهم ستيفان تروفيموفتش فوراً.

ـ هل إلى خاتوفو مثلاً!

ـ إلى خاتوف؟ لا... وأنا لا أعرفه، وإن كنت قد سمعت عنه.

ـ خاتوفو، خاتوفو، هذه قرية، قرية!

ـ قرية؟ "رائع" (بالفرنسية). أعرف هذا الاسم فعلاً...

وظل ستيفان تروفيموفتش يمشي، ولا يدعوه أحد أن يركب. وفجأة

خطرت بباله فكرة عبقرية. قال:

ـ لعلكم تتخيلون أنني... ولكن معي جواز سفر، وأنا أستاذ، أو قولوا إن شئتم معلّم، ولكنني معلّم رئيسي، "نعم، هكذا يمكن أن يُترجم عملي". أود كثيراً لو أركب معكم، وسوف أشتري لكم... سوف أشتري لكم نصف زجاجة من الخمر.

قال الفلاح:

ـ خمسون كوبكاً يا سيدي... الطريق شاقة.

وقالت المرأة:

ـ وإلا كنا مغبونين.

ـ خمسون كوبكاً؟ موافق على خمسين كوبكاً. و"هذا أفضل، إن مجموع ما معي أربعون روبلاً، ولكن..." (بالفرنسية).

أوقف الفلاح الحصان، ورُفع ستيفان تروفيوفتش إلى العربة بجهد مشترك، فجلس على الكيس إلى جانب المرأة . وسرعان ما عاد يغرق في أحلامه. كان يدرك هو نفسه، في بعض اللحظات، أنه مسرف في الذهول وأنه لا يفكر في حاله. وكان يعجب لذلك. بل إن هذا الإحساس بالضعف العقلي كان يؤلمه ويجرح كرامته.

قال يسأل المرأة الشابة:

ـ وما ذاك... في الخلف؟

فقالت الفلاحة ضاحكة:

ـ كأنك يا سيدي لم تر في حياتك بقرة!

وتدخل الفلاح فقال:

ـ اشتريناها من المدينة. لقد فطست بهائمنا في الربيع الماضي... بالطاعون. هلكت الماشية في كل مكان، عند جميع الجيران، هلك أكثر من نصفها. كارثة حقاً.

وضرب الحصان بسوطه.

فقال ستيفان تروفيموفتش مدمدماً:

ـ نعم، هذا يحدث عندنا، في روسيا... ونحن على وجه العموم، معشر الروس... نعم... هذا يحدث...

ـ إذا كنت معلّماً فما ذهابك إلى خاتوفو؟ اللهم إلّا أن تكون ماضياً إلى أبعد من خاتوفو...

ـ أنا... لا... لن أمضي إلى أبعد منها. على وجه الإجمال... أقصد... أنا ذاهب إلى أحد التجار.

ـ ربما إلى سباسوف؟

ـ نعم، تماماً، إلى سباسوف. لا قيمة لهذا على كل حال.

قالت المرأة ضاحكة:

ـ إذا كنت ذاهباً إلى سباسوف، مشياً على القدمين، وبهذين الحذاءين، فسوف تصل إليه بعد أسبوع...

ـ تماماً، ولكن ما قيمة هذا "يا أصدقائي" (بالفرنسية)، ما قيمة هذا؟

كذلك قال ستيفان تروفيموفتش مقاطعاً. وأردف يحدث نفسه:

"ما أعجبهم! المرأة تتحدث خيراً من زوجها على كل حال. وإنني لألاحظ بوجه الإجمال أن أسلوبهم قد تبدل بعض التبدل منذ إلغاء القنانة. ولكن فيم يهمهم أن يعرفوا أنني ذاهب إلى سباسوف أو إلى مكان آخر؟ ما دمت أدفع أجر ركوبي فلماذا لا يدعونني وشأني؟".

تابع الفلاح كلامه فقال:

ـ إذا كنت ذاهباً إلى سباسوف، فيجب ركوب السفينة.

وأسرعت المرأة تتدخل فقالت:

ـ هذا صحيح. إذ لو تبعت الشاطئ بالعربة لدرت دورة طولها ثلاثون فرسخاً

ـ بل أربعون.

واستأنفت المرأة كلامها فقالت:

ـ غداً، في الساعة الثانية، ستجد السفينة في أوستيفو.

ولكن ستيفان تروفيموفتش أصرَّ على التزام الصمت.

وصمت رفيقاه. كان الرجل يحرك الزمام، وكانت المرأة تبادله ملاحظات قصيرة من حين إلى حين. وغفا ستيفان تروفيموفتش، فما كان أشد دهشته حين هزّته المرأة ضاحكة، فإذا هو يرى نفسه في قرية من القرى الكبيرة، أمام باب "عزبة" ذات ثلاث نوافذ.

ـ غفوت يا سيدي؟

ـ ما هذا؟ أين أنا؟ آ... نعم... لا بأس...

كذلك قال ستيفان تروفيموفتش متنهداً، ونزل من العربة.

وألقى حوله نظرة حزينة مكتئبة. وبدا له منظر القرية عجيباً، وأحسَّ بغربة شديدة. وأسرع يقول للفلاح:

ـ كدت أنسى أن أنقدك الخمسين كوبكاً!

لقد كان واضحاً أنه منذ الآن يخشى أن يتركهما.

قال له الفلاح:

ـ ستدفع في العزبة. ادخل، أرجوك.

فصعد ستيفان تروفيموفتش درجات الباب المرتجة. ودمدم يقول لنفسه متحيراً قلقاً: "كيف يمكن هذا؟". ولكنه مع ذلك دخل. "هي التي أرادت ذلك" (بالفرنسية). وطعنت هذه الفكرة قلبه. ولكنه سرعان ما نسي كل شيء، نسي حتى كونه دخل العزبة.

تتألف العزبة من غرفتين، وهي منزل مضيء نظيف، لم يكن فندقاً ولكن معارف صاحبه قد ألفوا أن يتلبثوا عنده، وأن يبيتوا فيه.

اتجه ستيفان تروفيموفتش إلى الركن تحت الأيقونات، بدون تحرج أو خشية، ناسياً أن يسلّم، فجلس هناك واسترسل في أحلامه. وفي أثناء ذلك انتشر في جسمه، على حين فجأة، إحساسٌ لذيذ بالدفء. أعقب برد الطريق ورطوبته، فسرت فيه رعدة، ولكن هذه الرعدة القصيرة التي يعرفها الأشخاص العصبيون حين تنتابهم الحمى وينتقلون فجأة من البرد إلى الدفء، كانت لذيذةً له إلى أقصى الحدود. وها هو ذا يرفع رأسه. إن الرائحة

الشـهية التي تفوح مـن فطائر كانت ربة البيت مشـغولة بإعدادها قد دغدغت أنفه.

فنهض نصف نهوض، وتمتم يقول مبتسماً ابتسامة طفل:

ـ ما هذا؟ فطائر؟ "شيء عظيم" (بالفرنسية).

فسألته ربة البيت بأدب:

ـ هل تريد أن تصيب شيئاً منها يا سيدي؟

ـ نعم، أريد. هذا ما أريده. أريد فطائر... وأسألك شيئاً من الشاي كذلك.

ـ السماور؟ بسرور كبير.

وقُدِّمت إليه الفطائر في طبق كبير عليه رسـوم أزهار ضخمة زرقاء، وهي فطائـر من قمح وشـلت، مصنوعـة بالطريقـة القروية، رقيقة جداً، مرشوشـة بالزبـدة الطازجـة المحميـة. إنها فطائـر لذيذة، ذاقهـا سـتيفان تروفيموفتش متمتعاً بمذاقها أكبر التمتع.

ـ ما أدسـمها! وما أطيبها! ليت المرء يسـتطيع أن يشرب معها "إصبعاً من خمرة" (بالفرنسية).

ـ أليست الفودكا هي ما يرغب فيه سيدي؟

ـ هي بعينها. قليلاً من الفودكا. قليلاً جداً.

ـ بخمسة كوبكات؟

ـ نعم، بخمسة، بخمسة... قليلاً جداً.

كذلك كان يردد ستيفان تروفيموفتش وهو يبتسم ابتسامة سعيدة.

إذا سـألت شـخصاً من الشـعب أن يفعل مـن أجلك شـيئاً، فإنه يخدمك بسـرور وعنايـة إذا أراد واسـتطاع. ولكـن إذا سـألته أن يجيئك بفـودكا، فإن اسـتعداده الهادئ للخدمة ما يلبث أن يحل محله تعجل فرح، واعتناء يوشك أن يشـتمل على عاطفة وحنان. إن الذي يجيئك بالفودكا يعرف حق المعرفة أنـك أنت الذي ستشـربها لا هو، ولكنه مع ذلك يشـاطرك اللذة التي تنتظرك نوعاً من المشاطرة...

مـا انقضت ثـلاث أو أربع دقائـق (وكان الكاباريه على مسـافة خطوتين)

حتى وضعت أمام ستيفان تروفيموفتش زجاجة وقدح كبير.

سأل مدهوشاً:

ـ أهذا كله لي أنا؟ لطالما شربت فودكا في البيت، ولكنني لم أكن أعلم أنه يمكن الحصول على هذا المقدار كله بخمسة كوبكات.

وملأ القدح ونهض واتجه بشيء من الأبهة صوب رفيقة رحلته، القروية الشابة ذات الحاجبين الأسودين التي شدَّ ما أرهقه فضولها، والتي كانت جالسة الآن في الركن المقابل من الغرفة. رفضت القروية في أول الأمر مضطربةَ الهيئة كل الاضطراب، لكنها لم تلبث أن سايرت المواضعات الاجتماعية فنهضت وشربت الكأس ثلاثَ جرعات، كما تفعل النساء عادة، مصعِّرةً وجهها كأن الشراب قد حرق فمها، ثم ردَّت الكأس إلى ستيفان تروفيموفتش وهي تنحني أمامه. فانحنى ستيفان تروفيموفتش هو أيضاً، برصانة ووقار، ثم رجع إلى مكانه مرفوع الرأس.

لكأنه انقاد لإلهام مفاجئ: هو نفسه كان لا يعرف قبل ثانية واحدة أنه سيقدم فودكا إلى المرأة الشابة.

قال يحدث نفسه راضياً عن سلوكه أشد الرضى: "إنني أعرف معرفة كاملة، نعم، معرفةً كاملة، كيف يجب أن يكون سلوك المرء مع الشعب. لطالما قلت لهم هذا".

وسكب لنفسه باقي الفودكا، ورغم أن هذا الباقي كان لا يملأ كأساً كاملة، فقد بثت الخمرة دفئاً وحرارة في جسمه، حتى لقد أثرت في رأسه.

قال يخاطب نفسه بالفرنسية: "مريض تماماً. ولكن ليس شراً كبيراً أن يكون المرء مريضاً".

وهنا سمع صوتاً عذباً، هو صوت امرأة، يسأله:

ـ ألا تريد أن تشتري كتاباً؟

فما كان أشد دهشته حين رفع عينيه فرأى سيدة ـ "سيدة حقاً، إن هيئتها هيئة سيدة" ـ بسيطة المظهر في نحو الثلاثين من العمر. إنها ترتدي ثياباً على زي سكان المدن: ثوباً أسود وشالاً أشهب كبيراً على الكتفين. وإن في

وجهها لشيئاً محبباً إلى القلب سرعان ما أعجب به ستيفان تروفيموفتش. لقد عـادت في هـذه اللحظة إلى العزبة التي تركت فيها أشـياءها على دكة، ومنها محفظة نقود كان سـتيفان تروفيموفتش قد تأملها مستطلعاً حين دخل، ومنها كيس من قماش مشمَّع.

استـلت المرأة من الكيس كتابين صغيرين مجلَّدين تجليداً جميلاً، وعلى غلاف كل منهما صليب، ومدَّتهما إلى ستيفان تروفيموفتش.

ـ "آ... أظـن أنه الإنجيل!" (بالفرنسـية)... بسـرور عظيـم... آ... فهمت الآن... أنت من تسمى بائعة متجولة. سمعت عن هذا.. خمسون كوبكاً؟

أجابت البائعة:

ـ خمسة وثلاثون كوبكاً.

ـ بكل سرور. "لا اعتراض لي على الإنجيل" (بالفرنسية). و... إنني أريد منذ مدة طويلة أن أعيد قراءته.

وتذكر في تلك اللحظة أنه منذ ثلاثين عاماً على الأقل لم يفتح هذا الكتاب، وأنه قبل سبع سنين قد تذكر بضع عبارات بمناسبة كتاب رينان "حياة يسوع". وإذ لم يكن معه نقود صغيرة، أخرج ورقاته الأربع، ورقات العشـرة روبلات التـي كانت كلَّ ثروته. فأقبلت ربة البيت تعـرض عليه أن تبذِّل له إحدى هذه الورقـات بنقـود صغيـرة، وعندئذ فقط إنما لاحـظ سـتيفان تروفيموفتش أن العزبة كانت ملأى تقريباً بأناس يلاحظونه بانتباه ويبدو عليهم أنهم يتكلمون عنه. وكانـوا يتكلمون كذلك عن حريق الضاحية. وكان صاحب البقرة الذي وصل من المدينة متدفقاً في الحديث تدفقاً خاصاً. وكان المتكلمون يتهمون عمال مصنع شبيجولين.

قال سـتيفان تروفيموفتش يحدث نفسـه: "أمر غريب. إنـه لم يفاتحني أنا بكلمة واحدة عن الحريق، وكان مع ذلك يتكلم طول الوقت!".

ـ سـتيفان تروفيموفتـش، أأنت من أرى يا سـيدي؟ حقاً لـم أكن أتوقع أن ألقاك هنا!... ألم تعرفني؟

هكذا هتف على حين فجأة رجل متقدم في السن يرتدي دثاراً فضفاضاً له

ياقة عريضة مقلوبة. إنه بوجهه الحليق يبدو خادماً قديماً.

خاف ستيفان تروفيموفتش حين رأى أنه عُرف. وجمجم يقول:

ـ معذرة... لا أتذكر...

ـ لا تتذكرني؟ أنا آنيسيم، آنيسيم إيفانوفتش. كنت في خدمة المرحوم السيد جاجانوف. كم من مرة رأيتك مع فرفارا بتروفنا عند المرحومة آفدوتيا سرجيفنا! كنت أحمل إليك كتباً على الدوام، بل لقد جئتك أيضاً مرتين بمربيات من بطرسبرج.

قال ستيفان تروفيموفتش مبتسماً:

ـ آ... نعم... الآن عرفتك... آنيسيم... أأنت تسكن هنا؟

ـ قرب سباسوف، في دير "ف..."، عند مارفا سرجيفنا، أخت آفدوتيا سرجيفنا. لعلك تذكر أن ساقها كانت قد كُسرت: وثبت من العربة حين كانت ذاهبةً إلى حفلة رقص. إنها تسكن الآن قرب الدير، وأنا في خدمتها. واليوم أذهب إلى المدينة كما ترى لألقى أهلي.

ـ نعم، نعم...

تابع آنيسيم كلامه فقال بابتسامة مفتونة:

ـ إنني سعيد جداً برؤيتك. لقد كنت تحسن معاملتي دائماً. ولكن إلى أين تذهب هكذا وحيداً يا سيدي؟... ما كنت تسافر وحيداً قبل اليوم قط، في ما يبدو لي.

نظر إليه ستيفان تروفيموفتش بارتياع.

ـ ألست ذاهباً إلينا، إلى سباسوف؟

ـ نعم، إلى سباسوف. يخيل إليَّ أن الجميع مسافرون إلى سباسوف...

ـ ربما إلى عند فيدور ماتفئتش؟ ما أعظم السرور الذي سوف يملأ قلبه حين يراك! لقد كان يحمل لك أعظم التقدير دائماً! وكثيراً ما يتكلم عنك حتى الآن.

ـ نعم نعم، سأذهب أيضاً إلى عند فيدور ماتفئتش.

ـ تحسن صنعاً يا سيدي. إن الفلاحين هنا مدهوشون كل الدهشة. يقولون

إنك قد وُجدت في الطريق العام وحيداً ماشياً: إنهم بلهاء!

ـ إنني... المسألة... اسمع يا آنيسيم: لقد راهنت، على طريقة الإنجليز في الرهان، وسوف أقطع المسافة ماشياً، وسوف...

ـ نعم، هذه هي المسألة... هذه هي المسألة.

كان آنيسيم يصغي إليه باستطلاع لا يرحم. وأصبح ستيفان تروفيموفتش لا يطيق صبراً، وبلغ من الاضطراب والقلق أنه أراد أن ينهض وأن يخرج من العزبة. ولكن جيء بالسماور، وفي تلك اللحظة نفسها عادت البائعة المتجولة إلى الغرفة. فهبَّ ستيفان تروفيموفتش يقدم إليها شاياً بوثبة إنسان لاح له خلاصه، فغُلب آنيسيم على أمره، وتراجع منسحباً.

كان حضور ستيفان تروفيموفتش قد أيقظ دهشة الفلاحين وقلقهم فعلاً. كانوا يتساءلون: "من هذا الرجل؟". لقد وُجد ماشياً في الطريق العام. وهو يقول إنه معلّم. وهو يرتدي ملابس رجل أجنبي. وعقله عقل طفل يخبط في أجوبته خبط عشواء. لكأنه هارب. وهو عدا ذلك يملك مالاً! وخطر ببالهم أن يبلغوا السلطات. "لا سيما وأن المدينة يسودها الاضطراب". ولكن آنيسيم رتَّب الأمور بسرعة، خرج إلى الدهليز وشرح للفلاحين أن ستيفان ثروفيموفتش ليس معلّماً وإنما هو "عالم كبير يعنى بجميع أنواع العلوم. وأنه كان هو نفسه يملك في البلد أرضاً، ولكنه منذ اثنين وعشرين عاماً يسكن عند الجنرالة ستافروجين التي يحتل لديها المقام الأول. وإن المدينة كلها تحترمه. وأنه كان يتفق له أن يخسر في "نادي البلاد" خمسة وعشرين روبلاً بل مائة روبل في ليلة واحدة. أمَّا رتبته فهي رتبة مستشار، وهي تعادل لدى العسكريين رتبة ليوتنان كولونيل. وأمَّا المال فلا غرابة في أن يملك منه قدراً كبيراً، لأن الجنرالة تعطيه ما يشاء بغير حساب"، إلخ، إلخ.

قال ستيفان تروفيموفتش يحدّث نفسه وقد أسعده أن يتخلص من آنيسيم وأخذ ينظر بدهشة ممتعة إلى جارته البائعة المتجولة: "ألا إنها لسيدة حقاً، سيدة كما يجب تماماً. وكانت البائعة في أثناء ذلك تشرب الشاي من صحن الفنجان عاضةً على قطعة السكر بأسنانها. فتابع ستيفان تروفيموفتش حديثه

مع نفسه معلقاً: "لا ضير، لا ضير في أن تعض على قطعة السكر... ما هذا بذي قيمة (بالفرنسية). إن فيها شيئاً نبيلاً مستقلاً، وادعاً في الوقت نفسه. "سيدة كما يجب تماماً" (بالفرنسية)، ولكنها من نوع خاص".

ولم تلبث أن أعلمته أن اسمها صوفيا ماتفئفنا أوليتينا، وأنها تقيم عادةً في "ك..."، عند أختها الأرملة. وقالت له إنها هي أيضاً أرملة. فإن زوجها الذي كان مساعداً ورُفِّع إلى رتبة ملازم ثانٍ تكريماً لخدماته قد قتل في سباستوبول.

ـ ولكنك لا تزالين في ريعان الشباب، "لم تبلغي الثلاثين من العمر" (بالفرنسية).

فقالت صوفيا وهي تبتسم:

ـ بل عمري أربعة وثلاثون عاماً.

ـ كيف؟ أتفهمين الفرنسية؟

ـ قليلاً. لقد عشت أربع سنين في أسرة من أسر المالكين، فتعلمت الفرنسية قليلاً بفضل الأولاد.

وقصَّت عليه أنها ترمَّلت في الثامنة عشرة من عمرها، فدخلت بعض الوقت في سلك "راهبات المحبة" بسباستبول، ثم عملت عند أشخاص كثيرين، وهي الآن تبيع أناجيل.

ـ "ولكن يا إلهي!" (بالفرنسية)، ألست أنت التي وقعت لها تلك القصة العجيبة، بل تلك القصة التي لا يكفي أن توصف بأنها عجيبة؟

فاحمرّت المرأة. نعم. إنها هي التي وقعت لها تلك القصة.

قال ستيفان تروفيموفتش بصوت يختلج من شدة الاستياء والاستنكار:

ـ "هؤلاء الحقراء، هؤلاء الأشقياء"! (بالفرنسية).

ولكن حين وافته هذه الذكرى انقبض قلبه، وهوى غارقاً في أفكاره وخواطره من جديد. حتى إذا ثاب إليه وعيه، فلاحظ أنها ليست معه، قال لنفسه: "غريب! لقد انصرفت ثانية! إنها تخرج باستمرار، وإن هناك ما يشغلها دائماً. حتى ليبذو أنها مهمومة... "آه لقد أصبحت أنانياً" (بالفرنسية).

ورفع عينيه فأبصر آنيسيم، ولكنه أبصره هذه المرة في جو ينذر بشر

مستطير. كانت العزبة ملأى بفلاحين أتى بهم آنيسيم طبعاً. كان هناك صاحب العزبة، والفلاح الذي اشترى البقرة من المدينة، وفلاحان آخران (هما من سائقي العربات)، ورجل قصير نصف سكران، يرتدي ثياب الفلاحين لكنه حليق فلعله أحد سكان المدينة، وكان صوته يعلو في الكلام على صوت سائر المتكلمين. كان هذا الجمع كله يتناقش في أمر ستيفان تروفيموفتش. أمَّا صاحب البقرة فكان يؤكد أن اتباع طريق شاطئ البحيرة بالعربة يرسم دورة لا تقل عن أربعين فرسخاً بل تزيد، فيجب حتماً ركوب السفينة. وكان الرجل القصير الثمل وصاحب العزبة يحتجان على هذا احتجاجاً حاراً:

ـ إذا قطع سيادته البحر بالسفينة فلا شك أن هذا أسرع. ولكن من الممكن في هذا الطقس أن لا تستطيع السفينة الرسو على الشاطئ.

فيقول آنيسيم راداً بحرارة شديدة:

ـ بل سترسو، سترسو خلال أسبوع آخر.

ـ صحيح، ولكنها لا تسير سيراً منتظماً مطرداً لأن الجو قد سبق أوانه. فقد يتفق لك أن تنتظر ثلاثة أيام في أوستيفو.

ويزأر آنيسيم قائلاً:

ـ ستكون السفينة هنا غداً، في الساعة الثانية تماماً. وستصلون إلى سباسوف قبل الليل يا سيد. الأمر كما أقول لك.

تساءل ستيفان تروفيموفتش بينه وبين نفسه وهو يرتعش منتظراً أن يقرروا مصيره: "ولكن من هذا الرجل؟" (بالفرنسية).

وتقدم السائقان هما أيضاً يشاركان في الحديث ويعرضان خدماتهما. إنهما يطلبان ثلاثة روبلات للوصول إلى أوستيفو. فصاح الآخرون قائلين هذا أجر معتدل معقول، هو الأجر نفسه الذي كان يُطلب طوال فصل الصيف.

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول محاولاً الدفاع عن نفسه:

ـ ولكن حالتي هنا جيدة... ولا أريد أن...

ـ حالتك هنا حسنة... هذا صحيح... ولكنها ستكون عندنا في سباسوف أحسن أيضاً، وسيسعد فيدور ماتفئتش برؤيتك أكبر السعادة!

ـ يا أصدقائي، كل هذا لم أكن أتوقعه...

ودخلت صوفيا ماتفئفنا ثانيةً، فجلست على الدكة حزينة منهارة، وقالت لربة البيت:

ـ لن أستطيع الذهاب إلى سباسوف.

فصاح ستيفان تروفيموفتش يقول وكأن هذا النبأ قد ردَّه إلى الحياة وأنعشه:

ـ ماذا؟ أأنت أيضاً ذاهبة إلى سباسوف؟

فذكرت له أن ناديجدا إيجورفنا سفتلتسينا، وهي من مالكات الأطيان في هذه النواحي، قد طلبت منها أمس أن تنتظرها في خاتوفو لتقلَّها إلى سباسوف، ثم لم تجيء هذه السيدة.

وكررت البائعة المتجولة تقول:

فماذا أعمل الآن، فماذا أعمل الآن؟

ـ "ولكن يا صديقتي العزيزة والجديدة" (بالفرنسية)، يمكنني أنا أيضاً ان أُقلَّك إلى تلك القرية... ما اسمها؟ لقد اشتريت عربة، وغداً... نعم غداً، سنكون في سباسوف.

ـ أأنت ذاهب إلى سباسوف أيضاً؟

ـ "وما العمل، بل إنني سعيد جداً بهذا!" (بالفرنسية)، سأقلُّك إلى هناك مسروراً كل السرور.

ـ من منكما اتفقت معه على السفر إلى سباسوف؟

لقد أصبح ستيفان ترفيموفتش يتعجل السفر إلى سباسوف نافد الصبر فجأة.

وبعد ربع ساعة كانا قد استقرا بمساعدة آنيسيم في عربة مغطاة. أمَّا ستيفان تروفيموفتش فكان مغتبطاً كل الاغتباط نشطاً كل النشاط، وأمَّا المرأة فكانت وقد جلست إلى جانبه مع كيسها المصنوع من قماشٍ مشمَّع، تطوف بشفتيها ابتسامةٌ تعبر عن الاعتراف بالجميل.

صاح آنيسيم يقول منهمكاً حول العربة:

ـ سفراً ميموناً. ما كان أسعدنا بلقائك!
ـ أستودعك الله، أستودعك الله يا صديقي، أستودعك الله!
ـ سترى فيدور ماتفئفتش يا سيدي...
ـ نعم يا صديقي، نعم، فيدور ماتفئفتش... ولكن أستودعك الله.

2

ما إن سارت العربة حتى بدأ ستيفان تروفيموفتش الكلام فقال:
ـ اسمعي يا صديقتي.. أتسمحين لي بأن أعدَّك صديقةً لي؟... إذًا اسمعي يا صديقتي... "أنا أحب الشعب. هذا ضروري لا غنى عنه ولكن يبدو أنني لم أر الشعب يوماً عن كثب. لا شك في أن ستازي من الشعب أيضاً... ولكن الشعب الحقيقي" (بالفرنسية)، الشعب الحقيقي الذي نلقاه على الطريق العام، ليس له من هم في ما يبدو لي إلّا أن يعرف إلى أين ذاهب... ولكن فلنسامحه... أظن أنني أهرف هرفاً... ولكن ذلك يرجع إلى أنني متعجل.
قالت صوفيا ماتفئفنا وهي تنظر إليه بانتباه ولكن باحترام:
ـ أنت مريض في ما أرى.
ـ لا، لا، يكفي أن أغطي جسمي جيداً. الهواء بارد مع ذلك، بل هو بارد جداً. ولكن فلندعْ هذا الآن. أريد أن أتكلم في أمر آخر. "أيتها الصديقة العزيزة التي ليس لها نظير" (بالفرنسية)، يخيَّل إليَّ أنني سعيد تقريباً. وهذا بفضلك أنت. والسعادة تضرني، لأنني سرعان ما أغفر لجميع أعدائي.
ـ ولكن هذا حسن جداً.
ـ ليس دائماً، "أيتها العزيزة البريئة". اسمعي... "من الآن سندعو إلى الإنجيل ونبشر به معاً" (بالفرنسية)، وسيسرني أن أبيع كتبك الصغيرة الجميلة هذه. نعم "يخيَّل إليَّ أن هذه فكرة ربما كانت رائعة، "شيء جديد جداً في بابه" (بالفرنسية). إن الشعب متدين، "هذا أمر مسلَّم به"، ولكنه لا يعرف الإنجيل بعد. فسوف أشرحه له. وحين يشرح المرء هذا الكتاب الممتاز، حين يشرحه بصوت عالٍ، فإنه يستطيع أن يصحح أخطاءه. إنني

مستعد لأن أولي هذا الكتاب أعظم الاحترام. هكذا أستطيع أن أكون نافعاً حتى في الطريق العام. لقد كنت نافعاً في جميع الأحيان، قلت لهم ذلك، "وقلته لتلك العقوق العزيزة" (بالفرنسية). آه... ولنأمل أن يغفر لنا الآخرون أيضاً. نعم، لأن كل واحد منا مذنب في حق الآخرين. الجميع مذنبون.

ـ لقد أحسنت القول في ما يبدو لي.

ـ نعم، نعم، أحس أنني أحسن القول، وأجيد الكلام. سأحسن مخاطبتهم، ولكن... ماذا كنت أريد أن أقول؟ ماذا كانت فكرتي الرئيسية؟ إنني أرتبك دائماً، لم أعد أتذكر... هل تسمحين لي بأن لا أتركك الآن أبداً؟ إنني أحس أن نظرتك... بل إنني مدهوش من آدابك في السلوك. إنك بسيطة، وإنك تستعملين تعابير شعبية، وتشربين من صحن الفنجان، عاضةً على تلك القطعة اللعينة من السكر، ومع ذلك فيك شيء ساحر، وإني لأرى في قسمات وجهك... أوه! لا تحمرِّي ولا تخافي مني خوفك من رجل. "أيتها العزيزة التي لا تضاهى، المرأة عندي هي كل شيء" (بالفرنسية). لا أستطيع أن أعيش إلّا إلى جانب امرأة، ولكن إلى جانبها فقط... أواه! إنني أرتبك ارتباكاً رهيباً... لا أفلح في تذكر ما كنت أريد أن أقوله. سعيدٌ ذاك الذي تبعث إليه السماء بامرأة دائماً... و... وأعتقد أنني متحمس كثيراً. في الطريق العام أيضاً يمكن أن تتحقق فكرة عظيمة. نعم، ذلك ما كنت أريد أن أقوله بصدد الفكرة، تذكرت الآن. منذ قليل عجزت عن وضع يدي على ما كنت أريد أن أقوله. أوه! كنا هناك في خير حال، بينما "البرد يشتد هنا اشتداداً فظيعاً" (بالفرنسية). بالمناسبة: إن مجموع ما معي هو أربعون روبلاً، فإليك المال، خذيه، خذيه، إنني لا أحسن تدبير أمري، قد أضيِّعه، قد يُسرق مني، و... يخيَّل إليَّ أنني أريد أن أنام. رأسي يدور، يدور، يدور. أوه! ما أطيب قلبك، ما أكرم نفسك! بماذا تغطينني؟

ـ لا شك أنك تعاني حمًى، وقد أعطيتك غطائي. أمَّا عن المال، فإنني أفضِّل أن...

ـ ناشدتك الله! "لا نتكلمنْ عن هذا بعد الآن. لأنه يؤلمني" (بالفرنسية). ما أنبل نفسك!

وكـفَّ عن الكلام فجأة، ولـم يلبث أن نام نومَ المحمـوم. كانت رعدات تهزّه من حين إلى حين.

إن الطريـق الموارب المختصر الذي سـلكاه لقطع سـبعة عشـر فرسـخاً لـم يكن بالطريق الجيد. وقد ارتجت العربة ارتجاجاً شـديداً. فكان سـتيفان تروفيموفتش يستيقظ من حين إلى حين، فيرفع رأسـه عن الوسـادة الصغيرة التي دستها صوفيا ماتفئفنا تحت عنقه، ويمسـك يد المرأة الشـابة، ويسـأل: "أأنـت هنـا؟" كأنما هو يخشـى أن تتركه. وكان يقول لهـا أيضاً إنه يرى في المنام فكاً عريضاً مكشـراً عن أسـنان، وإن هذا يثير اشمئزازه. فكانت صوفيا ماتفئفنا تقلق قلقاً شديداً.

وتوقفـت العربـة أخيراً أمـام عزبة كبيـرة لها أربـع نوافذ، ولهـا ملحقات كثيـرة في الفنـاء. وها هو ذا سـتيفان تروفيموفتـش، المتعجل كثيـراً، يدخل الغرفة الثانية رأسـاً، وهي أجمل الغرف وأوسـعها. وسرعان ما اكتسى وجهه الوسـنان تعبيـراً عن الهم على حين فجـأة. أعلن لربة الدار فـوراً، وهي امرأة بدينة طويلة في نحو الأربعين من عمرها، سوداء الشعر، حتى إن شفتها العليا يظللها شـارب صغير، أعلن لها أنه يريد أن تُحجز الغرفة كلها له وحده، وأن يُغلق الباب، وأن لا يدخل أحد "لأن هناك كلاماً كثيراً يجب أن يتبادلاه. نعم، هناك أمور كثيرة يجب أن أقولها لك يا عزيزتي، (بالفرنسية). وعاد يقول لربة البيت وهو يحرك يده بإشارات عريضة "سأدفع لك، سأدفع لك".

كان يتكلـم في تعجل. ومع ذلك كان لسـانه لا يطاوعـه. وأصغت إليه ربة المنزل بغير بشاشه ولكنها لزمت الصمت علامةَ الموافقة، وهي موافقة زاخرة بمعاني التهديد على كل حال. لم يلاحظ هو هذا، بل أسرع يأمرها بأن تخرج وأن تجيئهما بالعشاء من غير أي إبطاء (كان يبدو متعجلاً أكبر التعجل).

فما كان من ذات الشارب إلّا أن قالت له وقد نفد صبرها وفقدت سيطرتها على نفسها:

ـ ليس هذا نُزُلاً يا سيدي. إننا لا نقدم للمسافرين هنا غداء. كل ما أستطع أن أفعله لـك هو أن أسـلق لك بعض السـلطعان وأن أحضِّر السـماور. ولن يكون عندنا سمك طازج إلّا في الغد.

حرَّك سـتيفان تروفيموفتـش ذراعيه نافد الصبر وهو يكـرر بلهجة غاضبة حانقة: "سـأدفع، سـأدفع، ولكن أسـرعي!". وتم الاتفاق على إعداد حسـاء بالسـمك ودجاجة مقليـة. وقد أعلنت صاحبة البيت فـي أول الأمر أن القرية كلهـا ليس فيها دجاجة واحدة، ولكنهـا قبلت مع ذلك أن تحاول العثور على دجاجة، متظاهرةً في الوقت نفسه بأنها تخدم الرجل خدمة كبيرة.

وما إن خرجت حتى جلس سـتيفان تروفيموفتش على الديوان، وأجلس صوفيـا ماتفئفنا إلى جانبه. إن الديـوان والمقاعد التي تؤثث الغرفة كانت في حالة يرثى لها. وفي وسعنا أن نقول عن هذه الغرفة الواسعة بعض السعة إنها كانت بسـريرها المخبأ وراء حاجز في داخل فجوة، وبورق جدرانها الأصفر الممـزق المهترئ، وبصورها الليتوغرافية الأسـطورية الفظيعـة، وبأيقوناتها المصطفة صفاً طويلاً، وبأثاثها غير المتجانس، كانت مزيجاً كريهاً من أذواق القريـة والمدينة. غير أن سـتيفان تروفيموفتش لـم يلق نظرة واحدة على ذلك كله، بل إنه لـم يلق حتى نظرة من النافذة على البحيرة الواسعة التي تمتد على بعد ثلاثين خطوة من العزبة.

ـ ها نحن أصبحنا وحيدين! لن يؤذن لأحد بالدخول. أريد أن أحكي لك كل شيء، كل شيء، من البداية.

ارتسم على وجه صوفيا ماتفئفنا قلق شديد، وقاطعته تقول:

ـ هل تعلم يا ستيفان تروفيموفتش...

فسألها وهو يبتسم ابتسامة افتتان:

ـ "كيف؟ أتعرفين اسمي منذ الآن"؟ (بالفرنسية).

ـ عرفتـه منذ قليـل، حين كنت تتكلم مع آنيسـيم. ولكن إليـك ما أريد أن أقوله لك إذا أذنت...

ومالـت عليـه وألقت نحو الباب نظرات قلقة خشـية أن تُسـمع، وأخذت تهمـس قائلةً له إن هذه القرية خطرة على المرء أشـد الخطر: فالفلاحون هنا

صيادون، ولكنهم يعيشـون خاصةً من استغلال المسافرين إذ يجبرونهم على أن يدفعوا لهم في الصيف ما يشاؤون. والناس لا يجيئون إلى هذه القرية التي لا تقـع فـي طريقهم إلّا لأن السـفينة تتلبث فيها. فإذا تأخرت السـفينة ـ لأنها حين يسـوء الجو لا تسـتطيع الرسو على الشـاطئ ـ كثر الناس كثرة كبيرة فإذا جميع الدور مشغولة. والفلاحون لا ينتظرون إلّا هذا: إذ يحملون المسافرين على أن يدفعوا ثلاثة أضعاف ما يجب دفعه في أيسر أمر من الأمور. وصاحب هـذا المحل أكثر أهل القرية كبرياء وغروراً، لأنه أغناهم. إنه يملك شـبكةً لا يقل ثمنها عن ألف روبل.

كان سـتيفان تروفيموفتـش ينظر إلى وجـه صوفيا المتوقد، بما يشـبه أن يكـون عتبـاً. حتى لقد حاول عدة مرات أن يوقفها عن الكلام بحركة من يده. ولكنها كانت حريصةً على فكرتها وأنهت إيضاحاتها: لقد سبق لها أن جاءت إلـى هـذه القرية في الصيف الماضي مع "سـيدة من أسـرة ممتـازة"، فأمضتا معـاً فيهـا يومين بانتظار السـفينة. إلّا أن الأفضل أن لا تتكلم عما قاسـتا: لقد كان مـا قاسـتاه رهيبـاً فظيعاً. "إنك قد حجـزت الغرفة لك وحدك يا سـتيفان تروفيموفتـش... وما أقولـه الآن إنما أريد به تنبيهـك... إن الغرفة المجاورة فيها منذ الآن مسافرون، رجل مسن، وشاب، وسيدة مع طفلين. ولكن العزبة سـتكون فـي الغد غاصةً بالناس، لأن السـفينة لـم تصل، فلا بد إذًا أن ترسـو فـي الغد حتماً. إن أصحاب الدار سـيطلبون منك مبلغـاً باهظاً لو طُلب حتى في بطرسـبرج لكان فضيحة. غرفة مسـتقلة، وغداء كالذي أمرت به، وإزعاج تسببه لسائر المسافرين، ذلك كله سيكلفك كثيراً...".

كان ستيفان تروفيموفتش يتألـم. كان يتألـم فعلاً.

ـ أرجـوك يـا بنيتي! "كفى، كفـى! إن معنا مـالاً، وبعد ذلك يفعـل الله ما يشـاء" (بالفرنسـية). بلى إننـي ليدهشـني أن أراك أنت صاحبة الأمـر العالية الرفيعة تقولين هذا الكلام... "كفى، كفى! إنك تعذبينني"! (بالفرنسية).

كذلك صاح يقول ثائر الأعصاب. وأردف:

ـ إن أمامنـا المسـتقبل كلـه، وأنـت... أنـت تحاوليـن أن تخيفينـي مـن المستقبل...

وسرعان ما شرع يحكي لها قصته كلها، ولكنه بلغ في كلامه من فرط التعجل أنه كان يصعب حتى فهمه في البداية. ودامت قصته مدة طويلة. لقد جيء بحساء السمك، ثم جيء بالدجاجة المقلية، وجيء أخيراً بالسماور، والرجل لا يزال يتكلم... كان يعبِّر بطريقة غريبة، بطريقة مرضية. ولكنه كان مريضاً بالفعل. إن توتراً مفاجئاً في جميع قواه العقلية كان لا بد أن يؤدي ـ كما تنبأت بذلك صوفيا ماتفئفنا قلقةً ـ إلى وهن شديد في جسمه المصاب إصابة بالغة. بدأ بالكلام عن طفولته حين "كان يجري في الحقول عاري الصدر". وبعد ساعة كاملة من الكلام وصل إلى الحديث عن زواجيه ببرلين. لا أريد أن أسخر منه، وهيهات أن يخطر ببالي الضحك عليه. ولكنني أذكر أنه تحدث عن زواجيه حديثه عن شيء عظيم حقاً، لقد كان في نظر نفسه يناضل من أجل الوجود، على حد التعبير الحديث. إنه يرى أمامه المرأة التي اصطفاها لتكون رفيقة طريقه، فها هو ذا يعلِّمها إن صح التعبير. ما ينبغي أن تكون عبقرية ستيفان تروفيموفتش سراً مكتوماً عنها. لعله كان يعقد على صوفيا ماتفئفنا آمالاً فيها كثير من المبالغة الشديدة، ولكنه كان قد اختارها. إنه لا يستطيع أن يستغني عن امرأة. هو نفسه، على كل حال، كان يحزر من تعبير وجهها أنها لا تكاد تفهم عنه، إن أهم ما في كلامه لا تفهمه. فكان يقول لنفسه: "لا ضير، ليس لهذا قيمة، سوف تنتظر. سوف تفهمني الآن بقلبها...".

وصاح يقول قاطعاً حديثه عن قصة حياته:

ـ صديقتي! ما أنا في حاجة إلّا إلى قلبك، وإلى هذه النظرة الساحرة التي تلقينها عليَّ... لا تحمرِّي! سبق أن قلت لك...

وغمضت الأمور في عقل صوفيا المسكينة خاصةً حين أخذ يشرح لها بإفاضة وإسهاب أن أحداً لم يفهمه حتى الآن، وأن "الموهبة عندنا في روسيا مآلها إلى الذبول والضياع لا محالة". لقد اعترفت صوفيا في ما بعد قائلة: "كان كلامه أذكى من أن أستطيع فهمه". وكانت تصغي باجتهاد شاق محملقة العينين. فلما اندفع ستيفان تروفيموفتش في "التنكيت"، فأخذ يتهكم على "العقول التقدمية التي تقودنا" حاولت أن تستبدل بالحزن مرحاً وأن ترد على ضحكه بابتسامة، ولكن محاولتها بلغت من الإخفاق أن ستيفان تروفيموفتش

شعر هو نفسه بشيء من الاضطراب، فأخذ عندئذ يتجهم بعنف وقسوة على "العدميين"، و"الناس الجدد"، فارتاعت المسكينة ارتياعاً شديداً. ثم لم يهدأ بالها قليلاً - وكان هدوءاً خداعاً على كل حال - إلّا حين وصل ستيفان تروفيموفتش من حديثه إلى تلفيق رواية حب، بالمعنى الأصلي لكلمة الرواية. إن المرأة مرأة ولو كانت راهبة. فها هي ذي الآن تبتسم، وتهزّ رأسها، ثم تحمرُّ وتخفض عينيها، فيزداد ستيفان تروفيموفتش افتتاناً، ويزداد إلهامه اتقاداً، فتتكاثر أكاذيبه في الرواية مزيداً من التكاثر. فإذا بفرفارا بتروفنا تستحيل إلى سمراء فاتنة ("سبت الأفئدة في بطرسبرج وعواصم أوروبا")، وكان زوجها قد "قُتل برصاصة في سيباستوبول"، لأنه كان يحس بأنه غير جدير بحب زوجته، وبأن عليه أن يدع الميدان خالياً لمنافسه، أي لستيفان تروفيموفتش. "لا تضطربي يا عزيزتي الرقيقة العذبة، لا تضطربي يا عزيزتي المسيحية الفاتنة! لقد كان حبنا يبلغ من الروعة ومن اللطافة أننا لم نتصارح عن عواطفنا في يوم من الأيام". كذلك صاح يقول وقد صدَّق أكاذيبه هو نفسه. وتابع يقول إن سبب ذلك الموقف إنما هو فتاة شقراء (إن لم تكن داريا بافلوفنا، فمن عسى تكون؟ حقاً لا أدري!). فلقد كانت تلك الفتاة الشقراء تدين للسيدة السمراء بكل شيء، فالسيدة السمراء هي التي عُنيت بتربيتها وتعليمها من حيث إنها تمت إليها بقرابة (بعيدة) فلما حزرت السيدة السمراء ما تحمله الفتاة الشقراء له من حب انطوت على نفسها. ولما أدركت الفتاة الشقراء من جهتها ما تحمله السيدة السمراء لستيفان تروفيموفتش من حب انطوت على نفسها هي أيضاً. وهكذا انطوى الثلاثة على أنفسهم وظلوا يتألمون صامتين طوال عشرين عاماً يعذِّبهم نبل نفوسهم ويرهقهم من أمرهم عسراً. "آه... يا له من هوى! يا له من هوى!". كذلك صاح يقول وهو يكاد يبكي في سورة من حماسة صادقة، "كنت أراها (السيدة السمراء) في كمال تفتح جمالها، أراها جريحَ القلب، تخطر أمامي خجلةً من جمالها (ومرةً قال: "خجلةً من بدانتها"). وهرب في النهاية، مودعاً إلى الأبد ذلك الحلم الحار الذي دام عشرين عاماً. "عشرون عاماً! والآن، في الطريق العام...". بذلك ختم روايته. ثم ازدادت حمى رأسه فأخذ يشرح لصوفيا ماتفئفنا ما دلالة

"لقائهما العارض الحاسم إلى آخر عصور الدهر أبد الأبدين!". فاضطربت صوفيا ماتفئفنا أشد الاضطراب، ونهضت أخيراً عن الديوان. وهمَّ عندئذ أن يرتمي جاثياً على ركبتيه، فبلغت المرأة المسكينة من الارتياع أن الدموع سالت من عينيها. وكان الليل يهبط، وهما مختليان في هذه الغرفة المغلقة منذ عدة ساعات.

دمدمت تقول:

ـ لا. الأفضل أن تدعني أذهب إلى الغرفة المجاورة. ما عسى يقول هؤلاء الناس جميعاً؟...

وأفلتت أخيراً. وتركها تمضي واعداً إياها أنه سينام فوراً. وكان يشكو من صداع شديد على كل حال. إن صوفيا ماتفئفنا، حين دخلت الغرفة منذ قليل، قد تركت كيسها وأمتعتها في الغرفة المجاورة، عاقدةً عزمها على أن تبيت ليلتها مع ربة الدار. ولكنها لم تستطع أن ترتاح.

ففي أثناء الليل أصيب ستيفان تروفيموفتش بنوبة من نوبات الكوليرين التي يعرفها فيه أصدقاؤه والتي كانت تعقب عنده كل توتر عصبي قوي وكل هزّة انفعالية. فكذلك قضت صوفيا ماتفئفنا ليلتها كلها بغير نوم. واضطرت كأنما لتعتني بالمريض أن تذهب وتجيء مارةً بالغرفة التي كان ينام فيها رب الدار وزوجته وسائر المسافرين، فأخذ هؤلاء أخيراً يدمدمون متذمرين، حتى لقد جعلوا في النهاية يشتمونها حين أرادت في الفجر أن تحضِّر السماور. وكان ستيفان تروفيموفتش في شبه غيبوبة، يحس في بعض الأحيان أنه جيء بالسماور، وأنه يُجرَّع شيئاً ما (هو شراب التوت ساخناً)، وأن كمادات ساخنة توضع على بطنه وصدره. وكان يحس طوال الوقت "أنها" قريبة منه، وأنها "هي" التي تذهب وتجيء، وتُنهضه ثم ترقده، وفي نحو الساعة الثالثة من الصباح شعر بتحسن. فجلس على سريره، ثم وضع قدميه على الأرض، وفجأةً، من دون أن يحس بما يفعل، سجد أمام صوفيا ماتفئفنا: ولم يكن سجوده اليوم كركوعه بالأمس، فهو الآن يهوى على قدميها ويقبِّل حافة ثوبها. فدمدمت المسكينة تقول وهي تحاول أن تنهضه وأن تعيده إلى سريره:

ـ ماذا تفعل؟ إنني لا أستحق.

فقال وهو يضم يديه إحداهما إلى الأخرى بحركة عبادة:

ـ أنت مخلِّصي. "إنك نبيلة كمركيزة!" (بالفرنسية) وأنا... أنا رجل شقي، إنسان بائس! آه... إنني لم أكن طوال حياتي إلّا رجلاً غير شريف...

فقالت صوفيا ماتفئفنا ضارعةً إليه:

ـ هدىء نفسك!

ـ لقد كذبت منذ قليل، كذبتُ غروراً وتبجحاً، كذبتُ كسلاً وبطالةً. كل ما قلته لم يكن إلّا كذباً، كل ما قلته، إلى آخر كلمة! ما أشقاني!

هكـذا أعقبت نوبةَ الكوليرين نوبةُ مذلة. لقد سبق أن أتيح لي أن تكلمت عن تلك النوبات بصدد الرسائل التي كان يكتبها إلى فرفارا بتروفنا. وفجأة تذكر ليز، ولقاءهما بالأمس فهتف يقول: "فظيع! لا بد أن شقاءً قد حلَّ، ولم أسألها عما وراءها! لم أفكّر إلّا في نفسي! ماذا حلَّ بها؟ ألا تعرفين ماذا أصابها؟".

ثم أخذ يحلف أنه "لن يخون أبداً" وأنه "سيعود إليها" (يقصد فرفارا بتروفنا). قال: "سنمر كلَّ يوم أمام بابها (يقصد هو وصوفيا ماتفئفنا)، ساعة تركب عربتها لتقوم بنزهتها الصباحية، وستأملها بصمت... آه... أريد أن تضربني على خدي! ما ألذَّ أن تضربني على خدي! وسأمد لها خدِّي الأيسر، "كما يقول كتابك!" (بالفرنسية). الآن فقط فهمت ما معنى مدِّ الخد الأيسر... ولم أكن قد فهمته قبل الآن في يوم من الأيام...".

قضت صوفيا ماتفئفنا يومين رهيبين. إنها لا تزال حتى هذا اليوم لا تتذكرهما إلّا وترتعد. لقد بلغ ستيفان تروفيموفتش من شدة المرض أنه كان عاجزاً عن ركوب السفينة حين وصلت السفينة في الساعة الثانية تماماً من بعد الظهر، في هذه المرة. ولم تستطع صوفيا ماتفئفنا أن تقرر أن تذهب وتتركه وحده، وعدلت عن السفر إلى سباسوف. وقد روت في ما بعد أن المريض كان سعيداً جداً حين علم أن السفينة سافرت. لقد دمدم يقول وهو راقد على سريره:

ـ رائع! حالتي هنا حسنة، أحسن منها في أي مكان آخر. لن تتركيني، أليس كذلك؟ آه... لا... لم تتركيني!

ولكن الواقع أن حالته لم تكن حسنةً "هنا". لقد كان رأسه مليئاً بالأحلام، فكان لا يريد أن يعرف شيئاً عن المصاعب التي تجتازها صوفيا ماتفئفنا. كان يعدُّ مرضه وعكةً عارضة. حتى أن فكره كان لا يتلبث عليه، لانشغاله بشيء آخر: كيف سيسافران معاً من مدينة إلى مدينة "يبيعان هذه الكتب الصغيرة". وطلب أن تقرأ له الإنجيل.

ـ منذ مدة طويلة لم أقرأه... في النص الأصلي. فإذا سألني أحد كان يمكن أن أخطئ. فالأفضل أن يكون المرء مستعداً.

جلست صوفيا إلى جانبه وفتحت الكتاب. وأخذت تقرأ، فإذا هو يقاطعها منذ أول آية قائلاً لها:

ـ إنك تجيدين القراءة إجادة عظيمة. لقد أخطأ ظني...

قال هذه الجملة الغامضة بحماسة. ولقد كان شديد الحماسة دائماً على كل حال.

قرأت له خطبة الجبل.

قال لها:

ـ "كفى كفى يا بنيتي!" (بالفرنسية). أتحسبين أن هذا غير كاف؟

وأغمض عينيه منهوكاً. لقد كان خائر القوى جداً. لكنه لم يفقد شعوره بعد. نهضت صوفيا ماتفئفنا، مفترضةً أنه يريد أن ينام. لكنه استوقفها بحركة من يده:

ـ صديقتي. لقد ظللت أكذب طوال حياتي، حتى حين كنت أقول الحقيقة. لم أتكلم يوماً في سبيل الحقيقة، بل في سبيل نفسي. إنني أعلم هذا من قبل، ولكنني لم أر إلّا الآن أن... آه... أين هم أصدقائي الذين طالما آذتهم صداقتي؟ لقد آذيتهم جميعاً، جميعاً! "هل تعلمين؟" (بالفرنسية) أنني ربما كنت أكذب حتى في هذه اللحظة؟ نعم، إنني أكذب، هذا أكيد. المهم أنني أصدِّق ما أقوله حين أكذب. وأعسر الأمور أن يحيا المرء بدون أن يكذب. نعم، نعم، ذلك هو أعسر الأمور قاطبة!

قال هذه الجملة الأخيرة بحماسة شديدة.

قالت صوفيا ماتفئفنا تقترح في وجل وخشية:

ـ ستيفان تروفيموفتش، ألا يحسن أن نستدعي طبيباً من المدينة؟ فأدهشه هذا الاقتراح إلى أقصى حدود الإدهاش. وقال لها:

ـ لماذا؟ "أأنا مريض إلى هذا الحد؟ لا، ليس هذا بمرض ذي بال!" (بالفرنسية). ما حاجتنا إلى غرباء؟ وإلا عُلم أنني هنا، وعندئذ... لا، لا، لا حاجة إلى غرباء، بل نبقى وحدنا. وحدنا. وحدنا...

وقال بعد لحظة صمت:

ـ اسمعي. اقرئي لي شيئاً آخر في كتابك، دون اختيار، على المصادفة، ما يقع تحت بصرك...

ففتحت صوفيا ماتفئفنا الكتاب وأخذت تقرأ. فكان ستيفان تروفيموفتش يردد:

ـ على المصادفة، من دون اختيار، أيَّ شيء...

"واكتب إلى ملاك كنيسة اللاوديكيين".

ـ ما هذا؟ من أين هذا؟

ـ من رؤيا يوحنا.

ـ "آ.. نعم.. تذكرت.. رؤيا يوحنا.. اقرئي.. اقرئي" (بالفرنسية). قلت لنفسي إننا إذا فتحنا الكتاب على المصادفة سنكتشف مستقبلنا. أريد أن أعرف ما الذي وقعت عليه من الرؤيا. اقرئي بعد كلمة "الملاك"، "الملاك"...

" واكتب إلى ملاك كنيسة اللاوديكيين: هذا يقوله الأمين الصادق، الأمين الشاهد بداءة خليقة الله. أنا عارف أعمالك. ولست بارداً ولا حاراً، ليتك كنت بارداً أو حاراً. فلأنك فاتر، ولست بارداً ولا حاراً، أنا مزمع أن أتقيأك من فمي. أنت تقول إني أنا غني وقد استغنيت ولا حاجة بي إلى شيء. ولا تعلم أنك شقي وبائس وفقير وأعمى وعريان!".

هتف ستيفان تروفيموفتش يقول وقد أنهض رأسه متقد العينين:

ـ هذا... وهذا في كتابك. لم أعرف في حياتي هذه الصفحة الرائعة. أتسمعين: لأن تكون بارداً، بارداً، خير من أن تكون فاتراً، من أن تكون فاتراً "فحسب". آه... لسوف أبرهن... ولكن لا تتركيني، لا تهجريني! لسوف نبرهن لهم، لسوف نبرهن لهم!

قالت وهي تمسك يديه وتشدهما وتحملهما إلى قلبها:
لا يخطر ببالي أن أتركك يا ستيفان تروفيموفتش. لن أتركك أبداً.
وكانت تنظر إليه بعينين مليئتين بالدموع. "كنت أشعر نحوه بإشفاق شديد في تلك اللحظة". كذلك روت تقول في ما بعد.
وأخذت شفتا ستيفان تروفيموفتش تختلجان.
ـ ولكـن ما العمل الآن يا ستيفان تروفيموفتش؟ يجب أن نبلغ أصدقاءك أو أقرباءك...
ولكنه بلغ من شدة الذعر حين سمع هذه الكلمات أنه ندم على إثارة هذه المسألة من جديد. فتوسل إليها أن لا تستدعي أحداً، وأن لا تشرع في القيام بأي شيء، توسل إليها وهو يرتعش ارتعاشاً شديداً. وكان يلح إلحاحاً قوياً ويصر على أن تعاهده بأن لا "تبلغ أحداً، أن لا تبلغ أحداً البتة، فنبقى وحدنا" و" نسافر معاً" (بالفرنسية).
وأسوأ من ذلك أن صاحب الدار وامرأته أخذا يقلقان، وأخذا يتذمران، وأخذا يعذِّبان صوفيا ماتفئفنا. فدفعت لهما وأرتهما أنها لا تزال تملك مالاً. فهدأهما ذلك بعض الوقت، ولكن الرجل طلب جواز سفر ستيفان تروفيموفتش. فأشار المريض بيده إلى حقيبته الصغيرة وهو يبتسم ابتسامة تعالٍ واحتقار، فوجدت صوفيا في الحقيبة قرار إحالته على التقاعد أو ورقة أخرى من هذا النوع، وهي الورقة التي أقام بها في المدينة حتى ذلك الحين. ومع ذلك ظل صاحب البيت يلحُّ على ضرورة نقله إلى مكان آخر "لأن بيتنا ليس مستشفى، ولأننا سوف نلقى إزعاجات كثيرة إذا مات". فاستشارته صوفيا ماتفئفنا في أمر طبيب تستدعيه، فقال إن استدعاء الطبيب من المدينة يكلف نفقات باهظة لا قبل لها بها، فعدلت عن فكرتها. وعادت إلى قرب المريض الذي انهارت قواه انهياراً شديداً. لقد كان ستيفان تروفيموفتش يضعف مزيداً من الضعف ساعة بعد ساعة.
قال لها المريض:
ـ والآن اقرئي لي تلك الصفحة... عن الخنازير.
فقالت له مرتاعة:

ـ كيف؟

ـ عن الخنازير... "أولئك الخنازير"... أذكر أن الشياطين دخلت في خنازير هلكت جميعاً. اقرئي لي تلك الصفحة حتماً. سأقول لك السبب في ما بعد. أريد أن أتذكر تلك الصفحة كلمة كلمة. يجب أن أتذكرها.

وكانت صوفيا ماتفئفنا تعرف الإنجيل جيداً، فسرعان ما وجدت تلك الصفحة من إنجيل لوقا، التي صدَّرت بها قصتي هذه. وها أنا ذا أكررها هنا:

"وكان هناك قطيع كبير من الخنازير يرعى في الجبل، فتضرعت الشياطين إلى يسوع أن تدخل في الخنازير. فأذن لها. فخرجت من ذلك الإنسان ودخلت في الخنازير. فاندفع القطيع من أعلى الجرف إلى البحيرة، وغرق فيها. فلما رأى رعاة القطيع ما حدث هربوا ونشروا النبأ في المدينة وفي القرى. فخرج الناس ليروا ما جرى، فلما وصلوا إلى قرب يسوع وجدوا الإنسان الذي كانت الشياطين قد خرجت منه، وجدوه لابساً ثيابه، مالكاً عقله، جالساً عند قدمي يسوع. وروى لهم شهود الحادث كيف خلص المجنون".

قال ستيفان تروفيموفتش متأثراً تأثراً قوياً:

ـ اسمعي يا صديقتي... إن هذه الصنعة الرائعة... الخارقة... كانت لي دائماً حجر عثرة... "في هذا الكتاب" (بالفرنسية)... لذلك احتفظت بها في ذاكرتي منذ طفولتي. غير أن فكرةً وافتني الآن، فكرة هي تشبيه أو "مقارنة". إن أفكاراً كثيرة توافيني الآن. اسمعي: هذه هي روسيا تماماً. إن هؤلاء الشياطين الذين يخرجون من المريض ليدخلوا في الخنازير هم جميع الجراح والعفونات والقذارات والشياطين الصغيرة والكبيرة التي تراكمت خلال القرون في مريضنا الغالي العظيم، في روسيا! "نعم، في روسيا هذه التي أحببتها دائماً" (بالفرنسية). غير أن فكرةً رائعة، وإرادة جبارة ستهبطان عليها من السماء، كما هبطتا على ذلك المجنون. وستتخلص من جميع الوساخات والنتانات التي ستطلب هي نفسها أن تدخل في الخنازير. بل لعلها قد دخلت منذ الآن... إنها نحن، نحن وأولئك، بتروشا... "والآخرون معه" (بالفرنسية)، وربما أنا أيضاً في طليعتهم. سوف نهوي من أعلى

الجـرف إلى البحر كمجانين مسـعورين، وسـوف نهلك جميعـاً. وهذا خير. إننا لا نصلح لغير ذلك. ولكن المريض سوف يشفى، وسيجلس عند "قدمي يسـوع"، وسينظر الجميع إليه مدهوشين... عزيزتي... "سوف تفهمين في ما بعد... سوف نفهم معاً" (بالفرنسية).

قال ستيفان تروفيموفتش ذلك وأخذ يهذي، وأُغمي عليه أخيراً. فأخذت صوفيا ماتفئفنا تبكي جالسـةً بقربه. إنها لـم يغمض لها جفن منذ ثلاث ليال، وهي تتحاشى صاحب البيت وامرأته اللذين كان يهيئان شيئاً كما تحس بذلك صوفيا. ولم يأت الخلاص إلّا في اليوم الثالث. ففي الصباح عاد إلى ستيفان تروفيموفتش شعوره، وتعرَّف المرأة ومدَّ إليها يده. فرسمت إشارة الصليب، واسـتردت أملها. وأراد أن ينظر من النافذة، فقال: "هه! هذه بحيرة! يا إلهي! لـم أرهـا من قبل" وإنه ليقول هذا الكلام إذ سُـمعت قرقعـة عربة وقفت أمام الباب. فسرعان ما أثار وصولها هرجاً خارقاً في المنزل كله.

إنهـا فرفـارا بتروفنا، بشـخصها تصـل على عربـة ذات أربعـة أحصنة مع خادميـن وداريا بافلوفنا. لقد حدثت هذه المعجزة ببسـاطة تامة. فإن آنيسـيم كان غـداة وصوله إلى المدينة يعذبه حب الاطـلاع والفضول، فمضى يروي لخدم فرفارا بتروفنا أنه رأى سـتيفان تروفيموفتش وحيداً في قرية من القرى، وأن الفلاحين قد لقوه ماشـياً في الطريق العام، وأنه سافر إلى سباسوف. وإذ إن فرفـارا بتروفنـا كانت من جهتها شـديدة القلـق منذ ذلك الحيـن، وكانت قد أرسـلت تبحث عـن الهارب في كل مـكان، فقد قادوا إليها آنيسـيم، فلما سـمعت مـا رواه، ولا سـيما التفاصيل المتعلقة بسـفر سـتيفان تروفيموفتش إلى أوسـتيوف بعربة مع امرأة اسـمها صوفيا ماتفئفنا، أسـرعت تستعد فوراً، واندفعت في أثر الهارب الذي لا تزال تجهل أنه مريض.

حيـن دوَّى صوتها القاسـي الصارم، خاف حتى صاحـب البيت وامرأته. إنهـا لـم تتوقف هناك إلّا سـائلة، لاقتناعها بأن سـتيفان تروفيموفتش لا بد أن يكون قد سافر إلى سباسوف منذ مدة طويلة. فلما علمت أنه لا يزال هنا وأنه مريض دخلت العزبة منفعلة أشد الانفعال.

وصاحت تسأل حين رأت صوفيا ماتفئفنا التي ظهرت لحظتئذ في عتبة الغرفة الثانية:

- أين هو؟ لقد حزرت فوراً من هيئتك الوقحة أنك أنت. اخرجي من هنا أيتها الوغدة! أخرجوها من هنا، اطردوها، وإلا فسأجعلك تُسجنين إلى آخر حياتك يا عزيزتي، لقد سبق أن سُجنتْ في المدينة وستعود إلى السجن، لا يسمحنّ أحد لنفسه بأن يدخل إلى هنا ما بقيت أنا أيها السيد. أنا الجنرالة ستافروجين، وإني أستأجر البيت كله. وأنت يا عزيزتي ، ستُحاسبين على كل شيء.

اضطرب ستيفان تروفيموفتش عند سماع هذا الصوت الذي يعرفه جيداً، وأخذ يرتعد. ولكن فرفارا بتروفنا كانت قد دخلت إلى ما وراء الحاجز. وجرَّت بقدمها كرسياً وهي متقدة العينين، وجلست، ثم ارتدَّت بجذعها إلى المسند وصرخت تقول لداشا:

- اذهبي إلى الغرفة الثانية، ابقي قليلاً مع صاحب البيت وامرأته. ما هذا الفضول؟ واحكمي إغلاق الباب وراءك.

وظلت خلال بضع لحظات تتفرس صامتةً بنظرة صقر في وجه ستيفان تروفيموفتش المذعور. ثم قالت أخيراً تسأله بسخرية حانقة ساخطة:

- هيه، ستيفان تروفيموفتش، كيف صحتك الآن؟

فأجابها يقول طائش اللب:

- "أيتها العزيزة" (بالفرنسية)... لقد تعلمت معرفة الواقع الروسي... وسأعود إلى الإنجيل.

فصرخت تقول مغتاظة ضامة يديها:

- آه... أيها الرجل الفاسق، أيها الرجل الذي لا نبل له! لم يكفك أن جلّلتني بالعار، بل كان لا بد لك من الارتباط أيضاً... آه... أيها العجوز الداعر!

- "عزيزتي" (بالفرنسية).

واختنق صوته في حلقه. فلم يستطع أن يضيف كلمة واحدة، واكتفى بأن نظر إليها مستدير العينين من الرعب.

ـ من هذه؟

ـ "هـذه ملاك... هـذه أكثر من مـلاك عنـدي" (بالفرنسـية)... لقد ظلت طوال الليل... لا تصرخي، لا تخيفيها، "عزيزتي، عزيزتي" (بالفرنسية)...

وثبـت فرفارا بتروفنا عن كرسـيها ودفعتـه عنها بقرقعـة، وصاحت تقول مروَّعـة: "مـاء! مـاء! وثـاب المريض إلـى نفسـه، ولكنها ظلـت ترتعش من الخوف، وتنظر في وجهه المتشـنج شـاحبة اللون. إنها في تلك اللحظة إنما أدركت مدى خطورة مرض ستيفان تروفيموفتش.

قالت بصوت خافت تخاطب داريا بافلوفنا:

ـ داريـا. اسـتدعي الدكتور سـالزفيش حالاً فليسـافر إيجور علـى الفور، فليسـتأجر حصانـاً. وليركـب فـي المدينـة عربـة أخـرى ليصـل إلـى هنا مع سالزفيش قبل الليل.

خرجـت داريـا راكضـةً. وكان سـتيفان تروفيموفتـش لا يـزال ينظر تلك النظرة الثابتة الجامدة المرتاعة، وكانت شفتاه الصفراوان تختلجان.

قالت فرفارا بتروفنا تخاطبه ملحةً كما يخاطَب طفل:

ـ هـدىء نفسـك ياسـتيفان تروفيموفتش. هيًّا. عليك بشـيء مـن الصبر. سـترجع داريا... وعندئذ... يا إلهي! يا ريِّسـة... يا ريِّسـة... تعالي... تعالي حالاً!

كذلـك نـادت صاحبـة البيت. ثـم هُرعـت تبحث عنها بنفسـها مـن نفاد صبرها.

ـ أرجعوا "الأخرى" حالاً. نادوها. بسرعة. بسرعة.

من حسـن الحظ أن صوفيا ماتفئفنا لم تكـن بعيدة: لقد رحلت منذ لحظة قصيرة بكيسـها وحزمتهـا الصغيرة. أعادوهـا. كانت يداها وسـاقاها ترتعش خوفـاً. وكمـا ينقـض باز على صـوص أمسـكتها فرفـارا بتروفنا مـن ذراعها وجرَّتها إلى عند ستيفان تروفيموفتش:

ـ هي ذي. لم آكلها! كنت تظن أنني أكلتها.

تناول سـتيفان تروفيموفتش يد فرفـارا بتروفنا، وحملها إلـى عينيه وأخذ يبكي طائش العقل.

ـ طيـب، طيـب، هدئ نفسـك ياعزيزي. رباه! ولكن هلاً هدأت نفسـك! آه... جلاد... جلاد...

كذلك زعقت على حين فجأة.

فدمدم ستيفان تروفيموفتش يقول ملتفتاً نحو صوفيا ماتفئفنا:

ـ عزيزتي، اذهبي لحظة إلى هناك، إلى الغرفة الثانية... أريد أن أقول بضع كلمات...

فأسرعت صوفيا ماتفئفنا تخرج.

ـ "عزيزتي... عزيزتي" (بالفرنسية).

كان يختنق. فقالت له فرفارا بتروفنا!

ـ لا تتكلم يا ستيفان تروفيموفتش، انتظر قليلاً. استرح الآن. إليك ماءً. ولكن انتظر! قلت لك انتظر!

وجلسـت إلـى جانبه من جديـد، وحظرت عليـه أن يتكلم. كان سـتيفان تروفيموفتـش يضغط يدها بيديه ضغطاً قوياً. وها هو ذا يحمل هذه اليد فجأة إلى شفتيه ويقبّلها. فكانت فرفارا تحدِّق إلى ركن من الغرفة كازةً أسنانها.

وأفلت منه أخيراً قوله:

ـ "لقد أحببتك" (بالفرنسية).

لـم يسـبق أن قال لها في يوم من الأيام كلمة كهـذه الكلمة، وبهذه اللهجة أيضاً.

فهمهمت تقول:

ـ همْ...

ـ "لقد أحببتك طوال حياتي... عشرين عاماً!" (بالفرنسية).

فلزمـت الصمـت دقيقتين أو ثلاثـاً. ثم قالت فجأة بصـوت مختنق ولكنه مهدِّد:

ـ ومن أجل أن يَمثل أمام داشا تعطَّر وتطيَّب.

فصُعق ستيفان تروفيموفتش.

ـ ... ووضع رباط عنق جديداً...

صمتا مرةً أخرى.

ـ والسيجار، هل تتذكره؟
حاول أن يحتج فقال متأثثاً:
ـ صديقتي...
ـ السيجار، مساءً، قرب النافذة... في ضوء القمر... العريشة... بسكفورشنيكي؟ هل تتذكر؟ هل تتذكر؟
كذلك همست وهي تنهض فجأة، وأمسكت طرفي الوسادة التي كان يرقد عليها رأس ستيفان تروفيموفتش وأخذت تهزّهما. وتابعت تقول:
ـ... هل تتذكر أيها الرجل الطائش، الخفيف، الذي لا حشمة فيه ولا حياء له، أيها الرجل التافه، التافه كل التفاهة!
أصبح صوتها من فرط الغضب صافراً، ولكنها حاولت أن تخنقه. وتركت الوسادة أخيراً، وتهالكت على الكرسي وغطت وجهها بيديها. ثم قالت وهي تهب واقفة:
ـ كفى! عشرون عاماً مضت ولن تعود. ما أنا إلّا حمقاء!
قال هو يضم يديه:
ـ "لقد أحببتك" (بالفرنسية).
ـ ما بالك تكرر هذا الكلام "أحببتك، أحببتك".
وهبَّت تقف مرة أخرى. وقالت له:
ـ إذا لم تنم فوراً فإنني... إنك في حاجة إلى هدوء. نَمْ، نَمْ حالاً، أغمض عينيك. رباه! لعله يريد أن يصيب شيئاً من الطعام؟ ماذا تأكل؟ ماذا يأكل؟ رباه! أين الأخرى؟ أين هي؟
وعاد الاضطراب. لكن ستيفان تروفيموفتش قال بصوت ضعيف إنه يريد فعلاً أن ينام "ساعة"، وبعد ذلك يشرب "مرقاً ساخناً أو شاياً... وإنه حقاً سعيد" (بالفرنسية). وتمدد، وبدا عليه أنه نام (لعل ذلك لم يكن إلّا تظاهراً).
فانتظرت فرفارا بتروفنا لحظة، ثم خرجت ماشيةً على رؤوس الأصابع.
واستقرت في الغرفة الأولى، وأخرجت صاحب البيت وامرأته، وقالت لداشا أن تأتيها بالأخرى التي شرعت فرفارا بتروفنا تستجوبها استجواباً كاملاً بحسب الأصول.

ـ حدثيني الآن عن كل شيء. اجلسي هنا، إلى جانبي، هيه؟
ـ لقيت ستيفان تروفيموفتش...
ـ قفي، اسكتي. اعلمي أنك إذا كذبت أو أخفيت شيئاً فلن تفلتي من قبضتي ولو ذهبت إلى آخر ركن في العالم. هيه؟
ـ ... لقيت ستيفان تروفيموفتش... منذ وصولي إلى خاتوفو.. كان صوت صوفيا ماتفئفنا يختنق.
ـ انتظري، اسكتي! يا لها من ثرثاة! أولاً، من أنت؟
روت المرأة سيرة حياتها منذ سيباستوبول بكلمات قليلة كيفما اتفق. وكانت فرفارا تجلس منتصبة القامة، وتصغي إليها صامتة، محدقةً بعينيها إلى عيني محدثتها.
ـ ما لي أراك وجلة هذا الوجل كله؟ ما بالك تطرقين إلى الأرض؟
أحب الذين ينظرون إليَّ مواجهةً ويناقشونني مناقشة. أكملي.
وصلت صوفيا ماتفئفنا من حديثها إلى لقائهما، وإلى "الكتب الصغيرة" وإلى الفودكا التي قدمها ستيفان تروفيموفتش إلى الفلاحة. فقالت لها فرفارا بتروفنا لتشجعها:
ـ أحسنت، أحسنت! لا تهملي أي تفصيل من التفاصيل.
وتابعت صوفيا كلامها:
ـ وكان ستيفان تروفيموفتش لا ينقطع عن الكلام، ولكنه كان مريضاً منذ ذلك الوقت. وهنا روى لي سيرة حياته كلها منذ البداية، خلاله عدة ساعات.
ـ ماذا قال لك عن حياته؟
ارتج على صوفيا ماتفئفنا. ثم دمدمت تقول أخيراً وهي تكاد تبكي:
ـ لا أدري. ثم إنني لم أكد أفهم من كلامه شيئاً.
ـ غير صحيح: يستحيل أن لا تكوني قد فهمت شيئاً.
قالت صوفيا وقد احمرّ وجهها احمراراً شديداً إذ لاحظت أن فرفارا بتروفنا شقراء، وأنها لا تشبه السيدة السمراء التي تحدث عنها ستيفان تروفيموفتش أي شبه:
ـ تكلم كثيراً عن سيدة سمراء عالية المقام.

ـ سيدة سمراء؟ من عساها تكون؟ أكملي.
ـ قال إن هذه السيدة السمراء كانت مولَّهةً بحبه طوال عشرين عاماً، ولكنها لم تجسر أن تصارحه بذلك يوماً، وأنها كانت تستحي من فرط بدانتها.
ـ يا للغبي!
كذلك قالت فرفارا بتروفنا بلهجة قاطعة، وشرد ذهنها مع ذلك. لم تستطع صوفيا ماتفئفنا أن تحبس دموعها أكثر مما حبستها إلى الآن؟
ـ لا أستطيع أن أروي لك مزيداً، لأنني كنت خائفة عليه خوفاً شديداً فلم أستطع أن أفهم عنه... إنه ذكي جداً...
ـ ليس لحمقاء مثلك أن تحكم على ذكائه. هل خطبك للزواج؟
ارتجفت صوفيا ماتفئفنا.
ـ هل أحبك؟ تكلمي! هل طلب أن يتزوجك؟
قالت صوفيا ماتفئفنا من خلال دموعها:
ـ تقريباً.
ثم أضافت تقول بصوت ثابت وهي ترفع رأسها:
ـ لكنني لم أنتبه إلى هذا كله، بسبب مرضه.
ـ ما اسمك؟
ـ صوفيا ماتفئفنا.
ـ طيب. اعلمي يا صوفيا ماتفئفنا أن هذا الرجل تافه كل التفاهة... رباه! لا بد أنك تنظرين إليَّ نظرتك إلى امرأة شقية، هه؟
ـ حملقت الأخرى. وتابعت فرفارا:
ـ امرأة شقية. امرأة طاغية حطمت حياته، هه؟
ـ كيف يكون هذا ممكناً وأنت نفسك تبكين؟
كانت عينا فرفارا بتروفنا مغرورقتين بالدموع فعلاً.
ـ هيَّا، اجلسي، لا تخافي. انظري إليّ وجهاً لوجه مرةً أخرى. لماذا تحمرِّين؟ داشا، تعالي إلى هنا، انظري إليها! ما رأيك؟ هل قلبها طاهر نقي؟
وما كان أشد دهشة صوفيا ماتفئفنا وما كان أشد رعبها أيضاً حين ربتت فرفارا بتروفنا على خدِّها.

ـ المؤسف فقط أنك غبية جداً بالقياس إلى سنك. سوف أعتني بك. إنني أرى الآن أن الأمر لا يعدو أن يكون سفاسف. أقيمي هنا الآن. سأدفع عنك كراء الغرفة وثمن الطعام وما عدا ذلك. وسوف أستدعيك.

حاولت صوفيا ماتفئفنا أن تعترض في وجل بأنها يجب أن تسافر. فقالت لها فرفارا بتروفنا:

ـ فيم العجلة؟ سوف أشتري جميع كتبك. ابقي هنا. اسكتي. لا أريد أن أسمع شيئاً. لو لم أصلْ أنا لما تركته أنت، أليس كذلك؟

قالت صوفيا ماتفئفنا بلهجة قاطعة وهي تجفف دموعها:

ـ ما كان لي أن أتركه قط.

وصل الدكتور سالزفيش في ساعة متأخرة من الليل. إنه شيخ محترم جداً، وطبيب ممارس ذو خبرة قد ترك الخدمة منذ مدة قصيرة على أثر مشاجرة قامت بينه وبين الإدارة. فسرعان ما صار في حماية فرفارا بتروفنا. فحص المريض بانتباه وتدقيق، وألقى عليه عدداً من الأسئلة، ثم أعلن لفرفارا بتروفنا، مع كل المداراة الممكنة، أن حالة المريض مقلقة جداً، وأنه يجب "توقع تفاقمها". فاضطربت فرفارا بتروفنا اضطراباً شديداً بعد أن ألفت منذ عشرين سنة إلى الآن أن لا تأخذ مأخذ الجد أي أمر يتعلق بستيفان تروفيموفتش، وشحب لونها شحوباً شديداً.

ـ أليس هناك أي أمل حقاً؟

ـ لا يمكن القول إننا فقدنا كل أمل، ولكن...

لم ترقد فرفارا بتروفنا طوال الليل، منتظرةً طلوع النهار بفارغ صبر. وما إن فتح المريض عينيه وعاد إليه شعوره (كان لا يزال يملك وعيه كاملاً، ولكن قواه كانت تتناقص تناقصاً سريعاً) حتى اقتربت منه عازمةً أمرها، وقالت له:

ـ ستيفان تروفيموفتش، يجب توقع كل شيء. لقد أرسلت في طلب كاهن. عليك أن تقوم بواجبك.

لقد كانت تخشى، وهي تعرف اعتقاداته، أن يرفض حضور الكاهن. لذلك أسرعت تصرخ منذ نظر إليها مدهوشاً، إذ تخيلت أنه سيرفض. قالت:

ـ سخف! سخف! ليس الأمر أمر سفاسف وترهات الآن! لقد مزحت بما فيه الكفاية!

ـ ولكن... هل حالتي سيئة إلى هذا الحد؟

ووافق على حضور الكاهن شارد اللب. لقد علمت في ما بعد مدهوشاً أشد الدهشة، علمت من فم فرفارا بتروفنا نفسها، أنه لم يخف من الموت أي خوف. لعله لم يصدِّق أنه سيموت، لأنه ظل يعد مرضه أمراً تافهاً لا قيمة له.

واعترف للكاهن وتناول القربان المقدس راضياً كل الرضى. حتى إذا انتهى من تلقي الأسرار، أقبل عليه الجميع، ومنهم صوفيا ماتفئفنا والخدم، يهنئونه. وقد لقوا عناءً كبيراً في حبس دموعهم حين رأوا وجهه الناحل المهدود، وشفتيه البيضاوين اللتين كانتا تختلجان.

ـ "نعم يا أصدقائي" (بالفرنسية)... واني ليدهشني فقط أن أراكم منشغلين هذا الانشغال كله... غداً قد أنهض... فنسافر... "إن هذا الاحتفال كله" (بالفرنسية) الذي أشعر نحوه بأكبر الاحترام طبعاً، إنما كان...

أسرعت فرفارا بتروفنا تتدخل مخاطبةً الكاهن الذي كان قد نضا عنه ملابس الكهنوت فقالت:

ـ أرجوك يا أبي أن تبقى بقرب المريض. وأرجوك متى قدمت الشاي أن تتحدث في أمور إلهية تعزيزاً لإيمان المريض.

فبدأ الكاهن كلامه فقال بصوت متساوٍ رتيب، بينما كان يحمل فنجان الشاي بيده:

ـ في عصرنا هذا الذي بلغت فيه الخطيئة هذا المبلغ من القوة، فإن الملاذ الوحيد للجنس البشري في وسط آلام الوجود ومحن الحياة، إنما هو الإيمان بالله، والأمل في السعادة الأبدية التي وُعد بها الصالحون...

ظهر على ستيفان تروفيموفتش أنه انتعش، وانسابت على شفتيه ابتسامة ناعمة رقيقة...

ـ "شكراً يا أبت، وإنك لطيب جداً، ولكن..." (بالفرنسية).

ـ لا "لكن" أبداً... لا "لكن" البتة!

كذلك صاحت تقول فرفارا بتروفنا واثبةً عن كرسيِّها. وتابعت كلامها تقول للكاهن:

ـ أبت، هذا رجل، رجل... سيكون من الواجب حمله على الاعتراف مرةً أخرى بعد ساعة... ذلك هو نوع هذا الرجل!

ابتسم ستيفان تروفيموفتش ابتسامة محتشمة خفية. وقال:

ـ يا أصدقائي، إن الله ضرورة لي، لأنه الموجود الوحيد الذي يمكن أن يحبه المرء حباً أبدياً...

تُرى أكان يؤمن بهذا الكلام فعلاً، أم أن فخامة الاحتفال قد بثت في نفسه الاضطراب إذ أيقظت عاطفة الفنان التي تتصف بها طبيعته؟ مهما يكن من أمر، فإنه، كما يقال، قد قال بلهجة جازمة نافذة بضعة أقوال تناقض آراءه القديمة مناقضة واضحة.

ـ إن خلودي ضرورة لازمة، لمجرد أن الله لن يشاء أن يرتكب ظلماً يطفئ إلى الأبد العاطفة التي اشتعلت في قلبي حباً له. وأي شيء أثمن من الحب؟ إن الحب فوق الموجود قيمة، إنه تاج الموجود. فكيف يكون ممكناً أن لا يخضع له الموجود؟ إذا كنت قد أحببت الله وسعدت بهذا الحب، فهل يمكن أن يطفئنا الله، أنا وحبي، وأن يغرقنا في العدم؟ إذا كان الله موجوداً فأنا خالد! ذلكم هو "إعلاني لمبادئي" (بالفرنسية).

قالت فرفارا ملحةً بصوت ضارع :

ـ الله موجود، ياستيفان تروفيموفتش، أؤكد لك أن الله موجود. فأنكر تلك السخافات كلها، وانبذها، ولو مرةً واحدة في حياتك.

أغلب الظن أنها لم تفهم "إعلانه لمبادئه".

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يزداد حماسة، لحظة بعد لحظة، غير أن صوته لا يسعفه:

ـ صديقتي... حين فهمت اليوم... مدَّ الخد الأيسر... فإنني... فإنني... فهمت على الفور شيئاً آخر أيضاً... "لقد كذبت طوال حياتي" (بالفرنسية)... نعم، طوال حياتي! وأريد... على كل حال... أريد... غداً... أن نسافر كلنا معاً...

أخذت فرفارا بتروفنا تبكي. وكان ستيفان تروفيموفتش يبحث بعينيه عن شيء ما.

ـ هي ذي، إنها هنا!

كذلك قالت له فرفارا بتروفنا، وأمسكت صوفيا ماتفئفنا من يدها، وقادتها إلى قربه. فابتسم ابتسامة فيها رقة وحنان. وقال وهو ينتفض انتفاضة قوة:

ـ آه... لكم أود لو أعيش أيضاً! إن كل دقيقة، بل كل لحظة يجب أن تكون فرصةً للإنسان... نعم... ذلك ما يجب أن يكون. واجب الإنسان أن يفعل ما يجعل هذا واقعاً. ذلك قانون الإنسان... هو قانون خفي لكنه واقع، لكم أود أن أرى بتروشا... والجميع... وشاتوف!

يجب أن أذكر في هذه المناسبة أن أحداً لم يكن قد سمع شيئاً عن شاتوف بعد، لا داريا بافلوفنا، ولا فرفارا بتروفنا، حتى ولا الدكتور سالزفيش الذي وصل من المدينة.

وكان اضطراب ستيفان تروفيموفتش يزداد ساعةً بعد ساعة، وكان هذا الاضطراب ينهك قواه.

ـ يكفي أن أتصور أن هناك شيئاً أعدل مني بما لا نهاية له، وأسعد مني بما لا نهاية له، حتى يملأني ذلك حناناً واسعاً وأن يملأني شعوراً بالمجد، كائناً من كنت أنا، وفاعلاً ما فعلت. لا يحتاج الإنسان إلى سعادته الخاصة كاحتياجه إلى أن يعرف ويؤمن في كل لحظة أن هناك في مكان ما سعادة مطلقة وسلاماً لجميع الناس ولكل الأشياء... قوام قانون الحياة البشرية كله أن يكون في وسع الإنسان أن ينحني أمام شيء عظيم عظمة لا نهاية لها. فإذا حُرم البشر من هذا الشيء الذي لا نهاية لعظمته رفضوا أن يعيشوا وماتوا في اليأس. النهاية والمطلق لا غنى للإنسان عنهما، كما لا غنى له عن هذه الأرض التي يعيش عليها... يا أصدقائي، جميعاً، جميعاً! عاش "الفكر العظيم"! الفكر الأبدي، اللانهائي! لا غنى لكل إنسان، كائناً من كان، عن الانحناء أمام الفكر العظيم. إن أغبى إنسان في حاجة إلى شيء عظيم. بتروشا... آه... لكم أود أن أراهم مرة أخرى جميعاً! إنهم لا يعرفون، لا يعرفون أنهم هم أيضاً تنطوي نفوسهم على ذلك "الفكر العظيم" ذلك الفكر الأبدي!

لـم يكـن الدكتـور سـالزفتش قد حضـر الاحتفال. فلمـا عاد فجـأة ارتاع وأخرج جميع الناس ملحّاً على أن يتركوا المريض هادئاً.

مـات سـتيفان تروفيموفتـش بعـد ثلاثـة أيـام. ولكنـه فقـد الشـعور قبل ذلـك بكثير. ولقـد توفي بهدوء ورفق كما تذوب شـمعة. وقـد أمرت فرفارا بتروفنـا بإقامة قدّاس في غرفـة الموتى، وأرجعت جثمان صديقها العزيز إلى سكفورشـنيكي، وجعلت قبره في حرم الكنيسـة، وكسـت القبر بشـاهدة من مرمر، وأحاطته في الربيع بسياج من حديد مشبّك.

دامـت إقامـة فرفـارا بتروفنا في أوسـتيفو ثمانية أيام. وقـد اصطحبت في عودتهـا صوفيـا ماتفئفنا التـي أقامت عندها منـذ ذلك الحين إقامـة أظن أنها سـتكون دائمـة. يجـب أن نذكـر أن فرفـارا بتروفنا، منـذ اللحظـة التي غاب فيهـا عـن سـتيفان تروفيموفتش شـعوره، قـد أبعـدت البائعـة المتجولة، بل طردتهـا من العزبة، وظلت تعنى بالمريض إلـى آخر لحظة. ولكن ما إن لفظ المريض آخر أنفاسـه حتى استدعت صوفيا ماتفئفنا، وعرضت عليها أن تقيم في سكفورشـنيكي (بل قل أمرتهـا بذلك)، فلما حاولـت صوفيا أن تعترض خجلى وجلى، لـم تشأ فرفارا بتروفنا أن تسمع شيئاً، وقالت:

ـ هذه كلها سخافات! سأمضي معك أبيع أناجيل. لم يبق لي أحد في هذا العالم!

فقال سالزفيتش:

ـ ولكن لك ابناً!

فقالت بلهجة قاطعة:

ـ لا بل لم يبقَ لي ابن.

لكأنها كانت تقرأ المستقبل وتعلم الغيب.

الفصل الثامن
خاتمة

1

هذه الجرائم كلها،وهذه الفظائع كلها قد اكتشفت بسرعة كبيرة، بسرعة أكبر مما كان يقدّر بطرس ستيفانوفتش. ففي ليلة مقتل شاتوف استيقظت المسكينة ماريا أجناتيفنا قبل الفجر. فبحثت عن زوجها بعينيها فلم تجده بقربها فجُنّت قلقاً. وحاولت المرأة العجوز التي تركتها آرينا بروخورفنا إلى جانبها وباتت معها في الغرفة حاولت أن تهدئها ولكنها لم تظفر بطائل. ولذلك ما إن طلع النهار حتى ركضت إلى بيت آرينا بروخوروفنا التي لا بد، كما قالت للمريضة، أن تعرف أين يوجد شاتوف ومتى يعود. وفي أثناء ذلك كانت آرينا بروخوروفنا تشعر هي أيضاً بأشد القلق: فإن زوجها قد قص عليها ما جرى الليلة البارحة في حديقة سكفورشنيكي. إن فرجنسكي قد رجع إلى داره في نحو الساعة الحادية عشرة من المساء على حالة من الجزع يرثى لها. وقد تهالك على سريره وهو لا يني يردد عاقفاً يديه ذارفاً دموعه "ليس هذا، ليس هذا أبداً". وفي النهاية اعترف لآرينا بروخوروفنا بكل شيء طبعاً. ولكنه اعترف لها وحدها. فأمرته آرينا بروخوروفنا بأن يبقى راقداً وقالت له بلهجة قاسية إن عليه إذا أراد البكاء أن يدفن رأسه في الوسادة حتى لا يستطيع أحد أن يسمعه، وأنه سيكون غبياً كل الغباء إذا لم تتحسن سحنته في الغد. وقررت مع ذلك أن تتخذ بعض الاحتياطات استعداداً لأي طارئ، فحرقت أو أخفت الأوراق أو الكتب الخطيرة، والمنشورات التحريضية.

وفكرت في الأمر فقالت لنفسها إنه ما من خطر يتهدّدها هي أو يتهدد أختها أو الطالبة أو أخاها شيجالوف على كل حال. فلما جاءتها العجوز في الصباح مضت إلى ماريا أجناتيفنا بغير تردد. لقد كانت تريد أن تعرف أيضاً، بأقصى سرعة، ما الذي انتهت إليه الآمال التي كان يعقدها بطرس ستيفانوفتش على كيريلوف، والتي حدّثها عنها فرجنسكي زائغ الهيئة تماماً.

ولكن وصولها إلى عند ماريا أجناتيفنا كان متأخراً: فإن ماريا وقد وجدت نفسها وحيدة لم تطق صبراً على البقاء في البيت فنهضت وألقت على جسمها ما وقع تحت يدها من لباس ـ وهو ثوب رقيق جداً لا يناسب هذا الفصل من فصول السنة ـ وهرعت إلى عند كيريلوف، قائلة لنفسها إن كيريلوف لا بد أنه يستطيع أن ينبئها عن شاتوف أكثر مما يستطيع ذلك أي شخص آخر. وتستطيعون أن تتصوروا الشعور الذي أحدثه في نفس المسكينة، ذلك المشهدُ الذي كان ينتظرها في بيت كيريلوف. يجب أن نذكر أنها من شدة هلعها لم تنتبه إلى الرسالة التي كانت مع ذلك متروكة على المائدة في موضع بارز.

رجعت ماريا إلى غرفتها فتناولت طفلها وولت هاربة في الشارع الذي كان لا يزال خالياً مقفراً في تلك الساعة. كان الجو رطباً والضباب منتشراً. وكانت هي تركض لاهثة متعثرة بالوحل اللزج البارد. وقررت أخيراً أن تقرع أبواب المنازل، ولكن لم يفتح لها أحد. وظلت مع ذلك تقرع إلى أن فُتح لها أخيراً أحد الأبواب: إنه مسكن رجلٍ من تجار مدينتنا اسمه تيتوف. قلبت ماريا أجناتفنا البيت كله رأساً على عقب: كانت تعول إعوالاً شديداً وتكرر أن "زوجها قد قُتل". وكانت أسرة تيتوف تعرف شاتوف، وكانت على شيء من العلم بقصته. والشيء الذي روّعهم خاصة هو أن هذه المرأة التي ولدت منذ قليل كما تقول كانت تركض في الشوارع وهي لا يكاد يكسوها شيء، وذلك في هذا الجو البارد، مع طفل عارٍ تقريباً تحمله في يديها. ظنوا في أول الأمر أنها تهذي، لا سيما وأنهم لم يستطيعوا أن يفهموا من الذي قُتل: أهو كيريلوف أم هو زوجها؟ وإذا لاحظت أنهم لا يصدّقونها أرادت أن تهرب،

ولكنهم احتجزوها بالقوة، رغم أنها أخذت تصرخ وتتخبط كمجنونة كما قيل. وذهبوا إلى عمارة فيليبوف، فما مضت ساعتان إلّا وكانت المدينة كلها على علم بانتحار كيريلوف وبرسالته. واستجوبت الشرطة ماريا أجناتيفنا التي لم تكن قد فقدت وعيها بعد، وعندئذ اكتشفوا أنها لم تكن قد قرأت الرسالة، وأنها لا تستطيع أن تذكر كيف استنتجت موت زوجها من موت كيريلوف. كانت لا تزيد على أن تصرخ قائلة إن زوجها قد قُتل ما دام كيريلوف قد قُتل، "لأنهما كانا معاً". وفي نحو الظهر فقدت وعيها، وماتت غداة غدٍ دون أن تفيق من إغمائها. أما الطفل الذي كان قد أصابه برد فإنه سبقها إلى القبر.

حين لم تجد آرينا بروخوروفنا الأمّ ماريا أجناتفنا ولا طفلها، أحست بمجيء الكارثة وقررت أن ترجع إلى البيت. ومع ذلك توقفت تحت البوابة وأرسلت العجوز "تسأل السيد الذي يسكن الجناح المستقل في صحن الدار هل ماريا أجناتفنا عنده، أو هل يعرف على الأقل أين هي". فعادت العجوز وهي تطلق صيحات من شأنها أن تهيِّج الشارع كله. فأسرعت آرينا بروخوروفنا تسكتها بالحجة المعروفة جداً: "اسكتي وإلا كان لك مع القضاء متاعب"، ورجعت إلى دارها بأقصى سرعة.

وإذ علمت الشرطة أن آرينا بروخوروفنا قد أشرفت على ولادة امرأة شاتوف، فقد جاءت تستجوبها في ذلك الصباح نفسه، ولكنها لم تستطع أن تحصل منها على شيء ذي بال. لقد رددت بأكبر الهدوء كل ما رأته وما سمعته عند شاتوف، ولكنها صرّحت بأنها لا تعرف شيئاً عن موت شاتوف وعن الأحداث الأخيرة.

تستطيعون أن تتصوروا الانفعال الشديد الذي أحدثه هذا كله في المدينة. "هذه قصة جديدة! هذا اغتيال آخر". ولكن الوضع أخذ يظهر الآن في ضوء جديد: إن وجود جمعية سرية تضم قتلةً ومشعلي حرائق وثوريين أصبح الآن أمراً لا يشك فيه أحد. إن موت ليزا الفظيع، ومقتل زوجة ستافروجين، واختفاء ستافروجين، والحريق، وحفلة الرقص التي أقيمت لمساعدة المعلّمات، والاستهتار الذي يسود بيئة جوليا ميخائيلوفنا، وحتى

هرب بطرس ستيفانوفتش فجأة... ذلك كله أصبح له شكل مؤامرة واسعة. وأخذت أنواع من الشائعات تجري عن ستافروجين. ولكن الغريب أن الناس لم يتكلموا إلّا قليلاً عن بطرس ستيفانوفتش الذي علموا أنه سافر في ذلك المساء نفسه. ولكنهم تكلّموا كثيراً عن "عضو مجلس الشيوخ".

رابط جمهور كبير أمام عمارة فيليبوف طوال الصباح. وفي البداية صدّقت الشرطة الأكذوبة التي تضمنتها رسالة كيريلوف، فاعتقدت بأن كيريلوف هو الذي قتل شاتوف ثم انتحر "القاتل". ولكن السلطات إذا كانت قد انخدعت فإن انخداعها لم يكن كاملاً. من ذلك أن الحديقة التي تشير إليها رسالة كيريلوف تلك الإشارة الغامضة، لم تضلل أحداً، على خلاف ما تنبأ به بطرس ستيفانوفتش. لقد أسرعت الشرطة إلى سكفورشنيكي فوراً، لا لأنه ليس لدينا حديقة أخرى فحسب، بل أيضاً لأن نوعاً من الغريزة قاد خطى البحث: إن جميع الأحداث الرهيبة في تلك الأيام الأخيرة إنما تتصل كثيراً أو قليلاً بسكفورشنيكي وسكانها (يحسن أن أشير عابراً إلى أن فرفارا بتروفنا التي لم تكن تعرف شيئاً كانت قد غادرت المدينة في ذلك الصباح نفسه بحثاً عن ستيفان تروفيموفتش). واكتُشفت جثة شاتوف في نحو المساء. وعلى مقربة من مكان ارتكاب الجريمة عُثر أيضاً على قبعته التي قد نسيها القتلة خفةً وطيشاً. وظهر من فحص الجثة فحصاً طبياً ومن بعض العلاقات الأخرى أن كيريلوف كان له شركاء.

وأصبح من المسلّم به إذًا أن هناك جمعية سرية تضم شاتوف وكيريلوف ولها علاقة بالمنشورات. ولكن من هم شركاؤهما؟ لم يكن "أصحابنا" يخطرون ببال أحد حتى ذلك الحين. وقد عُلم أن كيريلوف كان يعيش حياة منزوية، وأن فدكا، كما تذكر الرسالة، قد استطاع أن يقيم عنده مدة طويلة بينما كان يُبحث عنه في كل مكان!... والشيء الذي أدخل الاضطراب في العقول أكثر من كل ما عداه هو أنه كان يستحيل على المرء أن يحل هذه الألغاز ويستخرج بعض النتائج. ولولا أن كل الأمور اتضحت فجأة في الغداة بفضل ليامشين، لكان يصعب علينا أن نتخيل الافتراضات العجيبة والآراء الغريبة

التي كان يمكن الوصول إليها آخر الأمر.

لم يستطع ليامشين أن يطيق صبراً. لقد حدث له ما أوجسه بطرس ستيفانوفتش نفسه في النهاية. قضى نهاره كله في السرير بحراسة تولكاتشنكو أولاً ثم بحراسة إركل. وكان هادئ المظهر، ملتفتاً نحو الحائط، يلتزم الصمت ولا يكاد يجيب حين يوجّه إليه الكلام. لم يعلم إذًا بشيء مما كان يجري في المدينة غير أن تولكاتشنكو الذي كان على علم بكل شيء قرر في نحو المساء أن يترك المهمة التي أناطها به بطرس ستيفانوفتش، وأن يرحل إلى المقاطعة، أي أن يهرب: لكأنهم قد فقدوا صوابهم جميعاً. واضح أن إركل لم يخطئ. لقد هرب ليبوتين هو أيضاً في ذلك اليوم نفسه منذ الصباح. غير أن السلطات لم تعلم برحيله إلّا في الغد، وحين جاءت الشرطة إلى مسكنه وجدت الأسرة كلها قلقة لاختفائه أشد القلق، غير أنها تكتم أمر هذا الاختفاء مع ذلك.

أعود إلى ليامشين. إنه منذ أصبح وحيداً (إذ كان إركل قد اتكل على تولكاتشنكو وعاد إلى بيته)،أسرع يخرج، فما هي إلّا برهة قصيرة حتى كان على علم بتفاصيل الموقف طبعاً. فقرر أن يهرب بغير إبطاء، أن يمضي قدماً لا يلوي على شيء. ولكن الظلام كان حالكاً، فبدت له مغامرته محفوفة بمخاطر شديدة، فبعد أن قطع شارعين أو ثلاثة، رجع إلى البيت، وأقفل على نفسه الباب بالمفتاح. يقال إنه حاول في الصباح أن ينتحر، ولكنه لم يفلح في ذلك. فمكث في غرفته حتى الظهر. وعندئذ اتخذ قراره فجأة، فأسرع يركض إلى قسم الشرطة. يظهر أنه هناك جثا على ركبتيه، وأخذ يزحف باكياً ناشجاً،وأنه قبّل الأرض وهو يصيح بأنه لا يستحق أن يقبّل حتى أحذية الشخصيات السامية التي أمامه. وكانوا لطافاً في معاملته إلى أبعد حد. ودام استجوابه قرابة أربع ساعات. حكى كل شيء، كل شيء تماماً، حتى أدق التفاصيل. بل لقد كان يستبق الأسئلة من شدة استعجاله الاعتراف الكامل، فيروي أشياء لا داعي إليها وليس يُسأل عنها. وقد اتضح أنه يعرف أموراً كثيرة. لذلك استطاع أن يكشف عن خفايا القضية: إن مأساة شاتوف وكيريلوف، والحريق،

ومـوت لبيادكين وأخته، كل ذلك كان في المرتبة الثانية من خطورة الشـأن في حديثه، أما المرتبة الأولى فقد كانت لبطرس سـتيفانوفتش، والجمعية السرية، والتنظيم، والشبكة. وحين أُلقي عليه هذا السؤال: لماذا جرائم القتل هذه كلها، لماذا تلـك الفضائح كلها، لماذا هذه الدناءات كلها؟ أجاب فوراً بقوله: "ذلك لزعزعـة قواعـد الدولـة، لتعجيل تفسـخ المجتمـع، لبثّ اليأس فـي النفوس، لإدخال البلبلة والفوضى إلى العقول. وبعد ذلك يتم الاستيلاء على المجتمع الذي عمتـه الفوضى، المجتمع المريـض، الحائر، المستهتر، الريّاب، ولكن علـى أسـاس التطلع إلى فكـرة موجهة، فبذلـك تُرفع راية الثـورة اعتماداً على شـبكة الحلقات الخماسـية التي تكون قد عملت من جهتها على بث الدعاية، ودراسـة النقـاط الضعيفة في الخصم، والوسـائل العمليـة لمحاربته". وصرّح ليامشـين فـي النهاية أن ما شـوهد في مدينتنـا ليس إلّا محاولـة أولى لتخريب منظّم، وهو بمثابة برنامج يجب أن تتبعه الحلقات الأخرى التي أنشأها بطرس سـتيفانوفتش. ذلك كان رأي ليامشـين على كل حال. وقـد ألحّ على "ضرورة النظـر بعين الاعتبـار إلى أقواله وإلـى الصراحة والوضوح فـي عرضه للقضية كلهـا، ممـا يدل دلالـة واضحة علـى أنه يسـتطيع أن يقدم للسـلطات خدمات كبيـرة". حتـى إذا أُلقـي عليه هذاالسـؤال المباشـر: "هل في روسـيا عدد كبير من هذه الحلقات الخماسـية؟" أجاب بأن هذه الحلقـات لا نهاية لعددها وإن شـبكتها تغطي روسـيا كلها. ولم يأت بـأي برهان يؤيد هذه الأقـوال، ولكنني أظن أنه كان صادقاً حين قال ذلك الكلام. وقد اكتفى بتقديم برنامج الجمعية، المطبـوع في الخارج، وبمشـروع يعرض توسـيع نطاق العمـل، مكتوب بخط بطـرس سـتيفانوفتش. فظهـر حينـذاك أن ليامشـين، حيـن تكلم عـن "زعزعة القواعد"، إنما كان يسـتعير نصاً من نصوص هذه الورقة، لا يُسـقط منه نقطة أو فاصلة. ولكن ذلك لـم يمنعه من أن ينسب تلك الفكرة إلى نفسه. وقد تكلم عن جوليا ميخائيلوفنا فأسـرع يعلن بطريقة هزلية جداً ومن غير أن يُسأل عن ذلك، أسـرع يعلـن أنهـا "بريئة وأنها قـد غُرّر بها". يجـب أن نذكر أنه أنكـر أن يكون لسـتافروجين أية مشـاركة في الجمعية السـرية، وأكّد أنه لم يكن ثمة أي تفاهم

بيـن نيقولاي فسـيفولودوفتش وبين بطرس سـتيفانوفتش (لم يكن ليامشـين، بطبيعة الحال، يعرف شـيئاً عن الآمال السـخيفة التي كان بطرس سـتيفانوفتش يعقدها على ستافروجين). وقال إن مقتل ليبادكين وأخته كان من عمل بطرس سـتيفانوفتش الذي تصرف منفرداً من دون أن يكون لستافروجين أي دخل في الأمـر، وذلك بغيـة أن يجعل سـتافروجين معرّضـاً للخطر خاضعاً لسـيطرته. ولكن بطرس سـتيفانوفتش لم يُثر في قلب سـتافروجين "النبيل" إلّا الاسـتياء الشـديد والألم الممض، بدلاً من أن يثير فيه شـعور الشـكر والامتنان كما كان يتوقـع. وأضـاف ليامشـين في ختـام إفادتـه عن سـتافروجين، أضاف مسـتبقاً الأسـئلة مرة أخرى، أن نيقولاي فسـيفولودوفتش شـخص رفيع الطراز حتماً، غير أن ههنا سراً مجهولاً، فهو قد عاش بيننا كالمتنكر تقريباً لأنه مكلف بمهمة كبيرة، ومن الجائز جداً أن يرجع من بطرسـبرج بعد قليل (كان ليامشـين مقتنعاً بأن سـتافروجين في بطرسـبرج)، ولكن رجعته ستتم في ظروف مختلفة تماماً هذه المرة، وسيكون محاطاً بأناس قد نسمع الناس يتكلمون عنهم في القريب. وقال ليامشين إنه عرف هذه الأمور من فم بطرس ستيفانوفتش، "العدو الخفي لنيقولاي ستافروجين".

ملاحظة: بعد شـهرين، اعترف ليامشين بأنه حاول تبرئة ستافروجين لأنه كان يأمـل أن يحميه. لقـد كان يأمل أن عقوبته سـتخفّف بفضل هذه الحماية تخفيفاً كبيراً، وكان يتخيل أيضاً أن سـتافروجين سيرسـل إليه مالاً وسـيبعث إليه رسـائل توصي به السـلطات السـيبيرية خيراً. إن هذا الاعتراف يدل على أن ليامشين كان يرى في نيقولاي فسيفولودوفيتش رأياً فيه كثير من المبالغة.

في ذلك اليوم نفسه قُبض على فرجنسكي طبعاً، بل قُبض على أسرته كلها من باب إظهار الحماسـة للقيام بالواجب (ولقد أفـرج عن آرينا بروخوروفنا وأختها وخالتها والطالبة، منذ مدة طويلة، ويقول بعضهم مؤكداً أن شيجالوف سـيفرج عنه في القريـب أيضاً، لأنه لا يدخل في أية فئة مـن فئات المتهمين. ومـا هـذا على كل حال إلّا أقاويـل تُقال). وقد اعترف فرجنسـكي اعترافات كاملـة علـى الفور. لقـد كان راقداً على سـريره يعاني من حمى شـديدة حين

جاؤوا يعتقلونه، ويقال إنه حين رأى الشرطة قد سُرّ تقريباً. ويروى أنه كان في إفادتـه صريحاً، مع احتفاظه ببعض الوقـار والرصانة، وإنه لم يتنازل عن أمل واحد من "الآمال المضيئة" مع تنديده بالأسـاليب السياسية (لا الاجتماعية) التـي انقـاد لها في خفة وطيـش، "مدفوعاً بإعصار الظـروف". وقد نُظر بعين الاعتبار إلى موقفه في الحديقة عند مقتل شـاتوف، ويبدو أنه يأمل أن يشـفع له هذا الموقف فيُخفّف الحكم عليه، أو ذلك ما يؤكده الناس في مدينتنا على الأقل.

ولا كذلـك إركل. فليـس مـن المتوقـع أن يُتسـامح معـه. لقد لـزم إركل الصمـت منـذ القبض عليه، أو كان يشـوّه الحقيقـة، ولم يمكـن أن يُنتزع منه قـول واحد يعبّر عن الندامة. ومع ذلك اسـتطاع أن يوقـظ في نفوس القضاة، حتى القسـاة منهم، شـيئاً من العطف عليه، وذلك لشبابه وسذاجته، ولأن من الواضـح أنه كان ضحية متآمر سياسـي أشـعل في نفسـه نـار التعصب، ولأنه خاصة كان فتى برّاً بأمه إذ كان يرسـل لهـا نصف إيراده الضئيل تقريباً. إن أمه هي الآن هنا: إنها امرأة ضعيفة مريضة هرمت قبل الأوان. وهي تبكي وتتمرغ بأقـدام القضاة متوسـلة إليهم أن يرأفـوا بابنها. ولا يدري أحد كيف سـينتهي الأمر. غير أن عدداً كبيراً من الناس في مدينتنا يرثون لحال إركل صادقين.

أمـا ليبوتيـن فقـد قبض عليه ببطرسـبرج بعد أن مكث فيها خمسـة عشـر يومـاً. إن ما وقـع له يكاد يبدو غير معقول. لقد كان يملك جواز سـفر باسـم مزوّر، وكان يملك مبلغاً ضخماً من المال، فكان في وسـعه إذًا أن يهرب إلى الخارج. ومع ذلك لم يتحرك من بطرسـبرج. حاول في البداية أن يهتدي إلى سـتافروجين وبطرس سـتيفانوفتش، ثم أقبل فجأة على الشـراب واسترسـل فـي دعـارة مسـعورة. حتى لكأنه فقد سـلامة عقلـه وأصبح لا يـدرك وضعه أي إدراك. لقـد قبـض عليـه فـي أحد المواخير سـكراناً كل السّـكر. ويشـيع بيـن النـاس الآن أنه اسـترد شـجاعته، وأنه ما بـرح يكذب، وأنـه يعقد بعض الآمـال علـى دعواه التي يتهيـأ لها بعناية شـديدة، لأنه ينتـوي أن يلقي خطاباً طويـلاً. وأما تولكاتشـنكو فقد قُبض عليـه بعد هربه إلى الريف بعشـرة أيام،

وهو يسلك سلوكاً أليق كثيراً، فلا يكذب ولا يراوغ، ويقول ما يعرفه، ولا يحاول أن يبرئ نفسه بل هو يعترف بأخطائه، ولكنه يبدو ميّالاً إلى الفصاحة والبلاغة، فهو يتكلم كثيراً، ويحلو له أن يتكلم كثيراً، حتى إذا دار الحديث على الشعب وعناصره الثورية اصطنع وضعاً وقوراً وحاول أن يكون له في نظر سامعيه مهابة. ويقال إنه هو أيضاً ينتوي أن يلقي خطاباً أمام المحكمة. يمكننا أن نقول، بوجه عام، إنه وليبوتين لا يبدوان خائفين مما ينتظرهما، سسسسسسسسئوذلك شيء يثير الاستغراب.

أكرر أن القضية لم يُفصل فيها بعد. والآن، بعد انقضاء ثلاثة أشهر على هذه الأحداث كلها، قد أفاق مجتمعنا من ذهوله واسترد اتزانه، فهو يحكم على الأمور حكماً أكثر استقلالاً، حتى إن هناك اليوم أناساً يرون أن بطرس ستيفانوفتش إن لم يكن عبقرياً فهو على الأقل رجل أوتي "قدرات عبقرية". "هذا تنظيم!"، كذلك كان يقول بعضهم في نادينا رافعاً إصبعه. ومهما يكن من أمر فقد كان هذا الكلام بريئاً. وكان بعض آخر يذهبون غير هذا المذهب. فهؤلاء على أنهم لا ينكرون ذكاء الرجل يلحون على جهله بالواقع، وميله المفرط إلى التجريد، ونمو بعض ملكاته على حساب بعضها الآخر نمواً شاذاً، وطيشه الخارق. أما صفاته الأخلاقية فكان عليها إجماع، فلا جحود ههنا قط.

لا أدري حقاً عمن يجب أن أتكلم أيضاً...

لقد رحل مافريكي نيقولايفتش لا يدري أحد إلى أين. وخرفت العجوز دروزدوف مرتدة إلى الطفولة. على أن هناك حكاية مظلمة يجب عليَّ أن أقصَّها. وسأكتفي برواية الوقائع.

حين عادت فرفارا بتروفنا من أوستيفو فإنها لم تنزل بسكفورشنيكي بل مضت إلى المدينة، وهناك علمت فوراً بكل ما جرى أثناء غيابها. فاضطربت اضطراباً شديداً عميقاً، وحبست نفسها في بيتها. كان ذلك في المساء، وكان الجميع متعبين مكدودين، فرقدوا مبكّرين.

وفي صباح الغد مدّت إحدى الخادمات إلى داريا بافلوفنا في السر

رسـالة قالـت إنها وصلت في مسـاء أمس، ولكنها وصلـت متأخرة بينما كان الجميع نائمين. أما فكيف وصلت الرسالة فإن رجلاً مجهولاً أعطاها ألكسي إيجورتـش بقريـة سكفورشـنيكي فسـرعان مـا حملهـا الخادم العجـوز إلى الخادمة وقفل راجعاً إلى سكفورشنيكي.

تأملـت داريـا بافلوفنـا ظـرف الرسـالة مـدة طويلـة، خافقـة القلـب، من دون أن تجـرؤ علـى فضّهـا. لقد كانت تعلم أن الرسـالة مرسـلة من نيقولاي فسـيفولودوفتش. وكان مكتوباً علـى ظرفها: "إلى ألكسـي إيجورتش لنقلها إلى داريا بافلوفنا".

وإليكـم نـص الرسـالة كلمة كلمـة. إنني لم أصحّح أسـلوب هذا السـيد الروسي الذي لم يكن قوياً في النحو رغم ثقافته الأوروبية:

العزيزة داريا بافلوفنا،

"قلـت لـي مرةً إنـك تريدين أن تكونـي ممرّضتي، وجعلتنـي أعدك بأن أسـتدعيك متى احتجـت إليك. إنني مسـافر بعد يومين سـفراً لا عودة بعده. فهل تريدين أن تسافري معي؟

فـي السـنة الماضية أصبحـت، مثل هرتسـن، مواطناً في كانتـون "أوري" بسويسـرا. ولا أحد يعرف هذا. لقد اشتريت منزلاً صغيراً في ذلك الكانتون. وسنقيم هناك إلى الأبد. أصبحت لا أريد أبداً أن أذهب إلى أي مكان.

الموضـع الـذي يقع فيه المنزل حزيـن جداً. إنه مضيق فـي جبل. الجبال هنـاك تطغـى على البصر والفكر. منظر يشـيع في النفس غمـاً وحداداً. وإنما اخترت ذلك المكان إذ كان فيه منزل يباع. وإذا لم يعجبك البيت فسوف أبيعه وأشتري بيتاً آخر في مكان آخر.

ليسـت صحتـي حسـنة، لكننـي آمـل أن يخلصني هـواء تلك البـلاد من هواجسـي. هذا شيء جسميّ. أما عن حالتي النفسية فإنك تعرفين كل شيء. ولكن هل هذا كل شيء حقاً؟

لقد رويت لك أشـياء كثيرة عني. ولكنني لم أروِ كل شيء حتى لك أنت. بالمناسـبة، أؤكـد لك أنني أحـس في قرارة ضميري بأنني مسـؤول عن مقتل

زوجتي. إنني لم أرك بعد موتها، لذلك أؤكد لك هذا الآن. وأنا أيضاً آثم في حق ليزافتا نيقولايفنا. ولكنك عن هذا تعرفين كل شيء. إنك قد تنبأت بكل شيء تقريباً.

الأفضل أن لا تجيئي. إنها لدناءة مني أن أستدعيك. علام تقبرين نفسك معي؟ إنك تعجبينني، ولقد كنت أشعر بارتياح إلى جانبك حين ينتابني قلق وغم. أمامك وحدك إنما كنت أستطيع أن أتكلم عن نفسي بصوت عالٍ. ولكن هذا لا يعني شيئاً. لقد قلت أنك نفسك ستكونين لي "ممرضة". هذا تعبيرك ذاته. لماذا هذه التضحية الكبرى؟ لاحظي أيضاً أنني لا أشفق عليك ما دمت أستدعيك، وإنني لا أحترمك ما دمت أنتظرك. ومع ذلك أستدعيك وأنتظرك. على كل حال، أنا في حاجة إلى جوابك، لأن علي أن أسافر بأقصى سرعة. وسوف أسافر وحدي إذا اقتضى الأمر.

إنني لا آمل شيئاً من "أوري"، ولكنني أسافر، أسافر وكفى! ولم يقع اختياري على ذلك المكان الحزين عن عمد. ليس هناك ما يربطني بروسيا: كل شيء غريب عني هنا، كأي مكان آخر على كل حال. صحيح أنني أحب أن أعيش في روسيا، وكنت لا أحب كثيراً أن أعيش في غيرها أيضاً. ولكنني حتى في روسيا كنت عاجزاً عن كره أي شيء.

لقد جربت قوتي في كل مكان ونصحتني أنت بذلك حتى "أعرف نفسي معرفة أصدق". وأثناء تلك التجارب، بدت قوتي هذه غير ذات حدود، أمام نفسي وأمام الآخرين. على مرأى منك تحملت صفعة أخيك. وأعلنت زواجي على رؤوس الأشهاد. ولكن في أي شيء يجب أن أستعمل هذه القوة؟ ذلك ما لم أستطع أن أعرفه في يوم من الأيام، وما لا أعرفه حتى هذا اليوم. لا أعرفه رغم ما أزجيت إليّ من تشجيعات صدّقتها. أنا الآن، كما كنت دائماً، أستطيع أن أرغب في القيام بعمل حسن، وأجد في ذلك لذة. وإلى جانب هذا أشتهي أن أرتكب عملاً سيئاً وأذوق من ذلك هذه اللذة نفسها. ولكن الشعورين كليهما ضعيفان، ولم يكونا قويين في يوم من الأيام. إن رغباتي ضعيفة مسرفة في الضعف دائماً: إنها لا تستطيع أن توجهني. في

وسع المرء أن يعبر نهراً على لوح ولكنه لا يستطيع أن يعبره على قشرة. أقول لك هذا حتى لا تتخيلي أنني أعقد آمالاً على أوري.

لست أتهم أحداً، كما لم أتهم أحداً في الماضي. لقد جربت الدعارة، واستهلكت قواي. ولكنني لا أحب الدعارة ولم أكن أريدها. كنت تراقبينني في الآونة الأخيرة. هل تعلمين أنني كنت أنظر إلى أصحابنا الجاحدين نظرة كره وبغض، ولكنني كنت أحسدهم على ما كانوا يعقدونه من آمال؟ غير أنك قد أخطأت إذ ساورك قلق عليّ: إنني لا أستطيع أن أكون واحداً منهم، لأنني لا أشاطرهم آمالهم. وكان ذلك يستحيل عليّ من باب السخرية وحب الشر أيضاً، لا لأنني أخشى أن أكون محل هزء ـ فإنني لا أخشى أن أكون محل هزء ـ بل لأنني قد احتفظت رغم كل شيء بعادات إنسان لبق، ولأن ذلك كان يثير الاشمئزاز في نفسي. ولكن لو قد كان كرهي وحسدي أقوى مما كانا، إذًا لأمكن أن أنضم إليهم.

أيتها الصديقة العزيزة، الحنون، الكريمة، التي اكتشفتها! لعلك تأملين بما أعطيتنيه من حب كامل، وما غمرتني به من كنوز نفسك الجميلة، إنك ستستطيعين أن تخلقي لحياتي هدفاً في النهاية! ولكن لا، كوني عاقلة حكيمة: إن حبي سيكون مسكيناً مثلي، وستكونين أنت شقية تعيسة. قال لي أخوك يوماً: من يفقد كل رابطة بالأرض، يفقد على الفور آلهته، أي أهدافه. في وسع المرء أن يناقش كل شيء إلى غير نهاية، ولكنني عاجز إلّا عن الإنكار خالياً من أية عظمة نفسية، خالياً من أية قوة. الجحود نفسه مسكين ضعيف عندي. كل شيء كابٍ رخو. إن كيريلوف الكريم لم يستطع أن يتحمل فكرته فانتحر. ولكنني أدرك حق الإدراك أنه كان كريماً لأنه كان لا يملك عقلاً كاملاً. لن أستطيع أن أفقد عقلي يوماً، ولن أستطيع أن أؤمن بفكرة يوماً، مثله. حتى إنني لن أستطيع أن أهتم بفكرة. فلن أنتحر أبداً، أبداً!

أنا أعلم أنه يجب عليّ أن أنتحر، أن أغيب عن وجه الأرض كحشرة مقززة. ولكنني أخاف الانتحار، لأنني أخاف أن أظهر شيئاً من عظمة النفس. إنني أعلم أن هذا لن يكون إلّا كذبة جديدة، هي آخر كذبة في سلسلة طويلة

من الأكاذيب. أي فائدة أجنيها من الكذب لا لشيء إلّا أن أتظاهر بعظمة النفس؟ لن أعرف الاستياء والخجل في يوم من الأيام، ولن أعرف اليأس إذًا.

اغفري لي هذه الإطالة في الكتابة إليك. لقد فعلت ذلك من دون أن أريده. وها أنا ذا أمسك. فلو واصلت الكتابة على هذا النحو فلن أستطيع أن أقول كل شيء في مائة صفحة، مع أنه تكفيني على وجه الإجمال عشرة أسطر. إن أسطراً عشرة كافية لاستدعاء "ممرضة".

أقيم منذ سفري عند مدير محطة تبعد عن المدينة ست محطات. لقد قصفنا معاً منذ خمس سنين ببطرسبرج. لا أحد يعلم أنني هنا. اكتبي إليّ على اسمه. أرفق إليك العنوان.

"نيقولاي ستافروجين"

مضت داريا إلى فرفارا بتروفنا تطلعها على الرسالة. فلما قرأت فرفارا بتروفنا الرسالة طلبت إلى داشا أن تخرج لحظة: كانت تريد أن تعيد قراءتها وحيدة. ولكنها سرعان ما نادت الفتاة. وسألتها بما يشبه الخجل:

ـ أتسافرين؟

ـ نعم.

ـ استعدي. سنسافر معاً.

ثم قالت فرفارا بتروفنا مجيبة عن نظرة استفهام من داشا:

ـ ما عساي فاعلة هنا؟ استوت عندي الأمور. أنا أيضاً سأصبح مواطنة في أوري، وسأقيم في الجبال... لا تخشي شيئاً. لن أزعجكما.

كان ينبغي ركوب قطار الظهر، فإذا بألكسي إيجورتش يظهر فجأة، فيروي أن نيقولاي فسيفولودوفتش قد وصل إلى سكفورشنيكي في قطار الصباح، وإن هيئته كانت غريبة، وأنه كان لا يجيب عن الأسئلة التي تلقى عليه، وأنه حبس نفسه في شقته لا يبارحها.

وأضاف ألكسي إيجورتش يقول بلهجة ذات دلالة:

ـ لقد قررت أن أجيء إلى هنا بدون أوامر، وأن أطلعك على الواقع...

ألقت عليه فرفارا بتروفنا نظرة نافذة، ولكنها لم تلق عليه أي سؤال. وسرعان ما أعدّت العربة، وسافرت فرفارا بتروفنا إلى سكفورشنيكي مع داشا.

كانت أبواب شقة نيقولاي فسيفولودوفتش مفتوحة، ولكن لم يمكن العثور عليه هو.

قال أحد الخدم في حذر:

ـ أتراه يكون في الطابق العلوي؟

فصعد الجميع إلى الطابق العلوي فوجدوا الغرف الثلاث خالية.

قال أحدهم وهو يشير إلى باب الطابق الذي يقع تحت السقف:

ـ أتراه صعد إلى أعلى؟

إن هذا الباب الذي يكون في العادة مغلقاً كان الآن مفتوحاً على سعته كلها فعلاً. ولم يكن يمكن الوصول إليه إلّا بصعود سلم خشبي طويل ضيق قائم. وكان في الأعلى حجرة تشبه أن تكون زنزانة.

دمدمت فرفارا بتروفنا تقول وقد اصفرّ وجهها اصفراراً شديداً:

ـ لن أصعد إلى فوق. ما عساه يفعل هناك؟

ونظرت إلى الخدم الذين كانوا يتأملونها صامتين. وكانت داشا ترتعد.

وعزمت فرفارا بتروفنا أمرها أخيراً فصعدت السلّم بسرعة. ولكنها ما إن دخلت الغرفة حتى أطلقت صرخة كبيرة وسقطت مغشياً عليها.

كان مواطن "أوري" مشنوقاً وراء الباب. وكان على المائدة ورقة كُتب عليها بالقلم الرصاص: "لا يُتّهمن أحد. أنا الفاعل!". وكان إلى جانب الورقة مطرقة وقطعة صابون ومسمار كبير لا شك أنه حُضّر استعداداً لكل طارئ. لا شك في أن الحبل الحريري المتين الذي استعمله نيقولاي فسيفولودوفتش قد اختير سلفاً، وأُحسن طليه بالصابون. إن كل شيء يدل على العمد وسبق الإصرار. ويدل على أن ستافروجين قد ظل إلى آخر دقيقة يعي أفعاله وعياً كاملاً.

وقد نفى الأطباء الذين شرّحوا الجثة، نفوا نفياً قاطعاً افتراض خلل عقلي.

اعتراف ستافروجين

الفصل التاسع

عند تيخون

1

لـم ينم نيقولاي فسـيفولودوفتش في تلك الليلة. ظل جالسـاً على ديوانه إلى أن طلع الصباح، محدقاً في بعض الأحيان إلى ركن وراء المنضدة. وظل مصباحه مضيئاً طوال الليل. وفي السـاعة السابعة من الصباح نام وهو لايزال جالسـاً، فلما دخل عليه ألكسـي إيجورتش في التاسعة والنصف تماماً، على عادتـه من زمـان طويل، حاملاً إليه قهـوة الصباح، وأيقظه مـن نومه، ظهرت عليه دهشـة يخالطها انزعاج من أنه أمكن أن ينام في تلك السـاعة المتأخرة. وشرب قهوته بسرعة، ولبس ثيابه، وخرج بخطى حثيثة. فلما سأل إيجورتش محـاذراً: "ما هي أوامرك؟"، لم يجب بكلمة واحدة. اجتاز الشـوارع خافضاً عينيه، مسـتغرقاً اسـتغراقاً عميقاً. وكان في بعض اللحظـات فقط يرفع بصره ويبدو عليه أنه فريسـة اضطـراب يصعب تحديده لكنه اضطراب شـاق أليم. وعند مفترق طرق، غير بعيد من المنزل، كانت جماعة مؤلفة من نحو خمسين شـخصاً تجتاز طريقها. إنهم يتقدمون، صامتين تقريباً، مصطفين اصطفافاً فيه شيء من نظام. وعلى مقربة من دكان انتظر عندها لحظة، قال له أحد الناس: "هؤلاء عمال مصنع شـبيجولين" فلم يكد ينتبـه إلى كلامه. وأخيراً، في نحو السـاعة العاشـرة والنصف، وصل إلى الباب الكبير من ديرنا، دير العذراء في

"سباسو ـ أفيمي"، الذي يقع عند مخرج المدينة بقرب النهر. وعندئذ توقف فجأة كأنه تذكر شيئاً ما، وتلمّس جيبه الجانبي بسرعة وقلق، ثم ابتسم. حتى إذا دخل فناء الدير سأل أول راهب لقيه من الرهبان المبتدئين أن يدخله على الأسقف تيخون المعتكف في هذا الدير. فقاده الراهب المبتدئ وهو يزجي إليه التحية تلو التحية. حتى إذا وصلا إلى النهاية من مبنى طويل ذي طابقين، استولى عليه راهب ضخم أشيب الشعر، وقاده خلال ممر طويل، من دون أن ينقطع عن تحيته (ولما كان ضخماً ضخامة شديدة وكان لا يستطيع أن ينحني انحناء شديداً فقد كان يهزّ رأسه بحركة قصيرة منتظمة). ورغم أن ستافروجين كان يتقدم في سيره لا ينتظر أن يرجوه أحد أن يتقدم، فقد كان الراهب لا يني يدعوه أن يتبعه. وكان لا يني يلقي عليه أسئلة شتى، ويتكلم عن الأب الأرشمندريت. فلما لم يحصل على أي جواب، أصبح وضعه يزداد احتراماً لحظة بعد لحظة. ولاحظ ستافروجين أنه معروف في الدير، رغم أنه في ما يذكر لم يكن قد ذهب إليه منذ طفولته. وحين وصل الرجلان إلى الباب في آخر الممر، فتحه الراهب بيد قوية، وسأله الخادم بغير كلفة، منذ هرع هذا إليهما، هل يمكن الدخول، ثم لم ينتظر جواب الخادم بل فتح الباب واسعاً، وأدخل "الضيف العزيز". فشكر له ستافروجين جميله، فأسرع يغيب فوراً كأنما هو يفر فراراً.

دخل نيقولاي فسيفولودوفتش غرفة ضيقة. فإذا برجل طويل القامة نحيل الجسم يظهر في إطار باب الغرفة المجاورة على الفور تقريباً. إنه في نحو الخمسين من عمره، يرتدي جبة خشنة، ويبدو عليه شيء من مرض، له نظرة غريبة، خجلة وجلة، وابتسامة على الشفتين حيرى مترددة. إنه تيخون ذاك الذي سمع عنه نيقولاي فسيفولودوفتش أول مرة من شاتوف، وجمع عنه بعد ذلك معلومات شتى. لقد كانت تلك المعلومات متناقضة، ولكن لها جميعها سمة مشتركة: هي أن الذين يحبون تيخون والذين لا يحبونه (إن هناك أناساً لا يحبونه) كان يسكتون دائماً عن شيء ما، فأما الذين لا يحبونه فإنهم يسكتون من باب الاحتقار، وأما الذين يحبونه بل يحبونه بحرارة فإنهم يسكتون من باب التكتم. لكأنهم يريدون أن يخفوا ضعفاً ما، كأنهم يريدون

أن يخبئوا هوساً بريئاً. وقد علم نيقولاي فسيفولودوفتش أن الرجل يقيم في الدير منذ ست سنين، وأن الناس كثيراً مايفدون لزيارته (إنهم أناس من الشعب، ولكن بين زائريه كذلك أشخاصاً من أعلى طبقة)، وأن له معجبين متحمسين، حتى في بطرسبرج، وأن له معجبات خاصة.

ولكن نيقولاي فسيفولودوفتش سمع رجلاً مسناً خطير الشأن من أعضاء نادينا، وهو رجل شديد التدين، سمعه يقول: "إن تيخون هذا رجل يكاد يكون مجنوناً، وإنه على كل حال إنسان تافه، وأغلب الظن أنه سكير". يجب أن أقول أن هذا الاتهام الأخير كان باطلاً كل البطلان، وأن تيخون كان لا يشكو إلّا من روماتزم في ساقيه، ومن تشجنات عصبية في بعض الأحيان. وقد علم فسيفولودوفتش أيضاً أن الأسقف المعتكف لم يستطع، إما لضعف في شخصيته وإما لذهول لا يغتفر له ولا يتفق ومنزلته، لم يستطع أن يفرض على المدير ما توجبه له مرتبته من احترام. حتى لقد كان يقال إن الأب الأرشمندريت، وهو رجل متقشف وصارم في كل ما يتعلّق بموجبات الصلاة، وهو عدا ذلك رجل مشهود له بالعلم، كان يحمل للأسقف تيخون نوعاً من عاطفة العداوة ويأخذ عليه (بطريقة غير مباشرة في الواقع) أن حياته رخوة، كما يعيب عليه ما كان يصفه بأنه "هرطقات". وكان الرهبان أيضاً يعاملون الأسقف المريض معاملة خالية من الكلفة إن لم يكن فيها شيء من الازدراء أيضاً.

إن الغرفتين اللتين تتألف منهما شقة تيخون مؤثثتان تأثيثاً غريباً. فعلى مقربة من أثاث قديم ثقيل منجّد بجلد مهترئ، هناك عدد من الأشياء الجميلة: أريكة حافلة بالزخرف مريحة جداً، مكتب كبير محفور خشبه حفراً رائعاً، خزانة للكتب، موائد، أرفف. إنها هدايا. وهذه سجادة ثمينة من سجاد بخارى تجاور حُصُراً من قش. وهناك عدد من لوحات "عصرية"، أسطورية، وأيقونات مرصعة بذهب وفضة منها واحدة تضم بقايا قديسين. ويقال إن المكتبة كانت كبيرة التنوع: فإلى جانب مؤلفات آباء الكنيسة توجد مسرحيات، وربما وجد "ماهو أسوأ من المسرحيات أيضاً".

فبعد المجاملات الأولى التي تبادلها الرجلان بشيء من الانزعاج وفي

غير وضوح (لا ندري لماذا) أدخل تيخون ضيفه إلى حجرة عمله، وأجلسه على الديوان قبالة الطاولة. وجلس هو قريباً منه كل القرب، على مقعد من خشب الخيزران. إن نيقولاي فسيفودولوتش الذي يجيش في داخل نفسه انفعال قوي، كان ذاهل الهيئة، يبدو عليه أنه اتخذ قراراً خارقاً، لا رجوع عنه، ولكن لا يمكن تحقيقه في الوقت نفسه. وأجال بصره في الغرفة، ولكن من دون أن يتلبث على شيء مما يرى. كان يفكر، ولكن لا يدري حتماً في أي شيء كان يفكر. وأيقظه الصمت، وبدا له فجأة أن تيخون قد خفض عينيه مرتبكاً حتى إنه ابتسم ابتسامة غريبة. فسرعان ما أيقظ ذلك في نفس نيقولاي فسيفولودوفتش اشمئزازاً وتمرداً. وأراد أن ينهض وينصرف، لا سيما وأن تيخون كان في رأيه سكراناً كل السكر. غير أن تيخون لم يلبث أن رفع عينيه فجأة ورمقه بنظرة تبلغ من الثبات ومن الامتلاء بالفكر، ومن البعد عن التوقع، ومن الألغاز، في الوقت نفسه، أن نيقولاي فسيفولودوفتش ارتعش تقريباً. لقد بدا له أن تيخون يعرف سلفاً السبب الذي دفعه إلى المجيء، وأنه على علم بالأمر (مع أن أحداً لم يستطع أن يعرف سبب زيارته هذه)، وأنه إذا لم يسبقه إلى الكلام فذلك لأنه يداريه ويخشى إذلاله. قال نيقولاي يسأل الأسقف بصوت متقطع:

ـ هل تعرفني؟ أعرَّفت بنفسي حين دخلت أم لا؟ إنني شديد الذهول...

ـ لم تعرف بنفسك، ولكن سبق أن سعدت برؤيتك مرة، منذ أربع سنوات، في هذا الدير نفسه، مصادفةً...

كان تيخون يتكلّم ببطء شديد، وصوت متساو رقيق عذب، ناطقاً كل كلمة بوضوح وجلاء.

أجابه نيقولاي فسيفولودوفتش يسأله بما يشبه أن يكون فظاظة:

ـ أتقول إنني جئت إلى هنا منذ أربع سنين؟ أنا لم أجئ إلّا حين كنت طفلاً، ولم تكن أنت حينذاك في الدير...

قال تيخون بأناة وروية من غير إلحاح:

ـ لعلك نسيت...

ـ لا، لم أنسَ. من المضحك أن لا أتذكر...

كذلك أجابه ستافروجين بشيء من الغلو، وأضاف:
ـ لعلك سمعت عني، فتكوّن في ذهنك رأي معيّن، فتخيلت الآن أنك رأيتني من قبل.
صمت تيخون. فلاحظ نيقولاي فسيفولودوفتش عندئذ أن وجهه تلم به في بعض الأحيان رعشات، وهذه علامة مرض في الأعصاب متأصل. فقال:
ـ لكنني أرى أن صحتك اليوم ليست حسنة، فلعل الأفضل أن أنصرف.
ونهض.
قال تيخون:
ـ نعم، أمس واليوم انتابتني آلام في الساقين، ولم أنم هذه الليلة إلّا قليلاً...
وتوقف تيخون عن الكلام. وعاد ضيفه يستغرق في تفكيره الغامض فجأة. ودام الصمت مدة طويلة تقارب دقيقتين.
قال ستافروجين على حين بغتة بشيء من القلق والريب:
ـ إنك تلاحظني...
ـ إنني أنظر إليك فأتذكر ملامح وجه أمك. هناك تشابه نفسي روحي كبير، رغم اختلاف المظهر الخارجي.
ـ ليس هناك أي تشابه، ولا سيما من الناحية الروحية... أبداً... ما... من... تشابه... البتة!
كذلك قال نيقولاي فسيفولودوفتش بإلحاح فيه مغالاة، من دون أن يعرف هو نفسه لماذا. وأضاف فجأة:
ـ إنك تقول هذا... من باب الشفقة على حالتي. سخافات!... ولكن ماذا؟ هل تأتي أمي إليك؟
ـ نعم.
ـ لم أكن أعرف ذلك. لم تقل لي هي هذا في يوم من الأيام. هل تأتي كثيراً؟
ـ كل شهر تقريباً، وأكثر من ذلك أحياناً.
ـ لم أعلم بهذا أبداً، أبداً. ولكن لاشك أنك أنت قد علمت منها أنني مجنون، أليس كذلك؟

هذا ما أضافه سائلاً على حين بغتة.

ـ لا. لم تحدثني عنك حديثها عن مجنون تماماً. ولكنني سمعت آخرين يقولون هذا.

ـ لا شك أن ذاكرتك قوية إذا كنت تستطيع أن تتذكر أمثال هذه الترهات. وعن الصفعة، هل سمعت شيئاً؟

ـ بضع كلمات.

ـ أي كل شيء. وقتك واسع جداً على كل حال. وعن المبارزة، هل حدثوك أيضاً؟

ـ عن المبارزة أيضاً.

ـ إنك تعرف أشياء كثيرة هنا. في مثل هذا المكان لاحاجة إلى جرائد. وهل كلّمك شاتوف عني؟ هيه؟

ـ لا. أنا أعرف شاتوف. لكنني ما رأيته منذ مدة طويلة.

ـ همْ!... ما هذه الخريطة التي عندك؟ آ... خريطة الحرب الأخيرة. ولكن ماحاجتك أنت، أنت، إليها؟

ـ كنت أدرسها قارئاً النص. إنه لوصف شائق جداً.

ـ أرني! نعم، كتابة جيدة. ولكن ما أغرب أن يقرأ رجل مثلك هذه الأمور!

وشدّ إليه الكتاب وألقى عليه نظرة. إنه تاريخ مفصل جداً يسرد وقائع الحرب الأخيرة وصفاً ممتازاً، ولكنه لا ينظر إلى الأمور من الناحية العسكرية خاصة، بل هو أقرب إلى أن يكون عاماً وأدبياً. قلب ستافروجين صفحات الكتاب وأعاد تقليبها، ثم رماه نافد الصبر.

وقال مشمئز الهيئة وهو يحدق إلى عيني تيخون وكأنه ينتظر منه جواباً:

ـ إنني لا أدري حقاً لماذا جئت إلى هنا.

فقال له تيخون:

ـ أنت أيضاً يبدو عليك أنك مريض.

ـ فعلاً.

قال ستافروجين ذلك وطفق يروي بغتة، بجمل قصيرة مقطعة، حتى ليصعب فهمها أحياناً، إنه توافيه هواجس غريبة، ولا سيما في الليل، وأنه

يرى في بعض الأحيان أو يحس أن بقربه كائناً شريراً ساخراً "معقولاً" يظهر له في صور شتى وطباع مختلفة، "ولكنه هو هو نفسه دائماً، وأنا يستعرّ حنقي في كل مرة...".

غريبةٌ ومشوشة كانت هذه الاعترافات التي تكاد تكون خليقة بمجنون حقاً. ولكن نيقولاي فسيفولودوفتش كان في الوقت نفسه يتكلم بصراحة خارقة وصدق غريب عن طبعه، حتى لكأن الإنسان القديم فيه قد اختفى اختفاء تاماً مباغتاً. لم يشعر بأي خجل من التعبير عن الخشية التي كان يوقظها في نفسه هذا الشبح. ولكن ذلك كله لم يدم إلّا لحظة واحدة، وما لبثت هذه الحالة النفسية أن زالت على غير توقع كما جاءت على غير توقع.

قال في غضب وقد ثاب إلى نفسه:

ـ هذا كله سخافات. سأمضي أستشير طبيباً.

فقال تيخون يؤيده:

ـ افعل.يجب أن تفعل حتماً.

ـ إنك تتكلم جازماً. فهل رأيت أناساً مثلي يعانون هذا النوع من الهواجس؟

ـ نعم رأيت ولكن قليلاً. إنني أتذكر واحداً. كان ضابطاً وقع له ذلك بعد فقده امرأته التي كانت له حليلة لا تضاهى. وسمعت عن واحد آخر. وقد شفي الاثنان كلاهما في الخارج. هل توافيك هذه الأشياء منذ مدة طويلة؟

ـ منذ سنة تقريباً. ولكن ما هذه إلى تفاهات. سأستشير طبيباً. تفاهات! تفاهات سخيفة مضحكة! هذا أنا نفسي في وجوه مختلفة. ذلك كل شئ. لاشك أنك تتصور، بعد أن أضفت أنا هذه العبارة، إنني ما زلت أشك، وإنني لست واثقاً بأن هذا أنا حقاً وليس الشيطان.

نظر إليه تيخون نظرة استفهام. وسأله:

ـ و... هل تراه فعلاً؟ أقصد من دون أن تحتفظ بفكرة أن هذا ليس إلّا هلوسة كاذبة مرضية؟ هل ترى صورة ما بالفعل؟

أجابه ستافروجين الذي كان حنقه يزداد من جديد لدى كل كلمة:

ـ غريب إلحاحك على هذا بعد أن شرحت لك إنني أرى... أرى قطعاً...

كما أراك!... أحياناً أرى ولا أثق بأنني أرى، رغم علمي بأن هذه هي الحقيقة: إما أنا وإما هو... سخافات! ولكن هل يستحيل عليك أن تسلم بأنه الشيطان؟ إن هذا التسليم أكثر اتفاقًا ومهنتك ، هه؟

أضاف هذا السؤال ضاحكاً، هاوياً إلى لهجة ساخرة على حين فجأة.

قال تيخون:

ـ الأرجح أن الأمر مرض، ومع ذلك...

ـ مع ذلك؟

ـ الشياطين موجودون حتماً. ولكن يمكن تصورهم على أنحاء مختلفة...

عاد ستافروجين يقول بلهجة غاضبة ساخرة:

ـ إنك قد عدت تخفض عينيك لأنك تخجل مني إذا أنا صدقت بوجود الشيطان. ولكن ها أنا ذا أتظاهر بعدم التصديق فألقي عليك ماكراً هذا السؤال: أهو موجود حقاً أم لا؟

فابتسم تيخون ابتسامة غامضة.

قال ستافروجين:

ـ لا يناسبك البتة أن تخفض عينيك: هذا غير طبيعي، هذا مضحك، هذا متصنّع. ومن أجل أن أكفّر عن هذه الغلطة مني سوف أقول لك جاداً، بصفاقة: نعم، إنني أؤمن إيماناً مطابقاً لإيمان الكنيسة، أؤمن بوجود شيطان شخصي، لا شيطان رمزي، ولست أحتاج البتة أن أسألك. هذا كل شيء. لا بدّ أن تكون سعيداً غاية السعادة.

وانفجر ستافروجين يضحك ضحكاً مكرهاً، عصبياً. فرمقه تيخون مستطلعاً بنظرة رقيقة جداً، نظرة كأنها تشتمل على شيء من خجل.

وهذا ستافروجين يرميه فجأة بهذا السؤال:

ـ أتؤمن بالله؟

ـ أؤمن بالله.

ـ ولكن قيل في الكتاب: إذا آمنت وأمرت الجبل أن يسير لأطاعك!... هذه سخافات على كل حال! ولكنني حريص على أن أعرف منك: هل يمكنك أن تنقل جبلاً؟

ـ نعم، إذا الله أمر...

كذلـك أجـاب تيخـون برقـة وحيـاء، خافضـاً عينيـه مـن جديـد. فأجابه ستافروجين:

ـ فـكأن الله نفسـه هو الـذي حرك الجبل؟ ولكنني أسـألك هل تسـتطيع أنت، أنت، أن تحركه مكافأة لك على إيمانك بالله؟

ـ ربما.

ـ ربما. جواب حسن. لماذا تشك؟

ـ إيماني ناقص غير كامل.

ـ كيـف؟ إيمانك أنت أيضاً؟ ناقص غيـر كامل؟ ماكان لي أن أفترض هذا حين أراك. كذلك سـتافروجين وهو يتأمل تيخون بدهشـة، بل بسذاجة، وهو أمر لا يتفق ولهجة السخرية التي ألقى بها أسئلته السابقة، قال تيخون:

ـ نعم، قد لايكون إيماني كاملاً.

ـ لكنـك تؤمـن مع ذلك بأنـك قادر بمعونة الله علـى أن تنقل الجبل. هذا وحده شيء. إنك تريد الإيمان على الأقل. وأنت تفهم كلمة "الجبل" بالمعنى الحقيقـي لا بالمعنـى المجازي. هذا وحـده كثير. مبدأ عظيـم. لقد لاحظت التقدميين بين كهنتنا يميلون ميلاً قوياً إلى اللوثرية، فلا مانع عندهم من تعليل المعجزات بأسـباب طبيعية. هذا أفضـل على كل حال من عبارة "قليلًا جداً" التي قالها أحد الكهنة، وهو تحت السكين. أأنت مسيحي قطعاً؟

كان سـتافروجين يتكلـم بسـرعة كبيـرة، وصـوت سـاخر تارة جـاد تارة أخـرى. ولعله كان لايعرف هو نفسـه لمـاذا يقول هذه الأشـياء كلها، ولماذا يسائل تيخون، ولماذا يضطرب ويتحرك!

دمـدم تيخـون يقـول بنوع مـن الاندفـاع وهـو يخفض رأسـه مزيـداً من الخفض:

ـ ربِّ إني لن أخجل من صليبك!

وأخذت أطراف شفتيه تختلج فجأة.

سأله ستافروجين:

ـ ولكن هل يمكن ألإيمان بالشيطان من غير إيمان بالله؟

ـ هذا يمكن جداً، ويحدث كثيراً. ورفع تيخون عينيه وابتسم قليلاً.

قال ستافروجين وهو ينفجر ضاحكاً:

ـ وإنـي لعلـى يقيـن من أنك تـرى الإيمان أجـدر بالاحترام مـن الجحود الكامل.

فابتسم تيخون من جديد، وقال بما يشبه المرح، مع استمراره تأمل ضيفه قلقاً بعض القلق:

ـ بل الإلحاد الكامل أجدر بالاحترام من عدم الاكتراث.

ـ هوه! ما أعجب هذا الكلام! إنك لتدهشني حقاً!

ـ الملحـد إلحـاداً كاملاً واقف علـى الدرجة الأخيرة التي تسـبق الإيمان الكامـل (أن يخطـو هـذه الخطـوة الأخيـرة أو أن لا يخطوهـا فتلك مسـألة أخـرى). أما الـذي لايكترث ولا يبالـي، فإنه لا يملك أي إيمـان، وليس في نفسه إلّا شيئ من الخوف أحياناً، هذا إذا كان امرءاً حساساً.

ـ هم... هل قرأت رؤيا القديس يوحنا؟

ـ نعم.

ـ هل تذكر قوله: "اكتب إلى ملاك كنيسة اللاوديكيين"؟...

ـ أذكر.

سأل ستافروجين وهو ينظر حوله مضطرباً:

ـ أين الكتاب؟ أريد أن أقرأ لك تلك الأسطر. هل عندك ترجمة روسية؟

قال تيخون:

ـ أعرف تلك الأسطر. أتذكرها تذكراً واضحاً.

قال ستافروجين:

ـ أتحفظه على ظهر قلب. اتله عليّ!...

وخفض عينيه، ووضع يديه مبسوطتين على ركبتيه، وتهيأ للإصغاء.

تـلا تيخون الأسـطر: "واكتب إلى ملاك كنيسـة اللاوديكييـن: هذا يقوله الشاهد الأمين الصادق بداءة خليقة الله: أنا عارف أعمالك. إنك لست بارداً ولا حـاراً. ليتك كنت بارداً أوحاراً. فلأنك لسـت بـارداً ولا حاراً أنا مزمع أن أتقيأك من فمي. لأنك تقول إني غني وقد اسـتغنيت ولا حاجة بي إلى شـيء، ولست تعلم أنك شقي وفقير وأعمى وعريان..."

قال ستافروجين مقاطعاً:
ـ كفى! هل تعلم؟ إنني أحبك كثيراً.
فأجابه تيخون يقول بصوت خافت:
ـ وأنا أيضاً.
وصمت ستافروجين وعاد يهوي فجأة في أحلامه. لقد تكرر هذا الأمر ثالث مرة، كأنه نوع من نوبة. وفي نوبة من هذه النوبات إنما قال لتيخون: "أحبك". وكان هو نفسه لا يتوقع ذلك.
وخيّم الصمت دقيقة.
دمدم تيخون يقول وهو يلامس بإصبعه كوع ستافروجين ملامسة خفيفة، وكأنه هو نفسه خائف:
ـ لا تزعل.
فانتفض ستافروجين وقطب حاجبيه غاضباً ساخطاً.
وسأل قائلًا بسرعة:
ـ كيف عرفت أنني زعلت؟
فأراد تيخون أن يتكلم، ولكن الآخر قاطعه وقد استبد به انفعال لا يمكن فهمه، قال:
ـ لماذا افترضت أنني لا بد أن أزعل؟ نعم، لقد غضبت. إنك على حق، وإنما غضبت لأنني قلت لك إنني أحبك. إنك على حق. ولكنك مستخف فظ. إن لك رأياً منحطاً جداً في الطبيعة الإنسانية. كان يمكن أن لا يثور هذا الغضب لو كنت تخاطب شخصًا آخر غيري. على كل حال، إن شأنك ليس مع أي شخص، بل معي أنا. مهما يكن من أمر، فأنت رجل طريف، بريء.
كان يسترسل مزيداً من الاسترسال لحظة بعد لحظة، والشيء الغريب أنه كان يفقد كل تروٍ في كلامه. قال:
ـ اسمع جيداً: إنني لا أحب علماء النفس والجواسيس أو على الأقل لا أحب منهم أولئك الذين يريدون أن يدخلوا إلى قرارة نفسي. إنني لا أدعو أحداً، ولست في حاجة إلى أحد. سوف أدبر أموري بنفسي. أتظن أنني خائف منك؟

رفع صوته وأنهض رأسه بحركة تحد. وأضاف يقول:

ـ أنـت واثـق أنني إنما جئت إليك لأعترف لك بسـر رهيـب، وأنت تنتظر هذا السـر بكل ما يتصف به كاهن مثلك من فضول. ألا اعلم إنني لن أكشـف لك عن شـيء، لن أكشف لك عن أي سر، لأنني لست في أية حاجة إليك... لأنه ليس هناك أي سر... ما هذا منك إلّا تهاويل خيال...

ألقى عليه تيخون نظرة ثابتة.

ـ لقـد فجـأك أن تـرى أن "الحمـل" يؤثـر البارد علـى الفاتر، كمـا يقول، فـأردت أن لا تكون بـارداً. إنني أحس أن قـراراً خارقاً لعله رهيب، يسـتولي عليك. أرجوك، أضرع إليك، كفاك تعذيباً لنفسك وقل كل شيء.

ـ أأنت واثق إذًا أنني جئت وأنا أبيّت فكرة؟

دمدم تيخون يقول خافضاً عينيه:

ـ حزرت ذلك... من وجهك.

كان نيقـولاي فسـيفولودوفتش شـاحباً بعـض الشـحوب، وكانـت يـداه ترتعشان قليلاً. ولبث بضع ثوان يحدق إلى تيخون صامتاً. وأخيراً، استل من الجيـب الجانبي في ردنجوته مـلازم مطبوعة، ووضعها علـى المائدة. وقال بصوت متقطع بعض التقطع:

ـ هذه الأوراق معدة للنشـر. فإذا قرأها ولو شخص واحد، فاعلم أنني لن أخفيها، وأن الجميع سـيقرأونها. هذا أمر مقرَّر. لسـت في حاجة إليك البتة، لأننـي قررت كل شـيء. ولكن اقـرأ... وأثناء القـراءة لا تقل شـيئاً، حتى إذا فرغت من القراءة قل كل شيئ...

سأله تيخون متردداً:

ـ هل يجب أن أقرأ؟

ـ اقرأ. إنني هادئ كل الهدوء.

ـ بـدون نظارتيـن لا أسـتطيع أن أميـز شـيئاً. الأحـرف صغيرة جـداً. هذا مطبوع في الخارج.

ـ إليك النظارتين.

تنـاول سـتافروجين النظارتيـن مـن علـى المائـدة ومدهما إليه. ثـم ارتد بجسمه إلى وراء مستنداً على ظهر الأريكة. واستغرق تيخون في القراءة.

2

هي خمس ملازم مضبورة، من القطع الصغير، قد طبعت في الخارج فعلاً على ورق من ورق الرسـائل خفية، وربما في مطبعة روسـية سـرية. إنك إذا نظرت إلى هذه الملازم نظرة أولى رأيتها تشبه كثيراً المنشورات التحريضية. وقد استهلت بهذه العبارة: "من ستافروجين".

إننـي أثبـت هـذه الوثيقة بنصهـا حرفـاً حرفـاً (ويجب أن نعتقـد أن كثيرين يعرفونها الآن). ولكنني أبحث لنفسـي أن أصحـح فقط بعض أخطاء الإملاء وهـي كثيـرة حتى لقد أدهشـتني، لأن كاتبهـا رجل مثقف علـى كل حال، ولا شك أنه قد قرأ كثيراً (نسبياً). أما الأسلوب فقد تركته على حاله، رغم أخطائه ورغم ما فيه من أنواع التفكك. إنه لمن الواضح على كل حال أن صاحب هذه الصفحات ليس كاتباً. وأبيح لنفسي كذلك ملاحظة أخرى، فأستبق الوقائع...

في رأيي أن هذه الوثيقة ثمرة من ثمرات المرض، وأنها من عمل الشيطان الذي استولى على هذا الرجل. هذا شأن المريض الذي يعاني آلاما شديدة: إنه لا ينفك يتقلب على سـريره يائساً يبحث عن وضع يهدئ ألمه ولو لحظة. فـإذا لم يهدئه هـذا الوضع أحلّ محلـه وضعاً آخر مدة دقيقـة. وهو عندئذ لا يتساءل طبعاً هل هذا التبديل حسن أو معقول.

إن ما يسـيطر على هـذه الوثيقة هو الحاجة الرهيبـة الصادقة إلى العقاب، هـو الحاجة إلـى الصليب، إلـى العذاب على مـرأى من الناس. غيـر أن هذا الظمـأ إلى الصلب يعذب امرءاً لا يؤمن بالصليـب. "وهذا وحده يمثل فكرة "، كما عبّر عن ذلك ستيفان تروفيموفتش يوماً في مناسبة تختلف عن هذه كل الاختلاف.

ومـن جهـة أخرى تشـتمل هـذه الأوراق على شـيء من عنف واسـتفزاز وتحـد، رغم أنها كتبـت لغرض آخر تماماً. إن كاتبها يصرح أنه "لم يسـتطع" أن لا يكتب، وأنه "أجبر" على الكتابة إجباراً وهذا جائز جداً. لقد كان يسعده

أن يستطيع إبعاد هذه الكأس المرة عنه، ولكن كان يستحيل عليه حقاً. لذلك انتهـز هذه الفرصة فأرخـى العنان لعنفه. نعم،إن المريض يتحرّك في سـريره ويحـاول أن يحلّ ألمـاً محلّ ألم. وها هو ذا يبدو له أن الصراع ضد المجتمع سـيخفف عنه بعـض التخفيف، فإذا هو يتحدى المجتمـع. إن مجرد تحريره هذه الوثيقة هو تحد غير متوقع، وقلة احترام للمجتمع، إن كاتب هذه الوثيقة يهمه أن يستفز خصماً ما بأقصى سرعة...

ومـن يدري؟ لعل هذا كله، أعني هذه الأوراق المهيأة للنشـر، إنما ينتمي إلـى ذلك النوع نفسـه من الوقائع، الذي تنتمي إليـه واقعة عض أذن الحاكم! لمـاذا توافينـي هذه الفكـرة اليوم بعـد أن اتضحت أشـياء كثيـرة؟ ذلك ما لا أستطيع أن أفهمه. إنني لا آتي بأي دليل على كل حال، لا أستطيع أن أؤكد أن هـذه الوثيـة كاذبة، أي لفقها الخيال تلفيقاً، قد تكون الحقيقة واقعة بين هذين الطرفين الأقصيين... ولكنني أستبق الحوادث. الأفضل أن نرجع إلى الوثيقة نفسها. فإليكم ما قرأه تيخون:

"من ستافروجين

"أنا سـتافروجين، الضابط المتقاعد، قد قضيت سـنوات ألف وثمانمائة وسـتين و... ببطرسبرج مسترسـلاً فـي الدعـارة استرسـالاً لم أجـد فيه أية متعـة. كان لـي خـلال فترة من تلك السـنين ثلاث شـقق: ففـي إحداها كنت أسـكن مع خادم يقوم بأعمال البيت، وكانت ماريا لبيادكين التي هي زوجتي شـرعاً أمـام القانون تسـكن فـي تلك الشـقة أيضاً. وقد اسـتأجرت الشـقتين الأخريين لأسـتقبل فيهما عشـيقاتي: ففي إحداهما كنت أستقبل سيدة كانت تحبني، وفي الشـقة الأخرى كنت أستقبل خادمتها. وكانت رغبتي آنذاك هي أن أجعلهما تلتقيان عندي، كلتاهما، السيدة والفتاة. وكنت لمعرفتي بطبعهما أتنبأ لهذه المزحة أن تحدث لي متعة كبيرة. ومن أجل أن أهيئ هذا اللقاء في يسـر كان علي أن أذهب أحياناً كثيرة إلى واحدة من هاتين الشـقتين، تقع في منـزل كبير بشـارع جوروخوفايا. فإلـى هناك إنما كانت تأتـي الخادمة. كنت أشـغل في ذلك المنزل عند بورجوازيين صغـار غرفة في الدور الرابع. وكان أصحـاب البيـت يشـغلون غرفة أخـرى أصغر، بـل غرفة تبلغ مـن الصغر أن

البـاب الذي يفصل بيننا كان يجب أن يظـل مفتوحاً على الدوام. وذلك بعينه مـا كنت أريـده. لقد كان الزوج، وهو يرتدي قفطانـاً طويلاً، يعمل في مكتب من المكاتب، فكان يذهب في الصباح ولا يرجع إلّا ليلاً. وكانت المرأة وهي فـي نحو الأربعين مـن العمر تخيط وتصلح ملابس قديمة. وكانت تخرج في كثيـر مـن الأحيـان لتحمل عملها إلـى زبائنهـا. فكان يتـاح إلـيَّ إذًا أن أنفرد بابنتهمـا الطفلة. كان اسـمها ماتريوشـا. وكانت الأم تحبهـا، ولكنها تضربها أحيانـاً كثيرة وتشـتمها على عـادة أمثال هـؤلاء الناس وكانت هـذه الصغيرة تخدمنـي وترتـب غرفتـي. إني أعلن الآن أنني قد نسـيت رقم تلـك العمارة. وقد علمت أن المنزل القديم قد هدم وأن عمارة جديدة كبيرة جداً قد شيدت فـي مـكان مبنيين أو ثلاثة مبـان قديمة هناك. وقد نسيت أيضاً اسـم صاحبي الشـقة. ومـن الجائز أن لا أكون قد عرفت اسـميهما في يـوم من الأيام. أذكر أن المرأة كان يقال لها سـتيفانيدا، أما اسـمه هو فلا أتذكره. أين هما الآن؟ لا أدري البتة. أحسـب أننا إذا تقصينا الأمر لدى قسـم الشـرطة ببطرسبرج، فقد نهتـدي إلى أثرهما. كان المسـكن يطـل على الفناء ويحتـل زاوية منه. جرى ذلك في شـهر حزيران. كان المنزل مدهونًا بلون أزرق شـاحب. في يوم من الأيام اختفت مطواتي من على المائدة. ولم أكن في حاجة إلى تلك المطواة على كل حال. كانت لا تعنيني في شـيء. كلمت في الأمر صاحبة البيت، من دون أن يخطـر ببالي أنها سـتجلد ابنتها. ولكنها كانت قد أمسـكتها منذ قليل بسبب اختفاء خرقة (ممسحة) ظنت الأم أن الطفلة قد استعملتها لتصنع منها لعبة (عروسـة). حتى لقد شدت لها شـعرها. فلما عثر على تلك الخرقة، في مـا بعد، تحت الحصيرة، لـم تشـأ الطفلة أن تنطق بكلمـة لوم واحدة، وظلت صامتـة. وقـد لاحظت أنها تعمـدت أن لا تنطـق، وأنا أتذكر هـذا، لأنني في تلـك اللحظـة إنما انتبهت إلى وجه الطفلة الذي لـم يلفت انتباهي حتى ذلك الحين. إنه أشـقر شقرة شاحبة، إلى بقع حمراء. وجه عادي. غير أن فيه كثيراً مـن الطفولـة والهـدوء، بل كثيـراً جداً مـن العذوبة والسـكينة. لقد اسـتاءت الأم مـن أن ابنتهـا لـم تلمها وصمتـت. وفي تلك اللحظة إنمـا جاءت حكاية المطـواة. اسـتعر حنق الأم مـن أنها ضربـت ابنتها ظلماً. فها هـي ذي تتناول

أسـواطاً وتمضي تجلد الطفلة إلى أن تفجـرت دماؤها على مرأى مني، رغم أن الطفلة كانت قد دخلت السنة الثانية عشرة من عمرها. لم تصرخ ماتريوشا وهي تجلد. ولا شك أن ذلك يرجع إلى وجودي. ولكنها كانت تشهق شهيقاً غريباً عند كل جلدة. ولقد ظلت تشـهق سـاعة كاملة بعـد انتهاء الجلد. حتى إذا انتهـى توقيع العقوبة عثـرت على مطواتي فجأة فوق سـريري في الغطاء. فوضعتهـا في جيـب صديرتي صامتـاً. فلما خرجت رميتها في الشـارع حتى لا يعلم أحد شـيئاً. وشـعرت على الفور بأنني قد ارتكبت عملاً حقيراً جباناً، لكنني أحسسـت أيضاً بلذة، لأن فكرة قد ومضت فـي ذهني فجأة وأحرقتني كجمرة، وتلبثت أنا عليها. وقد لاحظت في تلك المناسبة أنني سبق لي مراراً أن استولت عليّ إلى حد الجنون مشاعر شريرة شتى كنت أصر عليها إصراراً محموماً وأشغف بها شغفاً شديداً، ولكن من دون أفقد كل سيطرة على نفسي وكل تحكـم بإرادتي في يوم من الأيـام. فحتى حين تمحقني حراراتها وحين تبلـغ أقصـى درجات قوتها كنت أسـتطيع دائماً أن أنتصر عليهـا وأن أوقفها. ولكـن كان ينـدر أن أريد أن أفعـل ذلك. وإني أعلن في الوقت نفسـه أنني لا أحاول أن أدفع عن نفسي المسؤولية بحجة تأثير البيئة أو بحجة المرض.

انتظرت بعد ذلك يومين. أصبحت الطفلة بعد بكائها أشد صمتاً. إنني لعلى يقين من أنها لم تكن تحمل لي أنا أية عاطفة سيئة رغم أنها شعرت حتماً بشيء مـن الخجل لإنزال العقوبة فيها على مرأى مني. لكنها وهي الطفلة الخضوع كانت تؤاخذ نفسها على هذا الخجل. أذكر هذا لأن له شأناً هاماً في قصتي... قضيـت بعد ذلـك ثلاثة أيام في شـقتي الأولى. إنها منزل مفـروش تفوح منه دائماً رائحة كريهة من روائح الطعام، ويزدحم دائماً بالناس: موظفين صغار، مسـتخدمين بلا عمل، أطباء لا زبائن لهم، أنواع شـتى من البولنديين يسعون حولي بغير انقطاع. إنني أتذكر كل شـيء. كنت أعيش في ذلك المنزل الذي يشـبه أن يكون مدينة سدوم، أعيش متوحداً، متوحداً في داخل نفسي، لكنني محاط دائمـاً بعصبة صاخبة من "الرفاق" الذين يخلصون لي إلى أبعد حدود الإخلاص ويكادون يعبدونني عبادة بسبب محفظة نقودي. أظن أننا كنا نفعل دناءات كثيرة. حتى لقد كان المسـتأجرون يخشـوننا، أقصد أنهم ظلوا لطافاً

في معاملتنا رغم خلاعاتنا وبذاءاتنا وحماقاتنا التي كانت في بعض الأحيان لا تغتفر. أعود فأكرر: لقد كنت أشعر حتى بشيء من اللذة حين أتصور أنني سأنفى إلى سيبيريا. وكنت أبلغ من السأم والضجر أنني كان في وسعي أن أشنق نفسي. وإذا لم أشنق نفسي، فلأنني كنت ما أزال يراودني أمل ما، كما كنت طوال حياتي. وأذكر أنني عنيت حينذاك باللاهوت عناية تشتمل حتى على كثير من الجد، وأنني استطعت أن أسلي نفسي قليلاً. ولكن ضجري ازداد بعد ذلك. أما عواطفي الاجتماعية فهي لا تتجاوز الرغبة في تحطيم كل شيء، لو كان هذا التحطيم يستحق العناء. ولكن يجب أن أضيف أن تلك الرغبة لم يكن فيها خبث وشر وإنما هي ترجع إلى ضجري الشديد، لا إلى شيء آخر، لست اشتراكياً البتة. إنني أفترض أن ذلك كان مرضاً. حين سألت الدكتور دوبروليوبوف مازحاً: "أليس هناك عقار يمكن أن ينشط الطاقة الاجتماعية"، فإن هذا الطبيب الفاشل، الذي لا عمل له، والذي يعول أسرة كبيرة، ويقيم في منزلنا، قد أجابني بقوله: "لتنشيط الطاقة الاجتماعية لا يوجد عقار في ما أظن، ولكن قد تجد عقاقير لتنشيط الطاقة الإجرامية". إن هذه المزاحة قد سرته كثيراً رغم فقره الرهيب ورغم أنه مسؤول عن امرأة حبلى وابنتين صغيرتين جائعتين. على كل حال، لولا أن البشر راضون عن أنفسهم لما أراد أحد أن يعيش.

انقضت ثلاثة أيام أخرى، وعدت إلى جوروخوفايا. كانت الأم تتهيأ للخروج حاملة حزمة كبيرة. ولم يكن الأب في البيت طبعاً. فبقيت وحدي مع ماتريوشا. كانت النوافذ (في الفناء) مفتوحة. وكان في المنزل صناع كثيرون وكانت جميع الطوابق تضج بأصوات المطارق والأغاني. انقضت ساعة. كانت ماتريوشا جالسة في ركنها، على دكة صغيرة. كانت تخيط شيئاً ما وقد أدارت لي ظهرها. وفجأة أخذت تغني بعذوبة كبيرة. كان يحدث لها هذا أحياناً. استللت ساعتي ونظرت فيها. هي الساعة الثانية بعد الظهر. أخذ قلبي يخفق خفقاناً قوياً جداً. نهضت واقتربت من ماتريوشا ببطء. كانت النوافذ مزدانة بأصص أزهار. وكانت الشمس حارة. جلست إلى جانب ماتريوشا على الأرض صامتاً. ارتعشت ماتريوشا. خافت خوفاً رهيباً في

اللحظة الأولى، وبادرت تنهض فجأة. تناولت يدها وقبلتها. ثم أجلستها على الدكة وجعلت أتفرس في عينيها. أما أنني قبلت يدها أضحكها ذلك كطفلة. ولكنها لم تضحك إلّا لحظة قصيرة. لأنها عادت تنهض من جديد وقد اعتراها رعب بلغ من القوة أن وجهها تشنج. وحدقت إلي بنظرات ثابتة وأخذت شفتاها تختلجان كأنها تهم أن تبكي. ولكنها لم تصرخ. قبلت يدها مرة ثانية، وأجلستها على ركبتي. فإذا هي تتقهقر فجأة وتبتسم، ولكن ابتسامتها ابتسامة خجل، ابتسامة مائلة. واحمر وجهها حياء. وأخيراً حدث أمر يبلغ من الغرابة أنني لن أنساه في يوم من الأيام. إنه حادث أثار في نفسي دهشة شديدة. لقد أحاطت البنت الصغيرة عنقي بذراعيها وأخذت تقبلني بحرارة وهوى. كان وجهها يعبر عن الافتتان. نهضت شبه غاضب: إن هذه الحركة التي تبدر من هذه الإنسانة الصغيرة قد أزعجتني كثيراً جداً بسبب الشفقة التي شعرت بها فجأة...".

انتهت الملزمة هنا وانقطعت الجملة. وحدث عندئذ أمر لا بد من ذكره.

كانت الملازم خمساً. الأولى في يدي تيخون الذي فرغ من قراءتها. والجملة لم تكمل. والأربع الأخرى كانت في يدي ستافروجين. فلما ألقى تيخون على ستافروجين نظرة سائلة ناوله ستافروجين التتمة فوراً. فقال تيخون وهو ينعم النظر في الملزمة:

ـ ولكن الجملة لم تكمل. وهذه هي الملزمة الثالثة بينما التالية هي الثانية لا الثالثة.

قال ستافروجين مجيباً بسرعة وهو يبتسم ابتسامة خرقاء:

ـ نعم هذه هي الثالثة. أما الثانية فقد حذفتها الرقابة الآن...

كان ستافروجين جالساً على ركن من الديوان، وكان يحدق إلى تيخون محموماً جامداً لا يستطيع أن يحول عنه بصره.

ـ سأعطيك إياها عما قريب، حين... حين تصبح جديراً بذلك.

كذلك أضاف يقول وهو يجري بيده حركة أراد أن لا يكون فيها كلفة. وكان يضحك، غير أن ضحكه كان يبعث على الشفقة.

قال تيخون:

ـ مع ذلك أظن أننا في النقطة التي وصلنا إليها يستوي أن تكون هذه الصحيفة هي الثانية أو الثالثة، أليس كذلك؟

صاح ستافروجين يسأله وهو ينهض على حين فجأة:

ـ كيف؟ لماذا؟ ليس يستوي الأمران قط. آه منكم معشر الرهبان. إنكم تفترضون على الفور أفظع الدناءات. ألا إن الرهبان ليصلحون أن يكونوا قضاة تحقيق من الطبقة الأولى.

نظر إليه تيخون صامتاً.

قال ستافروجين:

ـ اطمئن بالاً. ليس ذنبي أن البنية كانت حمقاء ولم تفهمني. لم يحدث شيء البتة.

ـ الحمد لله!

ورسم تيخون إشارة الصليب.

قال ستافروجين:

ـ يطول شرح الأمر... لقد وقع هنا... وقع هنا سوء تفاهم سيكولوجي.

واحمر فجأة. وظهر في وجه الاشمئزاز والقلق والغم واليأس!... وصمت. وأصبح الرجلان لا ينظر أحدهما إلى الآخر، وساد الصمت بينهما أكثر من دقيقة.

قال ستافروجين على نحو آلي وهو يجفف العرق البارد الذي بلل جبينه:

ـ اسمع. الأفضل أن تقرأ. و... والأفضل ألا تنظر إلي بتاتاً... يخيل إليّ أن هذا حلم...

ثم أضاف يقول بصوت خافت جداً:

ـ و... ولا تستنفذ صبري.

حوَّل تيخون عينيه عنه بسرعة، وتناول الصحيفة الثالثة وأخذ يقرأ بغير توقف حتى النهاية. كانت الصحائف الثلاث التي أسلمها إليه ستافروجين لاينقصها شيء. وقد بدأت الصحيفة الثالثة كما يلي:

"... كانت لحظةَ رعب حقاً، وإن لم تكن شديدة العنف. وغدوت مرحاً جداً في ذلك الصباح وأحسنت معاملة الجميع، وسرّت العصبة مني

كثيراً. لكنني تركتهم جميعاً ومضيت إلى جوروخوفايا. التقيت بها تحت عند المدخل. كانت عائدة من دكان أرسلت إليه لتشتري شيئاً من الهندباء. فلما رأتني اندفعت تجري في السلم وقد اعتراها خوف رهيب. بل إن ما اعتراها ليس خوفاً وإنما كان رعباً أخرس يشلّ شللاً. وحين دخلت كانت أمها تضربها لأنها دخلت الغرفة "حثيثة الخطى خافضة الرأس". بذلك استطاعت أن تخفي السبب الحقيقي لرعبها. كان كل شيء لا يزال إذًا هادئاً. وقبعت في ركن ولم تظهر طول المدة التي قضيتها في البيت. وبعد ساعة خرجت. ولكنني في المساء شعرت بالخوف من جديد، وكان خوفي هذه المرة أشد كثيراً. وكان أشق شيء على نفسي في ذلك الخوف أنني كنت واعياً إياه وعياً كاملاً. إنني لا أعرف شيئاً أغبى من هذا ولا أعنف. لم أكن قد شعرت بالخوف حتى ذلك الحين قط، لا ولا شعرت به بعد ذلك أبداً. أما في تلك اللحظة فقد كنت خائفاً. حتى لقد كنت أرتعش، وكنت أعي هذا الخوف وعياً تاماً، وكنت أعي كذلك مذلتي، لو استطعت أن أنتحر لانتحرت. ولكنني أحسست أنني غير جدير بالموت. على أن هذا ليس السبب الذي منعني من الانتحار، وإنما منعني من الانتحار ذلك الخوف نفسه. إن المرء ينتحر في بعض الأحيان خوفاً، ولكن يحدث أيضاً أن يستمر المرء في الحياة خوفاً كذلك. في أول الأمر لايجرؤ الإنسان أن ينتحر، ثم يصبح الفعل بعد ذلك مستحيلاً. أكثر من هذا أنني في المساء، حين كنت في بيتي، قد شعرت نحو البنت بكره بلغ من القوة أنني قررت أن أقتلها. فما إن طلع الفجر حتى ركضت إلى جوروخوفايا حاملاً هذه الفكرة. وكنت طوال الطريق أتصور كيف سأقتلها وكيف سأحقّرها. وكان كرهي يهتاج خاصة حين أتذكر ابتسامتها: كان يشب في نفسي احتقار، وكانت تمتلئ نفسي اشمئزازاً من ارتمائها على عنقي متخيلة ما لا أدري! ولكنني حين عبرت نهر فونتانكا شعرت بأن صحتي سيئة. وفي الوقت نفسه انبجست في ذهني فكرة جديدة، رهيبة، رهيبة جداً، ولا سيما لأنني كنت أعيها. فلما رجعت إلى بيتي رقدت في فراشي مرتعشاً من الحمى، واعتراني رعب بلغ من القوة أنني صرت لا أكره البنت. لقد صرت لا أريد أن أقتلها، وتلك هي بعينها الفكرة التي انبجست في نفسي وأنا

أعبر نهر فونتانكا. وعندئذ إنما أدركت أول الأمر أن الخوف حين يكون قوياً يطرد الكره بل يطرد كل رغبة في الانتقام.

"استيقظت في نحو الظهر، مرتاحًا بعض الراحة، بل مدهوشاً من شدة العواطف التي شعرت بها في الليلة البارحة. خجلت من أنني أردت أن أقتل. ومع ذلك كنت معتكر المزاج. ورغم اشمئزازي كله ونفوري كله اضطررت أن أذهب إلى جوروخوفايا. أذكر أنني كنت أتمنى حينذاك لو أشاجر أحداً، لو أشاجر أحداً مشاجرة خطيرة حقاً. ولكنني حين دخلت غرفتي في جوروخوفايا وجدت فيها نينا سافليفنا، الخادمة التي كانت تنتظرني هناك منذ ساعة. كنت لا أحب تلك الفتاة بتاتاً، وكانت قد جاءت على شيء من الخشية، فهي تخاف أن تسوءني زيارتها. كانت تجيء دائماً على هذه الخشية. ولكن أسعدني كثيراً أن أراها، فسرّها ذلك سروراً عظيماً وافتتنت به افتتاناً كبيراً. لم تكن دميمة. ثم إنها كانت متواضعة وكانت تملك تلك الآداب التي يقدرها البرجوازيون الصغار قدراً عظيماً. ولذلك كانت صاحبة البيت تمدحها لي مدحاً كثيراً منذ مدة طويلة. وجدتهما تشربان القهوة، وكانت صاحبة البيت تبدو نشوى بالحديث الممتع. وفي ركن من الغرفة الثانية لمحت ماتريوشا: كانت واقفة تتفرس خفية في أمها والزائرة. فلما دخلت لم تختبئ كما فعلت في المرة السابقة، ولم تهرب. هذه نقطة أتذكرها واضحة، لأنها خطفت اهتمامي. وقد لاحظت من النظرة الأولى أنها نحلت نحولاً شديداً، وأنها تبدو مصابة بحمى. لاطفت نينا ملاطفة كبيرة، فلما تركتني كانت سعيدة كل السعادة. وقد خرجنا معاً. ولم أعد إلى جوروخوفايا بعد ذلك مدة يومين. لقد شبعت منها، ولكنني كنت ضجراً.

"وأخيراً قررت أن أنهي كل شيء دفعة واحدة، وحتى أن أغادر بطرسبرج إذا لزم الأمر. ولكن حين ذهبت إلى جرورخوفايا لأعلن عن سفري وجدت صاحبة البيت في ألم شديد وانفعال قوي: لقد كانت ماتريوشا مريضة منذ ثلاثة أيام، وكانت تهذي كل ليلة. وما لبثت طبعاً أن سألت عما تقوله أثناء الهذيان، (كنا نتحدث بصوت خافت جداً في غرفتي). فدمدمت الأم تقول لي إن ابنتها تنطق بأمور فظيعة، فهي تقول مثلاً: "سيعيننا الله. سيذهب عنها

المرض من تلقاء نفسه. ثم إنها لا تبقى راقدة طوال الوقت. لقد أرسلتها منذ قليل في شراء شيء من الأشياء". قررت أن أرى ماتريوشا على انفراد. وإذ كان قد أفلت من لسان صاحبة البيت أثناء حديثي معها أنها مضطرة أن تذهب في المساء إلى الضاحية، فقد قررت أن أرجع في المساء. وكنت على كل حال لا أدري على وجه الدقة لماذا أعود وماذا أريد أن أفعل إذ أعود.

"تغديت في المطعم، ثم عدت في الساعة الثامنة والربع. وأنا أدخل دائماً بعد أن أفتح الباب بمفتاحي. كانت ماتريوشا وحيدة. وكانت راقدة وراء حاجز على سرير أمها. وقد لاحظت أنها قدمت رأسها لترى من الداخل، ولكنها لم تتظاهر بشيء. كانت النوافذ مفتوحة. وكان الهواء حاراً بل حارقاً. تقدمت بضع خطوات ثم جلست على الديوان. إنني أتذكر كل شيء إلى آخر دقيقة. شعرت برضى كبير لأنني لم أكلم ماتريوشا، بل جعلتها تنتظر في غير طائل، لا أدري لماذا! لبثت على هذه الحال ساعة كاملة. وإني لكذلك إذ سمعتها تنهض فجأة وراء الحاجز. سمعت اصطدم قدميها بأرض الغرفة حين نهضت، ثم سمعت وقع بضع خطوات سريعة، ثم إذا هي تظهر في عتبة غرفتي. ما أحقرني! لقد بلغت من الحقارة أنني أسعدني أن أكون قد صمدت هذا الصمود. آه! ما كان أدنأ هذا، وما كان أذلني! كانت واقفة تنظر إلي في صمت. حقاً لقد نحلت نحولاً رهيباً بعد اليوم الذي رأيتها فيه آخر مرة من كثب. كان وجهها كاليابس، ولا شك أن جبينها كان يحترق. إن عينيها اللتين أصبحتا كبيرتين تتفرسان فيَّ باستطلاع مبهوت في ما بدا لي أول الأمر. لبثت جالساً لا أتحرك. ومن جديد شعرت بالكره. لكنني لم ألبث أن لاحظت أن ماتريوشا لم تكن خائفة مني البتة، وأنها لعلها كانت في حالة هذيان. وأخذت تهزّ رأسها على حين فجأة، كما يفعل الأناس السذج الذين لا يتصنعون ولا يتكلفون، إذا هم أرادوا أن يلوموا أو يعتبوا. ثم رفعت إصبعها الصغير بغتة وهددتني بها من بعيد. بدت لي هذه الحركة في أول الأمر مضحكة، ولكنني لم أطق صبراً عليها في النهاية، وأصبحت لا أستطيع احتمالها. نهضت بقوة واقتربت منها مرتاعاً. كان وجهها يعبر عن يأس يشق على المرء أن يراه في مخلوق صغير مثلها. استمرت تهدّدني بإصبعها وتهزّ

رأسـها عاتبة. كلّمتها برفق وحذر، بصوت خافت، برقة وعذوبة، لأنني كنت خائفاً. لكننـي رأيت على الفور أنها كانت لا تسـتطيع أن تفهـم عني، فازداد رعبـي. ولكنها أسـرعت تغطي وجهها بيديهـا كما فعلت في المرة السـابقة، ومضـت نحو النافذة مديرة لي ظهرها. فتحولت حينذاك أنا أيضاً، وجلسـت بقرب النافذة. لا أسـتطيع بتاتـاً أن أفهم لماذا لم أخـرج وبقيت مرتقباً هناك. كنت إذًا أنتظر شـيئاً بالفعل. وربمـا كان يمكن أن أمكث زمناً طويلاً في ذلك المكان، لأقتلها بعدئذ كمداً ويأساً، بغية أن أفرغ من الأمر مرة واحدة بطريقة من الطرق.

"ولكنني لـم ألبث أن سـمعت خطواتها السريعة من جديد. لقد خرجت من الباب الذي يفضي إلى رواق خشـبي يصل منه المرء إلى السلم. فاقتربت من الدرابزين بسرعة، واستطعت أن ألمحها تدخل حجرة صغيرة هي ضرب مـن قـن للدجـاج إلى جانب مـكان آخـر. فلما عـدت أجلس بقـرب النافذة تسللت إلى ذهني فكرة غريبة: إنني لا أستطيع إلى الآن أن أفهم لماذا وافتني هذه الفكرة بعينها ولم توافني فكرة أخرى غيرها قبل كل شيء. كان كل شيء إذًا ينصـب فـي ذلك الأمر. واضح أنني لم أكن أسـتطيع بعـد أن أصدق ذلك الأمـر، "ومع ذلك...". إنني أتذكر كل شـيء تذكراً كامـلاً. كان قلبي يخفق. وبعـد قليل نظرت في سـاعتي من جديد، فعرفـت الوقت على وجه الدقة. ما كانـت حاجتـي لمعرفـة الوقـت؟ ـ لا أدري. غير أنني كنت فـي تلك اللحظة أريد أن ألاحظ كل شـيء. إنني أتذكر إذًا كل شيء تذكراً واضحاً جداً، وأرى كل شيء كأنه ماثل أمامي. كان المساء يهبط. وكانت ذبابة تدندن حولي، ولا تنفك تجيء إلي فتحط على وجهي. قبضت عليها، وأمسكتها بأصابعي بضع لحظـات، ثم تركتهـا تطير من النافذة. ودخلت عربة شـحن إلـى فناء المنزل مقرقعـة. وكان أجير خياط يغني ملء حلقه (منذ مدة طويلة) بقرب نافذته في زاوية من الفناء. كان يعمل وكنت أسـتطيع أن أراه من مكاني. خطر ببالي أن أحداً لم يلقني حين اجتزت الفناء وصعدت السلم، فمن الأفضل حتماً إذًا أن لا يلقانـي أحـد كذلك حين أخرج. لذلك أبعدت كرسـيَّ عـن النافذة بحذر، وجلست بحيث لا يستطيع الجيران أن يروني. آه... ما كان أحقرني! تناولت

كتاباً، ثم رميته، وأخذت أرقب حركات عنكبوت صغير أحمر كان على ورقة نبتة من النباتات التي تزين النافذة. ونسيت نفسي خلال لحظة من الزمن. لكنني أتذكر اليوم كل شيء.

"استللت ساعتي بسرعة ونظرت فيها. كان قد مضى على خروجها ثلاثون دقيقة. لكنني قررت أن أنتظر ربع ساعة أخرى تماماً.أمهلت نفسي هذه المرة. خطر ببالي أن من الممكن أن تكون قد رجعت ولم أسمعها. ولكن هذا كان مستحيلاً. الصمت الآن يشبه صمت الموت، فلو طارت ذبابة لكنت سمعتها. وفجأة جعل قلبي يخفق خفقاناً شديداً مرة أخرى. نظرت في ساعتي: لا يزال هناك ثلاث دقائق. بقيت جالساً رغم أن قلبي خفق خفقاناً موجعاً. ونهضت أخيراً، فوضعت قبعتي على رأسي، وعقدت أزرار معطفي، وفحصت الغرفة: هل خلفت فيها أي أثر يدل على أنني مررت فيها؟ وقربت الكرسي من النافذة ووضعته في المكان الذي كان فيه عند وصولي تماماً. وأخيراً فتحت الباب، ثم أقفلته بالمفتاح في رفق، واتجهت نحو الحجرة الصغيرة. كان بابها مغلقاً، لكنه لم يكن مقفلاً بالمفتاح. كنت أعرف ذلك حق المعرفة، غير أنني لم أشأ أن أفتحه. نهضت على رؤوس أصابع القدمين ونظرت من شق في أعلى الباب. وفي تلك اللحظة نفسها التي انتصبت فيها على رؤوس أصابع القدمين تذكرت أنني حين كنت جالساً بقرب النافذة أنظر إلى العنكبوت كنت أتصور في الواقع كيف سأنتصب على رؤوس الأصابع وكيف سأنظر من شق الباب كما أفعل الآن. أذكر هذا الأمر التفصيلي لأنني أحرص على أن أبين أنني كنت مالكاً قواي العقلية بكاملها، وأنني لست مجنوناً البتة وأنني مسؤول عن أفعالي. نظرت من شق الباب مدة طويلة، لأن الحجرة كانت مظلمة. لكن الظلام فيها لم يكن ظلاماً تاماً، فاستطعت أن أرى ماكنت أريد أن أراه...

قلت لنفسي حينذاك إنني أستطيع أن أمضي، وهبطت السلم. لم ألتق بأحد. ولم يستطع أحد إذًا أن يدلي بأقوال تشهد علي في ما بعد. وما انقضت ثلاث ساعات حتى كنا في بيتي نلعب جميعاً بالورق ونحتسي الشاي. كان لبيادكين يقرأ أشعاراً ويروي أنواعاً من الأقاصيص، ويحكي نكات مضحكة

بمصادفة يشبه أن تكون عمداً، وذلك بدلاً من السخافات التي كان يغمرنا بها في العادة. وكان كيريلوف حاضراً كذلك. ولم يكن أحد يشرب خمرة، رغم أن زجاجة من الروم كانت على المائدة. لبيادكين وحده شرّف الزجاجة وقال بروخورمالوف: "حين يكون نيقولاي فسيفولودوفتش مسروراً رائق المزاج فإن عصبتنا كلها تكون مرحة، وتجيد الحديث." لاحظت أنا هذه الجملة. لقد كنت إذًا مرحاً مسروراً، رائق المزاج، وكنت أقول أشياء مسلية. لكنني أتذكر أنني كنت أعلم كل العلم أن فرحي بالخلاص يقوم على حقارة دنيئة، وأنني لن أستطيع بعد اليوم أن أشعر بأنني نبيل، لا على هذه الأرض، ولا في حياة أخرى، أبداً. شيء آخر أيضاً: لقد أدركت في تلك اللحظة معنى المثل اليهودي: "المرء لا يشم نتانة رائحته". كنت أشعر شعوراً كاملاً بأنني شقي، ولكنني لم أكن أحس من ذلك بخجل، وكنت على وجه الإجمال لا أتكلم كثيراً. وفي تلك اللحظة، بينما كنت أحتسي الشاي وأثرثر مع عصبتي إنما استطعت أن أدرك إدراكاً واضحاً جداً، أول مرة في حياتي، أنني لا أفهم "الخير" و"الشر" ولا أحسهما، وإنني لم أفقد الشعور بهما فحسب، بل إن الخير في ذاته والشر في ذاته لا وجود لهما (وقد أمتعني هذا كثيراً)، وإنهما ليسا إلّا وهمين من الأوهام الاجتماعية، وأنني أستطيع حتماً أن أتحرر من كل وهم اجتماعي، ولكنني إذا بلغت هذه الحرية فقد هلكت. أدركت ذلك كله أول مرة، في صيغة واضحة، أمام مائدة الشاي تلك، بينما كنت أمزح وأضحك مع رفاقي لا أدري بأية مناسبة. ولكنني أتذكر كل شيء. إنه يتفق كثيراً لأفكار قديمة يعرفها جميع الناس، أن تظهر جديدة طريفة على حين فجأة.

ومع ذلك لم أنقطع عن انتظار شيء ما. وفعلاً، في نحو الحادية عشرة من المساء، رأيت ابنة البواب التي أرسلتها صاحبة بيتي في جوروخوفايا، رأيتها راكضة نحوي لتقول لي إن ماتريوشا شنقت نفسها. فتبعت الفتاة، واستطعت أن أعرف أن صاحبة البيت كانت هي نفسها لا تدرك لماذا استدعتني. كانت تنتحب وتصرخ كما يفعل أمثال هؤلاء الناس في مثل هذه الظروف. وكان هناك ناس كثيرون، وكان هناك شرطة. قضيت لحظة ثم انصرفت.

لم يزعجني أحد في هذه القضية. ومع ذلك ألقيت علي بضعة أسئلة. ولكنني لم أزد على أن البنت كانت مريضة، وأنها كانت في حالة هذيان، وأنني اقترحت استدعاء طبيب على نفقتي. وحدثوني أيضاً عن المطواة، فقلت إن صاحبة البيت قد جلدت ابنتها، ولكن ذلك ليس له شأن. ولم يعرف أحد أنني عدت في المساء. وهكذا انتهت المسألة.

خلال أسبوع كامل، امتنعت عن العودة إلى جوروخوفايا ثم لم أذهب إلى هناك إلّا لأفسخ إيجاري. كانت صاحبة البيت لا تزال تذرف دموعاً غزيرة (وإنني لأتذكر أنني امتعضت من ذلك)، ولكنها كانت قد استأنفت عملها، الخياطة. وقالت لي بدون كبير لوم: "بسبب مطواتك إنما أهنتها". وقد دفعت لها حسابي بحجة أنني لا أستطيع أن أستقبل لينا سافليفنا بعد اليوم في مسكنهم. وأثناء وداعنا أخذت تطري نينا سافليفنا كثيراً من الإطراء أيضاً. وأهديت إليها خمسة روبلات زيادة على ما كنت أدين لها به كراء للغرفة.

كنت في ذلك الأوان أعاني ضجراً يكاد يكون قاتلاً. وكان يمكن بعد زوال الخطر أن أنسى قضية جوروخوفايا نسياناً كاملاً كسائر أحداث تلك الفترة لولا أنني كنت من حين إلى حين أتذكر الرعب الذي أحسست به فأشعر بحنق شديد، وأصب غضبي على من يعرض لي مصادفة. وفي ذلك الأوان إنما خطر ببالي - ولكن من دون أي باعث - أن أفسد حياتي أغبى إفساد ممكن. كنت قبل ذلك بسنة أفكر في إطلاق الرصاص على رأسي. ولكن وسيلة أفضل من تلك الوسيلة كثيراً تعرض لي الآن. ففي ذات يوم، رأيت ماريا تيموفئفنا لبيادكين، العرجاء، منهمكة في خدمة البيت فساورتني هذه الفكرة، وهي أن أتزوجها. لم تكن قد أصبحت مجنونة بعد، ولكنها كانت بلهاء نشوى دائماً، وقد اكتشف رفاقي أنها كانت تحبني في الخفاء حباً جنونياً. إن فكرة زواج يتم بين رجل من آل ستافروجين وبين هذه المخلوقة الشوهاء قد أثارت أعصابي إثارة لذيذة. لا يمكن أن يتصور المرء شيئا أسخف من هذا ولا أغبى ولا أدعى إلى الضحك. لكنني لا أستطيع أن أعرف هل كان قراري الذي اتخذته يرجع ولو على غير شعور مني (على غير شعور، هذا

أكيد) إلى الحنق الذي ملأني به حقداً على نفسي ذلك الخوف الوضيع الذي شعرت به في قضية ماتريوشا. حقا إنني لا أتصور هذا. مهما يكن من أمر فإن هذا الزواج لم يكن فقط "ثمرة رهان تم بعد عشاء تخلله شراب كثير". وقد كان "شهودي" كيريلوف وبطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي الذي كان ماراً يومئذ ببطرسبرج، ثم لبيادكين نفسه، وبروخورومافلوف (الذي توفي بعد ذلك). وعدا هؤلاء لم يعلم أحد بشيء، وقد قطعوا لي على أنفسهم عهد الشرف ليكتمن الأمر. إن هذا الكتمان قد بدا لي دائماً دناءة. ولكن السر لم يكشف حتى الآن، ولم أكن عازماً على أن أعلن كل شيء. فأنا الآن أعلن إذًا هذا الزواج. وبعد الزواج ذهبت إلى أمي في الريف. إنني أذهب إلى هناك لأسري عن نفسي، لأن الحياة أصبحت في نظري لا تطاق. وقد أحس الناس في مدينتنا بأنني مجنون، ولا يزال هذا الإحساس قائماً في نفوسهم إلى الآن، وذلك أمر قد يؤذيني كثيراً، كما سأشرح ذلك. وسافرت بعدئذ إلى الخارج وغبت أربع سنين.

زرت الشرق، وشهدت على جبل آثوس قداديس دينية كانت تدوم ثماني ساعات. وذهبت إلى مصر، وإلى سويسرا، وحتى إلى آيسلاندا. وتابعت خلال سنة من السنين محاضرات جامعة غوتنغن. وفي أثناء السنة الأخيرة من إقامتي في الخارج أصبحت بباريس صديقاً لأسرة روسية رفيعة المنزلة، وأصبحت بسويسرا صديق فتاتين روسيتين. وحين مررت بمدينة فرنكفورت منذ سنتين أبصرت في واجهة إحدى المكتبات، بين صور فوتوغرافية كثيرة، صورة بنت أنيقة الملابس، لكنها تشبه ماتريوشا كثيراً. اشتريت الصورة فوراً، حتى إذا عدت إلى الفندق وضعتها على المدفأة. وظللت لا ألمسها أسبوعاً بكامله، بل إنني لم ألق عليها نظرة واحدة، وحين غادرت فرنكفورت نسيت أن آخذها.

إنني أذكر هذه الواقعة لأبين مدى ما كنت أتمتع به من قدرة على السيطرة على ذكرياتي، ومدى ما كنت أتصف به من عدم الاكتراث بها. كنت أنبذها كلها في آن معاً، دفعة واحدة، وكانت كتلتها كلها تغيب فوراً متى أردت ذلك. كان يضجرني دائماً أن أتذكر الماضي، ولم أستطع في يوم من الأيام

أن أتحدث عن الماضي طويلاً كما يفعل جميع الناس تقريباً. وفي ما يتعلق بماتريوشا، نسيت حتى صورتها على المدفأة.

منذ سنة، في الربيع، بينما كنت مسافراً إلى ألمانيا، تجاوزت من ذهولي المحطة التي كان يجب أن أنزل فيها لأركب قطاراً آخر. وتوقفت في المحطة التي بعدها. كانت الساعة هي الثالثة بعد الظهر. وكان النهار واضحاً نيراً. هي مدينة ألمانية صغيرة جداً. دلوني على فندق. كان ينبغي أن أنتظر: إن القطار التالي لا يصل إلّا في الساعة الحادية عشرة من المساء. سرتني هذه المغامرة، فلا شيء كان يحضني على السرعة. الفندق سيئ صغير، ولكنه محاط من جميع الجوانب بأشجار وأحواض أزهار. أُعطيت غرفة صغيرة ضيقة. وأصبت غداء طيباً. ولأنني كنت قد قضيت الليل كله في القطار فقد نمت نوماً عميقاً حتى الساعة الرابعة بعد الظهر.

رأيت حلماً لا أتوقع أن أرى مثله البتة. ذلك أنني لم يسبق لي أن رأيت أحلاماً كهذه الأحلام. إن أحلامي تكون سخيفة أو رهيبة على الدوام. كان متحف درسدن يضم لوحة للرسام كلود لورين عنوانها "آسيس وغالاتيه" في ما أظن. وكنت أنا أسميها "العصر الذهبي"، لا أدري لماذا! كنت قد لاحظت هذه اللوحة منذ مدة طويلة، وكنت قد رأيتها مرة أخرى منذ ثلاثة أيام. بل لعلني ما ذهبت إلى درسدن إلّا لهذا الغرض. فهذه اللوحة هي ما رأيته في الحلم، ولكنني لم أره في الحلم لوحة، وإنما رأيته واقعاً كان، كما هو في اللوحة، ركنًا من الأرخبيل اليوناني، وكنت أنا فيما يبدو قد تقهقرت في الزمان أكثر من ثلاثة آلاف عام. أمواج زرق لعوب، جزر وصخور، شطآن مزدهرة. وفي بعيد، منظر فاتن، منظر نداء الشمس الغاربة... إن الألفاظ عاجزة عن وصف ما رأيت. ههنا مهد الإنسانية. أفعمت هذه الفكرة نفسي بحب أخوي. هذه هي الجنة الأرضية. الآلهة تنزل من السماء وتتحد بالبشر. هنا جرت أول مشاهد الأساطير الإغريقية. هنا كانت تعيش إنسانية جميلة. البشر يستيقظون وينامون سعداء أبرياء. الغابات تدوي بأغانيهم الجذلى. فائض قواهم الغزيرة ينسكب حباً وفرحاً بريئاً. وكنت أنا أحس هذا، وأدرك في الوقت نفسه المستقبل العريض الذي ينتظرهم ولا يخطر لهم ببال، فقد

كان قلبي يرتعش لهذه الأفكار. آه... ما كان أعظم سعادتي بأن قلبي يرتعش، وبأنني أصبحت قادراً على أن أحب في آخر الأمر! كانت الشمس تسكب أشعتها على الجزر وعلى البحر وتبتهج بأبنائها الجميلة. رؤيا رائعة! رؤيا بديعة! حلم هو أبعد الأحلام استحالة، ولكن الإنسانية وهبت له جميع قواها، وضحّت من أجله بكل شيء. باسمه مات بعضهم على الصليب، وفي سبيله قتل الأنبياء، وبدونه لا تود الشعوب أن تحيا، ومن غيره لا تستطيع حتى أن تموت. وهذا كله قد عشته في حلمي. لا أدري على وجه الدقة ماذا رأيت. الأصح أن الأمر كان إحساساً لا رؤيا. غير أن الصخور والبحر والأشعة المائلة التي كانت ترسلها الشمس الغاربة ـ ذلك كله كان لا يزال يبدو لي أنني أراه حين استيقظت وفتحت عينيَّ اللتين كانتا مبتلتين بالدموع أول مرة في حياتي. إن الإحساس بسعادة مجهولة قد شق قلبي، حتى لقد كنت من ذلك في ألم. وكان الوقت مساء. ومن خلال خضرة الأزهار التي كانت تزيّن النافذة، كانت الشمس ترشق غرفتي بحزمة مائلة من أشعة حارة، وتغسلني بالضياء. أسرعت أغمض عيني كأنني أحاول أن أستعيد الحلم الغائب ولكنني ما لبثت أن ميزت فجأة في وسط الضوء الساطع القوي نقطة صغيرة حمراء. على هذا النحو إنما بدأ الأمر. وفجأت تذكرت العنكبوت الأحمر الصغير. رأيته كما سبق أن تأملته فوق ورقة الزهر بينما كانت الشمس تلقي أشعتها المائلة في تلك اللحظة. نفذ في نفسي شيء حاد. نهضت جالساً على السرير. هكذا تماماً جرت الأمور.

رأيت أمامي (أوه! لا في الواقع! وليت ذلك كان شبحاً يمكنني أن أخاطبه) رأيت ماتريوشا مهزولة محمومة العينين، تماماً كما كانت حين وقفت في عتبة غرفتي، وهزّت رأسها وهددتني بإصبعها الصغيرة. ما من شيء آلمني في حياتي يوماً كما آلمني هذا. يأس يثير الشفقة ويبعث على الأسى، لدى مخلوقة صغيرة عاجزة لا يزال عقلها لا شكل له، تهددني (بأي شيء؟ ماذا كانت تستطيع أن تصنع بي؟) ولكنها حتما لا تتهم إلّا نفسها. لم يسبق أن حدث لي شيء شبيه بهذا في يوم من الأيام. لبثت جالساً طوال الليل لا أتحرك، فاقداً إحساسي بالزمن. أود الآن لو أشرح لنفسي ما جرى، بأقصى

وضوح ممكن. أكان هذا ما يسمى عذاب الضمير، والندامة؟ ما زلت أجهل ذلك حتى اليوم. والشيء الذي لا أطيق احتماله الآن، إنما هو تلك الرؤية، رؤية البنت في عتبة الباب، رافعة قبضة يدها الصغيرة، مهددة متوعدة. تلك هي الدقيقة التي تعذبني، لا ما قبلها ولا ما بعدها. لا شيء إلّا مظهر البنت في تلك اللحظة، لا شيء إلّا تلك اللحظة، لا شيء إلّا هزّ البنت رأسها على تلك الصورة. إن تلك الحركة، حركة التهديد عينها، أصبحت لا تبدو لي الآن مضحكة بل فظيعة. إنني أحس نحو البنت بشفقة حادة، شفقة تذهب بعقلي وتجعلني كالمجنون. وإني لمستعد أن أسلم جسمي لجميع أنواع التعذيب في سبيل أن لا يكون قد حدث ذلك الأمر في ذلك اليوم. ليست جريمتي هي ما آسف له وأندم عليه، لا ولا موت الطفلة. ولكن تلك اللحظة، تلك اللحظة بعينها، هي ما يستحيل علي احتماله استحالة مطلقة، لأنني منذ ذلك الحين أصبحت تظهر لي كل يوم، وأنا أعلم الآن علم اليقين أنني هالك. هي لا تظهر لي من تلقاء ذاتها، وإنما أنا أستحضرها، ولكن يستحيل علي ألا أستحضرها، رغم أن هذا يجعل حياتي مستحيلة. آه... ليتني أستطيع أن أراها مرة أخرى في الواقع، ولو هلوسة! أود لو تنظر إلي ولو مرة واحدة، كما فعلت في ذلك اليوم، بعينيها الواسعتين المحمومتين، أود لو تحدّق إلى عينيّ... فترى فيهما... آه!... ما أغبى هذا الكلام! فلن يحدث هذا في يوم من الأيام!

لماذا لا توقظ في نفسي أية ذكرى من ذكرياتي شيئاً شبيهاً بهذا؟ ما أكثر ذكرياتي مع ذلك... بل إن بينها ذكريات أسوأ من تلك في نظر الإنسان. ومع ذلك لا توقظ في نفسي إلّا شيئاً من كره في أسوأ تقدير، وهو من جهة أخرى كره تولّده حالتي الراهنة. كنت في الماضي أنسى تلك الذكريات بهدوء كامل، وأبعدها جميعاً، وكنت أنعم باطمئنان أصطنعه اصطناعاً.

ظللت بعد ذلك أطوف سنة كاملة، محاولاً أن أشغل نفسي. أنا أعلم أنني ما زلت أستطيع أن أنحي صورة البنية حين أريد. إنني سيد إرادتي، لي عليها سلطة كاملة، كما كنت دائماً. ولكن المسألة كلها هي أنني لم أشأ أن أفعل ذلك في يوم من الأيام، وإنني في قرارة نفسي لا أريد ذلك ولن أريده.

وسيدوم هذا إلى أن أجن جنوناً تاماً.

في سويسرا، بعد شهرين (لعل ذلك كان رداً من الجسم الذي كان يكافح رغم كل شيء من أجل أن يحيا)، اعترتني من جديد نوبة من نوبات الهوى العارم، أو انتابتني سورة شبيهة بتلك السورات المجنونة التي عرفتها في شبابي. لقد شعرت بانجذاب إلى اقتراف جريمة جديدة هي أن أتزوج امرأة ثانية فوق زوجتي (ذلك أنني كنت متزوجاً)، لكنني لذت بالفرار عملاً بنصيحة فتاة أخرى أفضيت إليها بأمري، وإنني على وجه الإجمال لا أستطيع أن أحب أحداً قط، وأن نفسي لا يعتمل فيها شيء غير الشهوة. مهما يكن من أمر، فإنني لو اقترفت تلك الجريمة الجديدة لما كان يمكن أن تخلصني من ماتريوشا أبداً.

لذلك قررت أن أطبع هذه الصفحات، وأن أدخل منها إلى روسيا ثلاثمائة نسخة. فمتى حان الحين، أرسلتها إلى الشرطة، إلى السلطات المحلية. بل إنني سوف أرسلها في الوقت نفسه إلى إدارات تحرير جميع الصحف راجياً منها أن تنشرها، كما سوف أرسلها أيضاً إلى معارفي الكثيرين في بطرسبرج وفي روسيا كلها. وسوف تنشر هذه الصحائف مترجمة في الخارج.

أنا أعلم أنني قد لا يزعجني القضاء، أو أنني قد لا يزعجني كثيراً. فأنا أتهم نفسي، ولا أحد يتهمني. وعدا ذلك ليس هناك أدلة، أو ليس هناك إلّا أدلة قليلة جداً. ثم إن كثيراً من الناس يعتقدون أنني مختل العقل. ومن المؤكد أن أهلي سيبذلون جهودهم ليستفيدوا من هذا الرأي، وليلغوا بذلك كل ملاحظة قضائية خطرة. أقول ذلك لأبرهن برهاناً جديداً على أنني أملك عقلي كاملاً، وإنني أدرك الوضع الذي أنا فيه. ومع ذلك سيبقى هنالك الناس الذين سيعرفون كل شيء، وسينظرون إلي، وسأنظر إليهم أيضاً. أريد أن ينظر إلـيّ جميع الناس. ترى هل يخفف هذا عني؟ لا أدري! ولكن ذلك أملي الوحيد.

مرة أخرى: إذا أحسن البحث في محفوظات شرطة بطرسبرج، فقد يكتشف شيئ ما. لعل تلك الأسرة لا تزال في بطرسبرج. وسوف يُتذكر المنزل حتماً: لقد كان لونه أزرق شاحباً. أما أنا فلن أبتعد، وسأقيم في

سكفورشنيكي، الأطيان التي تملكها أمي، سنة أخرى أو سنتين أخريين. وإذا طلب مني أن أحضر إلى أي مكان، فسأحضر.

"نيقولاي ستافروجين"

دامت القراءة قرابة ساعة. كان تيخون يقرأ قراءة بطيئة، بل لعله كان يعيد قراءة بعض الفقرات. ومنذ الانقطاع الذي أحدثه ستافروجين إذ نحى الصحيفة الثانية جانباً، كان ستافروجين يجلس ساكناً صامتاً، مستنداً بظهره إلى مسند الديوان، وكان يبدو عليه الانتظار. نزع تيخون نظارتيه عن عينيه، وتلبث لحظة، ثم ألقى على ستافروجين نظرة مترددة. فارتعش ستافروجين، ومال بحركة سريعة إلى أمام.

قال بلهجة مباغتة جافة:

ـ نسيت أن أنبهك إلى أن جميع أقوالك ستكون عبثاً لا طائل منه. إنني لن أغير ما عقدت عليه نيتي. فلا تضيع وقتك محاولاً أن تثنيني عن عزمي. سوف أطبع هذه الصحائف.

واحمر وجهه وصمت.

ـ لم يفتك أن تنبهني إلى ذلك قبل القراءة.

كان في لهجة تيخون شيء من حنق. وواضح أن "الوثيقة" قد أحدثت في نفسه أثراً قوياً. لقد جُرح شعوره المسيحي، وهو لا يقدر دائماً أن يسيطر على نفسه. يجب أن ألاحظ في هذه المناسبة أن السمعة التي اكتسبها، وهي "أنه لا يحسن التصرف مع الناس"، كما كان يقول عنه الرهبان، لم تكن باطلة. فرغم كل ما يملكه من روح المحبة كان في صوته استياء واضح.

تابع ستافروجين كلامه بلهجة قاطعة، من دون أن يلاحظ ما طرأ على تيخون من تغير، فقال:

ـ طيب. إنني لن أعدل عما عقدت النية عليه مهما تكن حججك قوية. لاحظ أنني حين أقول هذه الجملة البارعة ـ أو الخرقاء إن شئت ـ لا يخطر ببالي أن أتخذها وسيلة لإثارة حججك واستدراج رجائك.

قال ستافروجين هذه الكلمات الأخيرة وضحك ضحكة ساخرة.

قال تيخون:

ـ لا أستطيع أن أناقشك ولا أن أطلب منك العدول عما عزمت عليه. إن ما تنتويه شيء نبيل جداً، ومن المستحيل أن يعبر المرء عن فكرة مسيحية حقاً، تعبيراً أفضل. إن الكفارة لا يمكن أن تمضي إلى أبعد من هذا: إنه لعمل رائع أن يعاقب المرء نفسه كما تنتوي أن تفعل، إذا...

ـ إذا؟

ـ إذا كان ذلك كفارة حقاً، إذا كان فكرة مسيحية فعلاً.

ـ دمدم ستافروجين يقول واجماً ذاهلاً:

ـ هذه حذلقات...

ونهض وأخذ يذرع الغرفة ذاهباً آيباً، حتى من دون أن يلاحظ ما يفعل.

وتجرأ تيخون فقال:

ـ يبدو لي أنك تعمدت أن تصور نفسك أسوأ من حقيقتك، وأسوأ مما يريد قلبك أن تكون.

ـ أصور نفسي؟ أنا "لم أصور نفسي"، أنا لم أكن ألعب. "أسوأ"! ما معنى كلمة "أسوأ" هذه؟

واحمر وجهه من جديد. وأحنقه ذلك. فقال مشيراً إلى الصحائف:

ـ أنا أعلم أن هذا أمر صغير، تافه، حقير، ولكن يجب أن يدفع صغاره نفسه إلى تعمق...

وأمسك عن إتمام كلامه فجأة كأنه خجل أن يستمر، وكأنه رأى أن من المذلة أن يسترسل في شروح. ولكنه في الوقت نفسه كان ينصاع انصياعاً أليماً، ولو على غير شعور منه، لضرورة أن يشرح ما بنفسه. يجب أن نلاحظ أنه ما من كلمة قيلت عن احتجاز الصحيفة الثانية. فكأن هذه الصحيفة الثانية قد نسيها الرجلان كلاهما. وكان ستافروجين قد توقف بقرب مائدة الكتابة وها هو ذا يتناول عن المائدة صليباً من عاج، ويأخذ يقلبه بين أصابعه، ثم إذا هو يكسره نصفين على حين فجأة. واعترته عندئذ دهشة، وثاب إلى رشده، فألقى على تيخون نظرة مضطربة حائرة. ولكن شفته العليا أخذت تختلج بغتة، كأنه أهين، وكأنه يتهيأ لأن يرشق خصمه بتحد متكبر. قال بصوت خافت، كأنه يبذل جهداً كبيراً من أجل أن يسيطر على نفسه:

ـ كنت أفترض أنك ستقول لي شيئاً فيه جد. ومن أجل هذا إنما جئت.

ورمى حطام الصليب على المائدة.

فأسرع تيخون يخفض عينيه. وقال يسأل ستافروجين بإلحاح ربما يشبه أن يكون حماسة حارة:

ـ إن هذه الوثيقة تعبر تعبيراً مباشراً عن حاجة قلب يشكو من جرح قاتل. أليس هذا ما يجب أن أفهمه؟ نعم، إنه الحاجة الطبيعية إلى التوبة والكفارة. لقد استولت عليك هذه الحاجة. فالألم الذي سببته للمخلوقة التي آذيتها وأهنتها قد بلغ من التأثير فيك أن المسألة عندك الآن أصبحت مسألة حياة أو موت: فلا يزال هناك إذًا أمل لك، وأنت تسير في الطريق القويم إذ تهيئ نفسك لقبول العقاب والعار أمام جميع الناس. وإنك تحتكم إلى الكنيسة، وإن كنت لا تؤمن بالكنيسة. هل صدق فهمي؟ ولكن يبدو أنك منذ الآن تكره وتحتقر جميع أولئك الذين سيقرأون هذا النص. يبدو أنك تتحداهم.

ـ أنا؟ أتحدى؟

ـ نعم، تخجل، وتخاف.

ـ أخاف؟

قال ستافروجين ذلك وضحك ضحكة متشنجة، وعادت شفته العليا تختلج. أجاب تيخون:

ـ أنت تقول: ألا فلينظروا إلي! ولكن كيف عساك تنظر أنت إليهم! إنك منذ الآن تنتظر كرههم لترد عليه بكره أكبر منه. إنك كمن يتباهى بسيكولوجيته، وإنك تستفيد من أتفه الأشياء لتدهش القارئ بانعدام إحساسك، وشدة استخفافك واستهتارك وما إلى ذلك مما قد لا يكون له وجود في نفسك. ومن جهة أخرى فإن الأهواء الفاسدة والفراغ والبطالة قد جعلتك فعلاً منعدم الإحساس وغبياً.

قال ستافروجين وهو يضحك ضحكاً ساخراً وقد اصفر وجهه:

ـ ما الغباء برذيلة.

فعقب تيخون قائلاً بحرارة وجزم:

ـ بل هو رذيلة أحياناً. إنك وقد جرحتك رؤية البنت في عتبة الباب جرحاً

قاتـلاً، تبـدو في هذا النص مع ذلـك كمن لا يدرك ماذا يجـب أن يخجله من النـاس الذيـن يحتكم إليهم: أهو انعدام إحساسـه في الجريمـة أم هو الرعب الـذي اعتـراه؟ حتـى إنك في لحظـة من اللحظات تسـرع مؤكـداً لقارئك أن حركـة التهديد التـي أجرتها البنت أصبحـت لا تبدو لك مضحكـة بل قاتلة. ولكـن هل صحيح أنها أمكن أن تبدو لـك مضحكة حقاً، ولو لحظة واحدة؟ نعم، لقد بدت لك كذلك، أشهد بهذا.

وصمت تيخون. كان يتكلم كامرئ عدل عن السيطرة على نفسه.

استحثه ستافروجين قائلاً:

ـ تكلّم، تكلّم. إنك حانق... وإنك تؤنبني. يعجبني هذا من راهب. ولكن إليك ما يدهشني: إننا نتناقش في أمر هذه الصحائف منذ عشر دقائق. ولست أرى فيك رغم تأنيبك أية علامة على الاشـمئزاز والشـعور بالعار. إنك لست مشمئزاً، وإنك تكلمني كلام الند للند.

كان سـتافروجين قد خفض صوتـه. وكأن هذه الكلمـات "تكلمني كلام النـد للند" قد انبجسـت من بين شـفتيه من دون أن يفكر فـي ذلك. فنظر إليه تيخون بانتباه. وقال بعد صمت:

ـ إنك تدهشني، لأن أقوالك صادقة. أنا أرى ذلك. وفي هذه الحالة أكون أنـا المذنـب في حقك. فاعلم إذًا أنني كنت فظاً قليل الأدب، وكنت مشـمئزاً متقززاً، ولكنك من شدة ظمئك إلى التوبة لم تلاحظ ذلك رغم أنك لاحظت نفـاد صبري وهو ما سـميته أنـت تأنيباً. غير أنك تعد نفسـك جديـراً باحتقار أعمـق مـن ذلك إلى غيـر نهاية، ولقد كانـت الكلمات التي نطقـت بها بدون إرادة منـك حيـن قلت "كلام الند للنـد" كلمات طيبة جميلـة. لا أكتمك أنها ترعبني، هذه القوة الكبيرة العقيمة التي لا تسعى إلى غير التحقق في دناءات. ليـس يتحول المرء إلى أجنبي بغير سـبب: إن ثمة عقابـاً يطارد جميع أولئك الذيـن ينفصلـون عن أرضهم، وإن الضجر والسـأم والبطالة تحاصرهم حتى ولـو أرادوا أن يعملـوا. ولكـن المسـيحية تقبل المسـؤولية مهما تكـن البيئة التـي يعيـش فيها المـرء. إن الله لـم يحرمنـا من الذكاء. فكر أنت نفسـك: إذا كنت تسـأل نفسك أأنا مسؤول أم غير مسؤول عن أعمالي، فمعنى ذلك أنك

مسؤول ضرورة. يستحيل أن لا تتسلل الغواية إلى هذا العالم، ولكن ويل للذي به تتسلل. على كل حال، في ما يتعلق بخطيئتك، فإن كثيرين يفعلون ما فعلت، ولكنهم يظلون يعيشون في سلام وهدوء، حتى لتراهم يعدون خطيئات سن الشباب هذه أموراً لا مفر منها. وهناك شيوخ تفوح منهم رائحة القبر منذ الآن، ومع ذلك تراهم يأثمون ويتأسون عن ذلك مرحين. إن العالم زاخر بهذه الفظاعات. أما أنت فقد شعرت بكل ما في ذلك من عمق، حتى لقد بلغت من هذا درجة نادرة كل الندرة.

قال ستافروجين وهو يضحك ساخراً:

أتراك أخذت تعتبرني بعد قراءة هذه الصحائف؟ إنك أيها الأب المحترم تيخون ـ وقد سمعت هذا عنك ـ لا تصلح أن تكون موجهاً للضمير ومرشداً للوجدان.

كذلك أضاف ستافروين وهو يجبر نفسه على الابتسام إجباراً. وتابع يقول:

ـ إنهم ينتقدونك كثيراً هنا. هم يقولون إنك متى اكتشفت في الخاطئ شيئاً من مذلة وشيئاً من صدق، أعجبت به فوراً، حتى لتكاد تبادر إلى الندم وإذلال نفسك أمام من جاءك... تائباً.

ـ لست مسؤولاً عن هذا مباشرة. ولكن من المؤكد أنني لا أحسن مخاطبة الناس. تلك كانت آفتي دائماً!...

كذلك قال تيخون متنهداً، وقد بلغ كلامه من البساطة أن ستافروجين نظر إليه مبتسماً. وتابع تيخون كلامه وهو ينظر إلى الصحائف:

ـ أما عن هذه فلا شك أن الجريمة التي ارتكبتها لا تفوقها جريمة في شدتها وفظاعتها.

قال ستافروجين بعد صمت لا يخلو من الغضب:

كفانا قياسًا بالأركين. لعل عذابي ألا يكون قوياً إلى الحد الذي وصفته هنا.

وختم كلامه فجأة:

ـ ولعلني كذلك قد أسرفت في اتهام نفسي.

لم يقل تيخون شيئاً. وكان ستافروجين يسير في الغرفة طولاً وعرضاً، خافضاً رأسه غارقاً في تأمله.

وفجأة سأله تيخون:

ـ وتلك الفتاة التي قطعت صلتك بها، أين هي الآن؟

ـ هنا.

وخيم صمت جديد.

وعاد ستافروجين يقول مكرراً ملحاً:

ولعلني كذبت عليك في شأنها. أنا نفسي لا أعرف معرفة واضحة حتى الآن... على كل حال، هبني أستفز الناس بوقاحة اعترافي ـ ما دمت قد لاحظت استفزازي ـ ففيم يهمني هذا؟ ذلك ما يجب. إنهم يستحقون هذا الاستفزاز.

ـ أي أن كرهك لهم أسهل عليك من قبول شفقتهم.

ـ أصبت. أنا لم أعتد أن أكون صريحاً، ولكن ما دمت قد بدأت... معك، فاعلم أنني أحتقرهم كما أحتقر نفسي سواء بسواء، هذا إن لم أحتقرهم أكثر من ذلك، أكثر من ذلك، أكثر بما لا نهاية له. ما من واحد منهم يستطيع أن يكون لي قاضياً... لقد كتبت هذه السخافات لأن ذلك خطر ببالي، كتبتها من باب الاستخفاف والاستهتار. ويجوز كذلك أن أكون قد كذبت لا أكثر، في لحظة اندفاع.

قطع ستافروجين كلامه حانقاً على حين فجأة، واحمر وجهه من جديد خجلاً من أنه تكلم بغير إرادته. واقترب من المائدة مديراً ظهره لتيخون، وأمسك قطعة من الصليب المحطوم.

وقال تيخون يسأله:

ـ أجب عن سؤالي، ولكن بصدق، أجبني أنا وحدي، أو أجب وكأنك تكلم نفسك في خلوة ليلاً: إذا غفر لك واحد من الناس هذا (وأشار إلى الصحائف)، لا واحد من الذين تقدرهم أو تخشاهم، بل شخص مجهول، إنسان لن تعرفه في يوم من الأيام، يغفر لك في صمت، بينه وبين نفسه، أثناء

قراءة اعترافك، فهل يهدئك أن تتصور هذا أم أنت لا تحفل به؟ إذا كان يشق عليك كثيراً أن تجيب عن هذا السؤال من باب الكبرياء، فلا تجب، ولكن فكر فيه بينك وبين نفسك.

قال ستافروجين بصوت خافت:

ذلك يهدئني.

وأضاف يقول بسرعة شديدة، وبصوت يشبه أن يكون دمدمة، ولكن من دون أن يتحول عن المائدة مع ذلك:

ـ إذا غفرت لي فإن غفرانك سيحسن إلي كثيراً.

ـ ولكن على شرط أن تغفر لي أنت أيضاً.

ـ ماذا؟ آ... نعم... هذا تعبيركم في الأديرة. تواضع سيئ! هل تعلم، إن جميع التعابير القديمة التي تستعملونها في الأديرة ليست جميلة البتة. ولكنكم أنتم تتصورونها جميلة جداً.

قال ستافروجين ذلك وانفجر يضحك ضحكاً حانقاً. ثم أضاف يقول فجأة وهو يلتفت:

ـ حقاً لا أدري لماذا أنا هنا. آ... نعم... لقد حطمت... قلي لي: أحسب أن هذا يكلف خمسة وعشرين روبلاً، أليس كذلك؟

قال تيخون:

ـ لا تقلق لهذا الأمر!

ـ أم هو يكلف خمسين؟ لماذا يجب ألا أقلق لهذا الأمر؟ ما الذي يسوغ لي أن أجيء إليك فأكسر لك أشياءك، وعلام تغفر لي هذا التخريب؟ خذ! إليك خمسين روبلاً.

قال ذلك وهو يستل المال من جيبه ويضعه على المائدة. ثم تابع كلامه يقول:

ـ إذا لم تشأ أن تأخذها لك فخذها للفقراء، أو خذها للكنيسة.

كان ستافروجين يهتاج مزيداً من الاهتياج شيئاً بعد شيء. وواصل كلامه:

ـ اسمع. سأقول لك الحقيقة كلها: أريد أن تغفر لي، وأن يغفر لي معك ثان وثالث، أما الجميع فليكرهوني، فليكرهوني.

ـ أأنت قادر على أن تتحمل شفقة جميع الناس بمذلة كاملة؟

ـ لا، لا أقدر على ذلك. لا أريد شفقة من الجميع. ثم إن هذا سؤال خال من المعنى: فهذه الشفقة لا يمكن أن توجد. اسمع. لا أريد الانتظار. سوف أطبع هذه الصحائف. لا تحاول أن تقنعني. لا أستطيع أن أنتظر. لا أستطيع.

كان خارجاً عن طوره.

قال تيخون شبه خجلان:

ـ إنني أخاف عليك.

ـ تخاف علي أن لا أصمد للأمر؟ أن لا أستطيع احتمال كرههم؟

ـ لا، لا كرههم فحسب.

ـ ماذا إذًا أيضاً؟

ـ ... ضحكهم.

قال تيخون ذلك بصوت خافت، وكأنه يقول رغم إرادته.

لم يستطع المسكين أن يكظم ما بنفسه، وأخذ يتكلم في ما كان يحسن السكوت عنه. وكان يعلم حق العلم على كل حال أن الصمت أفضل.

فاضطرب ستافروجين، وظهر القلق في وجهه. قال:

ـ أوجست هذا. إذًا كنت أظهر لك شخصاً مضحكاً أثناء قراءتك "النص"؟ لا تقلق، لا تضطرب، لقد كنت أتوقع ذلك.

كان تيخون قد اضطرب حقاً. وحاول أن يشرح معتذراً بأقصى سرعة، ولكنه لم يزد على أن أفسد الأمر إفساداً أكبر. قال:

ـ لكي يقوم المرء بمثل هذه الأعمال لا بد له من الهدوء النفسي. وحتى في الألم لا بد من الاحتفاظ بقدر كبير من السكينة ورباطة الجأش. وليس الحال كذلك في أيامنا هذه. فالسكينة ورباطة الجأش تعوزان الناس في هذا الزمان. فلا يرى الإنسان في كل مكان إلّا مناقشات ومشاجرات. إن البشر لا يتفاهمون الآن أكثر مما كانوا يتفاهمون في عصر برج بابل...

قال ستافروجين يقاطعه:

ـ هذا الكلام كله ممل مضجر! أنا أعرف هذا الكلام. لقد كرره الناس ألف مرة حتى الآن!...

قال تيخون منتقلاً إلى السؤال رأساً:

- على كل حال، لن تبلغ هدفك. إنك من الناحية القضائية لا يمكن أن ينالك أحد تقريباً. ذلك ما سينبهونك عليه قبل كل شيء ساخرين منك متهكمين عليك. وبعدئذ سيحتار كثيرون: من ذا الذي سيفهم الدوافع الحقيقية لاعترافك؟ لسوف يتعمدون ألا يفهمونها، لأنهم يخشون الأعمال التي من هذا النوع. إنهم يستقبلونها في رعب، ويكرهونها وينتقمون: الناس يحبون وحلهم ولا يريدون أن يحرَّك. لذلك سيقبلون الأمر مزاحاً بأقصى سرعة. إذ بالأمازيح إنما ينتصر الناس على مثل هذه الأشياء أسهل انتصار.

قال ستافروجين يستحثه:

- تكلم بوضوح. قل كل شيء.

- في البداية سيعبرون عن شعورهم بالهول حتماً، ولكن ذلك سيكون أقرب إلى التظاهر منه إلى الصدق، ولن يكون له هدف إلّا إرضاء المواضعات الاجتماعية. لا أقصد أصحاب النفوس الطاهرة النقية: فهؤلاء سوف يرتاعون، لكنهم سيتهمون أنفسهم ويصمتون، فلا يلاحظهم أحد. أما الآخرون، أقصد الناس الذين يختلفون إلى المجتمع، فإنهم لا يخشون إلّا ما يهدد مصالحهم رأساً. فمتى انقضت الدهشة الأولى، ومتى انقضى الارتياع المصطنع الأول، أخذوا يضحكون. فهؤلاء هم الذين سيضحكون. سيبدو لهم جنونك طريفاً شائقاً جداً. ذلك أنهم سيعدونك مجنوناً، مع استمرارهم في تحميلك قدراً من المسؤولية كافياً للضحك عليك. فهل تراك تتحمل هذا؟ ألا يحمل قلبك عندئذ من الكره ما سوف يحطمك تحطيماً؟ ذلك ما أخشاه.

أجابه ستافروجين منزعجاً:

- طيب... وأنت... أنت نفسك... إنني ليدهشني أن يكون رأيك في الناس سيئاً إلى هذا الحد من السوء! إنك تحكم عليهم باشمئزاز شديد.

صاح تيخون يقول:

- صدّق إنني إذ أقول عن الناس هذا الكلام إنما أحكم عليهم اعتماداً على معرفتي بنفسي خاصة.

ـ أيكون في نفسك إذًا شيء يمكن أن يتلذذ بعذابي؟
ـ من يدري؟ ربما نعم. آ... نعم... جائز جداً.
ـ كفى! قل لي إذًا: ما الذي يبدو لك من وضعي مضحكاً في هذه القصة؟ أنا أعرفه، ولكنني أحب أن تدلني عليه بإصبعك. اذكره لي بأكبر استخفاف ممكن، لأنك إنسان مستخف أعظم الاستخفاف حقاً. إنكم معشر الرهبان مستخفون استخفافاً رهيباً، لا تدرون أنتم أنفسكم مدى ما تحملونه للبشر من احتقار... كلمني بأكبر صدق تقدر عليه. أعود فأقول لك مرة أخرى: إنك إنسان غريب الأطوار جداً.
ـ ثمة شيء مضحك في نظر الناس، بل شيء زائف أيضاً، حتى في ما عقدت عليه نيتك من أمر عظيم، أعني قبولك هذه التوبة الرائعة، ناهيك عن شكل هذه النية، وهو شكل مضطرب متردد غير ثابت ثباتاً كافياً.
وصاح يقول فجأة، وهو في ما يشبه النشوة:
ـ أوه! لا يراودنك شك في انتصارك. لسوف ينتصر هذا الشكل...
قال ذلك وهو يشير إلى الصحائف بيده. وتابع كلامه:
ـ ... ولكن شرط أن ترتضي الصفعات والبصقات صادقاً كل الصدق... وأن تحتملها إلى النهاية. إن أحط صليب ينتهي دائماً بالوصول إلى أعلى مجد، ينتهي بالوصول إلى القوة، متى كانت المذلة صادقة. ولكن أأنت قادر على هذه المذلة؟ يجب أن لا تحتقر قضاتك، وإنما ينبغي أن تثق بهم، وأن تثق بالكنيسة. وعندئذ إنما تنتصر عليهم وتجتذبهم إليك بالقدوة، وتتحد بهم في الحب... آه... ليتك تقدر أن تحتمل كل شيء إلى النهاية.
ـ قل لي ما الذي تراه مضحكاً في هذه الصحائف؟
ـ لماذا، لماذا هذا الاهتمام بالمضحك؟ لماذا هذا المرض لديك؟ كذلك صاح تيخون فجأة وهو يهزّ رأسه.
قال ستافروجين:
ـ دعنا من هذا وقل لي ما هناك من شيء مضحك...
دمدم تيخون يقول خافضاً عينيه:
ـ إن الدمامة هي التي ستقتل.

ـ الدمامة؟ أية دمامة؟

ـ دمامة الجريمة. إنها دميمة حقًا. يمكن القول إن الجريمة، أيًا كانت، تبدو أفظع، ويكون تأثيرها أكبر، وتكون إثارتها أعزم، على قدر ما يكون قد سفح فيها من دم. غير أن هناك جرائم مخزية، دنيئة، ترجع فظاعتها إلى حطتها وخستها...

لم يكمل تيخون جملته. قال ستافروجين:

ـ أي أن ما تراه مضحكاً في وضعي هو أنني قبلت يدي بنت صغيرة قذرة... ثم إنني ارتعشت خوفاً... إلى آخر ما هنالك. إنني أفهم عنك كل الفهم. وأنت تخاف علي لأن هذا العمل دميم، رديء، لا، لا رديء، بل مخز، مضحك. وتظن أن هذا بعينه هو ما لن أستطيع احتماله، هه؟

لم يجب تيخون ولبث صامتاً. وشحب ستافروجين وتقبض وجهه. ودمدم يقول كمن يخاطب نفسه:

ـ الآن فهمت لماذا سألتني هل آنسة سويسرا هنا!

أجابه تيخون:

ـ لست مستعداً، لست قوياً قوة كافية.

قال ستافروجين فجأة بحماسة وحشية:

ـ اسمع، أريد أن أنال مغفرة نفسي. تلك هي غايتي الرئيسية، غايتي الوحيدة. ذلك هو اعترافي كله، تلك هي الحقيقة كلها، وما عدا هذا كذب. فمتى نلت مغفرة نفسي، زالت الرؤيا إلّا في ذلك الحين. ذلك هو السبب في توقي إلى عذاب لا حدود له، ذلك هو السبب في أنني أسعى إلى هذا العذاب.

وصرخ ستافروجين يضيف قوله كأنما على غير إرادة منه:

فلا تثبط همتي، وإلا هلكت غضباً وسخطاً.

ولم يكن تيخون يتوقع هذه الاندفاعة، فها هو ذا ينهض. ويهتف قائلاً بفرح:

ـ إذا كنت تؤمن بأنك تستطيع أن تغفر لنفسك، وبأنك ستنال غفرانك في هذا العالم بالألم، وإذا كنت لا تسعى إلّا إلى الحصول على هذا الغفران،

فأنت إذًا تؤمن إيماناً تاماً. فكيف أمكنك أن تقول إنك لا تؤمن بالله؟

لزم ستافروجين الصمت.

ـ سيغفر لك الله قلة إيمانك، لأنك تقدس الروح القدس من دون أن تعرف ذلك.

قال ستافروجين مكفهر الهيئة:

ـ لن أنال غفراناً. لقد جاء في كتابك إنه ما من جريمة أفدح من إيذاء "طفل من هؤلاء الأطفال الصغار". نعم، في هذا الكتاب.

وأشار إلى الإنجيل.

فأجاب تيخون بلهجة نافذة:

ـ جواباً عن هذا أقول لك: إذا استطعت أن تغفر لنفسك فإن المسيح سيغفر لك أيضاً.. آه.. لا.. لا.. لا تصدقني.. لقد جدّفت. هبْك لم تصالح نفسك ولم تغفر لنفسك فإنه سيعفو عنك لنيتك الحسنة وعذابك الكبير... ذلك إن اللسان البشري تعوزه الكلمات وتعوزه الأفكار للتعبير عن جميع طرق "الحمل" إلى اليوم الذي "يكشف لنا فيه عن تلك الطرق كشفاً كاملاً". من ذا الذي يقدر أن يقيس ما يتجاوز كل قياس؟ من الذي يستطيع أن يفهم عمقه كله؟ وارتعشت أطراف شفتيه كما حدث من قبل، وطافت بوجهه حركة خفيفة شنجته قليلاً. لقد كان جهده عنيفاً مسرفاً في العنف. وخفض عينيه.

تناول ستافروجين قبعته عن المائدة. وقال:

ـ سأرجع في يوم آخر.

كان يبدو مرهقاً. وأردف يقول:

سوف نتكلم مرة أخرى في هذا كله. لقد سعدت بحديثك أكبر السعادة... وإني لأقدر الشرف والاستقامة حق قدرهما... وأقدر عواطفك. صدّق إنني أدرك الآن لماذا يحبك بعض الأشخاص ذلك الحب كله...

سأله تيخون وهو ينهض أيضاً وقد دهش دهشة كبيرة:

ـ أتنصرف؟ وأنا...

وبدا عليه التردد... لكنه أكمل كلامه فقال:

ـ كنت أريد أن أتجه إليك برجاء... ولكني لا أدري الآن هل... إنني أخشى أن...

ـ أرجوك... تفضل...

كذلك قال ستافروجين وعاد يجلس وهو لا يزال ممسكاً بقبعته. فنظر تيخون إلى هذه القبعة وإلى وضع ستافروجين، وهو وضع رجل من رجال المجتمع الراقي، لكنه رجل نصف مجنون. فاضطرب تيخون مزيداً من الاضطراب.

ـ إنني أسألك فقط... أنت تدرك بنفسك يا نيقولاي فسيفولودوفتش (هذا هو اسمك إذا لم أخطئ) أنك إذا نشرت هذه الصحائف كنت تحطم حياتك... كنت تحطم عملك في هذه الحياة... وسائر الأمور الأخرى.

ـ عملي في الحياة؟ ألقى ستافروجين هذا السؤال وصعر وجهه.

قال تيخون بصوت يشبه أن يكون ضارعاً وهو يدرك خراقته تمام الإدراك.

ـ لماذا تحطم كل شيء هذا التحطيم؟

فألمَّ بوجه ستافروجين تعبير عن ألم شديد. وقال:

ـ سبق أن قلت لك وها أنا ذا أكرر قولي: إن كلامك كله لا فائدة منه. ثم إن هذا الحديث كله قد أصبح لا يطاق.

وتحرك على مقعده.

ـ إنك لا تفهم عني. أصغ إليّ من دون أن تغضب. إنك تعرف رأيي: إذا كان فعلك هذا ثمرة المذلة فليكونَنّ أجمل الأفعال المسيحية متى كنت قادراً على تحمله. وهبك لم تقدر فإن الرب سوف يدخل تضحيتك في الحساب. إن كل شيء سيدخل في الحساب: كل كلمة من كلماتك، كل حركة من حركات نفسك، أيسر فكرة تمر بخاطرك. لكنني أقترح عليك تضحية أخرى، أكبر من تضحيتك هذه أيضاً...

لزم ستافروجين الصمت.

ـ إنك في حاجة إلى عذاب وتضحية. فتغلّب إذًا على هذه الرغبة أيضاً. دع هذه الصحائف، واعدل عن خطتك، فتنتصر عندئذ على كل شيء: تحطم كبرياءك وزهوك، وتسحق شيطانك. سوف تظفر وتبلغ الحرية...

كانت عيناه تسطعان. وضم يديه إحداهما إلى الأخرى توسلاً وضراعة.

قال نيقولاي فسيفولودوفش بأدب ولكنه كان مشمئز الهيئة قليلاً:

- إنك تسرف في أخذ الأمر مأخذ الجد، إنك تضفي عليه كثيراً من خطورة الشأن... ثق على كل حال أنني أقدر... أنا ألاحظ أنك تريد أن تمد لي شباكاً، على كونك تضمر أحسن النيات طبعاً، وعلى كونك تريد لي الخير من باب الرأفة والإحسان. إنك تريد، على الجملة، أن أضع لنفسي غاية، بل ربما أن أتزوج أيضاً، وأن أختم حياتي الماضية عضواً في النادي، وأن أجيء إلى الدير في أيام الأعياد. أليس كذلك؟ على كل حال، إنك بصفتك رجلاً عارفًا بالقلب، وبصفتك إنساناً مستخفاً لا يبالي، ربما كنت تتنبأ منذ الآن بأن الأمور ستجري هذا المجرى نفسه، فليس عليك إلّا أن تلح وتتوسل إليَّ بإصرار، لأنني في قرارة نفسي لا أرغب إلّا في هذا. أليس كذلك؟ بل إني لأراهن على أنك فكرت أيضاً في أمي وفي طمأنينتها...

قال ستافروجين ذلك وابتسم ابتسامة ساخرة.

وتابع تيخون حديثه متكلماً بحرارة، من دون أن يولي ضحكة ستافروجين وملاحظاته أي انتباه، فقال:

- لا، ليست المسألة مسألة هذه التوبة. إنني أُهيئ لك توبة أخرى. إنني أعرف شيخاً ليس هنا ولكنه غير بعيد عنا. إنه ناسك، متقشف، يبلغ من الاتصاف بالحكمة المسيحية درجة لا نستطيع لا أنا ولا أنت أن نتصورها. سوف يستجيب لرجائي. سوف أقص عليه حكايتك كلها. هل تأذن لي بذلك؟ امض إليه، واخضع لسلطته خمس سنوات أو سبعاً، أو المدة التي سيراها ضرورية في ما بعد. افرض على نفسك هذه الكفارة. وبفضل هذه التضحية الكبيرة سوف تنال كل ما أنت ظامئ إليه، بل حتى ما لا تأمل فيه. ذلك أنك لا تستطيع الآن حتى أن تتصور ما سوف تناله.

أصغى إليه ستافروجين بجد كبير. وازدحم الدم في خديه الشاحبين.

أتقترح علي أن أترهب في ذلك الدير؟

لست في حاجة إلى دخول الدير. لا ينبغي أن تترهب. كن مبتدئاً فحسب، في السر لا في العلانية. حتى لتستطيع أن تتابع حياتك في المجتمع.

فقاطعه ستافروجين يقول بنفور:
دعك من هذا أيها الأب تيخون.
ونهض. ونهض تيخون.
صاح ستافروجين يقول فجأة وهو يحدق إلى تيخون بما يشبه أن يكون رعباً.
ـ ما بك؟ كان تيخون واقفاً قدامه، ماداً يديه إلى الأمام، وكان تشنج سريع قد قبض وجهه المروع.
ـ ماذا بك؟ ماذا بك؟ كذلك كرر ستافروجين مندفعاً نحوه ليسنده. لقد بدا له أن الكاهن سيسقط على الأرض.
هتف تيخون يقول بصوت نافد الصبر يعبر عن ألم شديد:
ـ إني أرى... إني أرى بوضوح أيها الشاب الشقي أنك لم تكن في يوم من الأيام أقرب منك الآن إلى ارتكاب جريمة أفظع من الجريمة الأولى!
فقال ستافروجين ملحاً وقد أقلقته حالة تيخون إقلاقاً شديداً:
ـ هدئ نفسك. قد أرجئ كل شيء أخيراً إلى وقت آخر. إنك على حق.
ـ لا، لا بعد النشر، بل قبل النشر، قبل النشر بيوم، قبل هذه التضحية الكبيرة بساعة واحدة، ستبحث عن مخرج في جريمة جديدة، ولن ترتكب هذه الجريمة إلّا لتتحاشى نشر هذه الصحائف.
ارتعش ستافروجين من الغضب، ومن الخوف أيضاً.
وهتف يقول ساخطاً:
ـ يا لعالم النفس اللعين!
وغادر الغرفة من دون أن يلتفت إلى وراء.

دوستويفسكي

الشياطين

ضللنا الطريق فما عسانا فاعلين؟

الشيطان يجرّنا هنا وهناك

ويديرنا إلى كل الجهات

بهذه الأبيات من بوشكين، وبمقطع من انجيل لوقا عن الشياطين التي دخلت في الخنازير يفتتح دوستويفسكي روايته التي يعطيها عنوان "الشياطين".

أما الشياطين فهم أولئك الذين يتصارعون على روسيا وليس من أجلها.

في العام 1871 نشر دوستويفسكي الجزء الأول من روايته هذه، وتلك المرحلة كانت مرحلة الانقسامات والأفكار المتصارعة، حيث تنمو أفكار الاشتراكية، والأفكار التي تدعو إلى التحرّر من سلطة الكنيسة، وحيث سلطة الدولة تبدو أضعف، وروسيا ترى نفسها أقل من ألمانيا وبقية أوروبا.

عبر نماذج يختارها دوستويفسكي بعناية، من المجتمع الروسي، وهي نماذج لشخصيات حقيقية في جزء كبير منها، يقدّم لنا صورة عن المجتمع الروسي في تلك الأيام، وعن النقاشات الواسعة التي كانت تدور حول الأفكار الجديدة، وحول رغبة رؤية روسيا في مصاف الدول الأكثر تحضّراً، وحول حياة الشعب الروسي. وتشكّل المناقشات حول القضايا الأدبية وحول الدين والايمان، وحول الخير والشرّ، والارستقراطية، والديمقراطية، وحرية التفكير، والصراع بين العلم والدين... الخلفية التي يبني عليها دوستويفسكي نماذج شخصياته.

ISBN 978-9938-886-53-5

9 789938 886535

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - القاهرة - تونس